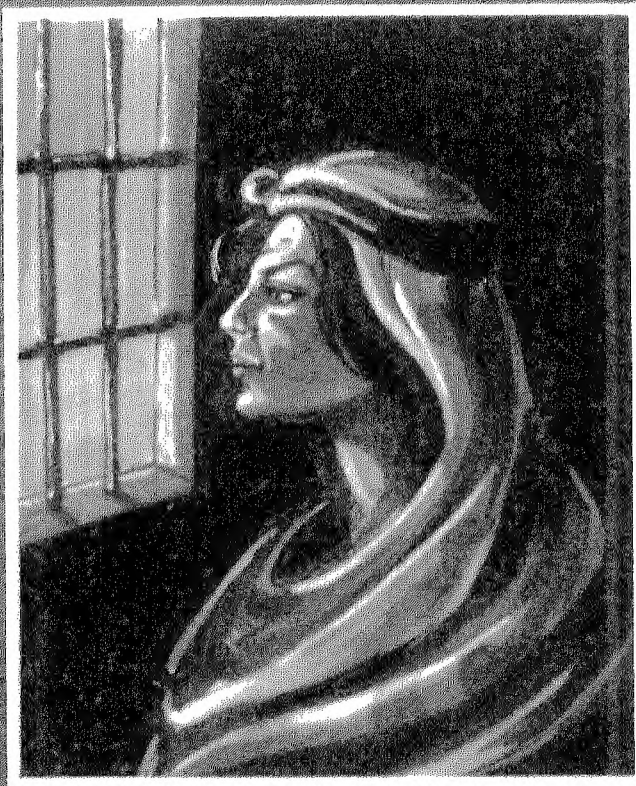


أبناء الجن

مذكرات عن الأكراد ووطنهم



تأليف
الكاتبة مارغريت كان

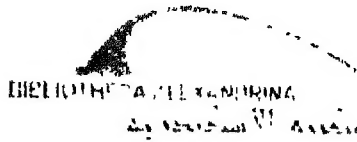
ترجمة
سنورا شيخ بكدر

أبناء الجن

حقوق الطبع محفوظة
لِلناشر
الغلاف، سَعِيدُ الحَسِينِي
الخطوط، دَلِيلُ
مَطْبَعَةُ الخلود ٢٢٤٢٧١
دمشق

GIFTS OF 2001

FRIENDS OF BIBLIOTHECA
ALEXANDRINA ASSOCIATION
IN NORWAY



أبناء الجن

مذكرات عن الاكراد ووطنهم

تأليف

الدكتورة مارغريت كان

ترجمة

نورا شَيْخ بَكْر

التدقيق اللغوي

الاستاذ دحام عبد الفتاح

إهداء

- إلى أحمد من أجل كل شيء
- إلى أمير لنجنا، الأخوي الجارف
- إلى أبناء الجن

أهدي هذه المساهمة المتواضعة
نورا

استهلال

ان كردستان التي تمتد ضمن حدود ايران، العراق، تركيا والاتحاد السوفياتي، تشكل أمة بدون لغة رسمية وبدون حدود أو علم، ولكن كردستان قد وجدت منذ قرون كوطن روحي وجغرافي للملايين.

يشكل الشعب الكردي قومية عرقية، حيث بقيت لغته المتميزة وثقافته حية على الرغم من الاضطهاد الوحشي الذي كانت تمارسه الدول المعتدية. وعلى نحو مغاير عن شعوب أخرى في الشرق الاوسط، الاكراد هم مسلمون سنيون مخلصون، ترتدى نسبا وهم الالبسة ذات الالوان البراقة ويظهرون سافرات الوجوه. انهم مدافعون جبارون عن الاستقلال الكردي، وهم مضيفون يحسنون الضيافة وجيران لطفاء.

عندما سافرت مارغريت كان الى كردستان سنة ١٩٧٤ لدراسة اللغة الكردية، اتخذت هي وزوجها من تعليم الانكليزية عملا لهما في ريزاي. وهي مدينة تقع في الشمال الغربي من البلاد. وبما ان الكردية كانت محرمة قانونيا في ايران، فان مهمة م. كان تحولت الى متاهة محيطة من المبادرات المزيفة والصمت النمرينك عندما حاولت أن تقيم علاقة مع الاكراد. وببطء وهي تحطم حواجز اللغة والعادات والسياسة، اكتشفت م. ك كردستان وشعبها المتمسك بقوة بتراثه وكذلك يحلمه الحي أبدا في الاستقلال.

وخلافا للنساء التركيات والفارسيات في مدينة ريزاي رحبت نساء كردستان بحماس بالمواءمة. ان البستهن ذات الالوان القوس قزحية الصاخبة بالمقارنة مع العبايات السود الخشنة لنساء مسلمات أخريات وطبعهن العملي يتناقض مع تكلف النساء الايرانيات المتمدنيات.

ان م . كان ، وهي واحدة من النساء الغربيات القليلات اللواتي كتبن عن الاكراد ، تزودنا بنظرة رائعة عن دور النساء كعضوات في مجالس الحريم وكممونات بالغذاء في قرى ذات أصالة . ترسم مارغريت كان لوحة حية للاكراد من أصولهم التاريخية ، حتى الصراعات المعاصرة الموروثة في العلم التطبيقي ونزعسات مساواة تحرر المرأة ، والحياة المدنية .

والكتاب المعنون بأبناء ألجن الذي أتى في زمانه ومكانه المناسبين يوضح كيف يعيش شعب مضطهد ، لا يقهر في احدى أكثر المناطق المتفجرة في العالم .

منحت مارغريت كان شهادة دكتوراه سنة ١٩٧٦ ، بعد أن كتبت اطروحتها عن اللغة الكردية . علمت الانكليزية واللغويات في جامعات عدة في الولايات المتحدة وكذلك في ايران ومصر ، وهي مؤلفة " مدخل عن الاكراد " في موسوعة هافسرد للمجموعات العرقية الامريكية . وتقطن السيدة م . كان في كاليفورنيا مع زوجها وابنها .

مقدمة المؤلف

منذ قرون خلت ، ألقى النبي سليمان خمسمائة . من
الارواح السحرية التي تدعى الجن خارج مملكته ونفاهم الى جبال
زاغروس . انطلق هؤلاء الجن في البداية الى اوربا لاختيار خمسمائة
من العذراوات الجميلات كعرائس لهم ، ومن ثم ذهبوا للاستقرار فيما
عرف بعد ذلك بكردستان .

هذه مقط واحدة من الاساطير التي نحاول تفسير كيف أن
أناسا ذوي بشره ناعمه ، وشعر أشقر معروفون بعلاقاتهم الوحشية
غير المحتمله ، وبعد اوانهم قد أتوا ليعيشوا في الجبال الواقعة
على نحو منفرج على الحدود التي تفصل بين ايران ، العراق ، تركيا
والاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر . لغتهم شبيهة بالفارسية ومن
بعيد تمت صلة الى الانكليزية وكذلك بالنسبة لاجلبية الالسن
الاوربية . ان الاكراد ولكونهم منغلقي في جبالهم لم يتزاوجوا
من العرب والاتراك كما فعلوا مع الفرس . ربما لهذا السبب يدو
بعض الاكراد كالأيرلنديين أوحى كالسويديين أوربا تكسون
مورثات تلك العذراوات الاوربيات التي أحضرها الجن قديما .

مضيت في بحثي عن الاكراد - لأنهم بالنسبة لي - يمثلون
مغامرة بعيدة عن الوطن وقضية عادلة أو من بها . كانت لـدي
تذكره طائفة وعمل ينتظرنني في ايران . ولكن كردستان وليس
ايران كانت غايتي . لا توجد خرائط عدا تلك التي رسمها الاكراد و
اصدقاؤهم تدرس كردستان ، وطن الاكراد ، لا توجد اشارات تدل
على الطريق ، لا مكتب للسياح ، ولا مرشد ون سياحيون . هناك البوليس
السري الذي سيوجهك بسرعة وبقوة الى الاتجاه المعاكس لكن كردستان
هي مكان حقيقي ، لها حدودها ومدنها ولها لغتها ، فكردستان

هي كامارات سحرية في ضباب الجبال غير الكثيف لها طريقة فسي
الظهور والاختفاء ، فهي تكشف نفسها للغربية ومن ثم وبشكل محبب
تنفلق على نفسها في وجهها .

ان الكثير من الامريكيين والاييرانيين وجدوا صعوبة فسي
فهم سبب اتخاذي القرار لدراسة الكردية ، فليس فيها كسب مادي
ولا مجال لتعليم اللغة والأدب بها كما بالنسبة للفرنسية او العربية
وفي الحقيقة لا يوجد الكثير من الادب الكردي المدون . واللغة الكردية
بالنسبة للكثيرين من الايرانيين والترك والعرب ليست لغة حقيقية
فهم يعتبرونها مجرد لهجة ريفيه خرقاء يتداولها الأميون وأنها
غير جديرة باهتمام دراسة تعتبر نفسها باحثة حقيقية .

أما الاكراد أنفسهم فلم تكن لديهم صعوبة في فهم
اختياري لثقافتهم . فبالنسبة لأناس يقاتلون من أجل حياتهم ، وللسيادة
على أرضهم ، تعتبر لغتهم الام شيئاً عزيزاً جداً عليهم . ليس
كل الاكراد شقرا وذوي ملامح اوربية ، فبعضهم يشبه العرب ، وليس
كل الاكراد يرتدون سراويلهم التقليدية الفضفاضة أو الالبسة
المتعددة الالوان ، فبعضهم يعمل في المدينة وآخرون يحضرون
الجامعات باللبسة الغربية الطراز . ولكن الى حد الان فكل الاكراد
تقريباً المتعلمون وغير المتعلمين ، الشقر او السم ، القاطنون في
تركيا ، ايران ، العراق ، أو الاتحاد السوفياتي جميعهم يتحدثون
الكردية . وفقط في بضعة من العقود الأخيرة المعاصرة ، نجحت
الحكومات الثلاث في الانتفاص من هذه العلامة الأخيرة والاكثر أهمية
بالنسبة للهوية الكردية .

ان طريقة اللباس والحلي والحرف اليدويه ستمح أسلوباً
متبعاً في ايران بالطريقة نفسها التي سادت فيها الثقافة الامريكية
الهندية في أمريكا في الوقت الذي لن يعد يشكل فيه الشعب القبلي
تهديداً للثقافة المهيمنة . وكلما حدث هذا بعجلة أكبر شعور
الايرانيون بارتياح أكبر نحو هؤلاء الذين يريدون دراسة

الكردية . لكنني لم ارد أن انتظر حتى ذلك الوقت ، وأملني هو
أن ذلك الوقت لن يأتي ولا بشكل من الاشكال .

كان الاكراد قد استقروا في جبالهم لوقت طويل قبل أن
يتربع شاه الفرس على عرشه الطاوسي أو أن يبني أعمدة
(أوزيماندياس) في (برسيبوليس) . وقبل ولادة النبي محمد (ص)
بوقت طويل اعتنق الاكراد العقيدة الزرادشتية مميزين كلا من الله
الشر واليه الخير ، بانين لهما معابد النار ، ومقيمين طقوس النوروز
" اليوم الجديد " في يوم الاعتدال الربيعي .

عندما قدم العرب أذعن أغلبية الأكراد مثل أغلبية شعوب
الشرق الأوسط للإسلام . وقد أعطى الأكراد للإسلام واحدا من أعظم
المدافعين عنه - صلاح الدين الأيوبي - حيث قاتل ريتشارد قلب
الاسد والمليبين لاستعادة القدس " اورشليم " سنة ١١٨٧ . وقد كان
صلاح الدين مخلصا للزمن الذي عاش فيه ، فقد قاتل المليبين دفاعا
عن الاسلام وليس من الأكراد ضد العرب .

تبدلت الازمان ثانية ، وفي سياق الامبراطوريات الاسلاميه
العظمى بحث الاكراد عن هويتهم الخاصة . كان صلاح الدين منهم ولكنهم
أعطاهم القليل . وفي ظل تلك الظروف أرادوا الخلاص من ضرائب
العثمانيين المرهقة ، وأرادوا التعرف على ثقافتهم ولغتهم قبل
أن يظهروا من قبل العربية الكلية الوجود . ولكن المثاليين فقط
مثل الشاعر الكردي العظيم أحمد خاني ، طالبوا بمثل هذه الامور في
تلك الايام المبكرة .

ان أغلبية القواد الأكراد كانوا يتبعون في جبالهم ،
ومثل الاسياد الاسكتلنديين يقاتلون أعداءهم من الأكراد ، ناسين
كلية قضية وحدة الأكراد .

والآن لقد اعيق الاكراد - مثل أسلافهم الجان - ليس في
القمقم ، بل في جبالهم . لقد حرموا من الكثير من مكاسب القرن

العشرين باقين رعاة فقراء ومزارعين پرعون ويعملون في أرض معبه بأساليب وادوات أجدادهم . ولم ترأية حكومة أنه من المناسب أن تحن أراضيهم هذه ومثلما كان حال سليمان مع جانه ، تخاف هذه الحكومات من الاكراد ، تخاف مما قد يفعلونه مع حصه وافرة من نتاجات البترول التي تكمن تحت أرض كردستان ، تخاف مما قد يطالبون به لو عرفوا كيفية القراءة والكتابة وكانت لهم الحرية في التكلم بلغتهم الأم واصرارهم على حقهم في أن ينفوا أكراد . والأكراد منذ القدم يشغلون بعضا من أقسى وأصعب الاراضي في المنطقة ، ولكن العراقيين قد نجحوا في ابعادهم خطوة اخرى الى الصحراوات الحارقة في الجنوب . أما ايران وتركيا فقد اعتمدتا على أساليب نفسيه للسيطرة على الاكراد ، وهم معرضون ضمن حدود هذين البلدين لخطر دائم للابعاد ، ليس الى الجبال هذه المرة ، بل ليكونوا غير أكراداً ولخطر تجريدهم من لغتهم وحتى من لسانهم الخاص .

كان الأكراد في العقود الثلاثة الاخيرة ، قد أغروا ووعدوا ونكثت الوعود من قبل الانكليز والروس والامريكان . لقد سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا بيادق في لعبة الشطرنج الشرق أوسطية العظمى آملين في الحصول على الحكم الذاتي لأنفسهم كأكراد . فكل قوة عظمى كانت تعدهم بالحرية عندما تتفرغ من مشاغلها وفي كل مرة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يقاتلون بشجاعة وشرف فقد كانوا يخذلون في قتالهم . وما من دولة - وبغض النظر عما وعدت الأكراد به لحظية قرارها استخدامهم لمصلحتها - سمحت لهم بأن يقاتلوا من أجل أنفسهم ومن أجل حلمهم القومي . وفي الوقت الحالي ، وفي الربع الاخير من القرن العشرين ، وبوفاق الامريكان والسوفييت مع الانظمة في طهران وبغداد ، وأنقره هناك القليل من الاهتمام بالاكرد وبمطالبهم .

ان النضال من أجل حق تقرير المصير الكردي ظل متنقلا مسن تركيا في بداية القرن العشرين الى العراق سنة ١٩٣٠ و ١٩٤٠ ، والسوى ايران سنة ١٩٤٦ وثانية الى العراق سنة ١٩٧٥ ويعود ثانية الآن وأخيرا الى ايران .

ان الأكراد المقيمين في هذه الدول الثلاث وكذلك المقيمين في سوريا والاتحاد السوفيتي يزيد عددهم عن سكان الدانمـارك، والنرويج والسويد مجتمعين . ومع ذلك ولأسباب تاريخيه ولانفساماتهم القبلية لم يحفظ الأكراد حقهم أبدا . وفي كل مرة يظهر فيها انه لم يعد لهم أمل فان الأكراد يشورون المرة تلو الاخرى . وكل حكومة من الحكومات المعنيه تقبض على الأكراد فبصة مميته وعندما تضعف تلك القبضه ولو قليلا فان الأكراد يسعدون للقتال . وكما يقول الأكراد " كردستان بيان نمان " كردستان أو الموت .

وما يتبع في كتابي هذا هو سرد لعصفه بحثي عن كردستان ايران السبعينات ، ايران الشاه وبوليسه السريح . عندما عدت مني زيارة اخرى سنة ١٩٧٨ ، كانت كردستان واضحه اكثر ، الى حد ما ، لاني عرفت أين ابحث عنها وكذلك لان قوة الشاه كانت قد ضعفت والان وقد أطيح بالشاه ، لا أحد يعرف بالصيط ماذا سيحدث في ايران خاصة في تلك الزاوية العاصفه في الشمال الغربي ، حيث تقـع كردستان . ومرة أخرى وكما في أوقات كثيرة خلت ، يفاتل الأكراد من أجل الاعتراف بهم ومن أجل حياتهم .

الجزء الاول خارج كردستان

الفصل الاول

ان لباس المرأة في ايران وخاصة لباسها الخارجي هو صومعتها ، هو مأواها ، انه تركيبه تخبر العالم أن المرأة في خارج بيتها ليست آمنة ، وأن أمنها الفعلي هو في بيتها الذي تنتمي اليه . والكلمة المرادفة للعباءة هي " الشادر " وحرفيا تعني الخيمة . والفرق بين أن تكون المرأة بعباءة أو بدونها يكمن أن تعني الفرق بين أن يتحرش بها الرجال أو أن تهمل من قبلهم في الشارع . ان المرأة المغطاة بحجابها والمتحرش بها بطريقة ما ، لها الحق في أن تثور لأنها قد افترضت مظهر الفضيلة بلباسها والمظاهر في ايران هي أهم بكثير مما يكمن في الداخل وفي جوهر الأشياء .

عندما وصلت الى ايران لأول مرة أحاطت بي مجموعة من السيدات من ذوات الخيم السود وهن يتهايمن ويحدقن في ، متلهفات لفرسه ليتفحصن فيها امرأة أجنبية عارية تقريبا . وكرد على تصرفهن هذا ، أمنت التحديق فيهن أنا أيضا ؛ واندھشت لروءية الكميات الهائلة من مستحضرات التجميل على وجوههن المكشوفة وملامح من أجسادهن من خلال محاولتهن المطردة والضرورية للاحتفاظ بالخيام المنزلة حول جسد كل واحدة منهن . وعلى الرغم من أن النساء الايرانيات قد بدأن بالتححرر من عبائتهن شيئا فشيئا ، ويذهبن الى العمل والمدرسة ويمشين ولو بمحوبة في الشارع سافرات الوجوه ، فان العباءة تشكل الغطاء التقليدي للمرأة الفارسية منذ قرون عدة . وبعيدا عن طهران لبهجة كيلومترات فقط الى الشمال الغربي ، وجدت مجموعة كبيرة من النساء لم يرتدين العبايات ، نساء لا تزال تعني لهن كلمة العباءة خيمة فقط ، وهي قطعة ثقيلة من الصوف المنزلي

الصنع التي تحتم عليهن تحمل مشقة حملها عند سفوح الجبال عندما تتحرك القبيلة صوب الربوع المصيفيه . ومن السخرية أن هؤلاء النساء يرتدين ملابس أكثر احتشاما بكثير مما ترتديه العديد من النساء الفارسيات العصريات تحت عباءتهن . ان لباس المرأة الكرديســـــــــــــــــة وبمقاييس غربية هو أشبه مايكون بالحصن ، حيث يتألف من طبقة فوق أخرى مع سراويل ثقيلة وقميص داخلي ، وعدة أثواب ، وسسترات ثقيلة ومداره ووشاح أو وشاحين حتى في أيام الصيف الحارة .

ايران تشعرنني دائما بأني مكشوفة . ففي زيارتي الثانية وأنا جالس في احدى محطات خطوط الحافلات في طهران كان العـــــــــرق يسيل مني وأنا أرتدي سترة ذات أكمام طويلة وقبعه ضيقة مرتفعة تحت ثوب قطني ثقيل . ووشاحا كبيرا قد ستر كل شعري ومع كل هذا فقد كان الناس لايزالون يشددون النظر الي .

من السهل ، في الولايات المتحدة ، أن تسخر من مجرد فكرة الغطاء ، وأن تقول : أنه لباس للنساء المكروهات من قبل أزواجهن أو آبائهن بصورة رسمية لشعور هؤلاء بالعيب . ولكن بما أنك في ايران تتجشم عناء التحديق بك ، فانك تتشوق الى غطاء او الســـــــــي أي شيء يجنبك نظرات الآخرين والى التحديق بحصانة ، لأن يحدق فيـــــــــك الآخرون .

بينما كنت أنا وزوجي جيري جالسين ننتظر الحافلة لتعلن عن الرحيل ، رأينا رجلا كرديا يمشي باتجاه المنفذه داخل حجرة الانتظار . ولو انه كان ايرانيا . أو تركيا ، أو أرمنيــــــــــــــــا ، أو آشوريا ، أو يهوديا أو عربيا لربما لم يكن بإمكاننا أن نخمن زيه الموروث ، على الأقل ليس قبل أن يفتح فمه ويتكلم بلغه متميزة ولكن الأكراد هم على الاغلب ، مميزون دائما في ايران . والحال هو كذلك مع الأمريكان ، على الرغم من حقيقة ان ايران هي أمم من الأعراق وذات هياكل جسمية مختلفة تتدرج بين عرب ذوي بشرة سمراء الى أكراد ذوي شعر أحمر وأغلب الايرانيين حذقون في تمــــــــيـــــــــــــــــيز الغربيين .

أما الأكراد فلهم حكاية أخرى ، انهم أمة من بضع مجموعات قومية باقية ترتدي لباسها التقليدي . وبلغة قريبة من الفارسية يقدر الاكراد على الاندماج أكثر من الاتراك الذين يسخر منهم بسبب نبرتهم الفارسية ولكن الكثيرين من الاتراك لا يهتمون على وجه خاص بالاندماج .

حدثت أنا وجيرد باعجاب صامت في ذلك الرجل الكردي عندما خطا بعيدا عن المنفذة بارزا في سرواله الازرق الصوفي الفضفاض وسترة متناسقة مع السروال ، وعمامة ملفوفة حول قلنسوة مطرزة ضيقة .

شعرنا بقليل من خيبة الامل عندما معدنا الحافة ، لعدم وجود أترك فيها . وفي ليلة طويلة متعبة قضيناها وعيون المسافرين متوجهة الى خارج النوافذ ، لم يشغلني شيئا عن الانسياق في تداعياتي فقد حلمت طوال سنتين بالعودة الى كردستان . ومع ذلك فقد ترددت عندما حان الوقت لذلك ، ووجدت نفسي مرتاحة في الشرق الاوسط . ماذا من محاولات الاخلال بالامن ، التي كانت تحدث في كل انحاء البلاد ، ومنذ الشتاء الاخير ؟ ماذا عن الحقد الذي يحمله الكثيرون من الايرانيين للحضور الامريكي في بلدهم ؟ ، ومع كل العنف الايراني المستمر لم أحتج الى أن أمعن النظر في أسباب شخصية أخرى تتعلق بمسألة تخوفي . وحالما بدأت الحافلة بالسير متسلقة الهضبة ، بدأت الذكريات القديمة والشكوك تزحف الى ذهني .

منذ أربع سنوات خلت ، وبعد مرور قرابة ستة أشهر على زواجي أقنعت زوجي على كره منه بالمجيء الى مدينة صغيرة تدعى ريزاي قريبة من الحدود حيث تلتقي ايران بكل من العراق وتركيا . يقطن خمسة عشر مليوناً في تلك الجبال الحدودية والمناطق المحيطة بها جميعهم يتحدثون بلهجة أو بأخرى من اللغة الكردية . كنت قد ذهبت خصيصاً لدراسة لغتهم ولكنني اخبرت الحكومة الإيرانية أنني قد أتيت لتعليم اللغة الانكليزية في كلية محلية . لم يشجع الاجانب أبداً على أن يقضوا وقتاً مع أقليات متفجرة مثل الاكراد ، وفي فترة اقامتي كانت قد اندلعت حرب أخرى ضمن السلسلة الطويلة من الحروب على الحدود العراقية مباشرة . كان من الممكن دراسة لغة يمكن

بلوغها بسهولة أكثر مثل الاسبانية أو العربية أو حتى الصينية ، لغات لا تتطلب ذرائع للاتصال بالناس الذين يتداولونها ، لغات تستخدمها حكومات رسمية ، مفضلة إياها على تلك التي يستخدمها الهاربون ليلا في اجتماعاتهم الثورية .

نظرت خارج نافذة الحافلة والظلام ينسدل فوق المناظر الطبيعية حيث تهب فيه الرياح الناشطة ، والعشب الاخضر يتموج بين الفينسيبنة والاخرى الى جانب شجيرات أحنتها الريح ، عروق ناشئة في الصخور . ما الذي أعادني الى هذه الأرض القاسية الغامضة ؟ ، هل " البيريز والديفر " التي يقابلها عندنا الجنيات والشياطين هي التي نسجت لي تعويذه ، موازنة بذلك بين الخوف وروعة الاشياء وبين القهر والفرح ؟ ، عندما غادرت ايران منذ ثلاث سنوات خلت ، أفعم رأسي خلال سنة واحدة بعدها بالذكريات التي تبعد على النشوة والحيوية ، سنة لاتزال حتي الآن تقاوم بعناد كي لاتؤسر في سطور ورقة ما أوحى في محادثة لطيفة . هل أحببت ايران ؟ ، كان هذا سوفا معقولا تماما وقد أصبح متوقعا من شفاء العائلة والاصدقاء والمعارف الإيرانيين القاطنين في الولايات المتحدة بعد عودتنا . ولم يتوقع أحد أكثر من جواب لطيف وهو أحبناها كثيرا أو كانت صعبة قليلا . وقد فوجئ أغلب الناس بمعاناتنا الفكرية عندما كنا نحاول أن نعبر عن شعورنا . لقد كان مشهد الذكريات المتغير والمختلف الالوان - البصرية والعاطفية حيويا جدا تقريبا . كنت أتلف للحدث في تجربة عيشي في ايران ضمن مفاهيم عامة متدفقة لأكون مفهوما من هذه التجربة غير المريحة ، لأقرر مرة ولتكن الأخيرة : هل أحببت ايران أم كرهتها ؟ .

أشار كثير من الناس الى أن الجو النفسي السائد في ايران هو جو من جنون الاضطهاد والارتباب والعظمة . ومن المحتمل أن يفترض كل شخص تعرفه في وقت ما أو آخر انك انت أو أحد معارفك من الذين بدأت تثق بهم هم من عناصر البوليس السري . انه شيء مثير للاعصاب أن تشعر أن الناس - من الممكن - أنهم يهزؤون بك ، فهم يدمونك الى منازلهم ويخبرونك أنهم مهتمون بك جدا لمجرد أنه واجب اجتماعي والمفروض عليهم أن يودوه ، وهم ربما يحتقرونك في داخلهم في الوقت نفسه .

من بين مجموع الناس الذين التقيت بهم تلك السنة في إيران تكونت لدي ثقة بالأكرد . وهم الوحيدون الذين بدا لي أنهم يثقون بي . ومع ذلك فإن غياب ثلاث سنين زرع شكتي تلك ، على الرغم من أنني لم أكتب رسالة واحدة إلا وتلقيت عليها جوابا . والآن وقد تطبعت بسلوك الإيرانيين فيما يتعلق بالثقة في معناها الظاهري ، تساءلت في نفسي لماذا وثقوا بي على الرغم من كل شيء . لقد ذهبت الى هناك والثورة الكردية في أوجها ، حرب كان من المفترض أن يخوضها الأكرد العراقيون فقط ، ولكنها جعلت الأمل يضطرم من جديد في نفوس الأكرد في كل مكان .

لدى عودتي الى إيران تأكدت من شيء كنت قد شككت فيه من قبل وهو تورط أمريكا الممقوت ، والواسع الانتشار في تلك الحرب . فقد تأكد لي بعد ذلك أكثر من أولئك الذين بدأ أنهم كانوا يهركونه .

عندما غادرت إيران في المرة الأولى ، بعد مرور خمسة أشهر على انهيار الثورة الكردية في العراق كان الأكرد الإيرانيين لا يزالون يلقون باللائمة على الشاه لخيائته اخوانهم العراقيين وقد بدا عدد قليل من الأكرد العراقيين وامين لدور المخابرات المركزية الأمريكية الذي لعبته في خيانة مصالح الأكرد . ماذا لو حزم أصدقاؤني - ولو على نحو متأخر وبعد كل شيء - أنني كنت جاسوسة ؟ ، بأي ضرب من الترحيب كانوا سيستقبلونني عندما أعود ؟

عندما كنت في كردستان كنت أشعر مع الرجال الأكرد براحلة أكثر مما لو كنت مع رجال آخرين من أي فئة أخرى في المنطقة . ومع ذلك فقد كانت تحدث صدامات مخيفة مع الرجال الأكرد في القرى الجبلية النائية والمدن التركية الحدودية المخبرة الواقعة بين الغرباء . كان جبرد معي هذه المرة كما كان في معظم رحلاتي . ان وجود الأسلحة في قرية كردية ، سيجعل ابتغاء النجاح لزواج أمريكي متعب في مهمته أمرا ملحا . حدثت خارج النافذة مرة أخرى للاطمئنان فقط ، مرأبت ومضات من النور تلوح من بعيد . ففي إيران القليلة السكان تكون الأصقاع الواقعة بين المدن ، خالية على الأغلب وقد كانت الجبال لقرون عديدة ، مأوى لقطاع الطرق وحتى الوقت الحاضر ، في العقود الأخيرة من القرن العشرين

أتساءل ممسن يمكن أن يختبئ هناك ، منتظرا حافلتنا لتمرره .
 في داخل الحافلة ، راقبت امرأة جالسة في المقعد الأمامي
 وهي تلف رأسها ، والجزء العلوي من جسدها بعباءتها استعدادا للنوم .
 ومرة ثانية شعرت أنني مكشوفة وبدون مأوى . والقرى التي كنا ننسوي
 البقاء فيها ليست بعيدة عن المدينة الا ببضعة كيلومترات ، ولكن
 هذه الكيلومترات غالبا ما تكون متعرجة حيث تلتف عبر الجبال فوق
 طرق ترابية . وليس في القرى طاقة كهربائية ولاهواتف . فليس
 بمقدورك أن تخطو الى حجرة ما وتتصل بالشرطة اذا أصبت بسوء . أعرف
 أنني كنت أترك مخيلتي تسرح حالا ولكن الشياطين كانت تتملكني .

- أنا خائفة .

استطعت أخيرا أن أهمس بذلك عاليا لجيرد .
 - افترض أنهم لا يريدون رؤيتنا مرة أخرى . افترض أنهم يظنوننا مع
 المخابرات الأمريكية .

أجاب جيرد موغدا :

- أنا لست متأكدا من أنهم لن يريدوا ذلك ، ولكنني أثق بحاج اسماعيل
 فهو صديقنا .

كان الحاج اسماعيل يجيب على رسائلي لمدة سنتين بخطه الرديء
 وبكتابة فارسية تعلمها بنفسه . لم يتح الرجال الاقطاعيون الوقت
 الكافي للالتحاق بالتعليم الرسمي في حياتهم المحمومة في الأيام الخوالي .
 وقد كنت أبذل جهدا أحيانا في فك رموز رسائلهم المكتوبة بالكردية
 على الرغم من خبرتي الواسعة بالمراسلة ، لأنه لم يكن أحد منهم قد
 تلقى تعليما في أصول كتابة لغتهم الخاصة وفي مناطق عديدة يخطونها
 الأكراد تعتبر الكتابة عملا خارجا على القانون . ولكن الحاج اسماعيل
 كان يكتب على أية حال ، ويرسل تحيات مجموعة من نساء لايجسدن
 الكتابة . لقد قضوا حياتهم في القرى بعيدين عن أية مركز بريد ، ولكن
 للمسافة لم تكن هي المشكلة فاعلبيهم كانوا أميين .

عندما فكرت بالنساء ، وتذكرت أسماهن مثل : مريم ذات الشعر
 الأحمر والعينين الزرقاوين وخديجة ذات العينين البنيتين والأنف الطويل

ونسرين بذقنها " المود بجلياني " وشعرها الأسود الفاحم ، شمسعت
 بالطمأنينة تعود الي . حاولت أن أتخيل ماكن يفعلنه خلال فترة الثلاث
 سنوات التي كنت فيها بعيدة عن ايران . فقد كنت ادون ملاحظات
 المتعلقة باللغة الكردية ، وقد حصلت على درجة علمية ، ودرست وسافرت
 كثيرا خلال هذه السنوات الثلاث . أما هن فقد كان من المحتمل أنهن
 بائنين في القرية باستثناء بعض الرحلات القصيرة مصحبات معهن مرافقات
 الى المدينه حسب هوى الحاج . ربما كان علي أن أذهب بعيدا وأمسود
 لأدرك كيف أن هؤلاء النساء لم يذهبن الى مكان آخر لآلال فترة الثلاث
 سنوات من بعدي ولا في غيرها ، لربما خرجن من القرية في أوقات الحرب
 والهجرة ، أو بسبب الزواج من أكراد من مناطق أخرى ، هذا بالنسبة للنساء
 غير المحظوظات منهن . وخلال الشتاء حيث تجعل حرافات الثلج والمواقف
 النفطية الحياة تعبس ، كانت مريم وخديجة ونسرين يستيقظن كل يوم
 ويودين أعمالهن . وخلال الربيع كن يتمشين بين القطعان وبجوار الجدا
 والخراف ذات القوائم الفهيفة . كانت نسرين وخديجة تعملان في كل فصل
 من فصول السنة في ذلك المطبخ المعتم المعتلى بالدخان في خلفية المنزل
 ونحن الآن في فصل الصيف ، فصل الحصاد ، وجني المشمش والخيار من البساتين
 والحقول . وسيجل فصل الخريف حالا ، وستهطل الأمطار ثانية . وعلى الرغم
 من صدام الرأس وآلام الأسنان والحيش وفشيان الصباح الذي كان يصيبهن
 أثناء حملهن فقد كانت هؤلاء النساء ، يشاركن في تموين أهاليهن .
 ان تحملهن وشباتهن هذا جعلني أطمئن في غمار بحثي الفجري لتحقيق
 الذات . ماكان عليهن أن يتبعن مايرغبن به ، فقد كان السبيل قد
 مهد أمامهن منذ قرون خلت .

قررت البقاء في جناح الحريم وارتداء ملابسهن . ولدى خروجي
 في نزهات الى السهل ومنه الى الجبال سيظن بي على أنني امرأة كردية .
 لقد كان من المعن تمييزي بشعري البني وبشرتي الشقراء عن الكرديات
 وبقدر اقتحامي وادبا من جنون الاضطهاد والارتياب والعظمة ، وجدت
 نفسي أحلق ثانية في مخيلتي الى جمالية كوني سيدة كردية .

انقطعت تأملاتي عند هبوط الليل ، وفي الساعة الحادية عشرة
 لدى توقف الحافلة في الاستراحة الأولى ، واندفعنا الى حجرة مزخرفة

مضادة وممتلئة بمسافرين متعبين، يلتهمون من أمامهم كميات كبيرة من الأرز المسمن . لقد كانت معدتي مضطربة بسبب حركة الحافلة والشيء الوحيد الذي أحسست به هو أنني استطعت الجلوس للثقل من وقت لآخر شيئا من طبق " الشالي كباب " الأرز المطبوخ مع اللحم الذي أمر جيرد بإحضاره أما شهية جيرد فقد كانت في حالة سوية .

بعدد قفلنا راجعين ووقفنا خارج الحافلة نتحدث مع مسافرين آخرين . كانت واحدة منهم امرأة عجوزا ، قالت انها عملت في السفارة الأمريكية في طهران ولكنها لم تكن تعرف التحدث بالانكليزية قط. حتى أن لغتها الفارسية كانت ذات نبرة ثقيلة بسبب من لغتها التركية الآزرية الأم. لمحّ الينا زوج المرأة ذات الحجاب الجالسة في المقعد الأمامي أن ريزاي ليست بالمكان المناسب لنا لنقوم بزيارته ونصحنا قائلا: على الأجانب أن يبقوا في طهران. أدركت أنه كان يريد التودد الينا وأخبرنا أنه قد درس في فلوريدا ويهتمنى الذهاب الى كاليفورنيا حالا لاتمام دراسته. حالما معدنا الحافلة تساءلت بصمت فيما اذا كانت زوجته معتادة على ارتداء الحجاب ، أم أنها قد ارتدته خفيصا لهذه الرحلة . لمدينة ريزاي المعتلفة .

اندفعت بنا الحافلة بعناد على طول الطريق العام وقد أعيق تقدمها فقط بالتفتيش الدوري في كل ساعة من قبل شرطة الطريق العام فقد كانوا ينظرون الى السرعة المرسومة ببيانها على ورقة الأسطوانة الموضوعة خلف مقباس السرعة للتأكد من أن السائق لم يتجاوز حدود السوعة المناسبة. وقد ابتقتني المواقف المستمرة يقطعة. ولكني سلمت بصحة انخفاض عدد الحوادث منذ أن فرضت دورية الطريق العام النظام المارم .

بعد برهة بدأنا نتقدم على طول الشاطئ الشمالي الغربي من بحيرة ريزاي الشبيهة بشكل معين ، وهي بحيرة ضخمة ممتدة مالمحة تقع شرق سلسلة جبال زاغروس الواقعة الى الشمال الغربي من ايران .

فتحت مينى عند انبلاج الفجر وحدقت عبر البقاع المملحة حتى البحيرة الضاربة في الزرقة . ولكن بحيرة ريزاي أصبحت ملجئي المفضل منذ بدأت بالتجديف لساعات على سطحها أمس الخيار في الماء المالح وأقضمه على مهل بصوت مسموع .

بدأنا بالتدريج نرى علامات تذلل على أن المنطقة مأهولة ، مثل بعض القرى التي يمكن لها أن تصبح يوما ما ضواحي ريزاي الحقيقية . ولدى تقدمنا صوب المدينة نفسها لاحظنا خضرة في أنجاء عديدة وهي دلالات أكيدة على وجود كائنات بشرية في هذا السهل المقفر . عبرنا مصنع سكر الشمندر ومن ثم الطريق الجانبية الموءدية الى المطر . وأخيرا وجدنا أنفسنا في الساحة الدائرية مع تمثال والد الشاه ، رضا ، الذي أعيد تسمية المدينة بريزاي نسبة لاسمه .

دمدمت الحافلة هابطة بنا الى شارع عريض ، وعندما شعرت بدنو الجبال ذهبت عني شياطين وجنيات الليلة الفائتة ، وعند الفجر شعرنا فقط بقليل من الغربة المنهكة . كانت ريزاي صغيرة جدا ، وقد استوفتنا هذه المفاجأة كلينا . عندما كنا نقيم هناك كانت بالنسبة لنا عالما كله ، عالما من الألوان الخضراء والرمادية والبنية التي جانب زرقة البحيرة . تقع المدينة على بعد ساعة واحدة من طهران . وهي مكان لم يشجع الاجانب ، أو الايرانيين المدنيين على الذهاب اليها بسبب صغرها ، على الرغم من كونها المدينة الكبرى في منطقة أذربيجان الغربية .

عندما أحسست بأن أيقاهاات جسدي مرتبطة للأبد بأهتزازات الحافلة ، عند ذلك فقط شارفت الرحلة على الانتهاء . كان أحد سائقي سيارات الأجرة قد استيقظ مبكرا ليلتقي بالحافلة وقد بدا مهتجنا على طريقته التركية الخشنه عند لقائه فجأة بأجانبين . كنت أخشى ألا أجد أحدا في منزل الحاج اسماعيل ، وقد انتظرت في السيارة مع السائق ، بينما ذهب جيرد ليدق الجرس . لم تكن واجهة المنزل بقرميده الأصفر وقضبانه الحديدية المطلية بالأزرق في كل نوافذ الطابق الأول قد تغيرت . ولكني لمحت زجاجا مكسرا وطبقة كثيفة من الغبار خلف القضبان ، فشعرت لوهلة بالخوف . كمأذا ترك الحاج اسماعيل بيته يبدو وكأنه مهجور ؟

بحيوية مذهشة وإفق سائق التاكسي على أن يمضي بنا عبر الجبال . فمن المألوف أن سائقي سيارات الأجرة يفضلون أن يتركوا

الطولغات الروسية الشبيهة بالدبابة أن تتدبر أمر سيرها عـــــــبر
الجبال .

في غضون هذه الفترة كانت الشمس قد أشرقت ولكن الشـــــــار ع
الطويل المشجّر كان خاليا من المارة عندما أسرعنا هابطين بروية
مارين بالكلية التي عملنا فيها حتى بلغنا نهاية الاسفلت . فسي
قرية باند حيث تنتشر المنازل فوق جبل يشرف على واد أخضر خصب .
ان باند هي قرية بالأصل ، ولكنها تتحول الى ملجأ لفئة السائقين
في ريزاي .

هبط السائق مبطا في سيرة عندما ارتطمت سيارته بطريق
حصوي منحدر . ها نحن الآن نتبع النبع الصافي الذي يتدفق مـــــــن
الجبال هابطا نحو سهل مرگا وار خلال ممر باند ، وعبر سهل آخر
متوجها الى البحيرة . وقد أدهشني اخضرار الجبال الى يسارنا وامتلاء
النبع الى يميننا . فقد كان هذا شهر تموز وقد مرت أشهر على موسم
الامطار . وفي شهر تموز في السنة التي مكثنا فيها في كردستان كان
الجفاف قد جعل السهل ظمعا وذا لون بني داكن .

ارتفعت الجبال فوق رؤوسنا مباشرة خارج سهل ميرگساوار
الداثري العريض . والى الاسفل من رقع الثلج كانت قرية دستان تقبــــح
مثل زمردة فوق رقعة خضراء ماثلة للصفرة من الخضرة الجافة . وقد
أخبرتنا الاهرامات العالية من القش ، المكومة على طول الطريق عند
مدخل القرية بأن الحصاد كانت تعمل قبل قليل من الزمن . ولدتجنب
الجدول المتعرج عبر دستان ، اتبع السائق توجيهاتنا الى المنــــزل
الحجري ذي الطابق الوحيد ، منزل مريم خانم زوجة الحاج اسماعيل
الشانبة . لم يبدا أحد في تلك النواحي و شعرت بالغربة لذلك ،
فبعد أن قطعت هذه المسافة الطويلة وما أحد يرحب بي أوحى يلاحظني .
ومع ذلك فان رغبتني في أن يلحظني أحد ماتعزى فقط الى شعوري النامي
بأنى لم أبتعد حقيقة كل هذه المسافة أبدا . لم يكن أي شيء غريبا
علي ، المدينة ، وادي باند ، النهر ، الجبال ، كلها كانت كما كنا
قد تركناها ولربما أكثر اخضرارا ولكنها من الممكن أن تكون كذلك

لأن شهر أيار لا يزال قاسماً والسهل لا يزال يتشرب من الثلج المذاب . من الممكن أن النوم كان قد أخذنا في هذه المدينة الصغيرة القابعة في حضن الجبال . أولربما أننا قد استيقظنا لتونا وتذكرنا أن لنا موعداً لمقابلة الحاج اسماعيل في دستان .

قبل ذهابي الى كردستان للمرة الاولى ، وحتى قبل أن اقصر الذهاب ، مضيت في ما يقارب نصف دزينة من الرحلات الفكرية الى هناك برفقة مجموعة تقريبا كلها من المفامرين البريطانيين في غزواتهم لكردستان الموحشة . حيث صورت وبجلاء ، المشقات البدنية التي عانى منها المؤلفون والخوف من قطاع الطرق في هذه الأصقاع . والشئ الأكثر امتاعاً لي كان اندهاش الرجال الغربيين لتمتع المرأة الكردية بحرية نسبية . فبعد مجالس الحريم والأغطية السوداء التي لقوها في المدن الفارسية والعربية لم يقفوا على الاقتناع بمنظر نساء كرديات بغير خمار يعشن ويعملن جنباً الى جنب مع رجالهن .

كان من الصعب عليّ تتبع الكتب وهي تصف الحملات العسكرية المملة أو تسهب في التفاصيل من جغرافية منطقة لم استطع تخيلها . ومع ذلك فقد نجحت في أشياء عدة . لقد كان الاكراد مثل الفرس زرادشتيين قبل أن يعتنقوا الاسلام في القرن السابع الميلادي .

واذا أخذنا بعين الاعتبار التربة الجبلية الفقيرة التي يثيز استغرابنا ترحل الاكراد وعلى نحو تقليدي من مكان لآخر ، يرعون قطعانهم وسواهم في المكان الذي يعثرون فيه على الكلاً . وقسدهم تبتليهم الشتاءات الجبلية القاسية في الاحواض الجبلية خلال فصل الثلج وعلى قمم الجبال عندما تصبح السهول حارة قاشطة في الصيف .

لم أقرأ هذه الاوصاف عن الرحلات الكردية بالترتيب الذي كتبت فيه بل كنت أقرأها ، كلما وجدت في الزوايا المغبرة في المكاتب الضخمة . عندما قرأت مجموعة الكتب والاسفار الكاملة عنهم ، لاحظت اختلافاً مذهلاً ، لافتاً للنظر بين كردستان ١٨٧٠ وكردستان ١٩٧٥ ، أسلوب الحياة لم يتغير عملياً ، واللباس والعادات كانت كما هي منذ قرون قبل أن يصفها الغربيون . أن جغرافية المنطقة هي التي قد

تغيرت ، فکردستان القرن التاسع عشر العظمى قد قسمت الى أجزاء
وأقسام من العائلات والقبائل التي وجدت نفسها في التخوم غيسر
المصلحة وكانت هذه دائمة الانقسامات .

على الرغم من أن أجزاء من كردستان قد حكمها في أوقات
مختلفة شيوخ قبائل وأمراء أكراد ، فإن كردستان لم تتوحد فعلياً
أبداً . أن الأكراد أنفسهم يرجعون سلسلة نسبهم الى الميديين تلك
السلالة الإيرانية الحاكمة الممعة في القدم والتي غزت نينوى في
٦١٢ ق.م ، ثم هم أنفسهم غزوا من قبل الفرس سنة ٥٥٠ ق.م ومنذ
ما يقارب ٦٠٠ ق.م فما فوق فإن المساحة التي تسمى بكردستان حالياً
كانت قد غزت بالتتابع من قبل السوطيين ، السارثيين ، الفاسانيين ،
الآراميين ، والروم والسبزنطيين والسلجقة والمغوليين والعثمانيين ،
وغيرهم ومنذما كانت تضعف هذه الحكومات الاستعمارية أو يسزول
كسبها ، كان الأكراد سريعيين في حكم أنفسهم . لكن مع قسودوم
الجيوش الحديثة والحكومات القوية للسيطرة عليهم أصبح الحكم
الثاني الكردي أقل احتمالاً . وفي سنة ١٥١٤ ثبت تقسيم كردستان
بين الإمبراطورية الفارسية والعثمانية . ولكن الحدود الجبلية
المرتفعة في كلا الإمبراطوريتين اللتين لم تكونا تطلق
تجهيزات عسكرية حديثة ، لم تكن واضحة بعد في الحيلة اليومية
للأكراد العاديين . وقد حدثت الهجرات حسب الفصول متبعا لمصلحة
منطقة الرعي أكثر من أن تكون أوامر من الحكومات المركزية .
لقد كان المغامرون البريطانيون في القرن التاسع عشر محظوظين ،
وإن كان عليهم أن يقاتلوا قطاع الطرق ، فقد كان بإمكانهم
التجوال في كردستان دون أن يعيقهم حرس الحدود .

بعد الحرب العالمية الأولى وانحلال هاتين الإمبراطوريتين
وعد الأكراد الذين كانوا تحت الحكم العثماني بدولتهم المستقلة
من قبل الحلفاء . وفي وقت مبكر من القرن التاسع عشر كان قد
اجتمع بعض الأكراد المنحرفين مثل الشيخ عبيد الله النهري - ولقد
التفت بأحد أحفاده لاحقا - بالحكومات الأوروبية للتحرر من ضغط
الأتراك كممثلين عن الأكراد . وبعد الحرب العالمية الثانية انطلق الأكراد

في دعواهم لإنشاء دولة كردية على أسس بنود ولسون الأربعة عشر التي أعلنها في كانون الثاني سنة ١٩١٨ . فقد عرض ولسون اقتراحها بموجب إعطاء الفرصة للأقليات العرقية الكبيرة داخل الامبراطورية التركية مشيبي الأكراد والأرمن والآشوريين لإقامة دولهم الخاصة بهم ، ولكن معاهدة سيفر الموقعة سنة ١٩٢٠ بين الحلفاء والحكومة التركية الألبانية ، تكفلت بإقامة دولة كردية خلال سنة من تاريخه ولكنها لم تترجم عمليا أبدا . فقد رفضها القوميون، الأتراك الجدد بقيادة مصطفى كمال أتاتورك . أما اتفاقية السلام الجديدة - معاهدة لوزان - التي وقعت سنة ١٩٢٣ فلم تذكر الأكراد مطلقا .

وبدلاً من أن يصبح للأكراد دولتهم الخاصة بهم ، وجدوا حريتهم الثقافية والسياسية تتقلص أكثر من أي وقت آخر . أما الأراضي الكردية الواقعة تحت نير تركيا ، تلك الجمهورية الحديثة التي تزعمها أتاتورك ، فلن تدعي بكرديستان مرة أخرى وسيدعى السكان " بأتراك الجبال " وستحرم قانونياً تلك اللغة التي يتكلمها ربع سكان تركيا . التفتت في إيران بعدد لا يحصى من الأشخاص وأحفادهم الذين فروا نتيجة لقمع أتاتورك الوحشي للثورات الكردية في تركيا الشرقية . أما الأكراد في الدولة العراقية الحديثة فلم يصابوا بهذا السوء أبدا . ولم تكن لهم سيطرة على البترول الكامن في أراضيهم ، فالبريطانيون قد عملوا جاهدين للتأكد على أن يبقى في أيدي العرب . ولكنهم على الاقل تمتعوا بالتحدث بلغتهم القومية ، وبارتداء لباسهم الوطني . يشكل الأكراد نسبة كبيرة في العراق وبسبب ذلك ، ولضعف الحكومات البغدادية المتتالية فقد كانوا قادرين على إشغال عدد من الثورات التي لم تنته بهزيمة حقيقية ، بل انتهت في مآزق . لم يكن الأكراد الأيرانيون محظوظين بهذا القدر . لقد كانت لهم سنة واحدة جيدة ، أسسوا فيها دولة كردية صغيرة جنوب ريزاي سنة ١٩٤٦ في نهاية الحرب العالمية الثانية . وعندما تحرك الجيش الروسي الذي كان يحتل على نحو مهلهل القسم الكبير من شمال غرب إيران للانسحاب ، تاركا الدولة الكردية الفتية بدون حماية ، دخل الجيش الإيراني مهاباد وهي المركز القيادي للجمهورية الجديدة ، وأعدم القواد ، ولوحق كل من دارت خوله الشكوك بتعاطفه معهم لثلاثة من العقود التالية . وأصبح الأكراد - دون

حكومة ذات حكم ذاتي - مجرد احدى الاقليات العرقية المتعددة في
ايران .

ان المصادر الرسمية غير الجديرة بالثقة والرديئة السمعة في كل الاحصائيات السكانية تكون متذبذبة وعلى نحو خاص عندما يتعلق الموضوع بالاكرد في كل دولة حديثة يقطنونها الآن . لقد كانت العراق ولسنوات تحاول أن تثبت أن حقل البترول الفخم في كركوك لا يقع حقيقة في مركز سكاني كردي . أما الاتراك فلا يحصون الاكرد عندهم نظرا لعدم اعترافهم بوجودهم كأكراد . وايران تكره ان تقدم تقريرها عن اقليتها من قوة أي من اقليتها المستاءة وحتى لو جرت محاولة من قبل أي من تلك الحكومات لآحرار احصاء رسمي دقيق في كردستان ، فإن الاكرد سيقاومونها اعتقادا منهم أنها من المحتمل لن تفيدهم . ان الاكرد ليسوا أحرارا في كتابة وتداول لغتهم في أي بلد باستثناء العراق والاتحاد السوفياتي الذي يشكل فيه الاكرد اقلية صغيرة .

ان افتتاني بهذا الشعب لم يتطلب مني جهدا كبيرا في البحث والمطالعة . فقد عرف عن الاكرد موقفهم الأكثر تسامحا تجاه المرأة أكثر من أي مجموعة اسلامية في المنطقة . لقد كنت أبحث عن لغة ما واللغة الكردية كانت تصرخ عاليا لباحث يدرسها . وبمشروع كهذا لن ادع همتي تفتت بالالتصام على المكتبات ، و بحوث الجامعات المملوكة . ويتوجب علي الذهاب الى الجبال كي أكتسب ثقة هؤلاء النساء ذوات الأثواب الملونة ، واللواتي لا يفطن الخمار .

ان طهران محطتنا الأولى ، لم تكن كما توقعتها بالضبط ، ولكنها كانت تتراءى فقط على نحو مبهم تحت الطبقة الكثيفة من الدخان والضباب اللذين كانا يتخللان جو المدينة برتابة . لم نلاحظ أي من الاكرد فيها ولم يتناهى الى سمعنا أن أحدا يتحدث فيها بالكردية فقد كان من الصعب سماع أي شيء يعلو صوت حركة المرور ، وقد تجولنا فيها لبضعة أيام في مشاهة محاولين أن نتصور اذا كنا حقا في إيران ، بلاد فارس عمر الخيام الاسطورية وحكايات الجن الغربية . لقد كنا قد حللنا ما يربوا على ٦٠٠٠ ميل شرق نيويورك ولكنها كانت

تتقدمنا بطريقة ما . لقد كان ذلك شعورا غريبا .

أما مدينة ريزاي فقد كانت أفضل ، على الأقل كانت هنالك عربات تجرها الخيول مع أجراسها ، وجبال تملو من الدخان والضباب وكان أيضا هنالك أكراد يظهرون في كل شارع . حتى في ريزاي الريفية كان الناس يرتدون ألبسة غريبة أو صورة مطابقة لها باستثناء الأكراد . لم أكن متحمسة لمحاولة الذهاب الى هؤلاء الأكراد والتحدث معهم بـ كـرديتي الجزلة التي تعلمتها في الجامعات الأمريكية ولكنني لم أتوقع أنها ستكون مسألة أيام أو اسبوع قبل أن ألتقي ببعض الأكراد واتحدث معهم باطراد .

سألت كل طلبتي في الصفوف الانكليزية في الكلية المحلية عن الأماكن التي أتوا منها واللغات التي يجيدونها ، وقد ظننت أنني حاذقة ، ولم يمر وقت طويل قبل أن يعرف كل طالب أن للسيدة م . كان رغبة غريبة في دراسة الكردية . والعدد القليل من الطلبة الأكراد أتوا الي تواقين لذلك . ولم يكن أحد منهم من منطقة ريزاي ، كما لم يتكلم أحد منهم اللهجة التي كنت أهتم بها ، وموق ذلك فانهم لم يبدوا كالأكراد . لقد نشوءوا في المدن أكثر ممافي القرى ، وكانوا يرتدون البدلات - بدلات الدنيم - اذا كانت لهم القدرة على شرائها . أرادوا أن يحصلوا على درجات جيدة في الانكليزية ولكنهم كانوا يرتابون بشدة بدوافعي ، وقد ابتهجت لاني لم أكن أنوي دراسة لهجتهم .

في استعادة أحداث الماضي وتأملتي فيها تحققت من أن لا أحد منهم كان سيوافق على قضاء الكثير من الوقت معي خارج الصف ليعلمني لغة قد حظرتها الحكومة الايرانية . وكما اكتشفت مؤخرافلد كانوا متأكدين - من وجهة نظرهم - من أنني من عناصر المخابرات المركزية الأمريكية .

لم ينتابني شعور باليأس مباشرة فقد كانت لدي أمور أخرى لأقوم بها . فقد وجدنا مسكنا بمساعدة أناس في الكلية وانتقلنا على نحو سريع الى خمس غرف مجردة باستثناء قليل من الأثاث مع شرفة

ونوافذ ضخمة ممتدة من الأرضية حتى السقف ولكنها كانت بسدون مدفأة أو شلاجة أو سخانات أو ستائر . كانت الدفء رطبته وجسدها ولكنها كانت مطلية بالكلس ، بحيث أنك لو اتكأت على الحائط فسان ملايسك ستغطي بالمسحوق الابيض . أمضينا معظم وقت فراغنا في البارز القديم وفي مركز المدينة التجاري ، مواجهين ولأول مرة في حياتنا صفقات شراء كبيرة من الحاجات المنزلية . رأينا الكثير من الأكراد في البارز ، وفي البداية لم أكن أمير بين المحليين واللاجئين . كان قد أخبرنا رجل جالس بجانبنا في الطائفة من طهران الى ريزاي أنه قد قدم المساعدة لمعسكرات اللاجئين التي أقيمت في المنطقة لأيسوا وتقديم الغذاء لآلاف من الذين مروا من القصف العراقي . ان الثورة القائمة حاليا كانت قد بدأت في الربيع الذي سبق وصولنا الى ايران ، وكانت الحكومة الإيرانية تدعم الأكراد بنشاط ، وتقدم لهم السلاح وتشجعهم على جلب عائلاتهم الى حيث الأمان في ايران . كنت اتشوق للاطلاع على هذه الحرب ، وخاصة عندما اكتشفنا وجود عدد من الخبراء العسكريين الأمريكيين ، وقد كانوا يسكنون في ريزاي وكانوا يسافرون على نحو دوري الى الحدود العراقية لامطاء التعليمات من استعمال الاسلحة . كانوا يصرون على التأكيد بأنهم يلقنون التعليمات لعناصر في الجيش الإيراني ، ولم أضغط عليهم أكثر من ذلك ، فقد كنت مدركة أنني لم أحصل على الأذن من الحكومة الإيرانية للبحث في اللغة الكردية التي تشكل أهمية أقل بكثير من حرب حدودية سريّة .

كانت عائلة كبيرة من اللاجئين تسكن خلف منزلنا مباشرة لقد وصلوا حديثا مثلنا الى ايران وقد كانوا أغراباً في الجوار على نحو يلفت النظر. بدأ منزلهم مهتلجا بالنساء والأطفال وقد كان جيبيل الفسيل المعلق في الشرفة مكسوا بالملايس القوس فزحية وملايس أطفال فريضة حديثة. الى جانب البهجة نسائية كردية تقليدية من المخاميل والاعمشة المطرزة . كنت أنا وجيزد نحدق بافتتان من نوافذ مطبخنا عبر ساحة المنزل الى حجرة جلوسهم ومن حين لآخر ، كنا نلمحهم وهم يختلسون النظر الينا بالمثل . وفي أحد الايام علقوا الستائر

ليحجبوا عنا رؤيتهم وقد واصل بعضنا التحديق في البعض ونحن فسي
الشارع ولكن لأحد من الجانبين سيبادر بالتحدث أولاً .

كنا نرى الأكراد في طريقنا ، في كل مكان نذهب اليه في
مركز ريزاي التجاري . كان رجال من الأكراد بعماماتهم المهدبة
يتجمعون في زوايا الشوارع أو يجلسون عند النوافذ في المقاهي . كانت
النساء الكرديات يتجمهرن في البازار وبعضهن كن يرتدين الاغطية فوق
لباسهن . ولكن خلافا للعباءات الفارسية ، كانت هذه الاغطية مجرد
زركشات سوداء تكشف عن الالبسة التي دونها ، ونساء أخريات كن
يمشين دون حجاب وكن مغطيات فقط بطبقات من الأثواب والصنادير
وسراويل مصنوعة من المخامل والساتين ، مصبوغة بكل لون يمكن تصويره .

لفتت نظري ساحة منزل مأهولة بسكان أكراد مررت بها في
طريقي من وإلى الكلية . كانت سيارة لاندروفر خضراء رمادية طويلة
تقف عادة خارج الأبواب الفيروزية التي تؤدي إلى الباحة حيث كن
أحرق دوما بشابين متوردي الخدين يصفلان واجهة السيارة أو يحملانها
بحزم أو يفرغانها . كانا يرتديان سروالين خاكبيين مكويين بشكل
جيد ، ذلك السروال الكردي ذو الساق الواسعة المجتمع أو غير المجتمع
عند الكاحل ، وذلك حسب عادة القبيلة المنتمى إليها . والبذلة كاملة
تتضمن وشاحاً حول الخصر وممامة . عندما كانت أبواب الفناء مفتوحة
قليلاً كنت ألمح أحياناً رجلاً ذا وجه نحيل يفع على رأسه عمامة ضخمة
سوداء مهدبة . وقد رأيت مرة امرأة قصيرة ممتلئة ترتدي سترة
فخفاضة من المخمل القرمزي . كانت ترافقها فتاة شابة جميلة ذات
ضفائر طويلة وفكرت في نفسي أنها تشبه بطة من حكايات الجن .

بينما كان الآخرون في المدينة يحدقون في كأمراة أجنبية
مكشوفة ، كنت أنا الأخرى أحدق في الأكراد . لقد بدوا معتاديين
على التحديق أكثر مني . ولكن أحد منهم لم يتكلم معي ، أو حتى
يجيب على نظراتي الباحثة . وكثيراً ما صرح لي الناس الذين أعرفهم
أنه يجب أن أتخذ سبيلاً واضحاً من هؤلاء الناس الجبليين اللفظاء . وقد

بدأ يتكون لدي تصور أنني لن أقابل أيًا من الاكراد أبداً في ريزاي وقد بلغت درجة تكونت فيها لدي شكوك بأنني لم اختر اللغة المناسبة لدراستها . ليس فقط أن كل القاطنين في ريزاي يتكلمون بالأزريسة التركية فحسب - وهي فرع من التركية تتصل الى حد بعيد بالتركية - المتداولة في استنبول بالقدر الذي تتصل فيه الكردية بالفارسية - بل أن شفاهم ترم باحتقار كلما ذكرت الاكراد .

يسمى الاتراك مدينة ريزاي في خدمة الحكومة المركزية فسي طهران مثل جميع المدن الإيرانية الواقعة الى الشمال والغرب من المدينة الكردية مهاباد على طول شواطئ بحيرة ريزاي . أن أغلبية الموظفين ذوي الرتب العالية هم من الاصقاع الإيرانية التي تتحدث بالفارسية ولكن مخفر الشرطة والسلطات المحلية والمدارس والبنوك كلها قد زودت بالمساعدين الاتراك . كانت ريزاي تدعى أورميا ، قبل نهوض سلالسة بهلوي الحاكمة في إيران وهو اسم قديم جداً لدرجة انه ما من أحسن متأكد من أصله حقيقة . وقد أعيد لريزاي اسمها القديم بعد سقوط محمد رضا بهلوي الذي كان قد أطلق هذا الاسم على المدينة نسبة لأبيه الممقوت جداً . وبالنسبة لبعض الشعوب مثل الآشوريين المسيحيين الذين حكموا هذا الجزء من أذربيجان الغربية فترة من الزمن ، فلم يعترفوا بأن هناك مدينة تدعى ريزاي او بحيرة ريزاي ، بل فقط - مدينة أورميا وبحيرة أورميا - وهؤلاء الآشوريون يتتبعون أنسابهم من بقايا الامبراطورية الآشورية القديمة ، ويبدو أن هؤلاء الآشوريين القاطنين في ريزاي وكذلك يهودها كانوا يسكنون المدينة منذ زمن موغل في القدم . ولكن كلا المجتمعين قد انخفض عددهما الى حد كبير في القرن العشرين . اليهود عبر هجراتهم المتتالية الى اسرائيل والآشوريون خلال المذابح الجماعية . وفي او آخر القرن التاسع عشر اجتذب الآشوريون في إيران على الحدود العراقية مباشرة مساعدة البعثات التبشيرية الأوروبية والأمريكية . وفي الحقيقة كانت الكلية التي عملنا فيها في الأصل قد بنيت كمستشفى من قبل الأمريكان الذين أتوا لمساعدة المسيحيين الفقراء المتمسكين بعقيدتهم القديمة وسط الهجوم الإسلامي الضاري . وقد أشار هذا الاهتمام من قبل الغربيين

بعض الشك والغيرة لدى جيرانهم المسلمين ، فكان الآشوريون يذبحون على نحو متتابع وبأعداد كبيرة بأيدي الأتراك والاكرد في بداية القرن العشرين . وبعد ذلك أصبح سهل أورميا يخص الأتراك وحدهم ، على الرغم من الجهود الكردية لنيله ، ولا يزال الصراع بين الاكراد والأتراك مستمرا على اورميا . ان طهران التي لاتفيد الأتراك فسي شيء عدا استخدامها ايهاهم ضد الاكراد ، تتدخل عندما يكون للأكراد اليد العليا ، كما فعلوا سنة ١٩٤٦ وقد كرروا هذا ثانية بعد سقوط الشاه سنة ١٩٧٩ . ولكن خلال اقامتي في ريزاي ، بدت المعسارك الحقيقية كما لو أنها في الماضي . كان الاكراد الذين التقيناهم يفتخرون بتدريسهم الى ريزاي منذ عشر سنوات قبل وصولنا وأنه سيتم قسما الغلخوا المدينة ردا على حارة تركية على قرية كردية ، ولكن حتى هذا النوع من الحرية المتاحة للجميع قد قمعت بشدة من قبل السلطات الحكومية وبشكل مؤقت على الأقل . وقد تسرب البوليس المسجون بجراة الى المدينة التركية وضواحيها من القرى الكردية .

عندما أتينا في البداية ، لم أقدر كم كان عدد اللاجئين والفرويين الذين يمرون بسهولة عبر المدينة من ضمن الاكراد الذين رأيتهم ولم أكن أعرف كم يخاف جيران الأتراك هؤلاء النجاسات الجليبين العنيفين الذين تعيط قراهم بمدينة الأتراك وكم يفتخرونهم ولا سابع عديده حدثت بحزن وكآبة في لباس الاكراد الملائم لحكايات الجن وهم يمرون أمام نافري في الشوارع ولكن بعد كل ماعرفت منهم كان من الممكن أن أعود الى امريكا والاحق صفحات من كتاب ماعن رحلة شامسة .

الفصل الثاني

في ريزاي لم استخف بما كان يحدث في الشارع أبدا ، فلاشيء مما يحدث في الشارع الايراني يمكن أن يكون شخصا أو خاصا . ففي الكثير من الاحيان وجدنا أنا وجيرد نفسينا مع جمهور قد احتشد ليصفي الى محادثتنا ومجادلاتنا . وعندما كنت أتمشى وحدي كان بعض الرجال يتسكعون على مقربة مني تماما . وفي مكان كهذا فان المنازل تحتاج الى جدران حولها لحمايتها من الشارع . والعباءات " الخيم " هي امتداد لهذه الجدران ليس غير .

لفترة قصيرة سأأقلم مع الشارع متناسية تقريبا أين كنت ، وبعدئذ سيحدث شيء ما يعيدني الى اليقظة ، وسأدرك أنني كنت غريبة ، وأني غريبة لكل فضولي وفاسق كان يلاحقني بنظراته . لكن وعلى الرغم من عدم شعوري بالأمان في مركز المدينة او في الاحياء الغريبة فقد أصبحت تدريجيا آثق بالذين يحيطون بي في الوقت الحالي . وبما أننا كنا نقطن على مسافة بعيدة تماما عن الشارع الرئيسي ولأن سيارات الاجرة كانت وسائل نقل جماعي ، مع مسافرين آخرين متوجهين الى أماكن مختلفة فقد كنت أشادر السيارة عند بداية زقاق أمير فلاح وكان علي أن أمشي كل يوم بمحاذاة الجدار العالي الذي يحيط بمنزل الأهل أمير فلاح ، ذلك الرجل الغني الذي يشغل منزله المساحة المجاورة كلها . وهناك في الزاوية وتماما عبر البوابات الكبيرة الموءدية الى باحة منزله كان يقف ثلاث أو أربعة شبان بستراتهم الجلدية والجينز المستوردة ، لقد كانوا أولاد رجال أغنياء ، تبدو النظافة عليهم على نحو جلي ، وليس لديهم مايقومون به أفضل من التسكع بعـند المدرسة .

بعد فترة ليست بطويلة من انتقالنا الى هذا الحي ، اقتنى أحد هؤلاء الصبية بندقية ذات رصاصات صغيرة ، كنت بعد ذلك كلما مررت راقبت البندقية ووجهة تصويبها . كانت هذه البندقية تشيّر أعصابي حتى بعد أن قابلت والد الصبي الذي يقتنيها . لم أفهم لماذا يحتاج أحد ما بندقية في هذا الزقاق الاسفلتي المغبر ، فقد كانت الطيور كلها داخل جدران حدائق المنازل . يبدو أنه لا يوجد لعبة مثيرة أخرى غير ارباك الناس .

ربما كانت تلك البندقية كناية عن شيء ما ، فالصبي الذي كان يحملها كان قصيرا ونحيلا ، ولكنه ككل الذكور كان يحتاج لظهور قوته في الشارع . كان بعض الناس يعتبرون الغطاء زيا قديما ومع أن والده هذا الصبي لم تكن تضع الغطاء ، فقد كان لا يزال يحدق في كما لو أنه لم ير من قبل امرأة بدون غطاء أبدا .

عندما كنت امشي بمحاذاة جدران منزل أمير فلاح القرميديه ذات اللون الاصفر كنت أجبر نفسي على إلقاء التحية على صاحب البندقية . وبعدئذ استمر بالمشي لأمرج الى زاوية زقاقنا ، مارة بحدو أعالي أشجار الكرم التي كانت تتدلى على جدران حديقة أمير فلاح . كان زقاقنا يقع في منطقة مبنية حديثا ، لذلك كانت واسعة بحيث تكفي لممرور سيارة وقد كانت معبدة أيضا ، فالكثير من الأزقة في إيران هي مجرد ممرات ضيقة مع مجاري صرف مفتوحة تلحق بالمركز .

وجدت نفسي فجأة من الجدران بعد الاسبوعين الأولين من إقامتي في ريزاي . لقد كانت تمنعني من رؤية المدينة على ما هي عليه ، حتى أثناء ركوبي عاليا في الحافلات ضمن المدينة فلم أستطع رؤية الجانب الآخر من الجدران داخل المنازل والحدائق في ريزاي وكل شيء وكل امرئ مختبئ وراءها . كان لمنزلنا أيضا جدار في مقدمته ولكن بما أن زقاقنا كان قيد البناء فان كل بناائي الأجر الذين يعملون في الطابق الثاني في شقة تبني في الجانب الآخر من الشارع كان باستطاعتهم التحديق صوب شرفتنا ومن خلال نوافذنا .

بعض النساء في ايران يفتخرن لأنهن لم يضعن الغطاء أبداً في حياتهن ، على الأقل كن يظهرن ذلك أمامي . ولكن اذا كن من المسلمات الشيعيات فقد كنت أنزع الى عدم تصديقهن . لأنه لابد أنهن قد وضعن الغطاء ولو في مناسبة ما لكي يقدرن على الدخول الى الجوامع الكبيرة أو المعابد مثل ضريح الامام رضا في مشهد . لن أراهن على أن أي امرأة قد خرجت مكشوفة فعلا طوال حياتها في ايران عدا المسيحيات واليهوديات أو نساء البهائيين الذين يعتبرن الغطاء عيباً . ولكن علي أن أكتشف ذلك - هنالك درجات عديدة من الاغطية تتدرج ابتداءً من أوشحه رأس بسيطة تربط مسدلة على الجبين بشكل لاتظهر منه أية ملامح جمالية وانتهاءً بالعباءة السوداء العراقية الطراز مع غطاء للوجه وأكمام مفتوحة بشكل طولي . والغطاء المألوف في ايران، الحجاب ، ليس الاقطعة رفيقة من القماش ، وعادة تكون بلون قاتم ، وأحياناً بنقوش صغيرة . ان تعديل القماش جيداً في مكانه المناسب له أهمية كبيرة جداً في تقرير قيامه بالوظيفة كخمار ساتر مفاتن التي ترتديه . وكما ترينني الآن فاتنه بزّي هذا ، فذلك ستكونين أيضاً بدون هذه الاغطية التي تستر مفاتنك .

خلال عهد والده الشاه الأخير رضا شاه ، كان الحجاب قد حرم في ايران ومثلما فعل أتاتورك في تركيا فقد أراد الشاه أن يجعل بلده غربياً في ليلة وضحاها . ولكن حيث نجح أتاتورك فشل في ذلك الشاه . فقد ظهر الغطاء ثانية كخمار أقل جدية ولا يشمل الجسم ولكنّه كان كلي الوجود . ففي المدن الكبرى والقرى الصغيرة على حد سواء ، استمرت أغلبية نساء الفرس والأتراك في استخدام الغطاء على الرغم من تحقيقات رجال الصحافة الغربيين الذين لم يقوموا بها في الاحياء الأكثر فقراً ، يسود الغطاء على نحو فعلي .

ان الأكراد هم من بين المجموعات الاسلامية القليلة في الشرق الاوسط الذين لا ترتدي نساءهم الغطاء على نحو تقليدي . وفي القرى يسكن الناس في الخيام - الشوادر - عندما يتبعون قطعانهم للرعي في الصيف ، ولا يرتدون الشوادر هذه . أما في المدينة فغطاء النساء الكردييات يعتمد على غنى العائلة وعلى درجة الاحتكاك بالمدينة . فأفقر

معارفي مثلا ، وهي امرأة قروية تدعى صلحية ، لم يكن لديها غطاء
وعندما أتت صلحية الى ريزاي حيث كان ولدها طالبا في المدرسة
ال ثانوية ، كانت ترفع وشاح رأسها البرتقالي لتغطي حنكها وفمها
عندما تكون في الشارع ليس الا . ونساء كرديات أخريات في أنحاء
البازار كن يرتدين أثوابهن الفففاضة ، وأوشحة رؤوسهن كما لوأنهن
في القرية ، ولكن نساء أخريات أيسر حالا سكن معظم حياتهن في المدينة
كان غطاءهن متفقا مع العرف الاجتماعي والدوق العام . وعلى الرغم
من طبقات البستهن العديدة فالكبرديات قليلات الحاجة لأغطية أخرى
ويتحسّن من نظرات الرجال الفرس والأتراك المحدقة فيهن . فمن
المحبب تماما أن تكوني كردية في مدينة تركية دون أن تظهر
مكشوفة .

حقيقة أن الاغطية في كردستان ليست جزءا أساسيا من اللباس
النسائي كانت واضحة أيضا من لباس اللاجئين العراقيين . ونساء القرى
القبلية في معسكرات حول ريزاي لم يضعن الغطاء أبدا سواء في
المعسكرات أو أثناء زياراتهن للمدن ولكن زوجات وبنات الجنرالات
وقواد الحزب الديمقراطي الكردي اطلعن حالا على العادات الإيرانية .
وبعض من النساء العراقيات الأكبر سنا والأكثر تقليدية كن يضعن
العباءات التي جلبنها من العراق حيث تلبس النساء العربيات الغطاء
بشكل عام . وفي العراق أيضا بدا أن نساء الطبقة العليا من الأكراد
المقيمت على نحو دائم في المدينة بين العرب كن يستعملن الغطاء . ولو
أنه يختلف عما هو في كردستان إيران فإن بنات هؤلاء النسوة كن
يحضرن الى المدارس وينظرن كلا من اللباس الكردي التقليدي والغطاء جانبا
وأثناء نفيهن في إيران كانت الواحدة تلو الأخرى منهن تجبر من قبل
ذويها على ارتداء الغطاء . لقد كن يفضلنه على العباءة التي كانت
تميز مباشرة من قبل أصحاب الدكاكين في ريزاي كعلامة تدل على
الغريب .

في حين المأهول على نحو خاص بسلطان أتراك منتمين
للطبقتين الوسطى والعليا رأيت القليل من الاغطية ، وفي الحقيقة رأيت

القليل من النساء . وبدلاً من ذلك فانك تجد السيارات . فالتساءل في هذه الاحياء يقطن السيارات كبديل لارتداء الخمار الذي بطسل ربه . واللبسة المفضلة لدى جارتى شهرزاد والسيدة جام كانت تتألف من جرد علوي وهو عبارة من جورسيه مقور ، بالإضافة الى ثنائير أنيقه نادراما كانت تقلل من اهتمام الرجال في الطريق . وفقط ببقاتهن في السيارات كانت تلك النسوة قادرات على أن يبقين محتشمات وماضيات على الطراز الحديث في الوقت نفسه . وباستخدامهن سيارتهن كغطاء فقد كن يذهبن من مدخل باب الى آخر ولو الى قطع مايكسارب دزينة من المحلات التجارية المتلاصقة وبعدد تتوقف سيارتهن ثنائية . والسيدة جام الأكبر سناً كانت تخرج فقط لعمل ملح معتمدة على النقود وعلى منزلتها الاجتماعية ، لتجلب الناس الى منزلها . ولم تكن تبرع في قيادة سيارتها المرسيديس ، فقد كانت كثيرة الاصطدام بحواجز الشوارع ، والحواجز الحجرية عند حواف الطرق والجدران وبسيارات أخرى أما شهرزاد فقد كانت تناور بسيارتها اليابانية الصغيرة بشكل أفعل بكثير . وعلى الرغم من اشاعات بذينة كانت تكثر حول شهرزاد تشير الى أنه كان لها المئات من " الخلان " قبل أن تتزوج وهي في الخامسة عشر من عمرها فقد اخبرتنى بأن زوجها هوشنغ يثق بها ثقة مطلقة ، وأنه قد سمح لها بأن تقود سيارتها الى أي مكان تريده .

في المرة الأولى التي رأيت فيها شهرزاد وهي امرأة عامرة الصدر ممتلئة الجسم مفعمة بالصحة على نحو جذاب بعينين تحمّلان أهداباً كثيفة ، وشعر فاحم ، كانت تقف في معر منزلها مشيرة اليها بالحاج أن ندخل قاعة :

— " بفرماييد ، بفرماييد "

وهي الدعوة المختلفة الاغراض حيث تشكل المرتكز " حجر العقد " لحسن الضيافة والوفادة الإيرانية .

كنت أميل الى الذهاب مباشرة الى بيتها ولكن الإيراني الذي كان معنا رفض دعوتها بلباقه . وبدلاً من قبول اعتذاره ألححت أكشمر من ذي قبل مشيرة بيدها الى مدخل بيتها المعتم ومتحركه الى الخلف

مع هسه من شفتيها ، طالبة منا أن نتبعها . رفض الإيراني شانيبة بأدب ، ولكن باصرار فأومأت شهرزاد برأسها وخرجنا الى الفنـسـاء ونظرنا الى الاعلى مرة أخرى ، الى حيث شرفة الطابق الثاني الذي كنـسـا نعتزم اشتجاره . قال الرجل الإيراني وهو مدرس في الكلية :

— أنت محظوظة ، جارتك ودودة جدا فقد سألتها الموظفـمـو الموءجر اذا كانت ستسمح للأمريكان بالسكن في نفس المنزل معـهـا فأخبرته أنها ترحب بذلك . وكما رأيت الان ، فقد أرادت فعـلا أن تدخلني الى منزلها .

في غضون الايام الاولى من استقرارنا في مسكننا الجديد كانت شهرزاد تبثسم وتكرر دعوتها لنا في كل وقت ترانا فيه وحالما قدرت على ذلك ، فقد قبلت الدعوة ووجدت نفسي في كرسي منخفض منجـسـد ومريح ، تقدم الي الشاي والحلويات . ادير مفتاح التلفزيون الموضوع أمامي وقد كنت اتحول بين التحديق في وجه المغنية السمينه الممكيج باتقان ومحاولة التحدث مع شهرزاد ، وفي وقت متأخر قابلت هوشنغ زوج شهرزاد وهو رجل نامي العضلات ربع الغامة ، وقد ارتدى قميصا وسروالا أنيفين . وكان يتكلم القليل من الانكليزية . وكثيرا ماكانا يخبراننا بأنهما يرحبان بنا أنا وجيرد دائما في منزلهما .

لقد كانت أسابيـعنا الاولى في ايران محمومة بكل صهوبات اقامة منزل في أرض أجنبية . وشهرزاد وهو شنغ كانا قلقين بشأن المشاكل التي تصورا أننا نواجهها . فقد سألتني هوشنغ عن كيفية ايجاد الوقت لشراء الغذاء واعداد الوجبات نظرا لتواجدنا كليـنا طـوال الوقت في الكلية ، ولعدم وجود خادمة لدينا ، ابتسمت غير موضحة الموقف وأنا افكر بأن كل ذلك صحيح ، فلم يكن لدينا الوقت الكافي فعلا وكما لو أنه قرأ افكاري ، دعنا هوشنغ مباشرة لتناول جميع وجباتنا معهما . وعندما رأى أن قوائم كراسينا المعدنية كانـسـا تحفر فجوات في الارضية الكلسية اللينة لحجرة جلوسنا الضخمة ، عرض علينا هوشنغ أن يعيرنا بساطين ايرانيين كبيرين مصنوعين آليـسـا . وموءخرا سألنا هوشنغ متى سنتفرغ لنحل عليه وعلى شهرزاد كضيوف قـسـي

النادي الليلي الذي كنا يترددان عليه . نادي ليلى ؟ . لقد قُدمت عرض الوجبات علينا على الرغم من أنها كانت دعوات سخية جدا لقبولها وبسرور أخذت البساطين ولكن هذا العرض الجديد قد ضايقني قليلا فأنا لم آت الى ريزاي لأزور النوادي الليلية . تطوع جيرد قائلا بفظافة :

– مارغريت لاتحب النوادي الليلية كثيرا .

نظر هوشنغ بفضول . فهو لم يتوقع أن يلتقي بأمريكية لاتذهب الى النوادي الليلية . وقال بلطف :

– حسنا ، لربما تحب أن تذهب في وقت آخر . رجاء أخبرينا

عندما تكونين مستعدة لذلك .

استقرت بنا الاوضاع تدريجيا في الكلية حيث بدأ الدوام في صفوفنا بعد اسبوعين أو ثلاثة ضمن برنامج محدد المواعيد . وقد زود بيتنا بشلاجة ومدفأة وسخانات للشتاء وقطع عديدا وغربية من الاشاث الذي أعارته لنا الكلية على مضي بعد أن قدمنا عريضة الى عميدها . والآن بما أننا لم نعد بحاجة للتسوق كل يوم بعد العمل فقد اجبرت على ملاحظة شعوري بوحشتي المتنامية . فهذه المسألة لم تكن نتيجة لعدم تصرف الناس معنا سود . ففي الكلية كان كل امرئ يبتسم لنا ويسألنا عن صحتنا باطراد . وكنا دوما نجد أناسا يجلس معهم خلال تناول الغذاء في حجرة الطعام التابعة للكلية لكن عند التفكير في ذلك كان يخطر في ذهني أنه من المحتمل أننا لم نكون قد فهمنا نظام التشريف بعد ، وقد كنا نجلس مع كل من نريد . وفي الحقيقة ، وبدون علم منا ارتكبنا زلات اجتماعية كافية لتجعل الايرانيين حولنا أن يطبقوا افواههم بانفعال . ومع ذلك فقد ظللنا نقع في تخططات أكثر . فلم يخبرنا أحد بأننا ننتقص أنفسنا بركوب حافلة المدينة جنبا الى جنب مع العمال والطلاب . ولم يوضح لنا أحد أنه ليس من الضروري أن نقبل الدعوات التي توجه اليها من اللحظة الاولى . كنا نتحدث مع الناس حولنا بالآلفة الميسورة التي يسلم بها الامريكان ، ظانين أننا كنا مهذبين وحساسيين بالمقارنة مع بعض الامريكان الآخرين الذين رأيناهم في المدينة . وعلى

نحو خاص خبراء الاسلحة التابعين لجيش الولايات المتحدة الذين كانوا يأتون أحيانا لتناول الغذاء في الكلية كضيوف على أستاذ إيراني يدعى السيد خشيني . والشئ الذي لم نكن نفهم كنهه هو أن الإيرانيين كانوا يميلوننا جميعا . بنظرتهم دون تمييز ، فرقة السلام ، الجيش وبحاشية عن الاكراد و الكردية . ولكنني كنت أرتاب في افتقار الناس من حولنا للشعور الودي . فلم أكن متأكدة منه على الاطلاق .

في البداية تحدثت عن رغبتني في لقاء الاكراد لأناس كنت أظن أنهم غربيون على نحو كاف لفهم مشروع كهذا . وقد عرفت أن هذا يمكن أن يعتبر حساسا من الناحية السياسية بالنسبة للحكومة . ولكن لم يخطر على بالي أبدا انه يمكن أن يكون حساسا من الناحية الاجتماعية أيضا . وعندما كان يجابه بطلبي واهتمامي الغربيين أعضاء مثقفون من الالمان والأمريكان في الكلية ، كانوا يبتسمون بأدب فقط ، ويقولون بأنهم سيبدلون جهدهم ليقدموني الى بعض من - وهنا توقفوا هنيهة وأردفوا قائلين : - من الأكراد .

عندما كان جيرد يعود من الكلية بعد الظهر كان يأخذ سنة من النوم ، أما أنا فقد كنت أنقر من النوم ، لذلك فقد اعتدت على التردد الى الطابق السفلي حيث منزل جيرانا الجعفرين . ولم تتخل شهرزاد أبدا عن ابتسامتها المرحبة ، وطبق الحلويات وتلفزيونها البواق ذي الدوي العالي . تكلمت من اعترامها السفر لتعلم الانكليزية للقيام بأي شئ بالإضافة الى العناية بالأطفال . وعلى الرغم من كوننا من نفس العمر بالخط . فقد تزوجت قبلي بثماني سنوات وكان لديها طفلان . وبما أن لها خادمة متفرغة تدعى نانا ، وأم متفرغة وتسمى مامان ، حيث تعيش مع العائلة وتتقضي معظم وقتها في العناية بالأطفال ، فلم أر أن ابنها وابنتها يشكلان عبئا عليها .

كانت شقة شهرزاد صورة طبق الاصل عن طابقنا العلوي حيث كانت قد لفت بطران شميين ، فقد بسطت على الارض سجادات من تبريز وكاشان وقد غطيت النوافذ بمخمل متناسب مع الطاقم المطلوب من الكراسي المزخرفة المنجدة بالمخمل حيث كانت الموضة الدارجة في ايران . لم يكن

أحد يجلس على الأرض ، فقد فصلت حجرة الجلوس أو ردهة الضيوف عن حجرة غذاة رسمية يستأجر من الأورغنا موطرة باتقان وقد أزيحت الى السوراة .

كانت حجرة الطعام بطرازها الأزرق الباهت المجلوب من كاشان توحى بمنظر مقاومة من الوزن الثقيل تعقد في نهاية كل اسبوع . كان مرشخ المتعهد الحكومي يملك الكثير من المال ، بحيث لم يكن يسدرى ماذا يفعل به . لقد كانت النقود تتكوم لديه ، وقبل ثلاث سنوات - على الرغم من عدم امكاننا اعتبارهم فقراء - كانوا لا يملكون هذه البسط أو هذه الكراسي المصنوعة وفق طلبهم . لم تكن ممتلكاتهم القديمة المكممة في قمر منزلنا مترفة لهذا الحد ، وحاليا ينشئ الجعفريون منزلهم في جزء آخر من المدينة ليتلافثوا مع شروعاتهم الجديدة .

كان الجعفريون في بيعة مدينة ريزاي يعتبرون منتهكين فلا أحد يعتبرهم حسني الاسلام . فقد كانوا يقامرون ويعاقرون الخمرة ويرقصون . كانت شهرزاد تعتبر امرأة منحلة ، والشئ الغريب هو أنهم لو كانوا في أمريكا ، لكانوا يعتبرون عاديين ، ولربما حتى معلمين ومحتشمين أيضا . لم تكن لدى شهرزاد فرصة للقيام بشؤون أخرى مع كل استهتارها المتحرر من كل قيد . انه لشئ لا يتصور أن تقضي وقتا مع أي رجل ليس بزوجه أو قريبها الحميم . أنجبت طفلها الأول في السادسة عشرة ، وتعيش أمها معها الآن وقد كانت توءكد على ارتداء الحجاب حتى انها أحيانا كانت تلبس ابنة شهرزاد ذات الخمس سنوات الغطاء عندما تأخذها الى اجتماعات النساء الدينية .

كثيرا ما أخبرنا الجعفريون عن سعادتهم بجبرتنا ، لقد أحبوا أمريكا ويأملون في زيارتها ، لقد أرادوا أن يتكلموا الانكليزية معنا ، ورغبوا أن نريهم آخر صيحات الموضة في الألبسة والرقص وسبل المعيشة . لقد توقعنا منهم أن يخبروني عن العصابات والتقاليد الايرانية التي استمرت عبر القرون . لقد كانت هذه اهران التي أهتم بها ، وليس اهران ذات السيارات المستوردة وحفلات

السكر التي تعج بالكلام المتملق الحسن . ولكنني أدركت بالتدريج كم كنا على أهداف مفترقة . لذلك ترددت في الحديث عن مشروع المتعلق بالأكراد لشهرزاد . ان القدر الذي كانت تعرفه فقط هو أنني قد قطعت مسافة ما يقارب نصف محيط الأرض ليس الالتعليم الانكليزية في كلية ريفية صغيرة وغامضة . بدا هذا غريبا لها ولم يمر وقت طويل حتى سألتني عن ذلك قائلة :

- لماذا تختار أجنبية ، أمريكية أن تعيش في مكان مثل ريزاي ؟ . ماذا يمكن أن أفعل في مكان متخلف مثل هذا ، حيث لا يوجد فيه سوى ناد ليلي واحد فقط ؟ أخذت نمسا عميقا وأخبرتها :

- لقد أتيت لأدرس الكردية ، وأريد أن أؤلف كتابا عن قواعد اللغة الكردية :

تظاهرت كما لو أنها لم تسمعني وبدأت تتحدث عن رغبتها في ذهاب ابنها الى مدرسة داخلية في انكلترا ليتعلم التحدث بلغتي بطلاقة سألتها :

- ولكن ماذا عن ابنتك ؟ ألا تريد ان ارسالها هي أيضا ؟ . رمقتني شهرزاد بنظرة مشدودة ، أولا الأكراد والآن هذا .. حتى النساء ذوات المظهر الحديث مثل شهرزاد لا يفكرن في أن تكن فتياتهن مستقلات . ماذا سأقول أكثر من هذا ؟ أفضل من أن ارتكب في قول شيء خطأ آخر ، أغلقت فمي بينما استمرت هي في الثرثرة .

واظبت على رويتي لشهرزاد ، فقد بدت متشوقة لقضاء وقت معي على الرغم من برنامجها الاجتماعي الممتلئ . كنت أعرف أنني لن أتقرب من الأكراد بانفاق الساعات من وقتي دون أن أقوم بجهد وأنا جالسة أمام خزانة تلفزيونها الفخمة أحتمي الشاي وأكسل الحلويات ولكنني على الأقل كنت أحسن لغتي الفارسية والشاي الأكثر أهمية اني كنت اتجنب الوحدة في أرض غريبة جدا عني .

كان الأكراد دوما في أعماق ذاكرتي لدى تحدثي مع شهرزاد ربما كانت تعرف بعض الأكراد ولم تكن تخبرني ، وربما عندما نعرف بعضنا أكثر أتمكن من اشارة الموضوع ثانية ، وفي ذلك الحيــــــــــــن

حاولت أن أزيد ثقتها بي بعدم التحدث عن السياسة أو عن نزاعات
تحرر المرأة أو عن الاكراد .

لقد تعلمت الحذر ليس مع شهرزاد فقط ، بل مع أي شخص يمكن
أن أطلب منه أن يقدمني الى الأكراد . ولكنني بدأت أدرك أكثر من ذي
قبل أنني لن أقابل الأكراد فقط بمصادفتهم في الشارع . وفي الكلية
دأبت على طلب هذا من زملائنا المدرسين والاداريين والطلاب . وذكر
الكثيرون انه هناك مدرس كردي بيولوجي في الجامعة من منطقة ريزاي
ذهبت الى مكتبه وصافحت رجلا نحيفا مرتديا سروالا أبيضاً جسداً
متناسقاً مع قميص أبيض و ربطة عنق حول رقبته . كان لا يكاد يتحدث
الانكليزية قط بما أنه قد أمضى الخمس سنوات الاخيرة من دراسته في
باريس ولكنه أكد لي أن لغته الأم هي اللهجة الكردية التي أهتم بها .
وبعد عدة عبارات مهذبة ودعوات متلهفة لزيارة منزله ، ألقاها في
مريح من الانكليزية المتكسوة والفرنسية ، أخبرني أخيراً عن مكان ولادته
فهو لم يكن خارج المنطقة التي اهتم بها فحسب ، بل حتى أنني سمعت
أتساءل في نفسي بعد قضاء نصف ساعة في مكتبه اذا كان يقدر على
التحدث بأي لغة غير الفرنسية . لم تكن لدى بعد الخبرة الكافية
لأدرك أن ربطة عنقه الحريرية وسيارته البيجو الجديدة ذات العلامة
التجارية وطريقته المداهنة تنم عن غربة طويلة عن الحياة الريفيه
وقد بدت عليه خيبة الأمل ، عندما نهضت فجأة لأستاذن بالمغادرة .
فسألني :

— ولكن أين تأتي الى منزلي ؟ .
— ربما في وقت ما .

قلت ذلك على نحو غامض مندفعة من جو مكتبه المغلق والمعطر .

كنت كل ليلة في مسكننا ، أصغي السمع الى أصوات الكرمانجي .
اللهجة التي كنت أنوي دراستها ، المذاعة من محطة راديو ايرانية .
لم أكن أستطيع فهم كل الجمل ، ولكنني كنت اجلس الى جانب مذياعنا
أستمع بالكلمات التي أميزها . من أين كانت تأتي هذه الاصوات ؟ لقد
كانت الاشارة واضحة تماماً بحيث أنني أدركت حالا انه من المعتم أن

الكرمانجية تذاع مباشرة من ريزاي ، ولكن الناس القليلين الذين سألتهم بدوا أنهم لا يعرفون الكثير عنها ، لابل أنهم لم يستمعوا الى البرامج الكردية في الراديو أبدا . ولكني واصلت الاستماع اليها ولو أن موجات الصوت كانت واضحة فقط لكنت تتبعتها حتى مصدرها .

على الرغم من عدم قدرتنا على اللقاء بالأكراد ، فقد كان هنالك أناس آخرون يريدون التعرف علينا . وكان على رأس القائمة اداريوداشرة الجيش الاميركي ومفتربون آخرون . ولكن وجهات نظرهم المؤيدة للشاه وكرههم الشديد لليرانيين جعلنا حذرين . حتى ولو كانوا من أكثر الناس حذقا والاكثر وعيا من الناحية السياسية فلم نكن نرغب أن نمضي وقتنا مع متحدثين بالانكليزية والفرنسية أو الالمانية . فاذا لم أقدر على التحدث بالكردية ، فالفارسية كانت أفضل . ولكن على الرغم من أن جميع متحدثي الفارسية الذين كانوا يلتقون علينا السلام أو يسألون عن صحتنا كل يوم فقد بدا أنه ليس لدينا أصدقاء حقيقيون سوى الجعفريين . كل من التقينا به كان بالنسبة لنا آفيا أو خانما ، سيد أو سيده . حتى الناس الذين كانوا في نفس صمرنا ومكانتنا كانوا يعطوننا فقط أسمائهم الأخيرة عندما كنا نتعرف عليهم ، لذلك كنا نضطر أن نخاطبهم بشكل رسمي . أوضح لنا الجعفريون هم فقط ، منذ البداية بأنهم يريدون أن نناديهم بأسمائهم الاولى بدون ألقاب . وقد كانوا الوحيدين أيضا خارج نطاق أصحاب الدكاكين الجريئين في استخدامهم الضمير " TO " الراجع للكلفة عند مخاطبتنا وهو المرادف الفارسي للفرنسي " TU " وذلك عندما التقينا للمرة الاولى . وقد انتظرونا أن نرد بمثل هذه الاليماء الدالة على المودة ولكننا لم نقدر ، ليس لأننا لم نرغب بذلك ، بل لأننا ماكننا قد تعلمنا الشكليات أبدا . ولدى عودتنا الى الجامعة في الولايات المتحدة كان مدرسا الفارسي قد حذرنا بأننا كغريباء من المحتمل أننا لن نتمتع بامتياز مخاطبة أي من الايرانيين بالشكل المألوف . حتى العديد من الاطفال الايرانيين لا يستخدمون " TO " عندما يتحدثون مع والديهم . وعندما لم نرد بـ " TO " التي استخدمها الجعفريون ، اشتقلوا بسرعة الى الضمير " YOU " الاكثر رسمية .

كانت هذه التبادلية مشكلة بالنسبة لنا ، ليس فقط فيما يتعلق باللغة ، بل أيضا فيما يتعلق بحسن الوفادة وكرم الضيافة . فقد استمر الجعفر يودع بتقديم الطعام لنا ، ولكننا عندما كنا ندعوهم للغداء كانوا يوضحون وبالحاح بأنهم لا يشتهون ما كنا نطبخه ، ولقد كانت شهرزاد تدفع طعامها من جانب آخر في طبقها ببساطة ، بينما تحاول اطراءنا بأن طعامنا لذيذ جدا ، وبعد فترة قصيرة وافقنا على احتذاء ما يرغبون به في قبول دعواتهم بدون أن نقلق أنفسنا بكيفية رد فعلهم هذا . أخذنا اخوهوشنغ وهو عازف جيتار في جولة بالسيارة لنرى للمرة الاولى البحيرة التي تقع على بعد عشرة كيلومترات من المدينة . وقد اصطحبنا شهرزاد وهوشنغ في احدى نزهاتهم في ايام الجمع الى قرية باند .

خلال زيارتي اليومية لشقتهم ، كنت أعقد محادثات طويلة مع ابنة شهرزاد ذات الخمس سنوات ، حيث كانت قد بدأت للتو بتعلم الفارسية من والديها . لقد كانوا يريدونها أن تعرف شيئا مما بالاضافة الى لغتها التركية الأم قبل أن تبدأ بالذهاب الى المدرسة التي كانت تُدرس رسميا بالفارسية فقط . كنت أنا وجيرد غالبا ما نسأل ناصح هوشنغ وشهرزاد عن العادات والاصراف الاجتماعية في ايران ، وفيما اذا كنا نرتكب خطأ في قبول دعوة بسرعة كبيرة أو أننا نوضح آراءنا بصراحة شامة أو أننا نلبس على نحو منافي للذوق ، ولكنهم كانوا دائما يبتسمون ويؤكدون لنا أننا كنا نقوم بكل شيء على ما يرام . وعلى الرغم من تأكيدهم كان الشعور بالقلق وبعدم الراحة يتنامى لدي أكثر فأكثر . فاذنا كنا نتصرف كما يجب ، فلماذا كان يحدث فينا كل شخص في الزقاق ، في الكلية في الحافلات العامة ، بهذا الشكل غير الودي اذن ؟ .

ان الشغل المثالي للمرأة الايرانية هو أن تغطي وقتها مع قريباتها ، او اذا كانت أقل تقليدية مع صديقاتها ، تقتل وقت العصر بالشرشرة وأقداح لانهاية لها من الشاي مع المعجنات وطبعمي

أن مثل هذه المرأة لديها خادمة تمكث في المنزل تنعش الغبار عن الوسائد أو كما في حالة شهرزاد تستخدم المكس الكهربي لتنظيف البسط الثمينة . والجدة تعتنني بالأولاد . كان أطفال شهرزاد يدعون جدتهم بماما ، الكلمة الفرنسية التي اتخذتها الطبقات العليا والوسطى في إيران بدلا من كلمة " أم " وكانوا ينادون أمهم الحقيقية باسمها الأول .

ان لم تتواجد شهرزاد في دكان السلع النسائية أو عند مزيني الشعر أو الخياطين فأنها تكون مع أصدقائها وأقاربها . وذات يوم بينما كنت أمر من أمام باب منزلها دعنتني للدخول ، التفت حولي وأدركت حالا أن سروالي المخملي المهدب وفيمبي ذا النقوش المربعة لايلتزمان المناسبة . لقد كنت محاطة بنساء مرتديات تنورات تصل حتى منتصف الساق ، وأحذية عالية الساق أو كما في حالة شهرزاد حيث كانت مرتدية فستانا أسود مقورا ، معدا للمساء . عندما قدمتنني شهرزاد اليهن توقفن عن الحديث مع بعضهن ليمنحنني ابتسامات عذبة جدا ، وكلمات ترحيب بالفارسية ، وبعدد تحولن الى التركية ثانية ، جلست هناك ، محاولة أن أتصرف كجزء من هذه المجموعة ولكنني شعرت فقط بالغباء والبلادة . فالنساء الإيرانيات كن يشعرنني بالحالة الآتية : أنني مرتدية على نحو أقل منهن ، وأني ذات تعليم مالي ، وعموما يدعنني في حيرة . وماذايهم اذا كانت العديسات منهن لم ينهين الشانوية أو أنهن قد سلمن أطفالهن للجدات ليقدرن على أن يقضين أوقاتهن في حفلات الشاي عصرا ، أو أنه ليس بينهما من لديها أدنى فكرة من السياسة أو الاقتصاد في البلد ؟ لقد كن يشعرنني بالدونية . وقد كنت أشعر بها فعلا ، وذلك لعدم قدرتي حتى على التحدث بلغتتهن . وقفت في حيرة بينما احتشدن جميعهن في غرفة نوم شهرزاد ، حيث كانت آلة تمرين مستوردة ، غير مستعملة تقف في احدى الزوايا . تتبعتهن الى الغرفة وراقبتهم ، وكسل واحدة منهن تخطو على حدة فوق ميزان شهرزاد ، فصدرت عنهن مهمات مفرعة ، لقد أصبحن بدينات جدا حيث أن كل هذه الملابس

المستوردة التي يرغب فيها رغبة شديدة ستبدو مخيفة عليها. ماذا بإمكانهن أن يفعلن؟ كانت المسألة تُناقش بالتركية، لذلك لم أتمكن من تتبعها، وقد تذكرن التحدث معي ثانية عندما هممن بالمغادرة فقط، حيث تحولن إلى العارسية ثانية ليودعنني بصيغ مسرفة في التعبير العاطفي.

في اليوم التالي ناولتني شهرزاد رزمة من الحبوب كانت قد اشترتها من الصيدلية المحلية، حيث كان يباع كل شيء من الأدوية المخدرة إلى حبوب منع الحمل بدون وصفات طبية. وكانت شهرزاد تريد أخذ هذه الحبوب لتحميها من السمّة، وكان طبيبها قد نصحها بتناولها. ولكنها كانت لا تزال متخوفة قليلاً، فالحبوب قوية جداً وربما تسبب لها أعراضاً جانبية. هل لي أن أقرأ النشرة المرافقة - وقد كانت بالانكليزية - وأوضحها لها؟

نظرت في النشرة واستنتجت وبدون معرفة أي شيء يذكر عن علم العقاقير أن هذه الحبوب تعطى للذين يعانون من اضطراب في الخلايا الحية التي تسبب السمّة. وبالقدر الذي يمكنني قوله فإن سمّة شهرزاد لم تكن تعزى إلى أي اضطراب في الخلايا الحية بشكل محض إلى أكل الحلويات والأرز طوال اليوم بدون القيام بأقل ما يمكن من التمارين. ولكني قررت أن أترجم كل المكتوب بالانكليزية وبذلك يمكن لشهرزاد أن تقرأ وتقرر بنفسها. وقد وافقت طالبة في سنة التخرج مجتهدة في الانكليزية والبيولوجيا أن تزودني بترجمة مكتوبة، واضحة أيها الحروف العربية صرفة في صفحة من دفتر الملاحظات الخاص بي. وقررنا معاً أن ننصحها بعدم أخذ هذه الحبوب. وقد كتبت الطالبة في أسفل الترجمة: عليك أن تتمرني بدلاً من أخذ الدواء. بعدئذ نقلت إلى هذه الطالبة - التي كانت في طريقها للدراسة في أمريكا - موقف شهرزاد الساخر.

ففي الجهود الغابرة بقدر ماتكون المرأة بمدينة مثلما كانت

عليه شهرزاد فان ذلك لم يكن يعتبر غير ذي جمالية ، بل أن هذه البدانة كانت تشير الى الغنى والى حقيقة أن زوج المرأة لديه المال الكافي لطعام عائلة على نحو جيد . وفي فترة تقارب الجيل كان كل شيء قد تغير ، كل شيء عدا اسلوب الحياة الذي ينتج مثل هذه السمعة . ان تمرينا حقيقيا في الهواء الطلق للمرأة مثل شهرزاد كان شيئا مستبعدا عن التفكير . فحتى انها لن تخرج من سيارتها أو تتمشى . عندما عدت الى المنزل ، قرعت جرس مسكن شهرزاد واخذت صفحة الترجمة من دفتر ملاحظاتي وأعطيتها اياها فأخذتها بشغف ولكنها حالما شرعت بالقراءة بدأت ملامحها تتجهجج وعندما أتت على نهايتها رمقني بنظرة غريبة وشكرتني ببرود . ومن ثم لم تذكر لي موضوع وزنها مرة أخرى أبدا .

مع شهرزاد وايرانيين آخرين كانت قشرة الحضارة الغربية التي تعطي الاشياء رونقا وجمالية موضوعة بكثافة . حيث لم أقدر أن أميز أين تنتهي الا في وقت متأخر . ففي البداية لم أصدق أن تكون لدى شهرزاد أو السيدة جام آراء مسبقة محفلة يمكن أن تمنعهم من فهمي واحترامي . وبالطبع كانت حياتنا مختلفة تماما ، ولكنني شعرت أن ذلك كان عرضيا فقط ، فقد كنت أنا وهي في نفس العمر ، ولكنني اعتبرت عدم انهاؤها للدراسة الثانوية مجرد سوء حظ . لم يخطر ببالي أن أحتقرها كما كانت تفعل السيدة جام لعدم حصولها على الدبلوم بالمراسلة . والسيدة جام وعلى الرغم من أن لديها ثقل اولاد صغار وزوجا لتعتني به عندما كانت في السادسة عشر فقط واصلت دراستها وتخرجت . ان ذلك لم يدخل الكثير من التغيير على حياتها كامرأة متزوجة من الطبقة الراقية في المجتمع ، فهي وشهرزاد كانتا تلاحقان نشاطات متشابهة ، والاختلاف الوحيد كان أن السيدة جام أكثر تقليدية نسبيا ، فهي التي كانت تقوم بتربية اولادها وليس أمها . وهي التي كانت تطبخ بنفسها تاركة خادمتها وخدامها يقومون بالأممال الروتينية . ولم يحدث لي أن شككت في أن كلا من شهرزاد والسيد جام كانتا تريان نفسيهما أفضل مني أنا ،

تلك المرأة المسكينة ، المضطرة للخروج الى شارع ممتلئ بالرجال بدون سبارة لكي أكسب عيشي . لم أكن أرثدي الازياء العصرية وقلمنا وجد أثاث في منزلي . في البداية لم أحلم حتى كيف أني كنت أخيب أمل شهرزاد ، عندما أخبرت موءجر العقارات أنها سعيـدة بقدوم عائلة أمريكية فقد كانت تنطلق من وهم أننا أمريكيان حقيقيون ، أمريكيان يشربون ويترددون على النوادي الليلية حيث يمكنهم أن يقدموا خمسة وسبعون دولارا ليؤمنوا الدخول في لعبة الرومي . وعلى كل حال كان من الصعب أن نعتبر أمريكيان بهذه المقاييس ، ولكن ربما كانت شهرزاد قادرة على قبول حتى هذا الشكل اذا لم يكن خارجا على العادة . فكل ماكنت أهتم به هو الأكراد .

كنا جالستين بالقرب من التلفزيون عندما قررت أن أخبر شهرزاد بأنني أجد صعوبة في إيجاد الأكراد ، وبما أن ذلك كان يشغل تفكيري كل الوقت فلم أقدر أن أتجنب التحدث منه أكثر من ذلك ، وفي كل يوم لأجد فيه فرصة للاتصال بالأكراد كان يدفعني الى التساؤل عن سبب مجيئي الى ايران . خيم الصمت لبرهة ومن ثم قامت شهرزاد بجهد محموم كي تبدو ودودة ، فقالت :

— ان زوجي يعرف بعض الأكراد ، فهو يعمل في مهاباد . أصبت بالدهشة لدى سماعي هذا ، فشهرزاد لم تذكر قط أن زوجها يعمل في مدينة كردية . وكل ماكنت أرفه هو أنه كان يكسـدس مبالغ ضخمة من النقود من بناء بعض المنشآت الحكومية . ولم يخطر ببالي أبدا أنه يمكن أن يقوم بذلك في العاصمة الحقيقية لكردستان ايران . ان مهاباد ليست عاصمة رسمية ولا تقع في المقاطعة التي اختارتها الحكومة لتسميها بكردستان . ولكن كل من قرأ أي شيء عن التاريخ الكردي يعرف أن مهاباد هي مركز النشاط الثقافي والسياسي الكردي ليس فقط في ايران ، بل أيضا في كردستان الكبرى برمتها .

لسبب ماشرت بوجوب الإشارة الى شهرزاد أنني حقيقة لم أكن

أبحث عن أكراد من مهباد ، لأنني لا أدرس لهجتهم السورانية بل للهجة الكرمانجية التي يتداولها سكان منطقة ريزاي وإلى الشمال منها . أومأت شهرزاد برأسها متشككة ماذا تعرف هي عن اللهجات الكردية وماذا فيها لكي تثير اهتمامها ؟ لقد بسدت سعيدة لأنني لم أكن أرغب في أن ازعج نفسي بأكراد مهباد على كل حال . فسألتني وهي تعرض على نفسها فستان مخمل أخضر ريزفونسي ، منتظرة أن أبادي اعجابي به :

- مارغريت ، ما رأيك بفستاني الجديد ؟

كل ماكنت أستطيع التفكير به هو مهباد ، مهباد . وماذا لو أنني أدرس اللهجة الخاصة بها ؟ فعندما يتعلق الأمر بالأكراد كنت أهتم بما هو أكثر من اللهجات . قلت :

- ولكني أريد أن أراها .

فسألتني :

- ماذا ؟ ترين ماذا ؟

أجبتها :

- مهباد .

بدت على محياها امارات الخيبة والكآبة ، ولكنها ابتهجت بعدد و قالت :

- أوه ، حسنا ، لم لا ؟ ان هوشنغ يذهب الى هناك كل

يوم ، يمكننا الذهاب جميعا . وسنلهو قليلا .

كانت شهرزاد بهائسة تماما وكان هذا واضحا علي محياها .

عندما أتى هوشنغ الى المنزل رُحِبَ كل شيء تلك الليلة على ان نسافر الى مهباد خلال يومين . وحتى الآن لم أكن أعرف على نحو كاف شيئا من العلاقات بين الاتراك والأكراد لأدرك اني سأزور مدينة كردية برفقة العدو . عندما قالت شهرزاد ان هوشنغ يتحدث القليل من الكردية صدقتها ، وعندما قالت أنها ستستمتع برحلة الى مهباد فأظن انها كانت توهم نفسها بتصديق ذلك . فلو سميت المدينة باسمها القديم الذي كانت تسمى به قبل الشاء بسوج بسولاق

لكانت ترددت . ولربما تذكرت أحداث ثلاثة عقود خلت قبل مولدها بقليل ، تلك الأحداث التي غيرت مهاباد وبقية ازربيجان الغربية . فحتى ذكرماكان قد جرى في الايام الخوالي تلك ، يمكن ان يعتبر شيئا منطويا على الخيانة . لربما شهرزاد قد نسيتها . أو أنها لم تخبر بها أبدا . حتى في فترة بقائنا في ايران كان الشاه مايزال مشغولا في اعادة كتابة التاريخ من خلال آتته الدعائية ، ليحول عدم قيامه بأي دور في انسحاب الجنود الروس من ازربيجان الى انتصار مذهل .

بعد الجلوس على كراسي منزل شهرزاد المدثرة كان من الصعب تصور الموقف في نهاية الحرب العالمية الثانية ، تلك الحرب التي أرا د رضاشاه دخولها الى جانب الالمان . في تلك الايام كان هنالك القليل من الآلات ذاتية الحركة في ازربيجان . فقد كان الناس ينتقلون بين المدن والقرى بالعربات أو على ظهور الاحصنه . لم يكن هنالك كهرباء ولا مياه جارية غير موءدة ، ولا تليفونات . والاثاث الاوربي كان أقل انتشارا بكثير ولم يكن أحد قد سمع بعد بآلة التمرين وبفع من النساء كن يتجولن في الطرقات ، وتقرينها لأحد سوى المسيحيات واليهوديات كن يمشين سافرات .

ومع ذلك وعلى الرغم من الظروف البدائية السائدة حينئذ ، فان فترة جمهورية مهاباد تذكر بفرح ليس فقط من قبل القاطنين في مهاباد بل أيضا من قبل كل الاكراد في كل مكان . والسبب للجفرين كانت مهاباد منفذا صغيرا يعوزه الاشراف والحيوية - مغبرة أو موحلة ، وهذا يعتمد على الفصل . لم يشرهنا الجعفريون الى المعالم البارزة في مهاباد عندما ذهبنا الى هناك . فقد كانت بالنسبة لهم مدينة بلا ماض . وقد كان ذلك يقع على عاتقنا أن نميز أهمية مدينة كانت ذات يوم تخص الأكـــــراد وحدهم فقط .

الفصل الثالث

ان الاسماء في كردستان لها دلالاتها الخاصة . ان نسبة وفيات الأطفال مرتفعة في كل من ايران ، تركيا والعراق . ولكن في كردستان الجبلية فهي مرتفعة جدا ، وقد التقيت مرة بكرد في من تركيا كان يدعى " ميثان " الضيف . كان الملا المحلي الذي كان يستشار في هذه الامور قد اقترح هذا الاسم . من الواضح أنهم قد استعطفوا الله بامارة الخنوع هذه ، حيث ان الطفل بالفعل قد كبر الى أن أصبح رجلا . ولكن الحكومة التركية هي أيضا يجب أن تستعطف ، ففي الكردية الضيف هو " ميثان " وفي التركية هو " مسافر " وفقط في المنزل وما حوله بين الاصدقاء الأكراد يبقى " ميثان " . أن أكراد تركيا معتادون على مثل هذه الازدواجية ، فالمدينة التي كانت مسقط رأس الميثان كان لها أيضا اسمان مختلفان ، اسم فرشته الحكومة واسم قد استخدم منذ زمن غابر بقدر ماتسع المرء الحيلة في التذكر . ففي المحادثات غير الرسمية خارج مسمع الحكومة والبوليس السري يستخدم الناس دائما الاسم القديم على الرغم من أنه قد محي من الخرائط الرسمية منذ سنوات عديدة .

تماما مثلما كانت أورميا قد غيرت من قبل الشاه الى ريزاي كذلك كانت سوج بولاك قد قلبت الى مهباد ، والاختلاف يكمن في أن مهباد كلمة حميدة نسبيا مع الاصول الايرانية ، بينما رسزاي قد أعيد تسميتها بهذا الاسم نسبة لرضا ، الوالد المفقوت للشاه الاخير . ولكن على الرغم من كون اسم مهباد حميدا فان سوج بولاك قد بقيت بثبات سوج بولاك وهو اسم تركي يعني الماء البارد . ولمجرد حقيقة أن الحكومة هي التي قد فرغت الاسم الجديد عليهم فان ذلك كاف لجعل الأكراد يرفضونه . لقد كانت سوج بولاك وستبقى سوج بولاك .

ان أول من صحح استخدامي لمهاباد كان أحد تلاميذي الأكراد الذين أتوا من تلك المدينة . وكان يقال أن هذا الطالب ذو القامة الفارعة والوسيم هو متحدر من سلالة أحد قواد الجمهورية الكردية التي أسست سنة ١٩٤٦ . ومثل طلاب أكراد آخرين في الكلية كان قد افتتن لدراستي لغته الأم . وفي أحد الأيام وبعد انتهاء المحاضرة تحدثت بلهفة عن رغبتني في زيارة مهباد ، ذلك المشروع القابع في ذاكرتي منذ وصولي الى ريزاي . ومهاباد تقع عند النهاية الجنوبية للبحيرة على بعد ثمانين كم فقط .

- نعم انها مدينة جميلة .

أجاب طلابي الأكراد على نحو جماعي بينما كانوا واقفين حشوا مقعدي . فكرت في نفسي : أن هذه هي الفرصة المناسبة كي أسأل اذا كانوا يعرفون كردبا يدمى حسن قد التقيت به في الولايات المتحدة وكانت بلدته مهباد . ولكن وجوه طلابي توجهت لدى ذكرى اسمه فأشار أحدهم قائلا .

- لقد قتل السافاك أخاه .

- ظننت أنه قد فرق في الرحلة العسكرية في منيسوتا .

قلت ذلك وأنا أشعر بحيرة ازاء افتراض أن البوليس السري الإيراني كان قد نفذ حكم الموت بأخي حسن . ربما لم يسمع هؤلاء الطلاب قط بالتفصيل الحقيقية . صرح أحد الطلبة :

- ان الذي يجيد السباحة لا يمكن أن يفرق . لقد قتل

السافاك . أوماً الآخرون بروءوسهم مؤكدين ذلك ، وهم يحدثسون في مشككين . هل أنا مبعوث من السافاك لأنهم بغير ذلك ؟ .

هذا ما كان يتعلق بطلابي الأكراد . وهنا في ايران حيث لا توجد جريدة تنشر أخبارا موثوقة ، كانت لديهم أخبارهم المستمدة من مصدر موثوق . أما أنا وبعد التحدث الى حسن في أمريكا فلتد

تصورت أنه كان مجرد حادث مأساوي، ماهي حقيقة الامر ؟ طالما هي مرتبطة بالسافاك فلن نعرفها أبدا . فكل الحوادث الأليمة في إيران يلفها ضباب كثيف . ففي غضون اقامتنا هناك انهدم سقف مبنى مطار طهران تحت ثقل ثلج الشتاء . وقد قتل فيه المئات من المسافرين ، وذلك اعتمادا على المصدر الذي أعلن عن الحادث . وكان الطلبة في إيران لسنوات عديدة يقومون باضرابات يحيون فيها ذكرى اليوم الذي يقولون أن أربعة وأربعين طالبا في جامعة تبريز قد قتلوا فيه على يد الجيش . ومع ذلك فان شهود عيان يدعون أنه لم يكن هناك قتلى .

انبعثت حقيقة صعبة من خلال مناقشاتي مع طلابي المهاباديين فلم يخاطر أحد بنفسه كي يريني المدينة . وقمت أنا وجيرد بمحاولات عديدة لأخذ الحافلة الى هناك لوحدها ، ولكننا كنا نفشل فيها . فقد رفض الموظف الجالس في مقعد في محطة الحافلات الصغيرة القذرة ، الواقعة قرب بازار ريزاي أن يعطينا مقاعد مستقلة فمن الواضح أنه لم يرق في حياته أجنيبين بملابس حسنة يريدان الذهاب الى مكان مثل مهباد بالحافلة . والآخرون في حجرة الانتظار كانوا يرتدون أسمالا بالية وكانوا جميعا يحدثون فينا بينما كنا نتفحص الجدران بحثا عن لائحة أو قائمة أسعار ولكن بدون جدوى .

والآن وبعد مضي شهر على وصولنا الى ريزاي وجدنا أخيرا وسيلة للوصول الى مهباد . وحقيقة أننا كنا ذاهبين برفقة الاتراك لم تزعجني . لقد كنت سعيدة جدا لكوننا سنذهب على كل حال . راجعت في ذهني ماكنت أعرفه عن المدينة . كان أصدقاء لنا قد خدموا هناك في فرقة السلام قبل ثماني سنوات ، وقد وصفوها لنا على نحو شامل ولكن من الواضح أن الاشياء قد تغيرت منذ ذلك الحين . كان أصدقاؤني قد نصحوني بأخذ ملابس خاصة لأرتديها في شوارع ريزاي . ولكنني لاحظت مباشرة أن ارتداء السروال كان قد أصبح دارجا لدى المرأة الإيرانية العصرية . قالوا اننا لن نجد ماء نقيا ولاثلاجة ،

أو سخانة ماء حيث حصلنا عليها مباشرة . وكانت هنالك جشتان معلقتان في سوق مهاباد في يوم وصول أصدقائنا اليها قبل ثمانين سنوات . وقد كانتا جشتي كرديين اتهما بمعارضة السلطات . كان الأكراد خلال اقامة أصدقائي هناك مايزالون يناضلون ضد الحكومة علنا ، وكانت الحكومة تمثل بالأكراد في السوق . في الوقت الذي وصلنا فيه كانت هذه الاساليب قد بطلت . كانت الزنانات الخفيفة للسافاك وقوات الدرك الريفيه النشطة تسبتر الى حد ما على المناطق الريفيه .

إذا كانت للأسماء في كردستان حياة خاصة بها ، فان الاسم الرنان المتمسم بالطهارة " چارچرا " ويعني حرفيا القناديل الاربعة . هو احياء لذكرى اثنين من عمليات الاعدام ، فقد كان قد نفذ حكم الاعدام في اثنين من قواد الجمهورية الكردية هناك . وموعـخـرا كانت ساحة " چارچرا " المستديرة بقناديل شوارعها الاربعة عند نقطة التقاطع المغبرة قد ازيلت ، والشوارع الموءدية اليها قد أعيد تسميتها وبسبب مهاباد فان طهران لن تشق بالأكراد أبدا . فالأكراد جميعهم أعداء والخيانة كامنة في نفوسهم وهم مخربون بالنسبة للدولة التي تحكم من طهران . وبالانسحاب سنة ١٩٤٦ يستنبت الفرس بأن الأكراد قد قضوا على أنفسهم الى الابد ، كانت مهاباد بالسبب للشاه وللإيرانيين بمختلف قناعاتهم السياسية مثالا لما يستطيع أن يفعله الأكراد وما سيفعلونه ثانية ، إذا أتاحت لهم الفرصة . وكذلك فان تبريز هي رمز لأحلام القوميين الأتراك واضطهادهم . ولكن قصة الجمهورية التركية متعلقة هنا بالمحيط الخارجي .

في سنة ١٩٤٦ كانت كردستان ايران قد حررت على نحو غير متوقع من قبضة رضا شاه المحكمة ، الذي كان قد استخدم أساليب وحشية ليسيطر على الأكراد وعلى غيرهم من المجموعات القبلية المقاتلة . ومن جملة ما قام به من اعتداءات ، أنه اعتقل قواد قبائل في طهران ، فرّق أراضيهـم ، وحرّم اللباس التقليدي عليهم .

في أواسط الحرب العالمية الثانية احتل البريطانيون ايران الجنوبية قرب حقول النفط بينما تحرك جنود الجيش الروسي نحو الشمال الغربي على طول الحدود التركية الروسية وكان ذلك - وعلى حد زعمهم - للتأكد من أن رضا شاه لم يدخل الحرب الى جانب الألمان . ولكن في الحقيقة كان لكلا البلدين مخططاتهما في ايران . وعلى نحو خصوصي مطامع في نفطها . بما أن حضور الجنود السوفييت قد منع الجيش الفارسي على نحو فعال من فرض النظام القائم حينذاك على كردستان فقد مضت مهاباد أو " سوج بولاق" بثبات أكثر تجاه الحكم الذاتي . والروس الذين كانوا أكثر فعالية بين الأتراك في الشمال رفعوا القيود عن الأكراد .

وأخيراً في سنة ١٩٤٦ وبتشجيع من الروس ، انبثقت دولتان من بقية ايران وأعلنتا استقلالهما . وكانت جمهورية ازربيجان كبرى الاثنيتين قد أسست في تبريز التي تقع على بعد ١٨٠ ميلاً الى الشمال من ريزاي . وكان يديرها الأتراك الذين جعلوا من لغتهم التركية اللغة الرسمية في الجمهورية . حتى ذلك الحين كانت الآزرية لغة لا قواعد لها ، مهمة رسمياً من قبل طهران ومحظوظ تداولها العام . وقد شجع الروس الأتراك الآزريين وساعدوهم على اعلانهم عن الاستقلال الشفافي والسياسي من طهران . وكانت الحكومة الجديدة لجمهورية ازربيجان قد قبلت باحكام على شاكفة التفكيك والعمل والسلوك السوفييتي مع منظمة بوليس سري محكمة .

على نحو أبعد الى الجنوب ، وبدعم أخف من الروس كانت الجمهورية الكردية الأصغر ، وكان يديرها قواد مجتمع يتمتعون باحترام بالغ من مهاباد مع ممثلين عن المناطق القبلية المحيطة . لم يكن هناك بوليس سري والتوجيه الروسي كان يتصف بالقلّة نسبياً وكان جيش الجمهورية الكردية مشكلاً على نحو رئيسي من أتباع قواد القبائل المحلية المختلفة ، ولكن ، كان من الصعب أن يكفي لمصد هجوم منظم . كان على الجمهورية أن تدافع عن نفسها ماحلاً أم آجلاً. ولكن عند ما أنجبت مهاباد جنرالها الاول الحقبلي لم يرحب به بأذرع

مفتوحة .

في الوقت الذي أسست فيه جمهورية مهباد ، تسلم رئاسة قبيلة البرزاني في شمال العراق قائد قبلي جبار ، متوسط العمر ، ادعى ملا مصطفى البرزاني . كان البرزانيون مقاتلين مشهورين فبالإضافة الى محاربة أعدائهم التقليديين مثل قبيلة زيبساري ، كانوا في وقت قريب جدا يحاربون البريطانيين . وردا على ذلك فقد قصفت القوى الجوية الملكية مقاطعة برزان وأجزاء أخرى من كردستان وقد حاءت جمهورية مهباد في وقت احتاج فيه الملا مصطفى للخروج من جبال برزان ، حيث كان يجتذب بأناء الى فخ نصبه الانكليز . بالتواطؤ مع قبائل معادية مجاورة . في ١٩٤٠ كان البريطانيون قد قرروا فرض النظام في كردستان العراق بأية وسيلة . وقد رأوا في اتباع البرزاني القبليين تهديدا مباشرا لخططهم لنقل زمام السلطة في العراق الى العرب مبعدين بذلك كلا من الأكراد والآشوريين . وعلى نحو مغاير من العراق كانت ايران قد قسمت وسادت فيها الفوضى خلال الحرب العالمية الثانية ، مقدمة بذلك أرضية مثالية للأكراد الراغبين في حكم أنفسهم بأنفسهم . قرر البرزاني أن يعبر برجاله الحدود ، وأقام مركز القيادة في مهباد . في البداية استقبل البرزاني بحذر ، وعلى الرغم من أنه كان قد هرب لتوه من الأسر البريطاني ، فقد كان يرتاب فيه على أنه عميل بريطاني ممن وجهة نظر أذربيجان التي يشرف عليها السوفييت . وموؤخرا فقط عندما تحرك الجيش الفارسي على مقربة من مهباد تثبتت براءة البرزاني وقواته بمآثرهم الشجاعة .

على الرغم من أن الدولة الكردية كان يتوفر فيها القليل من الديمقراطية ، فان هذا القليل كان يمثل تقدما كبيرا عما كان يسبقها فقد طرد البوليس الفارسي والبوليس السري والجيش من المدينة ورفع العلم الكردي ، وقد رفض فعلا سكان المدينة في الشوارع ، وظهرت الجرائد والكتب بالكردية مباشرة ، وقد استخدمت الكردية في المدارس ،

وفي دور العدل والقضاء التي كان يديرها قضاة مسلمون تقليديون ، وكان القاضي محمد رئيس الجمهورية الصغيرة نفسه واحدا ممن هوءاء القضاء .

على الرغم من أن الأكراد كانوا قد تمتعوا بحكم ذاتي فعلي لسنوات عديدة خلت ، فإن الجمهورية الحقيقية استمرت قرابة سنة واحدة . خلال ذلك الوقت وعد الروس بدعم كلا الجمهوريتين الكردية والازربيجانية . ولكن القوى العربية التي لم تكن تريد أن ترى الجمهوريتين المحميتين من قبل روسيا في ايران سعت جاهدة لازالة القوى الروسية . وأخيرا انسحب الروس من الجمهوريتين الفتيتين اللتين شجعتهما مع قليل من التحذير أوحى بدونه أيضا وأصبحت الجمهورية الازربيجانية أسطورة بين عشية وضحاها - وعهد الارهاب يقول شيئا والحلم القومي يقول أشياء أخرى - وواجه الأتراك عقدا من المجاعة ، وكان سوء المناخ وندرة المحاصيل سببا في ذلك جزئيا . ولكن في فترة اقامتنا في ايران ، وبعد مايفارب ثلاثة عقود كان الناس يقولون : ان طهران لن تسامح تبرير أبدا . تلك التي كانت أكبر مدينة في ايران ذات يوم وكانت عاصمة السلالة الحاكمة ، وقد تركت لتبلى في غبارها ، وأصبحت منسية عندما وضعت الخطط الصناعية فاضطر سكانها الى الهجرة الى طهران بحثا عن العمل .

في مهاباد ، في النهاية الأخرى من البحيرة ، كان مصير الأكراد أكثر دموية ، لاعتقادهم أن الإيرانيين لن يقوموا بأي عمل انتقامي ضدهم . لم يكونوا على علاقة متينة بالروس ، ولم يرتكبوا تجاوزات الأتراك في الشمال منهم . مع ذلك ، وبعد معارك عديدة وبعض المفاوضات مع الحكومة الإيرانية ، اعتقد البرزاني أنه من الحكمة الفرار مع جيشه ، وقد عرض عليه اللجوء الى ايران ولكن بشرط أن يسلم هو ورجاله كل أسلحتهم وأن يستقروا في مكان بعيد من مهاباد . ولكنه قرر مغادرة ايران هو ورجاله في ظروف بالغة القسوة جنبا الى جنب مع عائلاتهم ، وكانوا يطاردون في الجبال على

طول الطريق حتى الحدود الروسية . من ضمن الأكراد الإيرانيين كان هنالك من لايفضّر الحب للبرزاني . فاحدى القبائل على نحو خاص وهي قبيلة " الهركيين " تعاونت مع جيش الشاه بالقيام بغارات متكررة على البرزانيين وهم يفترون الى الشمال . ومرة أخرى انقسمت كردستان الى اتجاهات قبلية وكل مجموعة تحاول أن تستفيد على حساب الأخرى . يبدو أن هذا هو بالضبط ماتريده الحكومات من الأكراد أن يفعلوه . وبعد مرور ثلاثين سنة بداواضا أن الشاه لم ينس موقف الهركيين ذاك ، حيث تتفاخر قرى الهركيين بالمستوصفات التي تفتقر اليها القبائل الأخرى .

قبل أن تسقط جمهورية مهباد مباشرة وقبل أن يتقصد الجيش الإيراني نحو الداخل ، ذهب البرزاني الى القاضي محمد الرئيس ليسأله اذا كان يريد الذهاب الى روسيا . لكن القاضي .

— أما لبساطته وألمانيته البالغة — اختار البقاء فسي مهباد . فقد شعر بعدم قدرته التخلي عن الناس الذين مضوا معه في هذه المجازفة الجريئة من غير اعتبار للحكومة الإيرانية ، ومن المحتمل أنه لم يصدق حقيقة أن الحكومة ستكون غيبية ، لتجعل منه شهيدا . ولكن وقبل مغادرة البرزاني بثلاثة أسابيع كان القاضي واثنا من أقربائه قد أعدموا في ساحة " چارچرا " القناديل الاربعة في سوج بولاك . ان كلا الاسمين — چارچرا وسوج بولاك لم يعودا يعزيان لأي مكان في ايران ، ومهباد كغيرها من المدن أرهقت بحمل اسم شارع بهلوي وبتمثيل الشاه البهلوي ووالده البرونزية العديعة الذوق . لكن أهالي مهباد لن ينسوا ماحدث لهم أبدا .

حتى بعد قراشتي لتاريخ الجمهورية الكردية كنت لاأزال أدرك مضامينها فقط على نحو غامض فيما يخص العلاقات بين الأكراد والأتراك في ايران في الوقت الحاضر . في سنة ١٩٤٦ قاومت دولتان طهران وتحدثت الحكومة المركزية بالقيام بأي شيء فدها .

وكان كل من الاتراك والاكراد قد تلقيا الكثير من التشجيع من الروس ليتعاونوا معا ، ومع ذلك فطوال الأحد عشر شهرا من وجود جمهورية مهباد ، كان الكثير من الاكراد في شمال مهباد ، في منطقة ريزاي يرون الاتراك الازربيجانيين - وليس فرس طهران أعداء حقيقيين . والازربيجانيون من جهتهم كانوا قد تجاهلوا الاكراد قدر استطاعتهم . وبما أن المدن الواقعة الى غربي البحيرة و ريزاي وحوالي تبريز كانت تقطنها الأغلبية التركية ، فقد شعر الازربيجانيون الاتراك بالامان عند منعهم الجماهير الكردية التي تشكل كما ضخما في القرى المحيطة من أن يمثلوا أنفسهم ، أو أن يؤخذوا بعين الاعتبار . وهذا الوضع لا يزال مستمرا حتى هذا الحين . ويشكوا الاكراد من أن المدرسين والطلاب الاتراك يتحدثون التركية في المدارس العامة في ريزاي ، حيث من المفترض أن تكون الفارسية هي اللغة الرسمية . ويقول الاكراد بأنهم سيتذكرون طالما فيهم من لديه القدرة على التذكر أن الاتراك لم يتجاوبوا معهم على الوجه الاكمل . الا أنني احتجت الى فترة من الزمن لكي أدرك ادراكا كاملا عمق التعصب العرقي في ريزاي . كان جميع جبراني اتراكا بينما كان معظم زملائي في العمل من الفرس . وتماما مثلما لم أشك بماهية شعور الجفريين تجاه الاكراد ، كذلك لم أكن اعلم ولوجزفيا كم كان الاساتذة الامريكيين والاوربيين في الكلية يحتفرون جبرانا . كانت رحلتنا الاولى الى مهباد رحلة لشخصين بريئين ، مثلما كانت لقاءاتنا الاولى غير المتوقعة والعديد في اهران . وصلنا الى مهباد عن طريق عام كان لا يزال قيد الانشاء ، هذا الطريق المعبد يوصل تبريز بكرمناشاه في الوقت الحاضر . لم نرى شيئا لعدة أميال سوى سهوك موحلة ممتدة الى جانب البحيرة وفي احدى البقاع شاهدنا قطيعا من الجمال لايفسر وجوده هنا على اعتبار أنه ليس من الحيوانات المألوفة في أذربيجستان الغربية . وحالما هادرنا السيارة في شارع بهلوي في مهباد وسط منطقة الجزء الأدنى من المدينة شعرت بأنه كان لزاما علينا عبور

الحدود . أن النساء في الشارع المهابادي لا يضعن الغطاء . فهن لا يحتجنه - ففي مهباد القليل من الاتراك والفرس ، والشوارع مزدحمة بالرجال الأكراد المرتدين العمامات الضخمة والسراويل الفضفاضة التي تضيق عند الكاحل . وقد اكتشفت حالا ان الأكراد لا يحدقون في بطيخة الاتراك المتغطرسة . على الرغم من أن مهباد بطبيعتها محاطة عند حوافها بالجبال أكثر من ريزاي القابعة فوق سهل واسع فان مهباد التي تقع في واد الى حد ما ، هي أكثر اشراقا واضاءة . وربما كان تفسير ذلك هو غياب العبايات .

عندما خرجنا من السيارة لاحظت أن شهرزاد لم تظهر لتقاسمني حماسي لهذه المدينة الكردية . فقد لغت شالها الاسود المحبوك بشكل جيد حول جسدها بعصبية عندما قادتنا على نحو سريع الى دكان تذكارات يفتتبه ويديره تركي من ريزاي . قضينا فترة الصباح هناك حسب ارشاداتها . وبعد ان قمنا ببعض المشتريات عزمت على الاتصال بعائلة حسن المهابادي الذي التقيته في امريكا . وحالما ذكرت اسمه تغير جو المحل ، فأوحى اليها صاحبه ان اخا حسن ربما يكون - وعلى ما هو شائع - في السجن . ولكنني رفضت أن يشبطوا عروني وبذلك ساعدتني شهرزاد على مضي كي اهتف الى منزل عائلة حسسن . وحين ظهر رجل بدين لا يشبه حسن في شيء عند مخزن التذكارات راودني الشك فيه ، متساءلت فيما اذا كان هذا حقا ، أخو حسن أم أنه من عناصر السافاك . لم تكن هناك وسيلة لمعرفة ذلك . لماذا كانوا يفكرون في وجوده في السجن ؟ هل كان مجرما ؟ فأننا لم أقم المدة الكافية في ابران لأمير بين المقياس الامريكي والابراي في أسباب الاعتقال . اعطانا أخو حسن رقم هاتفه مكتوبا بأرقام انكليزية مشكلة بطريقة غير متقنة وبعدد مضي بعيدا مما أراح شهرزاد كثيرا . لقد اراد أن نتصل به ونجتمع في المرة القادمة في مهباد عندما نحضر اليها ، ولكننا لم نفعل ذلك أبدا .

ان تاريخ حسن واخوته الى حد ما هو نموذج لما كان على

المقيميين في مهاباد أن يمانوه في غضون سنوات . ففي سنة ١٩٥٠ . وبعد فترة ليست بطويلة بعد سقوط الجمهورية ، كان هنالك أخ آخر لحسن وقد كان في الثلاثين من عمره آنذاك ، حين جمع مع شباب آخرين وحجزوا في كوخ صغير لمدة اسبوع وكان البوليس قد غطى أرضية الكوخ بالماء بعمق قدم وقال حسن أن اخاه ذاك لم يشف من ذات الرفة التي اصيب بها أثناء التعذيب . كان قد أتهم بنشر مواد تحريضية وبعدئذ أفرج عنه . لقد تفررت رشتاه فقط ، أما الآخرون فلم يكونوا محظوظين مثله . كان ذلك في الزمن الذي يعتبر فيه الادب الديني عملا تحريزيا . وحسن نفسه وأخوه الذي قتل في احدى المخيمات العسكرية كانا فعلا قد رتبا امرهما للذهاب الى الولايات المتحدة ، زاعمين انهما سيذهبان للدراسة ولكنهما حقيقة وقبل كل شيء أرادا أن يبقيا على حياتهما . وبعد عودتي من ايران ، ولدى روميته لحسن عند ذلك فقط ، افهمني وأنا في امريكا سبب افتراض تلاميذي المهاباديين مباشرة ان السافاك قد اغتالوا اخاه . ان حوادث موت اناس من مهاباد غالبا ما تكون غير طبيعية ولا مرضية .

عندما سرنا مع شهرزاد الى فندق " مامون سراي " الحكومي ، المحلي ، الصغير ، القينا نظرة خاطفة على المدينة . كان دربنات من الرجال الباطعيين المتجولين ينادون على بضائعهم التي تضم راديووات ومسجلات وبضائع مستوردة اخرى على طول الطريق الرئيسي . لقد كانت مهاباد مشهورة بكونها قبلة البضائع الغريبة المهربة ، وبما أن الاتراك على جانبي الحدود كانوا يتعاملون مع بعضهم البعض بيسر ليتجنبوا الجمارك من غير ريب ، فان سلطة التهريب قد كسرت عندما استخدمت الحكومة العراقية النار وجردت عناصرها لتحدث ما يبلغ امتداده خمسة وعشرين كيلو مترا من الارض المحروقة بين قراها الكردية والقرى التابعة للبلدان المجاورة لها في ايران وتركيا .

بعد أن تناولنا الغذاء في غرفة خاصة في فندق مامون سراي - حيث لاتأخذ النساء غذاءهن في حجرة الطعام العامة - تجولنا أنسا وجيرد لوحدا عبر الازقة الصغيرة الموحلة وعلى ناصية الشارع الرئيسي وقوت الازقة الملتوية والمنازل المبنية من الطين شعورنا بأننا كنا فعلا في بلد آخر . كان منزلنا الخاص مبنيًا من الاسمنت مع قطع صغيرة من الزجاج الملون ، وكانت مرايا مكسرة تبرز في الواجهة . وفي وقت لاحق ، عندما سرنا الى موقع الانشاء الذي يعمل في هوشنغ ظننت ان مهابد ستفخر حالا بمنازل مثل منازلنا . كانت منازل هوشنغ تبني في صفوف مستقيمة ، طويلة وكثيرة . والانابيب تتدحرج في تلك الانحاء بين غبار الشارع غير المنتهي ، وكأن للمنطقة مظهر اعزل ، كثيب ، مغاير تماما للمتاهات التقليدية للازقة بجدرانها المنخفضة وحداثتها الصغيرة . غامرني شعور بانني ساتخلي بسعادة عن سخانه الماء والثلاجة لاعيش في مهابد القديمة .

امضينا يومنا في مهابد على عجل ، وانتهى هوشنغ من عمله ، وتحررت شهرزاد من حملها المقيت لترينا تلك الانحاء . كنا نتتبع مجرى النهر خارج المدينة ، عندما انعطف هوشنغ وبسودون سابق انذار من الطريق الرئيسي الى شارع مستقيم منحدر ، ومفروش بالحصى بشكل حسن . بعد بضعة كيلومترات ادركنا ساحة مستديرة ، وكانت تشبه تلك الساحة التي تشير الى بداية مهابد تماما ، الا أن هذه ، تتميز بعدم وجود تمثال للشاه او والده ، وانعدام العشيب في وسطها . داخل هذه الساحة المستديرة كان يقف مجموعة من الرجال بعضهم كبار وبعضهم شباب ، وجميعهم مرتدون البسة ملوثة وممزقة من الطراز الغربي . لم أر زوجا واحدا من السراويل الكردية الفضفاضة او حتى عمامة . كانت شهرزاد تستشيط غضبا في المقعد الامامي عندما ترجل هوشنغ وبدأ بالحديث مع زمرة من الرجال. قررنا انا وجيرد ان نخرج أيضا ، ونلقي نظرة على تلك الانحاء .

حالما خرجنا من السيارة ، اندفع بقية المتجمهرين

باتجاهنا ليمعنوا النظر فينا عن كثب . ألقت الشمس التي كادت تأفل بسرعة بظلالها الوارفة على المشهد بشمولية تامة ، جاعلة وجوه الرجال الملوحة بالشمس تبدو أكثر سمرة . بينما كانوا يحدقون فينا ، شعرت بعداء قاهر موجه للباسنا النظيف غير الممزق ، ولوجوهنا الشاحبة المحمية ، ولفضولنا غير المخفي . وفجأة قال جبرد :

— الا تلاحظين شيئا غريبا في هذا المكان ؟

صدمت بسمة الاكتشاف المميزة في صوته وتجهمت ملامحي لذلك . من الواضح أن المكان كله كان غريبا جدا ، لقد كنا محاطين بمجموعة من الرجال الأتراك الفقراء مقراء مدقعا والعدائين ، حيث كانوا يقفون في الطريق يحدقون في زوجين غريبين عنهم .

في الجانب الآخر من هذه الساحة الدائرية الطينية المحاطة بطريق مفترش بالحصى كانت هناك مجموعة صغيرة من المخازن الشبيهة بالأكواخ تباع الفاكهة والخضار وبعضا من البضائع الجافة المعبورة، هتف جيرد قائلا :

— لاتوجد سيارات هنا . انهم ينشئون هذا الشارع المشجر وهذه الساحة الدائرية السخيفة في مكان لاهمية له . فلا احد من هؤلاء الناس يقدر على شراء سيارة . ان الحكومة تنشئ طريقا لن يعود عليهم بفائدة .

وقبل ان يمضي جيرد في تفصيلاته اكثر ، رأينا هوشنغ يرجع ويدخل سيارته . أسرعنا نحن أيضا بالدخول ووبختنا شيراز بعدد قائلة : أن الرجال هنا ليسوا معتادين على روية النساء . اقترح هوشنغ في محاولة منه لتلطيف الجو ، أن نقوم برحلة جانبية الى واد آخر لرؤية بعض من البقايا الاثرية الممتعة ، وتجادل الاثنان لبضع دقائق ، وبعد ذلك اقر هوشنغ أن القيادة لن تكون مأمونة الجانب حول الجبال في الظلام . لقد بدأ أن الطائرات العراقية كانت تحلق على مقربة دانية ، من الرؤوس ،

تقصف القرى الكردية في الجانب الايراني وكذلك في الجانب العراقي
من الحدود . وقد فحك هوشنغ كما لو أن هذه كانت نكتة بارعة .
عند هذا شعرت بقشعريرة تسري في بدني .

اليوم الذي تلى رحلتنا الى مهاباد ، احتفل فيه بالعيد ، اشارة
الى انتهاء رمضان ، بعد فترة صيام المسلمين لمدة شهر . سمعت
اصوات الضيوف في يوم العطلة هذه ، بينما كنت أمر بباب الجعفريين
نصف المفتوح . فعرفتني على ابن عمها الذي كان يعمل في مهاباد
كمراقب على التبغ .

- مهاباد مكان بغيفي .

قال ذلك استجابة لاجبار ذهابي الى هناك منذ فترة قريبة جداً .
أوماً بقية الاثراك الموجودين في الغرفة بالموافقة على ذلك ، والحت
شهرزاد في كلامها قائللة :

- لكن مارغريت تحب مهاباد ، اليس كذلك ، يا مارغريت ؟

- نعم .

قلت ذلك بينما كان يحدق في الجميع .

بعدئذ انفجرت شهرزاد قائللة :

- كما تعرفون ، ان مارغريت تحب الاكراد ، وتريد أن تتعلم
الكردية .

عند ذلك جعظت عينا ابن عمها ولم يغف احد آخر اي شيء .
ابتسمت شهرزاد وهي تقول موضحة :

- الغرباء يهتمون بمثل هذه الاشياء .

ومن ثم غير ادهم موضوع المحادثة .

بعد رحلتنا الى مهاباد ، نظرت الى قطعة الورق المجددة

المكتوب عليها رقم هاتف الرجل الذي ادعى انه اخو حسن عندما كنا في مهاباد . كان يلح علينا ان نهاتف له حالما نتمكن من ذلك . ولكن كيف ؟ لقد ترددت في طلب الهاتف من شهرزاد لاستخدمه بعدئذ اخبرني احدهم ان الهواتف في مهاباد لم توصل بعد بتلك التي توجد في مدن ريفيه اخرى . لم اعرف ما الذي سأصدق ؟

كنت على وشك استخلاص هذا الدرس في ايران ؛ انه عندما يرفض أحدهم أن يعطيك معلومات عن كيفية الوصول من النقطة " أ " الى النقطة " ب " - كما حصل معنا في محطة الحافلة عندما حاولنا للمرة الاولى ان نذهب الى مهاباد - او عندما يقول ؛ انه من الممكن الاستطيع الاتصال من مدينة باخرى ، فانه يحاول قول شيء مغاير . وعندما قالت شهرزاد لنا في مهاباد ؛ انها لاتعرف أي مكان آخر لتأخذنا اليه سوى دكان التذكارات لمصاحبه التركي ، فلقد كاثت تخبرنا بأنه علينا الا نكون في أي مكان آخر سواه . لقد كانت هي وهوشنغ يحاولان بحذر ان يحصرا زيارتنا هناك داخل سيارتهما فقط ، وفندق مامون سراي - الحكومي وكان يقتنيه تركي . عندما اخترقنا الحواجز التي وضعوها لنا مصريين على روية حسن ، وذهابين قسي جولات قصيرة ، وخارجين من السيارة في الساحة المستديرة ، كان من الطبيعي لهم ان يضطربوا لذلك . مع انهما يعرفان اكثر منا أي مكان كان مكان تواجدنا .

كل امرئ في ايران له مكانه ، فالخدم والعمال لهم اماكنهم في حافلات المدينة التي يكلف الركوب فيها ثلاث سنتان فقط . الموظفون ومعال آخرون ذوو الياقات البيضاء ، لهم اماكنهم في حافلة هيئة الاساتذة ، التابعة للكلية ، او الحافلات المزودة من قبل مكاتب الكلية . هذه الحافلات حرة . والمشتغلون بهم تفتضي ثقافة مثلنا ، من المفروض عليهم ان يقتنوا سيارات ، حيث كانت اجرة الركوب في زمن اقامتنا مايربو على ٥٠٠ر من الدولار . ان هذا الحس بالمكانة قوي جدا ، لدرجة انه عندما اضطر زميل لنا لبيع سيارته تحت ضغط ظروف مادية ، كان يمشي عدة اميال بدلا من أخذ حافلة

المساعدين .

للاكراد مكانهم ، خارج مدينة ريزاي . كان ذلك جزءاً من الامور المزمجة جدا من اللاجئين . لقد كانوا يصرون على كونهم اكراد على نحو علني في مدينة تركية . اما مهاباد ، فقد كانت العكس تماما . فهناك لا ينتمي اليها الاتراك . ربما كان ذلك هو السبب في أن الحكومة كانت تنشيء مدينة صناعية ، في ضواحي مهاباد لتجلب اليها الاتراك والفرس وتجعل المنطقة أقل كردية على نحو فعلي ، فكلما اصبحت كردستان اكثر اختلاطاً ، فان سكانها سيجدون صعوبة اكثر في الانفصال عن الحكومة المركزية شانية . لقد كانت الحكومة العراقية تستخدم هذا الاسلوب لسنوات ، لتقلص من مساحة كردستان التابعة لها .

كان الزمن ينقضي على نحو غير معروف لحكومة الشاه ، وكان قد تأكد بشكل قاطع ان المجندين في الجيش من كردستان ، أوفسي الحقيقة ، من أي من المناطق العرقية المكثفة ، لن يركزوا بين الشعب المنتمي اليه . كانت الحكومة قد ارسلت حكاما ومحاظيين مهيشين في طهران ، وموثوق فيهم بانعدام اي قاسم مشترك كاللغة والشعور بالتعاطف بينهم وبين هؤلاء الناس الذين تحسنت ادارتهم ، وكانت قد افرت روموساء القبائل واستخدمتهم لقيام مبلغ من المال . لكن حلم الجمهورية والاسماء سوج بـ ولاق وچارچرا تواصلت بين الاكراد ، على الرغم من جهود السائك القصوى لاجتثاثها .

الفصل الرابع

كنت مضطجة على اريكة طويلة باتجاه بعض الستائر الفينيسية نصف المفتوحة ، محاولة النظر الى الوجه العريض والودود للـسيد جوهر خانه ، اكثر من خطوط النور المضطربة ورائه . لكن بقيت الحجرة ، كانت تغشاها ضبابية اما بسبب عدم تجميعي الاشعة فسي بوءة واحدة او بسبب عصيتي . لم استطع ان احدد ذلك . كان يراقبني ثلاثون طالبا وأنا اواظب على اخذ درسي الكردي ثلاث مرات في الاسبوع . وكمتمخصة في مجال اللغويات فقد اعتدت على تحمّل مسؤولية تنظيم وتمثيل وتركيب أي لغة يمكن ان احتاجها حرفيا . اما في محطة الاذاعة فقد كنت اشعر غالبا كما لو أنني كنت اسحب الكردية من فم استاذي اكثر مما لاحد ما أن يقتلع سنا . كانت هذه الدروس المتعبة جدا تعطى في مكتب مدير اذاعة ريزاي - التي بالاضافة الى برامجها الرئيسية بالفارسية - كانت ، تذيع برامج اذاعية اخرى بالآزرية التركية ، والكرمانجية والتركية ، والآشورية . وعلى الرغم من أن هذه البرامج كانت تستلزم ضمنا المصادقة عليها لتثبت تسامح طهران تجاه اقلياتها العرقية ، فان بعض الناس كانوا يحتجون على ان اللغات غير القياسية كانت تحول الى فارسية على نحو مدروس في الاذاعات . حتى الناس الذين لم تكن لهم علاقة بالمسائل اللغوية ، ميزوا ذلك الجانب من الموسيقى ، فالبرامج الكردية كانت وعلى نحو رئيسي وسيلة للدعاية التي يستخدمها الشاه .

في أسفل التسلسل الهرمي لمحطة الاذاعة كان الرجل الذي يقدم الشاي يقف منتصبا وساكنا في أبعد نقطة من جوهرخانة فسي الحجرة ، منتظرا الفرصة ليتقدم نحو المقعد حاملا أكوابا كانت تطلق فوق أطباقها . أعطى جوهرخانة تعليماته بأن يقدم الشاي الي أولا مع الوجهاء الآخرين في الغرفة وهم يأخذون الشاي بانتظام

حسب أهميتهم ، كان على معظمهم الذهاب بدونه ولكنهم لم يشعروا بالخيبة لذلك بما أنهم كانوا قد اتوا للتسلية وليس لشرب الشاي . كنت أنا نفس المرأة التي كانت قد ذهبت الى المحطة في الاسبوع الماضي مع رسالة تعريف من مدرس إيراني في الكلية . كان السيد جوهرخانة قد اثار بقوة هيئة المساعدين باعلانه انني يجب ان أعلم اللغة الكردية . لذلك تولفت اقسام اخرى وفي اوقات محددة في ايام السبت ، الثلاثاء ، والخميس وذهب كل واحد الى مكتب مدير المحطة ليراقب ويعطي ويبدى الملاحظات بهمس .

وجدت نفسي ثانية بين الاتراك اللاحق دراستي للكردية ، ولو انه كان يوجد بعض الاكراد . كان السيد اسياي ، رئيس مجموع المساعدين للبرامج الاداعية الكردية هو نفسه نصف كردي ونصف تركي . لقد كان رجلا قويا ، معتدا بنفسه ، وذا تسريحة معنونة في القدم . كان يفضل الكنزات الضيقة ، ذوات العنق الطويل . كان من الواضح انه يستمتع بدور المعلم امام جمهور كهذا . كان يرد اجوبته الدقيقة على كل اسئلتي السمة من صيغ الفعل وترجمات مواد المفردات بصوت عال . لقد كان مغرورا جدا وكان يركز على نحو واضح على مايقوم به اكثر من كونه ينقل معلومات ، حيث بدأت مباشرة بالشك بالكردية التي يعلمني اياها . أما السيد جوهرخانة ، مدير المحطة فلو لم يكن تركيا ، لكان معلما أفضل بكثير من السيد اسياي . في حين أن اسياي كان ينزع الى الفجر والسفسة ، فان السيد جوهرخانة ، كان مباشرا ومتحمسا ، متحمسا جدا لدرجة انه في الحقيقة كان يشجع طموحي لتعلم الكردية . وكم لك لمحطة الاذاعة فقد اشرف على دروسي ، وكان يبدي تعليقاته لدرجة انه خلى الى نتيجة اني ذكية جدا ، وكان يلفظها " زكية " . كان متأكدا من انني سأكون قادرة على تعلم كل شيء يمكن تعلمه من الكرمانجية ، اللهجة الشمالية الكردية في أقل من شهرين ، في أي وقت ، وكان يرمي الى اني استطيع ان استمر لاصل الى شيء اكثر تعقيدا وفائدة . وانا من جهتي شككت بأنني سأتعلم اللغة يوما ما وأنا اعمل في ميدان كهذا .

في احد الايام انشغل السيد اسياهي ببعض الاعمال الاخرى
فحذر لي السيد جوهر خانة رسا لاخذه مع اخت السيد اسياهي
وهي الشخصية الثانية في التسلسل الهرمي للبرنامج الانساني
الكرمانجي . كانت حاملا وكان حملها يبد وضعا ، وهي امرأة ذات
عينين داكنتين وقد بدت قدرتها على التحدث بالكردي وكأنها قد
ضمرت من قلة الاستعمال بسبب من السأم المفرط ، وهي مثل السيد
اسياهي نصف كردي ، وما انها كانت متزوجة من فارسي لذلك لم
تكن تستخدم الكردي . وفي المرة التالية التي اتيت فيها الى المحطة
بنقلوني الى السيد جاهي وقد كان ذا مظهر افضل واكثر كياسة من
السيد اسياهي . لقد كان السيد جاهي سريع الحركة ، وحسن الفهم
ان تعليم الكردي لم يكن في قمة قائمة الاولويات لديه ولكن بما ان
السيد جوهر خانة كان قد كلفه بذلك ، فقد بذل جهدا للاجابة
على اسئلتني . كان السيد جاهي ، الرجل الكردي الاكثر فقرا .
ذو ثقافة فرنسية وميالا لها اكثر من أي رجل آخر التقيته في الكلية
وبدون فوائد الثقافة والتعليم الفرنسي او " البيجو " كان السيد
جاهي يحاول ان يخلف حياته الريفية الماضية وراءه . وكان يحتال
ليخدعني بقصصه عن الشرب وهو يحوم ثلا حول المدينة وحيد او من
المحتمل انه لن يخدع احدا آخر . جلس في مقعده طوال اليوم
بقرب الهاتف صارخا " قرباناته " في ساعة التلفون ، وتعني حرفيا
اموت من اجلك ، ولكن السيد جاهي يستخدمها على نحو طليق
ليظهر لسامعيه كم كان رجلا رائعا ، رحب الصدر .
وأخيرا أعاد علي صبري بالفائدة ، فقد التقيت في المحطة بالشخص
الوحيد المهتم بالكردي . وعندما وجد السيد جاهي نشاطات
اخرى في المحطة ليشغل وقته بها حولت الى السيد خليلي الذي
كان يرغب دائما في ان يكون مدرسي . اقترح مباشرة بأن نغادر
مكتب مدير المحطة وان نعمل لوحدا في الغرفة المجاورة .

لقد اثبت السيد خليلي انه مدرس مذهل بالمقارنة مع الذين سبقوه . فهو لم يكن يهتم فيما اذا تعلمت شيئا صحيحا فحسب ، بل انه كان يحب لغته . كان قد جمع كل انواع الاثار الادبية السريسة التي طبعت بالكردية . وموخرى علمت انه كان يقرض الشعر بالكردية . على الرغم من أن الكردية لم تكن قد ميزت على انها لغة رسمية في ايران او تركيا ، فان عدد الاعمال التي طبعت سريا هناك كانت مثيرة للاعجاب . والكتب الكردية المطبوعة في العراق على نحو قانوني ، كانت تهرب ايضا عبر الحدود ويحرص عليها بغيرة فسي القرى الايرانية . كان السيد خليلي قد نجح في احراز نسخة لسي من موزين باخبار احد القرويين بأنه قد فقد النسخة الخاصة به . كان راديو ريزاي يذيع على نحو دوري اشعارا غنائية من هذه الملحمة الكردية العظيمة مع موسيقا مرافقة لها ولكن وكما اشار السبد خليلي لم يكن هناك مجال للتفكير في وضع السمات القومية الخارجية بوضوح وبدون تحفظ . أن ملحمة مموزين ، هي قصة عاشقين فُرق بينهما على نحو مأساوي كروميو وجولييت ، وهي حقيقة ، قصة رمزية تعبر عن مصير الاكراد المأساوي ، ووجدتهم الممزقة والمستنكرة من قبل الاتراك والفرس وغيرهم ، وكذلك تعبر عن اقتتالهم القلبي الداخلي ايضا . كتب ملحمة مموزين احمد خاني في القرن السابع عشر وقد اميد طبعها عدة مرات في كردستان التركية والعراقية والسوفيتية . والكتاب الذين اتوا بعده عالجوا مواضيع تتراوح بين جمال الحب وجمال الجبال الكردية . لكن احدا منهم لم يكف عن ذكر الطموحات القومية الكردية . والكتابة بالكردية هي نفسها عمل يجسد التحدي . فقاموس موس عنترالكردي - التركي مرفوض من قبل الحكومة التركية ، مثل كتابة "برينا رش" الجرح الاسود ، وهو مسرحية تعرض مرض وموت العديد من القرويين بسبب آخذهم بذورا قسود عولجت كيميائيا وسلمتها لهم الحكومة .

حاول السيد خليلي ان يعلمني الكردية الاساسية وقد اثارنسي ذلك في البداية ، ولكنني شعرت بالاحباط تدريجيا ، لاني لم استطع

ان اتقدم على نحو كاف لاجاريه . لقد ارادني ان اكون قادرة على قراءة الشعر وعلى فهم الكنايات الشعرية العميقة ، بينما كنست لازل اعمل بجد لتعلم تصريف الافعال . لقد درست بعض الكردية في الولايات المتحدة ، ولكن بما انه ليس لكردستان لغتها القياسية الوحيدة ، فهي مقسمة بين اختلافات عديدة في اللهجات ، فكل ماتعلمته من قبل كان عليه ان يحول الى اللفظ المحلي ، وكان لايزال هناك الكثير من الكلمات التي لم اكن اعرفها . كنت اخشى احياناً من أن الصيغ التي علمني اياها السيد خليلي هي ادبية بحتة وانها معرفة مكتسبة من الكتب اكثر مما ينبغي بالنسبة للغة كالكردية . ان اللغة الكردية وعلى نحو اساسي ، هي لغة شفوية وليست لغة مكتوبة ، يتداولها القرويون ، الذين يعبرون بها عن حياتهم اليومية ويستخدمونها على نحو متسم بالابداع في قول النكت ، وتأدية الاغاني ، وسرد الحكايات الطويلة . ان الكلمات العربية والتركية والفارسية الدخيلة على اللغة الكردية هي جزء اساسي من اللغة ، تماماً كما هي الكلمات اللاتينية والفرنسية بالنسبة للانكليزية لكن السيد خليلي الكردي الوطني كان يحاول دائماً ان ينقي لغته التي يعلمني اياها . فهو يستبدل جذور كلمات كردية اصيلة لايعرفها احد سواه بالكلمات الفارسية والعربية التي يستخدمها الآخرون . كنت قد بدأت ادرك انني لو اردت لغة كردية حقيقية وواقعية ، فانه علي الذهاب الى قرية ما والتحدث مع اناسها هناك . اقترحت هذا على السيد خليلي ولكنه اثناني عنه قائلاً اني لست مهيئة لذلك بعد .

بعد ذلك بفترة ليست بطويلة ، قرر السيد خليلي فجأة أن يأخذني الى قرية ما . والآخرون من مساعدي معدي البرامج في ريزاي ، جلسوا يسجلون البرامج ويحتسون الشاي . ويذهبون لمنزلهم في فترة ما بعد الظهر ، لأخذ وجبات الغذاء المتبوعة بسنات من النوم . كان مطلوباً من السيد خليلي من جهة أخرى ولكونه الرجل الأدنى درجة في هيئة المعدين ، ان يقضي كل يوم

في قرية بجميع المزارعين في جلسات منعقدة في الهواء الطلق يتداولون فيها مسائل الزراعة وشؤونها اسبوعيا . بعد أن طلب مني ان اسرع في المجيء ، سألتني مشيرا فيما اذا كان جيردا سيحضر هو ايضا ، وقد اقلتني نبرة صوته وتساءلت عما يجب - في رأية - ان افعله . فانا والسيد خليلي كنا مسبقا نتعرض لنظرات غريبة في المحطة لأن دروسي كانت تعقد في مكان منعزل. عندما عرفته اكثر ، تأكدت انه لم يقض وقتا لوحد مع امرأة ابدا سوى زوجاته .

لقد كان جيرد متفرغا ، حيث لم تكن لديه دروس في الكلية في اليوم الذي حدد فيه موعد هذه البعثة ، لذلك احضرته معي ، بموافقة السيد خليلي المسبقة . كان السيد خليلي وهو مرشد كالمعتاد بذلته السوداء ، وقميصه الابيض مع ربطة عنق سوداء ينتظرونا برفقة اخي السيد جاهي ، السائق الرسمي . ولدى ملاحظتي لهيئة السائق العابثة ، سررت لكوني لست وحيدة .

اتخذنا طريقا غربيا خارج المدينة ، طريقا لم نسلكه ابدا ، ابعد من قرية باند ، ويمكن الوصول الى مدينه مهباد التي تقع الى الجنوب منه بوساطة شارع مريض تكتنفه الاشجار حيث يتحول الى طريقين فرعيين ، يتجهان من قرية لاخري . امسبا الطريق في الجهة الغربية ، فهو مختلف تماما . مرنا عبر وادي باند الغصب ، ولكن مشهد الطبيعة كان مجدبا وشبهها بالصحراء ، وذلك لاننا كنا في تشرين الاول ، النهاية الاخيرة لفصل الجفاف .

فندما نظرت الى الخارج الى الهضبة المطوقة بالجبال شعرت وكأننا نسافر على وجه القمر ، لهذه الدرجة كان هذا المشهد مختلفا وغريبا من أي منظر رأيناه من قبل . مرنا برعاة اكراد ، كانوا السوي جانب الطريق ، يحدقون بالتناوب في سيارتنا الجيب وقطعان ماشيتهم. عبرنا عائلات محتشدة ، منتظرة الحافلة الريفيه ، وتقريبا لم نعبّر شيئا آخر سوى صخور ، تاركين غيمة ضخمة من الغبار وراء السياره .

وعندما نظرت الى الخلف تساءلت ، كيف يمكن لنا ان نجد طريق العودة عبر هذا السهل المجذب بمخوره المتناثرة .

حالما انحرفنا الى الطريق الثانية ، خلال الجبال التي تفصل سهل ميرغاوار المنحني الاول عن سهل تيرغاوار المنحني الثاني ، لاحظت زيادة طفيفة في حجم الخضرة هناك . كانت قرى تيرغاوار الحجرية قد سكنتها قبائل مسيحية لوقت مضي ، حيث كانت قد تقاسمت الجبال والسهول مع الاكراد لفترة من الزمن . كانت تلك هي القبائل الآشورية . وهؤلاء الآشوريون الى جانب الارمن ، كانوا قد اعتنقوا الديانة المسيحية قبل بقية معظم العالم المسيحي بفترة طويلة . لقد عاش الآشوريون في وضع متقلقل مع الاكراد ، لسنوات عديدة ، ولكن الاحداث العالمية - كاهتمامات الجيش الروسي الذي احتل اذربيجان تقريبا في فترة الحرب العالمية الاولى والبعثات التبشيرية الغربية - قلبت غضب جيرانهم المسلمين على رؤوسهم . لا يزال قاطنوا بعض القرى الواقعة الى الغرب والجنوب من ريزاي أغلبهم من الآشوريين ، اما سهل تيرغاوار فقد رحل عنه الآشوريون واجبروا على الخروج منه أوذهبوا بطريقة وحشية ، بينما استولى الاكراد على الاشجار والكنايس .

لقد سيطرت قبيلة الهركيين على تيرغاوار ، وهي واحدة من اضعف القبائل في كردستان اليوم وتتألف من حوالي ٣٠,٠٠٠ فرد متوزعين في ايران والعراق . ويقطن جزء من القبيلة هنا في القرى المسيحية القديمة ، بينما يقطن جزء آخر في العراق ، قرب مدينة اربيل " هولير " كما يسميها الاكراد . ولكن وعلى الرغم من انفصالهم الجغرافي ، فقد ظلت المجموعتان متحدتين الى حد بعيد ، وفي كل السنوات التي تواجه فيها الجيش العراقي والايراني ، على طول حدودهما المشتركة ، كان قد سمح للهركيين - نوعا ما - ان يعبروا الحدود ، ليرعوا قطعانهم في جبال ايران ، كل صيف . بينما كانت قبائل اخرى قد اضطرت الى ان تختار احد البلدين ، او أن تظل

منفصلة الى الابد ، وكان قد سمح للهركيين بالعيش مثل اسلافهم ،
يعسكرون في قرى مستقرة في الشتاء ، وفي الخيم فوق قمم الجبال
في الصيف ، غافلين من الحدود القومية بابتهاج . وقد شهدت تلك السنة
التي اتيت فيها الى كردستان انتهاء هذا النمط من الحياة ، حتى
بالنسبة للهركيين المتمتعين بالامتيازات ايضا . لقد كان مقدرا على
المتركزين على طول الحدود ، ان ينتظروا بدون جدوى الربيع القادم
ذاك المنتظر كبئنة اولى للقبيلة وقطعانها لتقوم برحلة طويلة ،
شاقة من العراق .

على الرغم من أن جميع الاكراد ، كانوا قرويين منذ قرون
تقريبا جعلت بعض القبائل على امتياز العيش مثل الهركيين ، ففي
الوقت الذي وصلت فيه الى كردستان ، كان معظمهم قد حجزوا في القرى
مع بعض المحظوظين ، دائمي الاستقرار في المدن ، حيث استطاعوا ،
بفضل تعلمهم ، او حنكتهم ، ان يوفروا لاولادهم مستقبلأ أفضل مما
قد توفره حياة القرية . غالبا ما يتوقف هؤلاء الاكراد ، واحفادهم
عن التفكير بانفسهم ، عندما يتعلق الامر باصولهم القبلية ، ولكن
في القرى الايرانية ، لاتزال هذه القبائل كلية القوة ، حيث تهيمن
بولائها وتكتلها القبلي اكثر من هيمنة الحكومة الايرانية . يوجد
في ايران فقط ، ما يقدر بستين قبيلة ، ويتراوح عدد عائلات كل
قبيلة بين ٥٠٠ الى ٣٠٠٠ عائلة ، وتتفرغ بعض القبائل الاكثر
ضخامة الى طوائف او عشائر والعائلة بامتدادها ، هي الوحدة
الاجتماعية الاصغر في كردستان والسائدة اكثر من الفرد الواحد .
وبعض من القرويين القليلين جدا يعتبرون غير منتمين الى قبائل ،
وبدعون بالكرمانج وعندما يحط من قدرهم اكثر يطلق عليهم " دودي
بودي " وهي مرادفة الى حد ما لما يدعى عندنا بـ " هوي بولسوي "
" أي " الرماع " وهؤلاء " الكرمانج " ملازمون للقرى ولمالكي
الاراضي كفلاحين او كأقنان . وعلى الرغم من انهم قد يقاتلون من
أجل قبيلة معينة فهم لا يرتدون اللباس الخاص الذي يميز قبيلة عن
اخرى مثل العمامم الحمراء او البيضاء التي تميز البرزانيين
أو الاحزمة الخضراء المميزة " للسياد " المنتيمن لال البيت .

ان " الشخ " في كردستان ، هو اللقب الذي يتفرد به رئيس القرية أو العشيرة ، أو القبيلة ، على الرغم من أنه يمكن أن يستخدم بمعناه الاسلامي المؤلف على نحو أكبر لقائد ديني . وهناك ألقاب أخرى يستخدمها وجهاء الاكراد مثل : " البك " و " الآغا " و أصل كلا الكلمتين تركي ، وكذلك اللقب المنغولي " خان " وقد فقد كل من كلمتي " بك " و " آغا " بعضا من صفاتهما المميزة خاراج كردستان ، بما أن كلمة " آغا " في ايران وكلمة " بي " في تركيا هما اللقبان المؤلفان للرجال ، مثل كلمة " السيد " . وقد حرم رضا شاه ، والد الشاه الأخير لقب الخان " لأنه اراد ان يكون الخان الوحيد في البلاد . ويبدو ان الاكراد قد تجاهلوا ذلك المرسوم من بين آخرين عديدين ، وهم لا يدعون بعضا من قوادهم خانا فحسب بل وعلى نحو مغاير للشعوب الاسلامية الأخرى يلحقونه بأسماء نساء ورجال مميزين أيضا . لم ابصر سوى المشاهد الصخرية المنتعشة بجدول صعب هنا ، او بقرية او رقعة ارض مشجرة هناك وذلك لجهلي الشام بماضي ومستقبل تيرغاوار وكذلك لمعرفتي القليلة بالتسلسل الهرمي للقرى والقبائل الكردية . حتى اني لم اقدر بدقة تفوق القرية التي كنا ماضين اليها . لقد كانت قرية مانوا ، مركز القيادة الرئيسي لرشيد بك العظيم ، وهو واحد من القواد الهركيين ، في الوقت الذي لعبت فيه هذه القبيلة دورا غريبا ومتناقضا في تأسيس وحل جمهورية مهاباد . وبالطبع فان السيد خليلي لم يذكر لي شيئا من هذا ابدا . كان قد احبرنا فقط اننا نسافر الى قرية كردية نموذجية حيث سأشاهد للمرة الاولى كيف يعيش سكان القرى " الاكراد الحقيقيون " وكيف سيكون باستطاعتني التحدث مع النساء وفهم شيء ما عن حياتهن . كنت قد اغرقت في القلق لتخليتي كيفية ردود فعل هؤلاء النساء الكرديات اللواتي تمورتهن طوبلا وهن امامي . كما اغرقت في التساؤلات حتى عن كيفية فهمهن لي ، بكرديتي الفضولية المكسرة ، ولم يخطر ببالي التفكير بما كان اخو السيد جاهي والسيد خليلي سيفعلانه ببذلتيهما القاضيتين ، وبربطتي منقهما السوداوين في قرية " نموذجية " ، مغبرة " . حتى السفوف المعدنية

البراقة للمستوصف والمدرسة الواقعين خارج مانوا تماما ، لـم
ينبأني كم كان مُنعمًا على هذه القرية على نحو غير مألوف . فكل
ظني ان اسباب الراحة هذه متوفرة في جميع القرى . اصيب مضيغونا
بالهلع لخلو فناء الدار الذي استقبلنا ونحن نندفع نحو الطريق
الداثري الخاص بالموءدي الى مضافة رشيد بك الواسعة والمعتمه والسـ
جناح الحريم ، تعلقني شعور متنام بالخوف والقلق حول حشد مـن
الاطفال الرشي الملايس حيث كانوا قد تجمعوا ليحدثوا فينا اثناء
نزولنا من السيارة . لقد بدوا فقراء وغريبين جدا . لم اكن
أعرف انه حتى اطفال القواد القبليين الاكثر ثراء يتجولون في
شباب رثة كصبية مهملين ، تملو وجوههم المخيرة الملوحة بالشمس طبقة
داكنه من الاوساخ . ومن السخريه ان اول ما ادهشني كان فقر وقذارة
مانوا التي تعد واحدة من افنى القرى في كردستان الشماليـة .
وتحدث الي السيد خليلي بلطف ولكن بهرمة قاتلا :

ـ عليك ان تذهبي مع النساء .

نظرت حولي وتساءلت اين يمكن ان يكون مكانهن . وعندما رأيت
فتاتين يافعتين مرتديتين بذلتين من الطراز الكردي ، انيقتين
وجديتين الى حد ما ، تقتربان مني وهما خارجتان من احدى البنايات
ذات الطابق الوحيد والمواجهة لي . راح السيد خليلي والسيدجاهـي
يأخذان جيرد بسرعة في اتجاه آخر ، وثـركت لوحدي وقلبي يخفق
بشدة . كررتا عبارة " توخير هاتي به " ـ قدومك سعيد ـ مدة
مرات لكي اعرف انه قد رحب بي في منزلهما . ومن ثم اشارتا الي
ان اتبعهما الى الداخل ، ومعدنا درجات صخرية خشنة الى الطابق الثاني
واخرجت احدهما مفتاحا هيكليا ضخما وفتحت بابا خشبيا غـيـر
متقن الصنع .

كانت الحجرة في الداخل مضطربة بالافهوان على نحو متباين
مع القاعة الخالية القذرة . وقد ذكرتني الوسادات ومعلقات الجـدار
واغطية الاسره بالادوات المصنعه يدويا التي رأيتها في مهاباده ولم
تترك حتى واجهة واحدة خالية . وكان لكل من ذراع تدوير آلهـة

الخيطة والمذياع المسجل الموضوعين فوق الرفوف على نحو متقاطع مع الحائط اغطية مدروزة . وكان يقبع في احدى جهات الحجرة سريــــر مزدوج عال مع كومة من اغطية الاسرة المصنعة يدويا ، وفي الجهة الاخرى كانت طاولة زينة منخفضة مغطاة بقوارير عطرية مزخرفة وكانت امرأتان مسنتان بشعرهما الاسود القاتم وبملايسهما الزرقاء مع صداراتهما السوداء جالستين على سجادة بجانب الطاولة . وقد نهضتا عندما دخلت مع الفتاتين وكان قد جرى وراءنا حشد من الاطفال من فناء الدار .

" توخير هاتي يه " قالها الجميع ، وبسرعة قدموا لي صحن من التفاح الصغير وكان يبدو مسوسا . ولشعوري بوجوب تناول بعض منها التقطت واحدة ونزعت قشرتها واكلتها بينما كن جميعهــــن يراقبنني . وحالما انتهيت من أكلها احضرت احداهن كومة من اللباس وبدون ان ينبهنني ، تجمعن حولي ، وبدون وساطة اللفة استوعبت الفكرة نوعا ما ، لقد كن يردن ان ارتدي زي امرأة كردية فتساءلت بقلق للحظة فيما اذا كان علي ان اخلع بنطالي المخملي الفضفاض وكنرتي ، اللذين ارتديتهما خصيصا للقرية . اقلت احداهن الفستان الاول الابيض الحريري المذهب فوق رأسي ، كما لو أنه كان جوابا على تساؤلي ، واتبعته ببقية اجزاء البذلة بسرعة . وفي غضون دقيقتين اثنتين كان جسدي قد لف بكاملة بري كردي . و بعدئذ رفعت المرأة قلادة ذات سلاسل ذهبية وحلي صغيرة من حــــوول عنق احدى الفتاتين اللتين رحبتا بي ووضعتها حول عنقي . نظرت الى الاسفل ، الى الذهب متسائلة فيما اذا كانت السلسلة ذهبــــيا حقيقيا ، فقد كان هنالك الكثير منها . وبعد ذلك لففن رأسي بكوفية مزينة الحواف وقد علق بها خصلات من شعري ، واخيــــرا حاولن ان ينزمن نظارتي ليكعلن عيني بتلك المادة السوداء المستخمة على نحو تقليدي في كل انحاء الشرق الاوسط كقلم للعين . عند هذا صددتهن ورففت ان يجلسنني ووضعت نظارتي ثانية ، وقد تنهدن عندما اخبرتهن اني لا استعمل مساحيق التجميل ابدا . واني لامضي بدون

نظارتني ابدا . بعدئذ ادرنني صوب مرآة طاولة الزينة وهن يراقبنني
بتلهف ليرين رده فعلي على ذلك .

حدقت في صورتني المنعكسة في المرآة ، شاعرة وكأنني فـي
حلم . فمئذ لحظة كنت واقفة في الباحة المغبرة يتفحصني حشد
من الاطفال . والآن بدوت كما لو اني قد انضممت الى مهرجان من
القرون الوسطى ، بالاكام الطويلة ذات النهايات الدقيقة ، الملفوفة
حول رسغي والاغطية الثقيلة التي لف بها رأسي . ولكن وقبـل
ان اعلق بسخرية حول مطهري ، اخذتني مضيقاتي الى مكان آخر .
فامسكت بالاجزاء السفلية من الفستان باحكام لآتجنب التعثر عند
نزولنا فوق الدرجات المخزية . وتحت الشمس المشرقة في الخارج
تراجعت الفستان الى الورا . وهما تمسكان باوشة رأسيهما
وتسحبان جزءا منه لتضعاه فوق فميهما ، بينما بدأت أنا
بالمشي باتجاه جبرد ، حيث كان جالسا على طاولة لعب ورق مع
الرجال تحت الاشجار في الفناء .

انحنى لي الرجال احتراما عندما تقدمت نحوهم ، ولكنهم
لم ينهضوا . ففي القرى لا يقف الرجال للنساء الا اذا كن نساء مهمات
جدا والرجال غير مهمين . نظر الي " السيد خليلي مستحسنا لباسي
وقد اخبرني جبرد مؤخرا ان الرجال كانوا يلمحون له ان مفاجأة
قد اعدت له .

كان ذلك من ضمن طقوس ادخالنا الى واحدة من قوامـ
الضيافة التي يقدمها الاكراد للنساء الغربيات اللواتي يأتين
لزيارتهم . حتى النساء الفارسيات من طهران اللواتي كن يقضين
عطلتهم في ريزاي كان يكمن لهن من قبل اصدقائي الاكراد فـي
البازار ويؤخذن الى المنزل ويلبسن الالبسة الكردية ومن ثم
تؤخذ لهن صور . لم استطع ان احدد بالضبط الطرف الذي كان يتسلسل
اكثر ، الملبسات ام الملابس . وبما ان المور كانت عنصرا اساسيا
في هذا التقليد ، فقد اعطيت آلة التصوير لجبرد ليلتقط بعض

الصور ، ولكنه عندما دنا من المنزل ، حيث كانت تقف الفتيات ،
ابتعدن على نحو عفوي من آلة التصوير واوشحتهن فوق افواههن .
قفلت عائدة الى الرجال ، وسألني السيد خليلي :

– هل تقضين وقتا ممتعا ؟

نظرت اليه ومن ثم الى جيرد وبعدئذ الى الرجال الآخرين . هل
كنت اقضي وقتا ممتعا ؟ ببساطة كان من المستحيل تقييم أي
نوع من الوقت كنت اقضيه . فقد كان كل شيء يحدث على نحو
سريع جدا ، وكل ما استطع ان افعله هو اني اتساءل عما سيفعلونه
لي في الخطوة التالية . ولكنني بالطبع اخبرت السيد خليلي انسي
كنت اقضي وقتا رائعا . فابتسم لي بابتهاج . عند ذاك نظر الي
جيرد بغرابة ، وتساءلت عن كيفية قضاء وقته . واكتشفت مؤخرا
ان الرجال كانوا يحاولون اقناعه باتخاذ زوجة اخرى له . وقد
حدث العرض حماسا اكثر عندما اخبرهم عن رغبته الشديدة في تعلمي
الكردية . فأجابوه برد منطقي الى حد ما وقالوا :

– اذا كنت تريد زوجة تتحدث الكردية ، لم لاتأخذ واحدة
تعرف اللغة حقيقية ؟ فبماكانك ان تتخذ احدى فتياتنا كزوجة
شانيه لك .

بعد ذلك اوضح لهم جيرد انه من المهم ان تعرف زوجته
الانكليزية . واخيرا قال جيرد : انه يجب أن يتصادق مع زوجته
قبل ان يتزوجها . وقد اربكهم ذلك ، فالزوجات والازواج الاكراد
لايتصادقون ، وخاصة ليس قبل أن يتزوجوا .

في غضون ذلك قررت مصيفاتي اخذي في جولة في القرية ،
فأمسكت بآلة التصوير بيد والاجزاء السفلية الطويلة من الفستان
بالاخرى على الرغم من انهن كي ينحنني باستمرار بافلات حاشية
الشوب وترك حواف اللباس لتتجر على الارض . تجاهلت ما اعتقدت انه
عرض مهذب وبقيت ممسكة بالحريز الابيض المذهب ولم اتركه ينسحب

على الأرض . لم اتمور ان اترك مثل هذه الملابس الجميلة تغطس بالتراب . كان علي أيضا أن امهم جيدا حقيبة ان هو لاء النساء يرتدين مثل هذه الالبسة كل يوم وانه ليس لديهن الوقت للقلق من هذا التراب القليل . فلا عجب فالقرية برمتها بدت كأنها مغطاة بالطين . ومرة اخرى اشار الفقر والغربة دهشتي عندما تمشينا خلف المباني الفرميدية الضخمة . حيث تسكن مضيقاتي . هنا في الممرات الملتوية رأيت الاكواخ الطينية المخروطية السطوح ، وافنية دور عميقة وتراءت لي دزينات من العيون تحديق في من وجوه ملوحة بالشمس .

انتشرت الاكواخ المخروطية الشكل بسقوفها القشية على مقربة منا بشكل فير واضح ، وقد رفعت الاجزاء السفلية من اللباس الى اعلى قليلا لأعبر جدولا صغيرا في طريقنا وقادتني مرافقتي المرتديتان على نحو اففل من كل من كان في الحشد ، قادتانني الى امرأة مسنة فقدت اسنانها ، كانت تنسج على نول فيمتد متقن في الغناء امام كوخها . توقفت امامها وتفحصت تشكيلة الصوف الاسود الخشن وسألت عما يمكن ان يكون .

— انه شادر .

جفلت ونظرت حولي . هل أنا لاشرقية لدرجة ان افشل في ملاحظة القرويات وهن يرتدين الاغطية ؟ كانت رءوس معظم النساء الواقفات على طول العمر مغطاة بالاولوشه فقط ، وليس بينهن من ترفع الخمار بطوله الطبيعي الكامل .

— شادر ؟

كررت ذلك بصيغة سواء . رمقتني المرأة بنظرة ، وبدون شك متسائلة فيما اذا فهمت لغتها وازافت :

— انه للجبال .

بعدئذ فهمت ماكانت تريد توضيحه . انه الشادر بمعناه القديم
" خيمة " وليس بالمعنى الشائع في المدينة كعباءة .

ان الشيء الوحيد الاسود في كردستان وبالإضافة الى صادرات
بعض النساء ، هو الخيم التي تنصب فوق قمم الجبال عندما يصبح الجو
دافئا بشكل كاف في الربيع ، لاخذ الحيوانات الى هناك للرعي .

في طريق مودتنا الى منزل مضيفتي رأيت امرأة حبلت
تغزل قطننا فوق مغزل مدلى . لم ترغب في التقاط صورتها ولكن
مضيفتي تغلبت علينا . لقد استفدت من معرفتي القليلة
جدا للكرديّة ، ولكوني جاهلة تماما عادات القرية ، لم أشعر بالذنب
حول الفوز بموافقتها المكروهة . ولكن بعد هذا لن اقدر ان اصور
نساء غريبات في القرى بهذه السهولة .

على مقربة من المنزل ، مررنا برجل اصلع يقطع الخشب
بفأس . كان سعيدا بالتقاط صورة له اثناء مروري واخذي صورة لهذه
الشخصيات الغريبة - النساجة العديمة الاسنان ، والمرأة الحبلت التي
كانت تغزل ، والحطاب الاصلع ، لم استطع التغلب على شعوري بأنني
كنت في حكاية من حكايات الجن . صور جميلة ونقوش صغيرة لحياة
غريبة أو مضتها أنا ولكن كيف لي أن اعرف اي شيء من طريقة
معيشة هؤلاء الناس ؟ لقد كنت برفقة اميرتي القرية ، وكان
بيتهما غريبا الى حد بعيد ، ولكنه كان يحتوي على اشياء مألوفة ،
مثل الاسرة وآلات الخياطة ونوافذ قد وضعت على زوايا مستقيمة .
ماذا يكمن خلف عتبة الباب الطينية لمنزل تلك المرأة النساجة ؟

بعد جولتنا الى ابعد من اكواخ القرية الطينية ، نظرت الى
المنزل الذي كانت مضيفتي تقطنانه بنظرة جديدة ، فالقرميد الاصفر
المصنع ، واطارات النوافذ المعدنية والطابق الثاني ، كلها كانت
عادية جدا عندما رأيتهما لأول مرة . فهناك الآلاف من مثل هذه
البنائيات في ريزاي ، والعديد منها في حالة أفضل . امافي مانوا

فقد كانت توجد هناك اثنتان فقط وكانت كل قطعة قرميد أو حديد
قد نقلت عبر الممرات الجبلية في طريق ترابية . كان رشيد بك
قد بنى هذه المنازل واسكنها بذريه زوجاته وزوجسات ابنه
أمير خان .

دلفنا الى داخل المنزل من باب الخلفي ، مارا بزيهية
الحيوانات في الطابق السفلي ، وكان من الصعب علي أن أرى أي شيء
الى أن رجعنا الى مدخل الدرج حيث توجد فيه نافذة في أعلى الجدار
خلعت ملابس المستعارة بسرمة داخل الحجرة التي كنا فيها من قبل
واسترحنا من قلق توسيخها ثانية . ومن ثم اخذنا اماكننا في
الجلوس متقابلات واخيرا حفظت اسماؤهن عن ظهر قلب وبشكل صحيح .
كان اسم الفتاة السمرام الممثلة الجسم شيرين أو "خلوة " بينما
كانت بروانه " فراشة " مثل اسمها تماما ، فقد كانت
شعراء وبالغة الرقة . بادرت شيرين اصغر الاثنتين بالسؤال قائلة :

- هل عندك اولاد ؟

- لا .

- ولم لا ؟

- آه ، لم يمض على زواجي وقت طويل .

- اذا سيكون لديك طفل في وقت قريب ؟

سألت وهي تنظر الى بطني .

- لا ، لا أظن ذلك .

- وكيف تعرفين ؟

جلست متعجبة من كيفية سير المحادثة وبهذه السرعة ، كم
كان عمر هاتين الفتاتين ؟ الى أي درجة من التفاصيل تتوقعان
ان اعطيتهما عن شكل منع الحمل الذي اتبعه ؟ صورت بدقة الحجاب
الحاجز وهي حيلة غير معروفة في كردستان الايرانية وحاولت
ان استجمع الكلمات لاصفها . واخيرا قالت بروانه وهي تحنني
على الكلام :

- هل تأخذين حبوبا ؟

فأجبتها بالفارسية :

- تقريبا .

وتقريبا تعني حرفيا " على نحو تقريبي " وهي كلمة عربية تفيد في اعطاء اجوبة غامضة في كل ارجاء الشــــــــــــرق الاوسط .

والآن جاء دوري لتوجيه الاسئلة . ولكوني متحفظة فسي السوال عن الاشياء الخصوصية جدا فقد اقتصرت مواضيعي في الحجرة على الاسماء الكردية فقط . ولعبنا هذه اللعبة لفترة قصيرة بنجاحات متفاوتة . لقد كنت افهم القليل من الكردية ، على الرغم من تأكيدهما بأدب ولباقة اني اتكلم لغتهما بطلاقة ، وكانتا تواصلان التحول الى الفارسية . وبما انهما تابعتا الدراسة حتى الصف الخامس فقد كانتا تعرفان القليل جدا عن اللغة القياسية وقد افترضنا انه بما انني غربية متعلمة ، فأنني سأعرف بالطبــــــــع اللغة الفارسية أفضل بكثير من لغتهما غير المدونة . وقد بدا انني لم استطع ان أفهمهما ان اللغة التي ادرسها في الولايات المتحدة هي تلك اللغة الكردية عديمة القواعد وغير المعتمدة وانهما ليست الفارسية .

مضت مفيفتي بدون أي توضيح للتحدث مع الخادمة في الرواق ، وبعد ذلك دخلت الاخيرة الى الحجرة وهي تحمل طستا معدنيا وابريقا بلاستيكيًا ذا مصب ضيق . واخرجت احداً من قطعة مستطيلة من الصابون من الخزانة وناولتني اياها وعلى نحو غير بارع مددت يدي الى الامام قليلا ، بينما صبت عليهما الخادمة الماء . بعدئذ ارغيت يدي بالصابون وغسلتهما برفق مع مزيد من الماء المصبوب . ومن ثم جففتهما بالمنشفة .

بينما كانت الفتاتان تغسلان ايديهما ، اوضحت لي بروائنه

ثالثة :

الا صفر سنا كن يقمن على خدمة الاخوات الاكبر منهن . وحتى
الشيخ الرجل الذي يمثل اعلى درجة في القرية ، يمكن ان يقوم على
خدمة اى شخص ، اذا كان ذلك مناسبا . والرجال الاكسراد
الارستقراطيين المدلون منذ الصغر من قبل النساء والخدم حولهم،
كانوا يتحولون الى مضيفين محترمين جدا ومراعين لرغبات ضيوفهم اذا
لم يكن هناك احد غيرهم ممن يقوم على خدمة الضيف ، ولكن الخدمة
في كردستان هي على نحو رئيسي " ضمن العائلة فقط " . لأنني عندما
حاولت ان اجد امرأة كردية مفضلة اياها على امرأة تركية لتعمل في
بيتي ، أخبرت ان الكرديات لا يعملن لدى الغرباء .

بعنا انني لم اقم بزيارة الى قرية من قبل لم استطع ان اقدر كم
كانت الوجبة ممتازة وسخية عندما اعد لنا الغذاء . وحتى لم يخطر
بالي ان اتساءل كيف تتناول مضيفاتي اللحم غالبا ، وما يتعلق بها
من القيام بعمل الرعاية وعمليات ذبح الماشية ومشكلة التخزين في
مكان ليس فيه ثلاجات وكل ذلك دون ان نذكر مسألة التقطيع
والتنظيف . لم يكن طعامنا المطهو يحتوي على لحم الضأن فقط بل
أيضا على خضروات منتجة منزليا . وكان هناك أيضا رقاقات بطاطس
مقلية على نار غير مكثفة ولا غازية . واخيرا كان الخبز ، حيث كن يبدلن
جهدا في خبزه كل صباح ، وكان مصنوعا من الدقيق المطحون في
الطاحونه ، التي سمعتها تهتمهم عندما تجولت خارج القرية وبالطبع
لم يكن لدى العديد من القرى طواحينها الخاصة بها .

بعد اخذ وجبة الطعام حاولت شيرين وروان ان تونحيا الي أنسي
تعبا ، وانه علي ان اضطجع قليلا وأخذ قسطا من النوم . ولكنني
شعرت اني متيقظه تماما . وبالإضافة الى ذلك لم ادرك كيف سأمدد
قدمي بلهافة امامهما ، بعد ان كنت قد قرأت في كتاب انه من المعيب
جدا في الشرق الاوسط ان توجه قدميك صوب احدا . وبينما
جلسنا جميعا القرفصاء على الارض . احدنا مقابل الاخر ، فهمت
انهما تتسائلان كيف ستتقدمان

على تسليتي . لقد اصبح الحاجز اللغوي مضجرا اكثر فاكشـر .
واخيرا لمعت عندها فكرة تعليمي الرقص . وقفزت بروانسه
وانزلت المسجلة من فوق الرفء ازاحت غطاءها ووضعت فيها شريط
تسجيل . وبينما بدأت المسجلة المحدثـة صريرا بالعزف ، شبكت
الفتاتان ايديهما وببطء بدأتا بالدوران في الحجرة في أداء
رائع من الرقص التقليدي الشرق اوسطي ، والذي يشكل صفا طوليا .
لقد كانتا تتوازيان اولا على قدم واحدة وبعدئذ ترتكزان على
الاخري ، ومن ثم تجران القدمين معا على الارض جانبـا .
ونزولا عند الحاحهما نهضت وحاولت ان اتبعهما . وبعد بضـع
دقائق من الرقص غير المتقن جلسنا جميعا ثانية . وتساءلت
فيما اذا كان ذلك كل مافي الرقص الكردي . بعدئذ بحثنا
عن شيء آخر ، فأخرجتا دفتر صورالعائلة ونظرت في الواحدة تلو
الاخري من صور الاكراد العنيديين العبوسين . قلبت الاوراق بادب
محاولة ان اكون مفهوما ماعن جميع هؤلاء الغرباء ، ولكنني
كنت افشل . بعد ذلك سألتني شيرين :

١ - هل ستأتين الى حفلة زفاف بروانه ؟

نظرت اليها بفصول محاولة ألا ازيد من آمالي ، فقد كنت
قد سمعت عن الاعراس الكردية الخرافية والمبالغ فيها وكنت
اتحرق شوقا لأن ادعى الى حفلة منها . ولكنني لاحظت أن بروانة
قد احمرت خجلا وتجهمت ملامحها .

- أنا لست مقدمة على الزواج .

قالت الفتاة الشقراء وهي تحديق بغضب بقريبتها .

- بلى ، ستتزوج .

أكدت لي شيرين .

نقلت نظري من واحدة لأخرى ، وأنا لا ازال آمل نوعا
ما في ان هذه الدعوة حقيقية لعرس كردي حقيقي ، ولكنني في

نفس الوقت شعرت بأنه من المحتمل الا يكون هناك عرس اذا رفضت العروس المزعومة ذلك . لربما كان ذلك طقسا آخر من الطقوس والعادات مثل تزيني . كأن يدعون ضيوفا اجانب على سبيل الدعابة الى اعراس لم تدرج في موعد مالمليام بها .

- كم عمرك ؟

سألت الفتاة معتقدة ان ذلك يمكن ان يزودني بمفتاح اللغز فينا اذا كانت بروانه مقدمة على الزواج فعلا أم لا .

- أربعة عشر عاما .

كشّرت بروانه ، بينما حشّني شيرين قائلة :

- اذا ، ستأتين ؟

قللت متشككة :

- لا اعرف .

في تلك اللحظة ظهرت الخادمة عند مدخل الباب ، فنهضت كلتا هما لدى سماعهما الاخبار بأن السيد خليلي قد دعاني . فبعد كل هذا العناء معي ستقدرا على اخذ قيلولتهما لفترة بعد الغداء . وبعد ان شكرتهما وصافحتهما ، كتبت لهما عنواني في ريزاي على نحو سريع وحشّتهما على زيارتي عندما تأتيان الى المدينة . وكانتا قد اخبرتاني في سياق الحديث انهما غالباً ماتأتيان الى ريزاي . وقد تخيلت ببساطة انهما كانتا حرتين في مفادرة مكان اقامتهما اينما كان ، وبالتجول أو اخذ سيارة اجرة الى منزلي .

قادتني الخادمة لدى نزولي عبر الدرج الصخري ومن ثم اشارت الي ان اذهب الى الرجال . ومرة اخرى تفحصتني العديد من العيون الرجالية الجسورة . شعرت بالعدوانية والاحتقار في

تحديقهم ، على الرغم من اني لم اكن اعرف بعد انهم قد
عرضوا زوجة اخرى على حيرد . وسألني السيد خليلي مرة ثانية
فيما اذا قضيت وقتا طيبا . وقفت متوقعة لكل واحد منهم
ان ينهض لكي يغادر ، لكن احدا لم يتحرك : فسألت جيرد
بالانكليزية :

— ألن يغادر ؟

— لاأظن . فالسيد خليلي اراد فقط ان يرى كيف كان
الحال معك .

حدقت الى الخلف الى مدخل دار الحريم ، الخالي من
الاطفال والفتيات في شمس الخريف الحارة . والآن كان علي أن
اعود ، لاني لم استطع الاستمرار في الوقوف ، وهو لاء الرجال
يحدقون بي . وببطء مضيت بعيدا صاعدة الدرج لوحدي ، الى أن
فتحت شيرين الباب فجأة ناظرة الي بفزع ، فالشيوف في القريضة
من المفترض أن لا يتركوا لوحدهم أبدا .

وبتودد استعدت شيرين وبروانه لتكونا مضيفتي حتى
ساعة اخرى أيضا . احتسينا كوءوس الشاي الواحدة تلو الاخرى
وحاولنا ان نبقي الحديث متواصلا ، لكن كل واحدة منا شعرت
بالراحة ، عندما حضرا خيرا طفل واخبرنا انه قد حان موعد
رحيلي . ودمنا بعضنا ثانية ولكن في هذه المرة ، رافقتني
الفتاتان طول الطريق نزولا على الدرجات وحتى الخارج لتتأكدا
من مغادرتي فعليا . لدى عودتي الى سيارة الجيب التي كانت
تلفها غيمة من الغبار تحت أشعة الشمس المحرقة لفترة بعد
الظهر تماما ، علمت ان مسجلة السيد خليلي السويسرية المنوع
الفاخرة لم تكن تعمل جيدا لتسجيل أي شيء . فبالنسبة له
كان اليوم مجرد لهو وتسلية . سألت جيرد .

— لماذا بقينا طويلا هكذا ؟

فأجابني :

- لقد بقينا لأجلك .

قال السيد خليلي مبتسما :

- تعرفين الآن شيئا عن حياة القرية .

أومات برأسي بلباقة موافقة على ذلك .

كانت مشاهد اليوم قد تجمدت في ذاكرتي مثل صور سينمائية غير مترابطة في فيلم سينمائي غريب . الغبار ، الالبسة البراقة ، المغازل المتدلّية ، الاكواخ الطينية ، الوجوه الملوحة بالشمس ، اللبن اللاذع المذاق ، والغبار والغبار والمزيد من الغبار . كنت قد جلست حتى آلمني ردفاي ، محاولة التحدث مع الفتاتين . ماذا كانتا تفعلان في غيابي ؟ ليست لـدي ادنى فكرة عن ذلك . لم يخطر ببالي ان اتساءل ، لماذا كانوا يجعلونني اتسلى مع فتاتين في الرابعة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما . وقد افترضت انه لابد ان والدتيهما كانتا تقومان بأشياء مفيدة اكثر من تسلية فيوف اجانب . ولكن اين كانتا ؟ كانت نظرياتي حول مايفعله الناس - وخاصة النساء - في اوقاتهم لاتزال وعلى نحو ميثوس منه مرتبطة بالولايات المتحدة وببيئة لاتحمل اي صلة بهذه القرية . سألت السيد خليلي في المرة التالية التي رأيته فيها :

- هل فعلا بروانه مقدمه على الزواج ؟

نظر الي السيد جاھي الذي لم يكن يتحدث في الهاتف هذه المرة . وضحك بصوت مرتفع للنظرة المندھشة على وجهي وقال :

- لقد تزوجت ، في الثلاثاء الماضي . بروانه رمت

نفسها في النار .

تصورت العادة الهندية لحرق الزوجة عند المحرقة الجنائزية لزوجها واتفح اني لم اكن بعيدة جدا عن الحقيقة . ووضح السيد خليلي :

- نقول : انها القت بنفسها في النار لأنها تزوجت من رجل عجوز . و اضاف السيد جاهي مع ضحكة خافته :
- رجل عجوز وله زوجتان .

واصلت الوقوف هناك ، مدركة لحقيقة انني كنت ابدو متجهمة جدا وان الرجلين قد كونا مفهوما عني ، على انني نمودج المرأة الغربية الشائرة . والآن عرفت لماذا احمروجه بروانه لهذه الدرجة وقلت :

- لقد اخبرتنني شيرين ان بروانه مقبلة على الزواج ولكن بروانه نفت ذلك . فقال السيد خليلي:

- نعم ، هذه هي العادة . فعلى مرأستنا ان يكن خجولات .

كان والدها هو الذي نظم العرس ، وكان ذلك هو السبب في عدم وجود احد في القرية في اليوم الذي ذهبت اليها ، لقد كانت جميع النساء قد اتين الى ريزاي للتحضير للحفلة .

حدقت فيهم ، متعجبة كيف اني كنت غافلة لهذه الدرجة . لماذا اختار السيد خليلي الذهاب الى مانوا ؟ من كان والـ شيرين وبروانه ؟ ولماذا اختار ان يزوج ابنته لرجل عجوز اطرش وله زوجتان ؟

كان ذلك غريبا جدا ، وقاسيا جدا . لم اتصور كردستان مهباد على هذه الشاكلة ابدا . لقد ظننت أن الاكراد مختلفون ، فمساوهم لا يبعث الاغطية ، ويعملن جنبا الى جنب مع رجالهن . اين هي المفاهيم الديمقراطية لجمهورية مهباد ؟ .

عدت الى روتين محطة الادامة لأدرس مع السيد خليلي حسب البرنامج الذي كنا قد اتفقنا عليه . كان احيانا يذهب طوال اليوم في رحلة يقوم فيها بتحقيقات ميدانية ، وكنت اما

ان اتساءل من سبب عدم اخباره لي او كنت انزع الى الانزعاج اكثر بسبب عدم دعوتي للذهاب معه أنا ايضا . كان يعطني المواعيد الغامضة ولكنني كنت متأكدة من انه لن يأخذني ابدا ثانية لأجلس مع النساء . هل حصل ان اربكته او ازعجت مضيفاتي في مانوا ؟ فكرت مليا في احداث ذلك الى يوم وراجعتها في ذهني متسائلة عن انطباعات شيرين وبروانه عني ورأيهما في .

كانت تعمل اكوام من الرسائل الى محطة الاذاعة كل اسبوع. رأيته متراكمة فوق مقعد السيد اسياي . وسألت عما تكون تلك . انها اسئلة وتعليقات من المستمعين في القرية . وكلما كانت تتطور كرديتي اكثر ، كنت اصبح اكثر قدرة على متابعة برامج الاذاعة وقد تحققت ان جزءا مهما من البرامج كان ترجمة للاخبار تحضر وتختصر الى العناصر الاساسية خصيصا للاكراد : " ان الشاه هو حاكم عظيم ومجيد " ان الجيش الايراني قادر على فزو كل الاعداء " ان البترول سيغني افقر قروي في كردستان " ابق جهازك مو لفا على الاذاعة الكردية واستمع للموسيقا الكردية " وكان العديد من القرويين يضغطون اجهزتهم على الاذاعة ويحتشدون حول اجهزة الاستقبال العاملة بالبطارية التي كانت تعتبر وسيلة اتصالهم الوحيدة بالعالم الخارجي . تساءلت : كم من الاخبار يصدقون ؟ وماذا فعل السيد اسياي بهذه الرسائل ، ماذا خرج السيد خليلي مقام بتحقيقات صحفية ؟ رية .

كلما كنت اضي وقتا اطول مع السيد خليلي ، كنت ادرك أن غموضا ما يحيط به . كان رجلا يبدو عليه الاسى على نحو لافت للنظر فقد تراءى على التوالي حزينا ومعتسل الصحة اكثر من ذي قبل وخلال السنة التي قضيتها في ايران . وقد اخبر جبرد مرة انه لم ينم طوال الليل وانه قد فقد الكثير من وزنه لانه فقد شهيته للطعام ، وبدت البسته واسعة

عليه وفي بعض الايام بداجلده شاحبا كشحوب الموتى . كان في بعض الاحيان يقرأ الشعر ويحكي القصص ويسجلها في مسجلتي ولكي اجعله يتحدث بدون رسميات ، سألته ذات مرة ان يسرد لي حدثا تعرض فيه للموت . وعندما سمع هذا الطلب شحب لونه اكثر مما كان مألوفنا وقال : انه لو اذن لطلبي ، فانه سيضطر الى ان يحيي ثانية تجربة رهيبه لن تدعه ينام لأسابيع .

كان السيد خليلي جادا في مجال عمله . لو انه فقط قد ر على قبول امادة معالجة الدعاية الحكومية وتحويلها الى الكردية . ولو انه فقط استطاع اعتبار رحلاته الى الاريفاف كنزهات حيث يمكن فيها ان يبسط اهميته على القرويين ليحوز على عطفهم وعربون محبتهم .

علمت اخيرا من كثرة اصغائي للبرامج الليلية ان السيد خليلي كان من المفترض انه ينشر تعليمات حول الزراعة بواسطة جلسات المناقشة والمداولة التي كان يسجلها على اشرطة تسجيل في مساجد ومدارس القرى . لكن هذه العملات كانت مثل ذر البذور في تربة الجبال الصخرية والجافة والقاحلة . لم يفكر احد من المسؤولين الحكوميين تفكيراً جادا فعليا ، اوفسي توظيف النقود في مسألة كيفية التأثير في هؤلاء الفقراء ليغيروا من اساليبهم الزراعية وينتجوا اكثر . ببساطة كان السيد خليلي الحلقة الاخيرة في سلسلة تنتهي الى لامكان - اضحوكة هابطة لسياسات الشاه الزراعية الفاشلة . وقد حكى لي انه عندما قيل هذا العمل في البداية ، كانت لديه آمال كبيرة لعمل شيء ما لأبناء بلده . ومجرد التفكير في مفاهيمه السابقة كان يجعله يضحك بمرارة . لقد اشبع غروري ذلك المدى الذي اختاره للبوح من مشاعره في فترة يكون فيها المرء وبمثل هذه المشاعر قد وقع في موقف خطر جدا . ولكن ربما أن السيد خليلي قد واجه الخطر مسبقا . وربما انه كان قد اعتقل وعذب من قبل . ان تجربة كهذه كانت من الممكن أن

توضح قلقه المرعب . ولكنني لم أسأله ابداً ، فقد كان حديثنا مقتصرًا على ماهو جار وعلى ماهو محتمل حدوثه في الحسب بـ الكردية الحالية لسنة ١٩٧٤ ، التي تشير التفاؤل .

كلما تحدثت مع الناس في الكلية ، كنت ادرك اكشـر ان كل شخص في ايران كان مفعما بالخوف . وكان من النادر ان تجد من يرغب في تداول السياسة . منذ ان فكرت - ولأول مرة - في الذهاب الى محطة الاذاعة ادركت اني سأعرض نفسي على نحو صارخ للبوليس السري . كان هناك رجل شرطة يحرس باب المحطة وكان واضحا من الاصغاء الى الاخبار المسائية انه لم يكن هناك تفريق بين مؤسسة الصحافة والاعلام وبين الحكومة ، لقد عرضت نفسي لخطر السوءال عن نوع الرخصة والمصادقة التي قد حـزت عليها لدراسة هذه اللغة شبه المحظورة او الاسوأ من ذلك لخطر اعتباري جاسوس او عميلة قد جاءت لتثير المشاعر القومية بين الاكراد في ايران وكامرأة تعلم الانكليزية في الكلية فقد بدت غير موءدية بما فيه الكفاية ، ولكن لم يكن هناك ما يدل على ذلك . افترض اني قد خلقت لنفسني مدوا . افترض أن السيد جوهر خان ، التركي ، تضايق جديدا مني كأجنبية ارادت تعلم الكردية بدلا من التركية افترض وافترض . لم يكن هناك شيئا محسوسا لاصاب بالقلق بسببه ولكنه سيكون بعد حين .

الفصل الخامس

لقد احتجت الى وقت طويل كي ادرك مدى وضوحى كأجنبية في ريزاي . كنت قد اعتدت على العيش على نحو غير منظم في مدن كبيرة مثل نيويورك . ولكن حتى اقامتي المؤقتة لم تهينني للتفحص الذي ساقسه كأجنبية في ايران ، ان عدد سكان ريزاي الذي يبلغ حوالي ١٥٠.٠٠٠ نسمة قد ازداد خلال فترة اقامتي بسبب تدفق الاكراد اللاجئين من العراق . وسط هذه الكثافة من السكان الاصليين كان هناك عدد ضئيل من الاجانب - لربما خمسون من الالمان والامريكان والفرنسيين والبولنديين وكذلك بعض الاتراك والمصريين ، الاجانب الاقل لغتنا للانظاره ، بالإضافة الى عدد من الاجنبيات كن زوجات للايرانيين الذين كانوا قد درسوا في اوربا وامريكا ، وقد لاحظت مباشرة ان جميعهن تقريبا كن يلتزمن البقاء في منازلهن بالقدر الذي يستطعن ذلك ، معتمدات على الخدم او الأزواج لتسويق حاجاتهن .

ان امكانية البقاء في المنزل لم تخطر ببالي ، على الاقل ليس خلال الشهور الاولى القليلة في ريزاي . لم تكن لدينا سيارة ، لذلك كنت اذهب كل يوم الى الشارع الرئيسي وانا في مستوفى سيارات برنقالية ، واذهب الى سوق الفاكهة ، والبازار ومحطة الاذاعة والكلية . وحالما كنت اسير من الزقاق الخالي نسبيا والذي يقع فيه منزلنا الى الشارع الرئيسى ، كانت النداءات تبدأ " مرحبا هيسوز ، كيف حالوك " حيث يرجع صداها خلفي حتى بعد ابتعادي لمسافة ليست بقليلة ومضيبي في الشارع . في البدايات كنت انظر الى الناس ، وكان معظم الذين يصرخون بي من

الرجال والاطفال . كانت الاناي يقطتين لترحيبات محتمله من اصدقاء حقيقيين وحتى النبرات الاقل قريبا من الانكليزية وكذلك النظرات الغرامية كان يمكن أن تلفت انتباهي . وبأناة تعلمت المشي بثبات وبدون أن ابتسم أبدا حيث كنت اتغاضى من سماع أي شيء ، لقد احتلت بأحفاء نفسي داخل غطاء نفسي كثيف جدا لدرجة انه اذا سلم علي صديق ما فسي الشارع ، وكانت الفرصة متاحة كنت اتجاهله ، واثق من انه كان شخصا ما ، اعرفه ، فقط عندما تفوتني الفرصة . وقد حزم مهندس بولندي كان يعمل في احد المكاتب الحكومية فسي المدينة اني شخصية غير ودودة ابدا ، لانه كان قد القى علي السلام ثلاث مرات في الشارع واني كنت قد تجاهلته في المناسبات الثلاث كلها . لم يكن تجاهل اتصالات غير مريحة متسمة بالطابع الشخصي مع الايرانيين سهلا كتجاهل مضايقات الشارع . فلم نكن من قبل - ابدا - قد خضنا تجربة نسال فيها بصراحة من قبل اجانب فعليين :

— كم من المال تكسبون ؟ لماذا ليس لديكم اطفال ؟
فالكثير من الايرانيين الذين تعرفنا عليهم ، كانوا يسألوننا هذه الاسئلة في احاديثنا الاولى معهم . لقد كانوا يطرحون الاسئلة ببساطة لم نكن نعرف فيها كيف سنفهم الناس ان ذلك ليس من شأنهم دون أن تبدو فظيين على نحو لايمدق . وبدون أي معرفة تهدينا ، افترضنا انه لابد ان الايرانيين يسألون بعضهم البعض نفس الاسئلة وانهم يجيبون على بعض منها . ان الفارسية هي لغة متطورة جيدا لمعالجة الفروق الضئيلة التي تكاد لاتدرك لكل التفاعلات الاجتماعية . ولسوء الحظ ، اننا لم نكن نعرفها المعرفة اللازمة لاستخدامها لصالحنا ، لذلك فقد كنا نترك معقودي الألسن دائما ، او كنا نخفي بمعلومات اكثر مما ينبغي بحيث لاتضمن لنا الراحة ، او كنا نهين

سامعينا على نحو سخيـف بـجـهـودنا غـير الفـعـالـة لـنـتـهـرب مـن اسـئـلتـهـم .

ذـكـرت هـذه الـمـشـكـلة مـرة لـزـوجـة المـدـرس الـذي كـان قـد سـاعـدنا فـي ايجـاد شـقـتنا . وقـد ادركـت مـباشـرة ماكـنت اتـحدـث مـنـه وقلـت :

– نـعم النـاس هـنـا " فـزولـيون " فـضولـيون جـدا .

ان الـاتـراك بـغيضـون لـأسـلـوبـهـم الـذي يـتـحدـثـون بـه و يـتـدخـلون فـي شـؤـن الـآخـريـن فـالـطـريـقة الـتي يـسـألـونـك بـها عـن أي شـيـء لا تـنـم عـن اخـلاق حـمـيدـة عـلى الـاطـلاق . لـقـد جـاءت مـن مـشـهـد ، وهـي مـدـيـنة تـقع بـعيـدا فـي الشـمال الـشرقي مـن ايرـان ، وكـلـ النـاس الـذيـن تـحدـثت مـعـهـم مـن لـم يـكـونـوا مـن السـكان الـاصـليـين بـل مـضـطـريـن لـلاقمـة فـيـها ، كـانت تـكره هـذا المـكان . فـسـألـتـهـا مـحاوـلة ان اتـعلم الـكـلمـة الجـديـدة .

– تـسمـين النـاس فـزولـيـين عـندما يـسـألـون مـثل هــذه الـاسـئـلة ، فـأجـابـتـني :

– نـعم .

– هل هـي كـلمـة مـهـذبـة ، اعـني ، هل يـمـكـنـك ان تـسمـي النـاس بـتـلك الـكـلمـة بـدون ان نـضـايـقـهـم ؟

كـنت قـد بـدأت احـذر مـن قـوة مـعـاني الصـفـات فـي ابرـان ، فـالـاجـابـة يـمـكـن ان تـكـون مـحـيرة بـالنـسـبة لـامـريـكـيـة قـد اعـتـبـادت عـلى قـول وتـلفـي الـاهـانـات العـرضـية . وقلـت :

– اذـا كـان النـاس فـزولـيـين ، اذـا سـامـكـانـك ان تـسمـيـهـم بـذلك . كـنتـت الـكـلمـة وحـفـظـتـها لـاسـخـدام مـستـقـلى وكرـرت تـلك الـلـسـة المـحـادـثـة كـلـها لـحـرد .

" فزول " كرر حيرد مع نفسه ، متعلما تلك الكلمة التي
تصف بعضا من سلوك الايرانيين الاقل استحسانا لدينا .

كنا احيانا نتحد نفسيينا سرفقة ايرانيين كانوا يريدون
الحصول على معلومات منا ، وكانوا يعرفون كيف يحصلون عليها
بأساليب اكثر دقة واحكاما . لم تكن قد انجمننا مع
السمات الاجتماعية المقبولة والضرورية من اجل البقاء في
دولة البوليس . ويدرك بعض الايرانيين جيدا مدى بساطة وجهل
الاجانب - خاصة الامريكان - في مجتمعهم المعقد ، والكثيرون
منهم قادرون على استخدامهم هذا الادراك والمعرفة لصالحهم
الخاص .

في احد الايام كنا جالسين حول طاولة ، في محل
حلويات محلي عندما انضم اليينا كردي . قائلا : انه كان
صديق حسن ، صديقنا من مهلباد . بطريقة او بأخرى اخبرنا
هذا الغريب بذلك بأسلوب لم يخطر فيه ببالنا ان نتساءل
مباشرة كيف عرف اننا نعرف حسن . وقادنا صديق الطاولة
الجديد الى محادثة استغرقت حوالي عشرين دقيقة ، حيث توجبت
بدعوة لمرافقته الى منزله . في تلك الايام التي كنا نتلقى
فيها القليل من الدعوات وكنا نعرف القليل جدا عن فـسـن
المجاملة الايرانية كان حافزنا الاول والغامر هو القبول دائما .

وجدنا نفسيينا واقعين في مطبخ منزله الصغير حيث كانت
زوجته تعد الشاي واذا به يسألنا مباشرة كل انواع الاسئلة
حول حسن ، كان كما لو انه قد خدرنا حتى هذه اللحظة -
حيث هدأنا وتدرج بنا لمطاوئته على نحو غير مشكوك فيه
وذلك بدعوته الكريمة ومناورات الكلامية البارة . وبعد
ان استدركننا نفسيينا نجحنا في التخلص من هذه المحنة بعد
شرب كأس الشاي المقدم لنا . بعد ذلك اندهشنا لاستغراقنا

هذا الوقت الطويل لكي ندرك ان هذا الرجل هو بدون شك عميل للبوليس السري ، ربما لأنه كان كرديا واننا لم نتوقع أن نجد كرديا في السافاك . ولم نكن نعلم ان فرع ريزاي كان يترأسه كردي من كرمشاه كان يُظن انه على علاقات طيبة مع ارستقراطي مانوا .

جيراننا الجعفرليون هم الوحيدون الذين لم يزعجوننا بأسئلتهم ولكنهم كانوا يبدون فضولهم حول مقدار المال الذي نكسبه ، ولكن كان من الواضح انهم يكسبون اكثر مما نكسب بكثير ، بحيث ان هذه المسألة لم تكن محرجة عندهم . مهما يكن ، فلوانهم طرحوا علينا اسئلة ، قمنا الطبيعى اننا كنا نشعر بالراحة تماما عندما نسألهم بالمثل . فقد بدت العلاقة على قدم المساواة . مرت فترة قصيرة قبل أن لاحظ انهم ينتبهون الى كل شيء نقوم به . فقد لاحظوا ونقدوا تكرار مجيء وذهاب الناس الذين كانوا يقومون بزياراتنا . ونقدوا حتى النبرة الصوتية المشددة بجرسها المختلف التي كنت اكتبها في لغتي الفارسية . وفي أحد الايام انفجرت شهرزاد بالفحك عندما لفظت كلمة فارسية عامية . فقالت على نحو متسم بالاثهام :

— تخلفين انطباعا لدى المرء بأنك كردية .

لقد كان ذلك صحيحا ، فالكردية والفارسية لغتان قريبتان من بعضهما البعض لدرجة أنه كان من الصعب جدا علي أن افصل بينهما ، وخاصة عندما كنت احاول تعلم كليهما في نفس الوقت . وضحت ذلك شهرزاد ولكشها لم تبد أي تأثير لذلك . كان المغربي من ذلك ان النبرة الامريكية مفضلة على النبرة الكردية عند التحدث بالفارسية . وقد جعلني ذلك اشعر بضرورة الانتباه اكثر اثناء التحدث اليها ، ولكنني مازلت على عدم شك في الشعور الودي الذي يكنه الجعفرليون نحونا . لم ادر تقديرا

صحيحاً ، وبدقة كم كانوا يوجهون نشاطاتي من كثر ، لأنني لم
استطع ان اتخيل انهم مهتمون بي بهذا القدر . لقد كان مجرد
وهم من اوهامي انني كنت امضي في ريزاي كشخصية منعزلة في
عمل خاص ، غير ملحوظ ولايسخر منها السكان المحليون .

لقد كنت في طريقي لأن اصبح مشهداً غير جدير بالملاحظة
في محطة الاذاعة ، حيث ان الشرطي الذي يحرس عند الباب كان
يكاد لا يرفع رأسه لدى دخولي . وبما اني الآن لست تحت
المراقبة المشددة ، فقد وفرلي ذلك الفرصة للانتباه اكثر
للزوار الآخرين . لم تكن الرسائل هي وحدها التي تصل المحطة من
القرى الكردية ، بل كان يحضر اليها اناس ومعظمهم من الرجال
أيضاً . كانوا يتسكعون حول الغرفة التي يجلس فيها أعضاء هيئة
معدّي البرامج الكرمانجية على مقاعدهم المعدنية ، واعتماداً
على اهميتهم الواضحة من لباسهم ، اما انهم كانوا يتجاهلون
دوماً او يقدم لهم الشاي مراعاة لهم . وبدأ ان بعض الرجال
المسنين ، بملابسهم الرثة كانوا ينتظرون لساعات واقفين امام
السيد اسياي كي يرفع يصره عن المكرفون او الاوراق ليسمع
النماسة ما . وآخرون ذوو البسة حسنة ، قواد قبليون متوسطوا
الاعمار ، كانوا يحتكرون محادثة هيئة المعدين لساعات فسي
وقت واحد ، ولكن لغتي الكردية لم تكن جيدة بعد بما فيه
الكفاية كي اتابع كلمة كلمة عما تدور حوله هذه الاحاديث .
وانت تصورت من وجهة نظر ريفية ان لابد ان السيد اسياي
وحتى السيد جاهي والسيد خليلي انهم يبدون مثل الرجال
المهمين قادرين على تقديم كل انواع الخدمات التي لا يمكن
تصورها .

في احد الايام رأيت رجلاً ببذلة رمادية ذات لمعان وعمامة
سوداء ، والعديد من التيجان الذهبية فوق اسنانه يجلس في
المحطة . وقد تعرفنا الى بعضنا بكلمات مختصرة ومن ثم عاد

الى حديثه الخصوصي مع السيد اسياى . وموعرا التقبت منه
صدفة مرة ثانية عندما قام السيد جاهي بتوصيلي الى الكلية
بسيارته . وقد بدا أن كلا الرجلين قد التهيا كثيرا لكونهم
وحيدين في سبارة مع امرأة اجنبية ، وقد سمعت الرجل ذا البذلة
الرمادية يسأل جاهي كل انواع الاسئلة عني . وعندما قاطعته
وأجبتته بالكردية كان قد اندهش لذلك . فأخبر السيد جاهي
وكما لو اني استطع التحدث ، ولاسمع :

- اذا فهي تتكلم الكردية . اين تعلمتها ؟

واجابه جاهي :-

- لقد علمها اللغة في امريكا ، كردي من تركيا .

وبدا عقل الغريب يعمل على نحو سريع وسأله :

- هل كان شابا ام فتاة ؟

توقف جاهي ونظر الي . وبما ان الكردية ليس فيها الجنس من
حيث التذكير والتأنيث وحيث أن " هو " و " هي " تؤديان بضمير
واحد ليس بمذكر ولا مؤنث ، لم يكن هناك سبيل لدى السيد
جاهي لمعرفة ذلك ، لأنني لم اذكر اسم معلمي ابدا .

ولتلهلي للمشاركة بفعالية في المحادثة فقد اخبرتهم
بسرعة وبدون تفكير :

- لقد كان شابا .

- آه . !

واوأمأ برأسيهما ايماءة ذات مغزى ، لم ادركها فسي
حينها ، ولكن صورة سمعتي كانت قد ثبتت الآن في فكر السيد
شيخ زادة ، حيث كان ذلك هو اسم الغريب المتعجرف - شيخ زادة ،
انه من ذرية الشيوخ ، واتضح مباشرة انه كان قد اتى لمحطة

الاذاعة هذا اليوم. ليدعوا هيئة معددي البرامج الكرمانجية الى مأدبة في قريته . وقد ضمنني الآن الى هذه الدعوة بحسن ذوق مني . وقبل ان احببته ، اقحم السيد جاهي كلامه بلطف مفصحا اني متزوجة . وشمل شيخ زادة جبردا ايضا ، على الرغم من أنه لم يصدق اني كنت متزوجة حقاً كما علمت مؤخراً . وقد قبلت على الرغم من نظراته الخبيثة ، وبعد صمت السيد خليلي المبهم حول هذه النقطة كان علي ان اقبل دعوة من أي شخص كان تقريبا لأقوم فيها بزيارة قرية كردية .

بزغ فجر نهار يوم الولاية مشمساً وجافاً ، تقريبا مثل كل الايام منذ مجئنا الى ريزاي في ذلك الخريف . وعندما اتجهنا الى جبردا ناحية محطة الاذاعة ، رأينا العديد من الناس يتنزهون على طول الطريق ، على الرغم من أنه كان رسمياً يوم حداد " وفاة " علي، وهو ولي شهيد من المسلمين الشيعة ، فقد بدا أن كل شخص يستمتع بهوفته . لاحظت في المحطة أن السيد اسياي ينظر الى لباسي نظرة ناقدة ويغمغم لجاهي قائلًا :

— انظر ، انها تلبس فستانا للقرية ، بينما ترتدي سروالا في المدينة .

بعد تجربتي في مانوا ، حاولت ان احدثي نموذج الملابس الكردية قدر استطاعتي مع ملابس مصنوعة على عجل وبدون اتقان نسبي . وقد جمعت بذلتي الكردية المزيفة مع جزء سفلي من فستان طويل وثقيل مطرز الحواف ، وقميص خارجي فضفاض وصدرية محبوكة .

غادرت بنا سيارتان من المحطة الى قرية شيخ زاده ، لأنه بالإضافة الى الهيئة النظامية الموهلة من ثلاثة رجال كان هنالك قريب لاسياي واخو السيد جاهي . ولكوننا ضيوفا اجانب فقد دعينا مباشرة ولباقة للركوب في سيارة اسياي الاجنبية

الصنع ، بينما كان على الباقيين ان يتحملوا الصدمات في سياره الجيب . انطلقنا هابطين في احد الطرق الرئيسية في المدينة الى أن بدأ الطريق وكأنه اختفى في واد مستو غير محروث ، او مرعى ترتع فيه الاغنام . وبدون التوقف عند هذا المنعطف المتعذر اجتيازه على ما يبدو ، انحرف السيد اسياي الى اليمين وبدأنا بالسير على طول ممر ترابي بجانب بعض الاشجار . ولو اننا لم نسر عليه لما عرفت ابدا انه كان طريقا .

في اطراف المدينة كانت اشجار البساتين تتساقط اوراقها ، وحدائق محروثة قد تركت بدون زراعة لاراحتها ، داخل حدود جدران صخرية منخفضة على جانبي طريقنا . بعد ذلك ظهرت جدران بيوت طينية محاطة بجدران طينية .

بانت قرية شيخ زاده بعد أقل من ستة كيلومترات من المدينة عبر طريق مستقيم منحدر ومفروش بالحصى على نحو لافت للنظر ، حيث كان يعدُ بشيء أكثر من القرية الصغيرة ذات الطين الجاف التي التقت بها اعيننا عندما انحرف السيد اسياي بسيارته الى الطريق الترابي المحدد ، الذي يقع بين الجدران المحيطة بالمنازل .

ظهر كلب الراعي الضخم ، لينبح صوبنا ، وبعدد رأينا السيد شيخ زاده نفسه في ممر الباب يبتسم ابتسامته العريضة التي تكشف عن اسنان ذهبية . كان مرتديا على نحو رسمي كما كان في اليوم الذي رأيت فيه في المدينة ببذلته الرمادية ذات اللعان والقاتمة اللون ، وتوقفت سيارة الجيب الممتلئة بالضيوف الآخرين خلف سيارة السيد اسياي مباشرة . وعندما تخرج الجميع بدأنا محنة عبور ممر الباب بالترتيب المناسب .

وبما اني كنت المرأة الوحيدة الحاضرة بينهم فقد ادخلت انا أولا . كان جيرد المدعو الثاني للدخول ، لكونه ضيفا

أجنبيا، ولكنه رفض متذعرا بسلوك تقليدي تماما ، فبعد وصولنا مباشرة الى ريزاي ، كان جيرد قد أدرك النظام الإيراني لفن المجاملة المعروفة بـ " التعارف " أى الشكليات والرسميات وقد وجد في طريقة عدم تقدم طلابه عليه أبدا عبر ممر الباب شيئا مسلما للغاية ، وكان يسر في دفعهم أمامه أولا ليزيد في أربابهم . كان جيرد قد استوعب بسهولة واحدا من المبادئ الأولية لنظام الشكليات : انه ليس ذا أهمية كم أنت رجل مهم ، وكم هو واضح لكل امرئ انه ولهذا السبب عليك أن تكون الأول فواجبك دوما أن تذعن لارادة الذين من حولك . ولسوء الحظ لم يكن جيرد قد تفهم المبدأ الثاني لنظام الشكليات . وهو أنه على كل امرئ في النهاية أن يذهب بالترتيب المناسب . وكان قد فشل أيضا في ادراك الأمور الأساسية والخطيرة لهذا التقليد الفارسي الغريب . فبالنسبة لجيرد كان كل ذلك مجرد لعبسة ، أما بالنسبة للإيرانيين فنظام الشكليات هذا هو أسلوب فني الحياة . وقد كان جيرد هذه المرة وبخلاف ما كان أثناء تواجده مع طلابه ، قليل الخبرة بين إيرانيين اكبر سنا وأكثر خبرة منه وبعد مقاومة ودية قصيرة كان قد أجبر أن يمضي وفق ما يريدون ، فجاء بعدي عبر ممر الباب ، وتلاه اسيابي ، الذي تبعه جاهي مع البقية وهم يدخلون في نظام ثابت معروف لديهم فقط . ولكون السيد شيخ زاده هو المضيف فقد كان آخر من مشى .

سرنا كرتل ونحن لازلنا في نفس الترتيب عبر الحديقة معودا على الدرجات الاسمنتية حتى دخلنا منزلا قرميديا . وداخل الرواق المركزي خلعنا أحذيتنا واحدا تلو الآخر وبعدد مررنا عبر ممر آخر موّدة الى الحجرة الواقعة على يمين المدخل . جلسنا جميعنا هناك فوق سجادة فارسية مزهرة ذات أرضية حمراء ، ومن ثم جلست بنظري في أشات الحجرة . وقد دهشت لدى رؤيتي تلفزيونا وسألت فيما اذا كان في القرية كهرباء . وبما أنها كانت تقع على بعد ستة كيلومترات فقط من ريزاي ، لم يكن

وجودها شيئاً شامضاً ، ولكنني كنت قد سمعت ان سياسة الحكومة كانت تمنع الكهرباء عن كل القرى واثبتت قرية شيخ زادة انها ليست استثناء بعد أن اتضح ان تلمزيونه كان يعمل بقوة بطارية سيارة . كان منزله في الشتاء يدمأ بمدفأة تعمل على النفط مع انبوب يرتفع ممتدا الى روافد المنزل المكشوفة . وقد علفت على الحائط صورة عفى عليها الزمن للشاه وزوجته اخت الملك فاروق ملك مصر . وكان هنالك أيضا صورة اكثر حداثة بكثير للشاه يقدم فيها ما يشبه المكافأة لمضيفنا . تساءلت في نفسي : ماذا كان قد فعل ليستحق عليه ذلك ؟

جلسنا انا وجيرد في احد جوانب الحجرة بينما جلس السيد شيخ زاده وهيئة المساعدين في الجانب الاخر في مواجهةتنا . لم تظهر نساء او اعضاء من العائلة عدا فتاة ممتلئة الجسم ، ذات خدين ورديين ، علمت موءخرانها ابنة السيد شيخ زادة . كانت تدحل وتخرج على نحو نشيط ، تقدم الشاي بنظرات مسدلة نحو الارض وبدون ان تتفوه بكلمة امام كل هؤلاء الرجال .

كرس السيد شيخ زاده اهتمامه بي في البداية ، وقد انار شعاعا من ضياء الشمس البقعة التي كنت اجلس فيها وكنت احقد فيه بعينين نصف مغمضتين ، بينما كان يمتحنني بالسؤال عن المفردات الكردية الواحدة تلو الاخرى . وقد اكتشفت حالا أنه يعمل كناظر مدرسة القرية ، وهو عمل غير عادي لأي كردي قروي . كان يدبر معظم مدارس القرى جنود في الجيش ، ما يدمى بسلك تعليم القراءة والكتابة ، الموءلف من جنود شبان . ان التعليم الجامعي اوحى تعليم المدارس الثانوية احيانا كان كافيا لتأهيلهم لتعليم اطفال القرية الكتابة والقراءة . ان الفكرة من حيث المبدأ ربما لم يكن يعيها شيء ، ولكنني لم اسمع ابدا ان احدا من الاكراد المهتمين بأمور التربية والتعليم يقدرها . وبما ان المجندين الجدد كانوا قد ارسلوا على نحو مدروس ومقصود الى اجزاء من ايران بعيدة عن المكان الذي نشؤوا

فيه ، لم يكن أحد من الذين عينوا في كردستان يتحدث الكردية وبالطبع لم يكونوا مدرسين مدربين . لقد بدأ ان القرويين كانوا يحتملونهم تسامحا معهم وليس ترحيبا بهم . وحتى انهم كانوا يقتلون في بعض الاجزاء من ايران . تصورت ان طلاب قرية شيخ زاده يشعرون بأنفسهم كأنهم محظوظون لوجود شخص ذي خبرة مع الميل الواضح نحو علم اصول التدريس لديهم . ولكنني تساءلت فيما اذا كان يستخدم الكردية في صفه ام لا .

قاطعنا السيد اسياي فجأة على نحو نفذ فيه صبره وسقط جلسة الاسئلة والاجوبة وقال شيئا بالتركية . ومنذ ذلك الحين استمرت المحادثة كلها بالتركية . كان اسياي ، شيخ زاده جاهي واخو جاهي ، وقريب اسياي كلهم يتحدثون بحيوية بلغة لا جيرد ولا أنا كنا نقدر على فهمهم . وبدأ ان احدا لم يلاحظ ذلك سوى السيد خليلي الذي لم يكن يتفوه بشيء هو الآخر . وكما شعرت بدا متضايقا ، ماذا كنا نفعل في قرية كردية مع مجموعة من الاكراد يتحدثون بالتركية مع بعضهم البعض ؟

وبعد ان تجاهلونا لبضع دقائق ، ادركت فجأة انهم قد شملونا ثانية وتحول السيد اسياي هذه المرة الى الفارسية ليخاطب جيرد بطريقة بدا فيها متعجرفا وقال :

— كم تعطى في كل شهر ؟

اضطربنا انا وجيرد للحظة . اذا كانت المسألة نتعلق بالرواتب ، فالافعال في الفارسية تقلب مضامينها عما تتوقعه من مفاهيمها في الانكليزية ، فالفعل " يعطي " - يعني " يحمل " والعكس بالعكس . وقد صغقت عندما ادركت ما كان يريد معرفته . لماذا كان يريدنا أسياي ان نحدد رواتبنا امام هيئة الاذاعة كلها في قرية نحن غرباء فيها ؟ شرحت السوء الى جيرد بسرعة وخيم الصمت على الحجرة بينما حدق فينا الجميع ، يستطرون ردا .

نظرنا انا وجيرد الى بعضنا . ماهو الشيء المتوجب قوله ؟ نهـسـ جيرد معترضاً ، معبراً عن فكرة فظة على نحو غير سوي بقدر ما كانت تسمح له لغته الفارسية غير المتقنة وسأل :

ـ ماذا تعني كلمة " فزول " ؟

نظرت الى اسيابي وميزت رد الفعل الذي رأيتـه على وجه موظف الفندق الذي حاول وعلى نحو يعوزه الذوق ان يخدمنا في أول يوم لنا في ريزاي . وكان جيرد قد اجاب على اكاذيب الموظف بهذا الفارسية معتدلة تعلمها من بعض الطلاب الايرانيين في الولايات المتحدة . وقد شـحـب وجه اسيابي مثل الموظف تماماً . جذبت الي نظر جيرد وعبت في وجهه : لماذا علمته كلمة " فزول ؟ نظـرـ جيرد متحيراً للتعبير المرسوم على وجهي . كان بمقدوره أن يقرأ الغضب عليه ، ولكنه لم يلحظ اي تغيير على وجه اسيابي . لماذا كنت اجهـم ملامحي ؟ خيم الصمت المربك للحظات وشـعـر اسيابي بنظرات مرافقيه الاقل مكانة اجتماعية منسبة عليه ، انه ملزم بالمواجهة بتحد . فقال لجيرد :

ـ أنا متأكد اني اكسب مالا اكثر مما تكسبونه بكثير .

فأجابه جيرد موافقاً :

ـ وأنا أيضا متأكد من ذلك .

وبعد ذلك غيـر اسيابي جلسته بحيث لم يعد يواجهنا وعادت المحادثة الى مجراها الطبيعي الى حد ما . طنت اذنـاي ولم اعد اعرف فيما اذا كانت المحادثة تجري بالتركية أو الفارسية . لو أن جيرد كان قد استوعب لعبة " التعارف " اسـرـع مني ، لكان أدرك مقدار الاهانة بعجلة اكبر . لقد احسست بطريقة مامند اللحظة التي دخلنا فيها ايران ان الناس يهـدـون كأنهم ينتظرون ان يتخذوا موقف الهجوم . فلو انك اهملت اللقاء السلام على البقال عند دخولك المخزن ، فانك تعرض نفسك لهدم

تلبية طلبك . واذا لم تسأل عن صحة احد مافقد يظن الناس انك كنت تعاملهم بازدراء . لقد اصحت اعتبر العديد من الاشياء اللطيفة اسوأ حالا مما هي عليه ولكنني تأكدت من شيء واحد منذ اللحظة التي رأيت فيها ملامح وجه موظف الفندق وهو أن الاهانة لايجنب احراجها بالضحك في هذا البلد .

كان رد الفعل في هذه الحجرة بينا بالنسبة لي - كان كما لو ان كل شخص حاضر قد احتبس في نفسه . ويتساءل : من اين جاء هؤلاء الامريكان لكي يظنوا انهم يقدرّون ان يتحدثوا بهذه الصراحة مع رجل مهم مثل اسياي ؟ لقد سبق كل امرئ عبر المدخل عدا الضيوف الاجانب . والآن اهانه هؤلاء الضيوف الذين شرفهم . لم نكن نعرف بعد اصل وتاريخ كلمة فضول . ولكن ذلك هو مجرد نقطة تفصيلية . وفي وقت متأخر سيكتشف جيسرد ان إخطار خادمته بأن كلماتها هراء وبأكثر الكلمات اعتدالا، سيعطيها مبررا لأن تغادر منزلك حالا وبدون ان تعود اليه ابدا .

استمرت المأدبة بطريقة ما ، وبدى بتقديم الطعام ، حيث وضعت الابنة طبقا ، ومن ثم تلتته بآخر ذي رائحة ذكية فوق الغطاء البلاستيكي الذي كانت قد فرشته وسط ارضية الحجرة . بقيت استرجع في ذاكرتي رد فعل السيد اسياي على كلمات جيسرد . ربما كان ذلك في خيالي المفرط الحساسية فقط . وربما ان فضبه قد زال ، فلامحه لم تكن تسجل شيئا عندما نظرت اليه .

كان من الواضح ان واحدة مامنهن ، ربما (الابنة ؟ الزوجة اونساء لم ارهن ؟) كانت قد امفت وقتا طويلا في تحفيـسر وجبة شنية ومنوعة كهذه . وقد نسيت تقريبا الجو غير المريح عندما حدثت في الدجاج والخضرة المحشوة بالارز المعشب، و اللبن المصفى و المخللات ، " والبيلاف " ، وقد توقفت المحادثة

عندما شرع كل شخص محاولاً أن يملأ طبقه . عندما بدأت بنزع قطع من اللحم من الفروج المخصص لي وجدت أنني قد نزعمت معظم الترقوة . وفي محاولة لتلطيف الجو خطر ببالي أن أسأل عن لعبة كردية كنت قد قرأت عنها . هلا فعلاً يلعبها الناس ، أم أنها كانت شيئاً مختلفاً من خيال أحد المغامرين البريطانيين؟ سأعرف ذلك جالاً .

لمعت عينا السيد اسيابي عندما رفعت العظمة . . جناح
سمى اللعبة العديد من الموجودين في الحجرة حالا . وقال السيد اسيابي :

— أنا سألعب . بماذا سنعد بعضنا البعض؟

لم أفهم أنه كان يحاول أن يحدد شيئاً نراهن عليه ، ولكن طلب اسيابي مضي غير ملحوظ في فوضى اخباري عن قواعد اللعبة من قبل كل الحاضرين وبدأنا اللعب بدون أن نعرف ماذا سيربح الفائز . ان غرض اللعبة الذي يقترح بمجرد كسر عظم الترقوة من قبل كلا اللاعبين هو أن يناول أحد الشخصين الشخص الآخر شيئاً ما وعلى هذا ان يقبله . التقط السيد اسيابي مباشرة قلماً مني ذا الرأس الكروي الذي كنت استخدمه في تدوين كلمات كردية وحاول أن يناولني اياه . كنت سأقبل ، وبذلك أخسر اللعبة ولكن السيد خليلي ذكرني . وقد أهملت اللعبة بعد محاولات عديدة قام بها السيد اسيابي . حضرت الابنة وقادتني الى بيت الخلاء الخارجي ومن ثم أرجعتني الى الداخل الى الحجرة الواقعة في الجانب الاخر من المنزل . في غضون ذلك بدأ السيد اسيابي بممارسة لعبة جديدة أكثر خبثاً مع جيرد . لم تكن هذه لعبة كردية ، بل لعبة ممعنة في القدم كانت تمارس في ايران لقرون عدة . ومما لا شك فيه أن لعبها مع أجنبي مبتدئ مثل جيرد فيها متعة الممتعة المزيد بالنسبة لاسيابي .

بينما شرعت ابنة مضيبي باخراج مجموعة من ملابسها لكي ارتدي شيئا منها ، بقي معظم الرجال في الحجرة الاخرى عدا السيد خليلي . وتساءلت موهرا فيما اذا كانت المناقشة ستكون هسي نفسها فيما لو ان السيد خليلي لم يقرر الذهاب في جولة حينذاك حيث بدأ السيد اسياي بالتحدث وسأل جيرد بدون أي مناسبة للموضوع حالما غادر السيد خليلي :

- هل تود المجيء الى منزلي لتدخن بعضا من " الترياق".
 حدق فيه جيرد مفكرا : في البدء سأل عن روايتها والآن يعرض علينا المخدرات . ان نظريات السيد اسياي عن الامريكان بدت مقبولة ونمطية كآراء واحد من القرويين الاكثر جهلا وفظاظة .
 هز جيرد رأسه . قائلا :

- لا ، شكرا ، أنا لاهتم بتهاضي المخدرات .
 فواصل السيد اسياي بامرار :
 - لم لا ؟

تعملل جيرد متفائلا . وكان الرجال الآخرون يراقبون كل شيء من كذب . واجاب ببساطة :
 - لأن البوليس يمكن ان يأتي .
 فقال اسياي على نحو هادف :
 - ان البوليس لا يأتي الى منزلي ابدا .
 تأمل جيرد اسياي بقلق ، عندما سحب هذا الأخير بطاقة من جيبه وعرضها امام الأمريكي ليراها . لقد كانت ضربا من " ID " واصلن اسياي قائلا :
 - أنا ضابط في السافاك .

لم ينبس احد بهبت شفة عندما اتضح لجيرد بأن امر ما يجري بطريقة خاطئة ، كان السيد اسياي يعرفه بأعنف طريقة ممكنة انه عنصر من البوليس السري الايراني المرهوب الجانب . ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ تمنع جيرد بوجوه كل الحاضرين . لقد

كانوا ذوي شخصيات غير واضحة او مميزة الملامح . ماذا كان من المفروض عليه ان يقوله ؟ . لقد بدا ان الموضوع تلاشى بنفس السرعة التي اثير فيها ولكن لو اننا كنا نعرف التحديث بالتركية لربما قضوا بقية مترة الظهيرة وهم يعشقون بطريقة ساخرة منا وكم كنا مغفلين .

خرج الرجال من الحجرة جملة وكان قد انضم اليهم السيد خليلي . حكى لي جيرد بسرعة ما حدث . حينذاك كنت قد لبست بذلتي المستعارة التي لم تكن جميلة مثل البذلة التي اعطوني اياها لارتديها في مانوا . كان ينقصها الجزء الاعلى من مشرر ذهبي والسرة المصنوعة بالماكنة بدلا من صدرية صوفيسنة سوداء . وعلى الرغم من ان شبخ زادة كان الاكثر ثقافة وثراء من أي شخص آخر ساهده في قريته ، لم يكن على نفس مستوي رشيد بك .

تجولنا على طول الجدار الطيني المهيأ للانهيار ، الذي يحبط ملكية شيخ زادة وقد كانت قطعة ارض جرداء وجافة في هذا الوقت من السنة . وعلى بعد مسافة كنا نستطيع رؤية ريزاي كواحة ممتدة ، وخضرة اشجارها وحدائقها المروية تتلاشى في زرقة البحيرة الواقعة خلفها . لدى تحوالنا في حقل شيخ زاده مررنا بنساء يغسلن الالبسة بايديهن في جدول ماء . هبت الريح على تنورتي بحركة خاطفة ، بينما اخذ جيرد صورا لكل الحاضرين ، وقد اراد السيد اسياي ان يظهر في جميع المورواندفع شيخ زادة بانتباه الى الامام الى جانب رثيس البرنامج الاداعي الكرمانجي . كان اسياي يتصرف بطريقة يعامل فيها مضبنا بتنازل ، ولكنني بعد ذلك لم اشهده يعامل الناس حوله بدون تفضل . ولكنه لم ينجح في جعل جيرد يلتزم بهذه القاعدة التزاما شديدا . فقد حاول اسياي ان يهين الاجنبي بطلسه معرفة راتبه امام مجموعة من الغرباء

وانتهى الى ارباك نفسه . وبالنسبة لرجل مثل اسيايي كان هذا شيئا لا يطاق وتساءلت عن المدى الذي من الممكن ان يمتضي فيه ليسوي هذا الموقف الجارح .

شعر الرجال بالبرودة حالا ببذلاتهم الغربية الطراز وهم في الخارج في مهب الريح . فذهبنا الى الداخل ، التقطت أسيايي فنجانا من الشاي من فوق الطبق وحاول ان يناولني ايماه . ولكنني رفضت ، فلوانسي ربحت لعبة " الجناح " فاني سأربح هذا اليوم كله ايضا من اسيايي . ومن ثم اتخذت المناقشة منحى آخر يوجهه أسيايي . فقد قرر هذه المرة أن يناقش مسألة " التعارف " أي الشكليات والرسميات .

ان التعارف ، ذلك النظام الذي قاد كل واحد وفق الترتيب الذي كان عليه ان يطبقه اثناء مروره في الرواق ، هو كلمة فارسية مقتبسة من الفعل العربي " عرف " ان صيغة " تعارف " في العربية تعني شيئا مثل " المعرفة " او " الادراك " بينما اتخذت في الفارسية مضمونا مختلفا نوعا ما ، على الرغم من انها ما تزال تتعلق بمسألة المعرفة بمعنى من المعاني . ان التعارف في الثقافة الايرانية ينتظم كل التفاعلات الاجتماعية عدا تلك التي بين اصدقاء حميمين جدا وبين العائلة . وحتى في هذه العلاقات الاخيرة فباستطاعتك دوما ان تبعدها عن نفسك بالارتداد الى الشكليات . ان التعارف هو طريقة لتنظيم الناس والمواقف مع الحد الاقصى من الكياسة والحد الأدنى من التعرض للتجريح والانتقاد وحيانا يشبه الرقص ، في لحظة باردة الى حد أقصى لا يتلامس فيها المشاركون أبدا ، ولكن كل شخص منهم يودى مهمته على احسن وجه ، على الاقل من جلي بعد . ونزولا عند قواعد " التعارف " عليك ان تعرض كل شيء على الملأ حتى حياتك الخاصة . وبذلك فان اللازمه التي يتقونها جاهي في الهاتف في مكتبه باطراد ، هي عبارة

مأثورة في الشكليات . وكذلك كلمة " بفرماييد " أي تفضلوا ، هي العبارة التي كانت تستخدمها شهرزاد عندما كانت توجه لي الدعوة للدخول الى شقتها . وفي افضل معانيه يمكن " للتعارف " ان يكون كرم ضباغة غامر ، وعروض لانهاية لها من الشاي والحلويات وطاولات تثن تحت عرض مجتهد فيه لمزيد من الغذاء الغني . وحسن ضباغة يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل طالما ان الضيوف قد اختاروا البقاء . ولا مضياف يتشأب ابدا . والمنعشات لاتنتهي حتى لو ان الخدم واعضاء العائلة اضطروا الى التسلل من خلفية المنزل في بحث صامت عن الغذاء والشراب ليستكملوا نقص ماتم استهلاكه .

ولكن هناك جانب آخر للشكليات وهو الثقل الذي تتضمنه كنتيجة للتلقني . فكل امرئ يرغب في ان يقدم ولا أحد يرغب في القبول . فاذا قال لك احدهم " قرباناته " من الممكن أن توميء " برأسك بأدب وتقدم نفسك قربانا له بينما ليس لدى احد منكم الشعور الواهي او أي اعتبار للآخر . ففي المبالغة القصوى لمفهوم " التعارف " لاالمقدم نفسه ولا الرافض يعينان مايفولانه على الاطلاق ، عدا ماتحتوييه من مجرد مجاملة بحتة . ربما يقدم لك احدهم وليمة عظيمة بينما لا يوجد في بيته سوى الخبز التفة المذاق . وبالطبع ستجيب بأنك قد اكلت لتوك حتى لو أنك تشعر بالجوع وتعوزك النقود لشراء الغذاء .

كان الايرانيون الشباب قد ادعوا ونحن في امريكا أن الشكليات هي مظهر كاذب مهجور ، وانه عاشق للصدقة . وقد اخبرنا الاكراد ان عادة الشكليات هذه غير سائده بينهم . ولكن كان علينا أن نكتشف بأنفسنا الى أي مدي وبأية أساليب ومواقف يمارس الناس نظام الشكليات في ايران .

احيانا كان نفس الذين يستنكرون نظام الشكليات هذا ، هم أنفسهم الاكثر اعتمادا عليه . وعلى ذكر التعارف علق جيرد مباشرة :

— لا يوجد نظام شكليات في امريكا .

وكان يعني بذلك انه ليس مهما من يسبقك عبر البسباب ، أن الناس عادة يقبلون الدعوة من المرة الاولى ، لان الامريكيان بشكل عام يعنون دعواتهم التي يقدمونها لتواريخ محددة وانهم لا يتصرفون بطريقة ايجائية . وفي وقت متأخر وبتقييم صادق من ثقافتنا الخاصة كان علينا ان نعترف بوجود موكـد لنظام الشكليات في امريكا . وفي المرة الثانية سمعنا امريكيين يقولون :

— ببساطة علينا أن ندعوك للغداء .

وعندما عرفنا انهم لم يكونوا عازمين على دعوتنا ادركنا أن الامريكيان أيضا قادرون على ممارسة الشكليات ان تعليق جيرد بصدد عدم وجود شكليات في امريكا كان تماما ما يريد السيد اسياي ان يسمعه . ومنذ ذلك الحين بدأ اسياي وعلى نحو يتفاخر فيه يسبق جيرد خلال السـرواق، يأخذ الشاي قبله وبشكل عام يتصرف بنفسه على نحو ببـددو فيه كأنه ايراني استثنائي . وفي كل مرة يتجاوز فيها احدى القواعد ، يعذر نفسه بقوله :

— لا يوجد نظام شكليات في امريكا .

واخيرا وعلى نحو لطيف شارفت نزعات النهار على نهايتها . وقف السيد شيخ زاده في مدخل الباب ليودعنا بامنياتة الطيبة بينما اثنى عليه المتحدثون من ابناء بلده لحسن ضيافته ، وقد سمح لي اسياي ان امر عبر الباب أولا ، ولكنه حرص فيما بعد على ان يسبق جيرد . ومرة أخـرى

وجدنا انفسنا في سيارة اسياي وبما انه كان يقود السيارة فقد نجحت في ان اناوله سيجارة مشتعلة وبذلك ربحت لعبسة الجناح هذه المرة .

سأل اسياي ابن عمه -الجالس معه في المقدمة :
(١١)

- ماذا اعطيها ؟

- لربما فستانا أو شيئا ما .

ولدى سماعي ذلك ظننت ان الخصومات قد انتهت .

عندما عدنا الى المدينة دعونا كل الحاضرين لتناول الشاي ، وقد قبل اسياي الدعوة مباشرة واثقا من انه "لاتوجد شكليات بين الامريكان " ولكن تحت تأثير مسحة ايرانية . وقادنا اولا الى دكان معجنات ليقدّم لنا الهدية الالزامية لكونه حل ضيفا علينا للمرة الاولى .

كان اسياي في منزلنا لطيفا وحتى ودودا ولكن ايضا بدا مزهوا بنفسه وفضا أكثر من العادة . فقد مكث يردد :

- لاتوجد شكليات في امريكا . ومن ثم لا يأخذ مسائل الشكليات بعين الاعتبار . وبالنسبة للمعايير الامريكية لم يكن يعتبر غير مهذب ولكنه كان يعتبر فضا للغاية حسب المعايير الايرانية . بقدر ما يمكن ان يسعفني التعبير فان اسياي كان ايرانيا بسلوكه اكثر بكثير من أن يكون امريكي . ومع ذلك فقد بدا ان اليوم سينتهي على نحو أفضل بكثير مما توقعت ، حيث تقبل اسياي حسن ضيافتنا وحتى انه جلب لنا علبة من كعك محلى . لم استطع أن أدرك انني كنت لازال افسر سلوكه حسب ثقافتى الخاصة . وكان الكعك المحلى مجرد ايماءة من الشكليات . فلربما كان لدى

اسبابي اسبابه الخاصة ليأتي الى منزلنا الذي لايقع في النفس شعورا بالرضا والابتهاج . ففي ايران يقبع الشكل على السطح مثل الاغطية التي رأيتها في مطار طهران . أما ما يكمن في الداخل فليس سهلا على الاجنبي رؤيته أبدا .

في المرة التالية التي قدمت نفسي فيها في محطة الإذاعة أو ما الشرطي برأسه كالعادة ومشيت نحو الحجرة التي جلس فيها مجموع معدي البرنامج الكرمانجي . الشيء الاول الذي لاحظته هو كيفية انشغال كل شخص بعملية تنويع للبرنامج كانوا يقومون بها لدفع السأم ، فالسيد اسبابي والسيد خليلي كانا قد غمرا بالاوراق التي تخصهما ، بينما كان السيد جاهي قد انشغل باستخدام الهاتف . لدرجة ان أحد لم يلاحظ انني كنت واقفة هناك واخيرا انصرف اهتمام السيد جاهي عن الهاتف وقال :

— أنا آسف مارغريت خانم ، ولكن السيد خليلي مشغول جدا ولايستطيع العمل معك هذا اليوم .

وفي تلك اللحظة نهض استاذي الكردي النحيف ، ذو النظرات القلقة واندفع خارج الغرفة ، وبصعوبة لمحني عند ما مرر بي . تجهد قلبي وحاولت أن الفت نظر السيد اسبابي ولكنه كان مشغول اكثر من الجميع بترجمة اخبار اليوم الفارغة " التي لاأخبار فيها " حيث كان قد اعدّها خبراء الدعاية والاعلان في طهران وارسلوها الى ريزاي . من الواضح ان هذا ، كان العمل الاكثر اهمية لدى الهيئة الكرمانجية . فقد كان اسبابي يجلس على مقعده وينقل الترجمة شفويا الى المذيع المسجل الضخم ومن ثم ينسخ ترجمته لترسل الى طهران ولتندفق من قبل السلطات .

واصلت الوقوف في المكتب ، غبر واشقة مما سأفعله

في الخطوة التالية . وقد كان وجودي هناك وبدون ان يلاحظه أحد تجربة جديدة عليّ . قبل ذلك كان يتواجد دائما صصف من الناس المنتظرين الذين يرغبون في لفت انتباهي او يرغبون أن يسألوا سوءا لاما عن الانكليزية أو عن الولايات المتحدة ، يريدون أن يظهرُوا انفسهم انهم موجودون . والآن صصرت أنا الشخص غير المتواجد والموجود . لم اسمع مداعبة او مفازلة أو ترحيبا . اكتسب وجهي حمرة من الارتباك وشعرت بالدموع تلسع جفوني . فبدأت بالمشي صوب الباب ولكن السيد خليلي الذي كان قد عاد من مهمته العاجلة لبضع دقائق مضت ، قال لي :

– تفضلي بالجلوس مارغريت خانم .

بعد ذلك قدم لي الخادم كأسا من الشاي . ومربي روجل غير مهم وحياتي . عندما انتهيت من احتساء الشاي نهضت وغادرت الحجرة دون أن ينتبه الي احد أو حتى يرفع احد بصره لينظر الي .

قررت أن اقوم بزيارة اخرى الى المحطة ، لأنني كنت مرتابة من قدرتي على فهم الاشياء في ايران . انتظرت عدة أيام لأستجمع شجاعتي وبعدد عدت ثانية . ربما كانوا فعلا مشغولين يوم زيارتي لهم . ربما أن بعض التوجيهات قد اصدرت اليهم من طهران اضطرتهم فعلا الى تبني سرمة مكثفة في سير العمل . ربما كنت حساسة جدا . ربما أن كل شخص منهم قد ألفني ولم اعد مركز الانتباه ، فليس باستطاعتي أن ابقى مركز ميدان ثلاثي الحلقات الى الابد .

وفي المرة الثانية لم اخطئ في حكمي على ماكان يجري فقد اخبرتنني شخصية ليست أقل أهمية من السيد جواهر خسائه ان السيد اسياي قال ان الهيئة الكرمانجية مشغولة بحيث

لاستطيع أن تقدم لي المساعدة في عملي في الكردية . وكان السيد جوهر خانة نفسه ودودا ولكنه كان مشغولا . وبسبب انه لا يحمل أي ضغينة صدي ، ولكن موقفه كان : انه اذا اعتقد السيد آسيابي أنني غير مستحقة لوقت أي شخص أكثر من ذلك ، فمن المحتمل انه مخق في ذلك . على أية حال ، مهما كانت مشاعر جوهر خانة تجاه آسيابي ، فانها لم تكن تستحق لذيده لحظة يقع فيها في مجابهة معه لأجل امرأة اجنبية تريد تعلم الكردية . ومرة أخرى بدا وكأنه قد قدّر علي الا تعلم هذه اللغة التي اتيت من أجل دراستها من على بعد خمسة آلاف ميل .

بدأت الكتابة والشعور بالاضطهاد بسيطران علي حالا فصبت جام فضبي على جبيرد حيث اتهمته بالاغراق في الانانية على نحو لا يمكن تسامحه في رد فعله لسوء ال آسيابي . وبما أن القاء مسؤولية اختلاق الموقف كله على آسيابي كانت بلا جدوى فقد ألقيت اللوم على زوجي وتساءلت فيما اذا كان سيتعلم التكيف مع الاعراف الاجتماعية الايرانية يوما . والشيء الذي لم اكن اعرفه ، هو أن العضوين الآخرين في هيئة معدي البرنامج الكرمانجي الاداعي في الحجرة كانا يلقيان باللائمة على آسيابي فقط . وانهما كانا وأساليبهما الخاصة ينتظران الدقيقة الملائمة عندما لا يكون فيها آسيابي على مقربة منهما لأخباري من شعورهما الحقيقي .

كان لقاءنا الاول مع جاهي ، حيث كان يركب

سيارته في الشارع قرب منزلنا في احد ايام الجمع وقد لمحني مصادفة . صاح ملقيا النحبة بصوت عال ولوحت له بيدي وواصلت السير في طريقي عائدة من عند البقال الواقع في الزاوية . ولكن جاهي صاح ثانية :

- لماذا لاتأتين لتتناولي الغداء معي ؟

- لا ، شكرا .

صحت محببة عليه ، متأكدة من أن الدعوة هي مجرد شكليات ، وانها ليست حقيقية . فسألني :

- هل تناولت غداءك ؟

فأقتربت منه لأجيبه :

- لا .

- اذا لماذا لا تأتبن ؟

سألني وقد بدا وكأنه يعني دعوته حديا .

- ماذا عن جيرد ؟

- دعينا نذهب ونحضره .

اجاب جاهي بذلك ، تاركا باب مقعد السيارة الامامي مفتوحا . سرنا حول صف من البيوت لناخذ جيرد ، وتأكدت انه قد عنسى دعوته فعلا .

أخذنا السيد جاهي الى النادي الليلي الايراني وقد كان في قمة فتنته وسط تجمع العائلة في وقت الاصيل، حيث يبنساول افرادها الكباب والارز مع البيض النيء وفي النهاية أمر على دفع الفاتورة وهذا أمر مقضي في ايران بما انه هو صاحب الدعوة . لقد اشار عدة مرات قائلًا : انه قد احب جيرد كثيرًا . لقد وذلك خلال الوحبة وثانية عندما رجع بنا الى مسكننا . لقد كانت الرسالة حاذفة ، كما تنزع كل الرسائل الفارسية المسى أن تكون كذلك . ميدون ذكر اسياي ابدأ او الاشارة الى الحسادت

في قرية شيخ زادة ، عرفنا الآن ان السيد جاهي قد أخذ جانبنا .

كان السيد خليلي بالانسجام مع طبيعته أقل حذقا . فقد التفتت به مرة وأنا امشي هابطة نحو الشارع المشجر حيث كانت تقع المحطة . ناداني كي انتظره ، وقال بلين بعدان لحق بي وبعد ان تبادلنا التحيات المطلوبة :

— السيد جيرد يقول الحقيقة .

تبادلنا النظرات ، حتى ان السيد خليلي كانت له حدوده فهو لم يكن ينوى أن يصرح برأيه بشكل مباشر بأن اسياي كان " فزوليا " فزوليا . وانتهرت الفرصة مع السيد خليلي وحاولت توضيح ماحدث في قرية شيخ زادة . فقلت :

— لقد انزعج -اسياي حقيقة من جيرد لماحدث في القرية وفي الحقيقة لايزال منزعجا حتى الآن . فنظر الي السيد خليلي على نحو بدا فيه متضايقا وقال بهدوء :

— لاليس غاضبا منكيم .

— بالطبع هو كذلك ، فقد دماه جيرد فزوليا .

وقد عرفنا مؤخرا ان كلمة " فزول " التي تعني " نوسي " بالفارسية قد اقتبست من كلمة عربية ترادف كلمة " شيت " عندنا وهي كلمة تفيد في التحقير .

ولكن السيد خليلي تجاهل مسألة عدم ملائمة استخدام الكلمة وركز على شيء آخر .

— لايقدر أن يتفاهق ، طالما انه جاء الى منزلكم واحتسى الشاي معكم .

كان السيد خليلي يشير الى قاعدة كردية من قواعد حسن

الوفادة : ضيف في بيتك لايمكن ان يكون عدوك .

مع ان السيد خليلي كان قد امضى عدة سنوات في المدينة فقد كان عقله لايزال في القرية ، مع مجموعة القواعد الكردية التقليدية واسياي من الجهة الثانية كان قد ولد وترعرع في المدينة ، لقد كان تركيا اكثر منه كرديا .

لم استطع التوقف عن التفكير في اسياي على الرغم من تأكيدات جاهي وخليلي . لماذا تطرق لنقطة مثل هذه ، كالادعاء انه عنصر من السافاك ؟ . لنفترض انه ملزم برفع تقرير يقول فيه اني جاسوسة وانني دخلت ابران واقيم في ريزاي تحت ذرائع مزيفة ؟ لقد حدد عقدي مع الحكومة الايرانية انه يمكن اقالتي من الكلية مباشرة عند تعاطي عملا منظما ضمن أي نشاط مهني غير تعليم الانكليزية ، ولن يكون هناك سبيل قانوني أو أي أبحاث حول ذلك .

بدأنا تدريجيا بالتماس آراء الناس الآخرين فسألنا زملاءنا :

— هل من الادب واللباقة ان تسأل احد كم يكسب من المال ؟

— لا ..

كان ذلك الجواب الاشمل تقريبا .

— اذا لماذا يسأل عنه العديد من الناس ؟

— لأنهم لا يدركون اكثر من ذلك . انهم فيمر متعلمين .

كان يأتي هذا الجواب مرتبكا قليلا . من الواضح انه لم يكن السبب الحقيقي ، لأن بعضا من هؤلاء الناس المثقفين ، جيدا هم انفسهم كانوا قد سألونا من رواتبنا . وعلى كل وافقنا

الناس الذين سألناهم على نقطة وحيدة : ان على السر ان لا يستخدم كلمة فضول ابدأ لعنصر من السافاك . والنتيجة الطبيعية الواضحة التي لم يقلق احد نفسه بتوضيحها بتعابير لا لبس فيها كانت : لا تستخدم كلمة فضول لأي كان ، لأن اي شخص يمكن ان يكون من السافاك .

بعد البحث مباشرة في مسألة اسيايي ، نزل جيرد وتحدث طويلاً مع هوشنخ الجعفري . وقد استنبط كلاهما بعد جهد جهيد اعتذاراً رسمياً للسيد اسيايي وقد كان تقريباً شبيهاً كهذا : أستسمحك عذراً . تعرف اني لا اعرف الفارسية جيداً ، واحياناً لا اعرف ما تعنيه الكلمات ، فقد خلطت الكلمة التي استخدمتها بكلمة اخرى اعترفت استعمالها ، ولكن اذا كانت قد بدرت مني الاساءة فأرجو ان تسامحني .

أكد جيرد لهوشنخ انه كان يعرف الكلمة ، وقد عيبيني استخدمتها ، ولكن هوشنخ اخبره بحزم ان اي اعتذار آخر غير وارد . وطبعاً عرف اسيايي جيداً انه لم تكن غلطة ، ولكن تلك لم تكن هي النقطة المهمة ، بل ان الاسلوب والشكليات كانت هي المهمة . ولحسن الحظ ، ولا احترام الذات النابع من ثقافتنا لم تتح الفرصة التي تمكن جيرد من تقديم هذا الاعتذار بسهولة . لم اذهب الى محطة الانداعة بعد ذلك ابدأ ، ولم نصافد اسيايي على الطريق ابدأ . وبدأت ادرك ان الاعتذار لن يفيدني في شيء . فقبل الحادث كانت دروسي الكردية قد اصبحت مضللة اكثر مما تكون مرضية ، حتى مع السيد خليلي في غرفة الادارة . فغالباً ما كان السيد خليلي يتغيب على الرغم من تأكيده انه سيحضر في موعد حسب اتفاننا ، واتضح لي انه كان متعباً من مسلسل تقديم البطيء نسبياً . وقد ازدادت رغبتني في التحدث مع النساء الكرديات كثيرًا . نساء لم تتغير لغتهن الكردية بنظريات مزيفة من التحدث بل . لقد حثت الى كردستان معتقدة أنني سأكون الاولى التي تتحدث الكردية ، فبالنسبة لأي شخص مطلع ، من الجائز ان يلاحظ.

ان النساء الكرد يات يتحدثن بلغة مختلفة تماما عن لغة الرجال . ففي قبيلة هندية أمريكية ، يستخدم الرجال و النساء أشكال نحوية مختلفة وقد صرحت - محددة في اطروحتي المفترضة - اني كنت مقدمة على المقارنة بين كلام الرجال و النساء . ولكني لم اتحدث مع امرأة عسدا اخت السيد اسهابي حيث لم اعد انظر اليها كمكرمة حقيقية تماما كنظرتي الي أخيها .

كنت قد بدأت - وحتى قبل رحلتنا القصيرة الى مأدبة القرية - بطلب المساعدة من السيد خليلي ليجد امرأة متكلمة لاتحدث معها . ولكن جوابه كان اقل ما وعد به . فقد قال :

- انا لا أعرف نساء كرد يات . ربما كان ذلك الشيء اللبق المحتم ان يقوله في مجتمع كهذا يفصل بين الجنسين ، ولكن ، كلانا عرفنا ان ذلك شيء مضحك . فالرجل لديه زوجتان والعديد من القريبات . وقد تعجبت اين خباهن جميعا .

النساء الكرد يات يظهرن في الشارع ولأنهن كرد يات ، فهن أكثر النساء ظهورا في الشارع . والعديد من القروبات واللاجئات كن يخرجن سافرات الوجوه ، ولكن حتى هؤلاء كن يظهرن محتشات ولم يكن يتأقن على نحو متفاوت به . راقبتهن تواقا اليهن اكثر مسن أي وقت مضى . لن أشعر بالارتياح ابدا في الجلوس في حجرة يملأها الرجال ، وانما في مطبخ احدي هؤلاء النساء . تصورت نفسي جالسة ببساطة ود فتر الملاحظات في يدي ، اتعلم أشياء كثيرة وليس فقط أشياء عن اللغة . نظرت ثانية الى العائلة اللاجئة التي كانت قد انتقلت الى جوارنا ولكن كانت تعلق وجوههم تغابير كتومة ، لا يمكن الوصول اليها . حيث كانوا يسرعون ذهابا وايابا في الشارع المشجر بسيارتهم اللاندروفر المضروبة . وكنت أخشى التحدث اليهم .

اتكلت مرة على حسن ضيافة جيراننا الجعفرين . كان هناك امريكيون آخرون في المدينة ، ولكنهم كانوا قد فصلوا رأيهم فينا بأننا منبذون لأننا لم نكن نقضي ليالينا في مركز قيادة الجيش التاسع للولايات المتحدة ، نشرب ونشاهد الافلام السينمائية الامريكية . كنا

على الاغلب نمكث وحيد بين في الليلى نسام من بعضنا البعض و مسن
فشلنا ، ولكننا كنا نأبى الذهاب الى الامريكيين و اظهار عدم نحتاجنا
اما مهم . وكان الجميع قد اخبرونا انهم قد سقموا من المحاولات
الكثيرة لتكوين صداقات مع الايرانيين . وعند ما لم يكن البرنامج
الكرمانحي ذو الستون دقيقة يُبث ، كنت احاول ان اضبط المذياع
على اذاعة (السبي . سبي . سبي) . وكل الروايات ذات الاغلفة
الورقية التي احضرتها معي كانت قد قرئت .

ما كنا نحتاجه هو الاصدقاء . ولكننا كنا لا نزال نلقى صعوبة
بسبب المشكلات و ما هو أسوأ من ذلك . اردنا ان تناقش انطباعاتنا
و شعورنا عن ايران . وقد بلغنا حداً يائساً بحيث احتجنا السى
استرجاع كل ما كنا نقوم به و النظر فيه من جديد .

كنا نتلقى الدعوات والابتسامات من الجعفرين . و من الايرانيين
في الكلية كنا نتلقى الابتسامات ، وقد صعب علينا كثيرا استرجاع
ذكرياتنا مع شخص كنا نشق به و نستطيع التحدث معه بحرية ، حيث كنا
قد التقينا به منذ مطلع اقامتنا في ريزاي في شهر ايلول و كسان
يصغي اليها باندماج اكثر من مجرد توزيع ابتسامة ، شخص عرفناه
بعيدا عن الجعفرين ، وعن المدرسين في الكلية . و الوقت الذي
اضيناه معه كان بعيدا عن اجواء ايران . كان في عالم خاص بنا ،
لأننا لم نكن نشعر بالمل مع أمير لمجرد انه بصحبتنا ، ولم نكن
نعزل بعيدا كما كان الحال مع معظم الايرانيين الذين عرفناهم .
وعلى الاصح كنا قد سُحرنا من قبل سبي كان قد حُبك
حولنا رقبة سحرية كردية .

الفصل السادس

كان امير ، الشاب الفارع الطول ، النحيف السدي
 اتى من بؤكان هو املنا لبلوغ كردستان اكثر من الجعفرين،
 اكثر من السيد خليلي واكثر من أي شخص آخر كنا قد التقينا
 به منذ مجيئنا الى ايران . كان امير واقفا قريبا مع
 الطلاب الآخرين عندما تحدثوا عن كيفية قتل السافاك اخا
 صديقي المهابادي في امريكا . وكان واقفا من انه قد اغتيل
 ولكنه لم ينسحب بعيدا عني مثل الآخرين . بدلا من ذلك وعندما
 استمع جميع الطلاب وهم يتحدثون بنبرة هادئة ويعبرون عن
 شكوكهم لبعضهم البعض كان امير قد تبعني الى مكتبي وعرض
 علي تعلم الكردية ، لهجته السورانية الاصلية (الكردية
 الجنوبية) ولكنها مع ذلك تبقى كردية . وقد اخبرني انه
 يعرف قلبا من الكرمانجية (الكردية الشمالية) وانه سيكون
 قادرا على تعليمي الاختلاف بين اللهجتين . لقد جاء امير
 من مدينة كردية تقع جنوب مهباد واقترح مباشرة ان
 علي ان اسافر اليها معه والتقي بعائلته . لم يستطع امير
 التوقف عن الحديث عما سنفعله معا ، كيف سيعلمني الكردية
 وكيف سيأخذني الى اسكن في كردستان . حدثت فيه متعجبة ،
 كيف كان لطالب في السنة الدراسية الاولى من مدينة كردية
 صغيرة ان يتعلم التحدث بالانكليزية بهذه الطلاقة ؟ ولمماذا
 سعى هو الي بينما تراجع الطلاب الآخرون ؟

عندما زارنا امير في بيتنا للمرة الاولى كان ذلك
 يوم الجمعة ، يوم عطلتنا الاسبوعية . وقد عرض علينا ان
 يرافقنا الى مهباد ولكنني كنت مصابة بالتهاب القصبات
 الهوائية واخبرنا قائلًا :

- أعرف مهاباد تقريبا مثلما أعرف بوكان .
 شعرت بسعادة وانا افكر بالذهاب حالما امائل للشعساء .
 ولكن أمير لم بعدم عرضه ثانية اسدا وذهنا الى مهاباد
 برفقة الحفريين .

اعتاد أمير المجيء الى مكسي ، وهو حجرة معتمدة
 بمقعد ذي غطاء مطاطي ومدفأة داكنة بلون الرماد نعمل على
 النفط ، قابعة في الزاوية . لم يترك سابي احد من الطلاب
 الآخرين ابدا الا عندما كانت تعطى الدرجات ، كانوا بتجاهلون
 اعلاناتي المتكررة عن ساعات التواجد في المكتب . ولكن امير لم
 يكن مثل البقية منذ البداية . لقد كانوا بعدين واحيانا
 عدوانيين بينما كان هو ودودا ومتحمسا . لم تكن انكليزيتهم
 تنفع لمحادثة حقيقية بينما كان امير يتحدث بانكليزية لم
 تكن عامية تماما ولكنها كانت تنزلق بسهولة من فمه . وعلاوة
 على ذلك كان امير كرديا . كان قد جعل من نفسه مزمرا
 المتعدد الالوان لكردستان ، يوما بعد يوم قادني الى مقربة
 منها وهو يرقص فوق طريق منشور بورود حيالية ويخبرني عن
 جمال بوكان وعن الشعور الودي لمائلته تجاه الآخرين ، والاروع
 من ذلك انه كان يحدثني عن الافكار والتطلعات السياسية
 للاكراد . اصبح امير جزءا من حياتنا دون أن ندرك كيف
 حدث هذا . فبالاضافة الى عرضه لتعليمي الكردية ، كرس نفسه
 لمساعدتنا في معالجة تعقيدات الاستقرار في ايران . فاذنا
 احتجنا للحصول على شيء من البازار كان يقول انه مستعد
 للذهاب معنا . انه يستطيع أن يترجم لنا ويرشدنا ، ولكن
 الاهم من هذا وذاك انه بإمكانه أن يقضي وقتنا معنا ، ذلك
 الوقت الذي كان يمضي احيانا على نحو متعاقب بسرعة شديدة
 ومن ثم ببطء شديد .

فالاسبوع الذي تعلمنا فيه تسوق الغذاء والحاجات

المنزلية قضى على كل وقت فراغنا . لم يكن صاحب الدكان
 احيانا ، ونحن أيضا لم نكن نفدر احيانا على مهمه . وعلى
 كل حال فان الوقت الذي أمضيته في تفحص الاشياء وعــــدد
 المشتريات التي قمنا بها كان قلبلا . اعددنا جداول ولوائح
 لأواني التنظيف ، التوالف ، الصابون ، واشياء اعبرناها من
 الاساسيات - ولكننا لم نستطع أن نجد نصفها . كنا نجد
 انفسنا فجأة في أيام الجمع عندما كان البارار ومعظم الدكاكين
 تغلق ، بدون أي شيء نقوم به ، لاجد نزوره او نتحدث اليه .
 جعل أمير أيام الجمع محتمله او حتى مسليه . فقد تحولنا
 معه مرة أو مرتين في مركز المدينة ، ولكنه وعلى نحو مألوف
 كان يجلس ببساطة في منزلنا لساعات ، يفقد في مواجهتنا
 عن قصد على المنفذة المعدنية ويغش بعصية بذور عــــــباد
 الشمس والبطيخ ولب الفستق ، ويتكلم ويتكلم وكنا نحن أيضا
 نستجيب لاحاديثه . كان يريد معرفة كل شيء عن امريكا ، وكنا
 نحن نريد معرفة كل شيء عن كردستان . ماذا يعمل والده ؟
 ومثل ماذا كانت مدينته ؟ كم لديه من الاخوة والاخوات ؟ هل
 هناك مدارس ثانوية في مدينته ؟ ماذا يفعل الناس فــــي
 الشتاء ؟ ماذا يأمل الناس في مدينته من الحرب الكردية فــــي
 العراق ؟

جعلنا نشعر اننا نستطيع ان نسأله عن أي شيء والفرق
 بين اجوبته - حيث كان بعضها صريحا ودقيقا وبعضها ملتبس
 فيه وغامضا - كان قد اصبح ضبابيا بسبب افتتاننا بأي شيء
 يختاره للقول - وكان يسر لقول اشياء متطرفة ومبالغ فيها
 فقد وصفنا مدينة في الربيع والجبال مكسوة بالزهور ، وقد
 توقعنا ان نذهب معه الى هناك اما في الخريف أو في الشتاء
 واكد لنا ان الحرب الكردية هناك لم تكن على الاطلاق مثلما
 كنا نفكر فيها . فقد قال :

— ان الاكراد لا يقتلون العرب . ان الاكراد

• يقاتلون الاكراد •

كان يدعو السرزاني ، الشيخ القبلي والعائد العسكري الذي دافع ذات يوم عن مهباد بالامبربالي ، الفاشستي الذي ساع سبعة للحكومة الامريكية بنقديمه النورول للامريكان، معله بلقي الدعم للقضية الكردية . فال أمير :

— أن الاكراد الحقيقين يقاتلون على الجبهة الثانية واخبرنا انه كان يستمع الى كل محطات الاذاعة التي تدبّع بالكردية من اهران والعراق والاتحاد السوفياتي . لقد كان مفتتنا بالاتحاد السوفياتي .

اخبرناه بما كنا قد سمعناه عن الاكراد في امريكا، فقد قلت له انه حالما يجلني صندوق كنبي الذي ارسلناه بالشحن الحوي من سوسطن ، سأريه ماذا طبع عن الاكراد والكردية في بلدي . بدا أن الساعات كانت تفسق بنا بحيث لم تكن تكفي للتحدث معه بينما كان الآخرون الذين التقيناهم مقلين فسي الحديث عن السياسة وعن الاكراد ، صامتين في استجابتهم للمشاعر التي كنا نعبر فيها عن كوننا اجانباً ، فقد كان أمير مصدرا للمعلومات ، وردود الفعل والمشاعر . كان يبقى لتناول وجبات غذاء في منزلنا حيث كنت قد يئست من أن احدا من الايرانيين سيحل ضيفا علينا يوما ماعدا زيارة الجعفريين . انتقيد طعامنا بصراحة وعلى نحو ظريف . لم اشعر بالاهانة . كيف يمكن أن اشعر بذلك ؟ فاسلوب امير في طرح الاشياء كان رائعا جدا .

— كأنك تمفخ حلكة ، اليس كذلك ؟

ادلى بملاحظة ، بينما كان يجهد نفسه في طعن قطعة من اللحم المسلوق حيث كنت قد طبختها فقط لثلاث ساعات بدلا من الساعات السبع التي كانت تتطلبها . فحكنا لذلك ، واخبرنا أن طبخ والدته مشهور ، وسنكون قادرين على تذوقه بأنفسنا بعد أجل قصير .

كنا ندعو كل إيراني التقينا به عدا هوشنغ وشهرزاد بلقب ، بالاضافة الى اسمهم الاخير . حتى طلابنا ، كنا ندعوهم بالسيد فلان والسيدة فلانة . عندما كنا نتحدث بالفارسية كنسنا نستخدم الصيغة اللينة " انتم " مثل الفرنسية " VOUS " وبما أن امبر كان طالبا - وحسب فن المجاملة الايرانية - كان من غير الوارد ان نسميها باسمنا الاول . ولكن عندما التقينا للمرة الاولى لم نكن نعرف ذلك وقد اختار هو ان يتجاهل ذلك فقد بدأ مباشرة بمناداتي بـ " دادا مارغريت " مستخدما اللقب الكردي الجنوبي للاخت ، وكان يخاطب جيرد بـ " كسك " أو الاخ الاكبر . وكنا نحن نناديه باسمه الاول دائما .

لقد بدأت علاقتنا مع امير ضمن شراكة ، فقدد امضينا وقتا معه لوحده بعبددين عن الايرانيين الآخرين . لايمكن ان نقارن احدا مع امبر في حميميته ، ربما عدا الجعفرين فقط . كان هذا الشاب يطفح بالحيوية و الحماس برأسه الكبير اكثر من المعتاد وعينيه البنيتين الواسعتين الموءطرتين بأهداب طويلة وكثيفة . اخبرته ذات يوم قائلا :
- اهداك حميلة .

فأحاسني حذبة مزيلا نظارته عن عينيه لاستطبع روءيتهم بشكل أفضل ؛
- اوه ، نعم انا مشهور بعيني في مدينتي .

كانت امه مشهورة بطبخها ، أما هو فقد كان مشهورا بجمال عينيه . لقد كان من وجهة نظر امبر ، كل شيء وكل شخص في عائلته و مدينته مشهور . لقد كانت كردستان مكانا سحريا ولم يكن عليه ان يفتنني بذلك . ألم آت من على بعد ٥٠٠٠ ميل لأنني اعتقدت نفسي الشيء ؟

في استعادة للاحداث نحد صعوبة في تحديد سبب وقوعنا تحت سحر أمبر وكيفبه حدوث ذلك ، فقد كان عاديا في الكثير

من الشواحي ، ومراهاقا غير محبوب ، ممعما بالغرور والافكسار
 المحنونة . كنا نعرف انه ببالح ، وبدأنا ندرك انه كان
 يتهرب من العديد من اسئلتنا . ماذا يعمل والده ؟ لايجيبنا
 بالحقيقة ابدا . كيف تعلم الانكليزية بهذه الجودة ؟ بدا انه
 شيء غير وارد ان يكون قد النقطةا من سياح امريكيين يمررون
 من بوكان على نحو عرصى ، كما كان يدعي . اين كان يسكن
 امر عندما كان يحضر الى الكلية ؟ لم تتوضح لنا هذه الامور
 ابدا . ولكن محادثانا لم تتخللها فجوات مربكة . كان
 الفرق بين امير والجعفرين لغويا وعاطفيا أيضا . فبينما
 كنا نجهد مع حيراننا بفارسية مكلفة ، كان امير قادرا على
 ان يصب كل مافي قلبه لنا بالانكليزية . وكنا نحن أيضا
 بدورنا نفعل ذلك . اخبرناه عن كل شيء عن حياتنا في امريكا
 عن آمالنا وخيبة آمالنا في ايران ، عن مشاعرنا في البعد
 والغربة المطلقة عن المشهد الايراني الاجتماعي . وعندما
 تجولنا معا في الشارع ادبنا شكواشي من كيفية تحديق الرجال
 في والنظرات العدوانية المزعجة و الجريئة تلوح في عيونهم .
 شعرت وكأنهم سيسلبونني ويقتلونني اذا سحت لهم الفرصة .
 قال امير انه يفهم ذلك . وتحدث من الانحراف في الاخلاق
 بين جماهير الطلبة والطريقة التي تهتف بها الفتيات للشبان في
 المهاجع ليلا ، وهن يتوسلن اليهم ان يخرجوا معهن .

قال امير مرة :

- انه شيء مشير للاشمزاز . أليس لهؤلاء الفتيان
 اخوة ليقوموا بحمايتهن واخبارهن عما هو صحيح ؟
 كنا انا وجيرد نتسلى بذلك . فليس هناك ادنى شك
 في أن امير كان جنسياً ولكن كان فيه شيء مايسمه بالبراءة
 والعنف الى حد بعيد . حتى انه صرح انه مشتمن من " غوغوش"
 المغنيه الاكثر شعبية في ايران التي كانت قد ابهجست
 الآخرين جميعا :

- انها فتاة سيئة بالسلوك الذي ننهجه .
كان ذلك حكمه عليها . تساءلنا انا وجيرد فيما اذا كان كل
الشباب الاكراد على هذا النحو من التزمت ؟

كان امير شخصا غريب الاطوار ، في وسط الفسق الكامن
داخل المظهر الخارجي لكل اللقاة ات بين الرجال والنساء ففي
ابران . فقد كان برفض البقاء معي ولو للحظة لوحدنا في منزلنا .
فماذا توجب على جيرد ان يخرج من البيت فامير أيضا سيغادر
المنزل . ولكن في وقت لاحق وعندما ازداد ادراكي للامور
بدأت مناداته لي باسمي الاول تبدو كعلامة على العلامة الخاصة
التي ستوجه اليها الانتقادات في الكلية . واخيرا بدأت النظرات
المحرجة تستقر على علاقتنا مع امير . واولها كانت من حانب
مدرس في الكلية كان يسكن على مسافة منا في نفس الرقاساق
وسأل بعد أن رأى امير معنا وهو يخرج من منزلنا :

- انتم أصدقاء هذا الشاب ؟

فقال جيرد :

- نعم ، نحبه كثيرا .

تفحص المدرس وجه جيرد للحظة وقال :

- ان أمثال هؤلاء الشبان خطرون .

فسأله جيرد :

- ولماذا ؟

فقال المدرس وهو يلقي نظرة عجي وغامضة علي :

- لأنهم يريدون الكثير من الحب . اعرف هذا الطالب
انه يريد كل شخص ان يحبه . مثل هؤلاء الشبان خطرون على
النساء .

تخلصنا انا وجيرد من شعورنا بعدم الراحة الذي هاجمنا
للحظات بالفحك . عرفنا منذ ذلك الحين ان لا أحد من المدرسين

الاخرين يحلم بأخذ أي من طلابهم الى منازلهم . كان الحاجز الاجتماعي بسى الطلاب والمدرسين في الكليات الايرانية فاشما .

واخيرا عندما وصل الصندوق المشحون من امريكا وكان جاهزا لأحذه من الجمارك بعد وصولنا الى ريزاي بحمسة أسابيع توجهت كالعادة ، الى امير . عزمنا على مغادرة الكلية والذهاب لاحضار الشحنة - وقبل ان نغادر اخبرت اميرا أن جميع كتبي عن الكردية وكردستان كانت داخل الصندوق . نظر الى خوف فامضت بسلسل من نظراته :

- لكن السافاك سبهاون جميع كتبك .
- لماذا ، فآنا امريكية ، وبالإضافة الى ذلك لسن يعرفوا ماهية هذه الكتب . انها بالانكليزية .

كان امير يشك في ذلك ولكنه اتى معي كما كان فسد وعدني بينما كنت انتظر في الخارج ، أدار احد السائقين سيارته البرتغالية في وسط الطريق امام الكلية واتى مباشرة وبأقصى سرعة باتجاهي . قفزت متقهقرة لابتعد عن طريقه وقدماي تتحركان بخوف وعلى نحو يعوزها الرشاقة في الحركة . ظل امير متمسرا في مكانه . واصر التاكسي صوتا طويلا وحادا عندما توقف على بعد انشين من المكان الذي كنت فيه . قال وهو يضحك مني :

- ما الامر ، دادا مارغريت ؟ هل خفت من محرد تاكسي يجب الاتخافي من الموت . أنا لاخافه ابدا .
انتظر امير معي في مكتب الانتظار ، بينما قام موظفو التفتيش بفتح غطاء الصندوق ، وقد بدت على وجوههم الخيبة عند رؤيتهم ثمانية ازواج من جوارب جيرد وقد حشرت في اعلى الصندوق . وبسرعة تفحصوا مادونها من الكتب . وبدؤوا بالحديث مع بعضهم بانفعال ، عندئذ تدخل أمير فهدؤوا بعد ذلك مباشرة ، وسلموني قطعة من الورق لأوقع

عليها ثم اعيد الي الصندوق شانه . فسألت أميرا :

- ماذا حدث ؟

- ارادوا أن يبعثوا الكتب الى مكتب السافسك
ليتحققوها ولكن احسرتهم انها تخص عمك في الجامعة ،
وبذلك فقدوا اهتمامهم بها .

تساوم أمير مع سائق سيارة لنقل الصندوق الثقيل
الى منزلنا وقد ساعده السائق على حمله على السلالم عندما وصلنا.
كان أمير قد اصر على دفع الاجرة عند ذهابنا ورجو عنا من
الحمارك . وعندما غادرنا سائق التاكسي تعقبت أمير وهو ينزل
فوق الدرج محاولا ان اصع في يده المبلغ الذي دفعه للسائق .
واخبرا نجحت في وضعه تماما في جيب قميصه . حدثت في
متعجة من كرمه الزائد هذا . كان امير قد قال لي انه يريد
ان يستعير بعضا من كتبتي ولكي عندما قدمتها له ، ردها
الي قائلا انه بخش ان تشاهد معه .

ذات يوم وبعد ان جلبنا معا الصندوق بغثرة قصيرة ،
سمعت امير في مكتب رئيس القسم الانكليزي يوضح : انه لن
يخسر الى الصل شهر او اثنين . ماذا كان ذلك ؟ اهلكت اليهم
ولكني لم استطع ان اكتشف سبب ذلك . وفي وقت لاحق جابته
كيفية قدرته على ترك الجامعة بعد مجرد ستة اسابيع مسن
الدوام في سنته الاولى في الكلية ؟ نظر الي بغموض وقد بدت
عيناه الواسعتان اكثر اتساعا بكثير لجديته .

- لا استطيع اخبارك ، دادا مارغريت .

- لم لا ؟

- لا اريدك ان تقلقي .

تناقشنا انا وجيرد حول الموضوع لعدة ايام . ووضعت
تصورا بأن امير كان ماضيا للانضمام الى المقاتلين في
العراق . الم يتحدث في احيان كثيرة عن كيفية تحقيق رغبته

ليان يكون في المكان الذي يريد ؟ . سألته :

- هل انت ذاهب الى العراق يا امير ؟

نظر امير الى الارض بحزن وقال :

- لا استطيع ان اخبرك ، يجب الا تعرفي .

ولعدة ايام وكلما كنت اشاهده كنت أسأله عن سبب مغادرته وكان دائما يضحك بحزن ويرفض الشدث عن ذلك . وقد رفض رئيس القسم الانكليزي وهو امريكي معتد بنفسه كان قد نبهني عدة مرات بأن امير " ودود جدا " ، رفض هو أيضا أن يخبرني قاشلا بأن امير قد وضع له السبب ولايجوز الافشاء به لكونه مسألة شخصية بحته . تألمت لعدم ثقة امير بي ولكنني كنت أيضا مهتمة وقلقة على نحو فظيع . اعتقدت أن امير كان رومانسيا وعنيذا بما فيه الكفايه ليقوم بشيء خطير بالفعل . وفي الحقيقة اقنعت نفسي بأنه ماض للقتال حقا مع " الاكراد اليساريين " ضد البرزاني في العراق .

اخيرا كشف لي عن السبب في مكثي . لقد كان ذاهبا الى طهران لاجراء عملية في مستشفى ما . فقد كان يعاني من وجود حصي في كليته . سمحت لنفسي هذه المرة ببعض من الشك والارتياب . ولماذا ضخم الموضوع لهذا الحد ؟ لماذا تصرف بهذا الغموض ؟ لقد كان امير قادرا حتى على جعل حصي الكلية تبدو كمأساة سوداء . وصرح لنا في المرة الاخيرة التي قُام فيها بزيارتنا قبل ان يرحل :

- لا اعرف ماسيحدث لي ، وماذا ستكون نتيجة هذه العملية ؟ فأكدنا له من غير تكلف :

- سيكون كل شيء على مايرام .

بدا متألما من ردة فعلنا الخالية من الهم وقال :

- انتم لاتعرفون المشافي الايرانية . لاتعرفون

الاطباء الايرانيين . فهذه ليست امريكا .

بعد ان غادرنا تلك الامسية كان قد نجح في افزاعنا نحن ايضا
وتساءلنا فيما اذا كنا سنراه ثانية يوما ما .

حصلت لنا اشياء واشياء في غهاب امير ، ولكن
أي منها لم يبد حقيقيا تماما . لأنه لم يكن معنا لناقشها
معه . وكما يقولون بالفارسية ، فقدنا طعم الحياة ولادة
المحادثة ونشوة الافكار . فهو لم يكن موجودا عندما رجعنا من
مانوا او عندما نذتني هيثة الاداعة . واخيرا اصبح فقدان
امير ذا اهمية بالغة بسبب عدم وجود احد من الاكراد على
الاطلاق ليتحدثوا معي . في الوقت الذي غادرنا فيه أمير، كنا
قد اقتنينا اسرة ، ومنفذة ، كراسيا ، شلاجة ومدفأة ، بالاضافة
الى السجادات التي اعارنا اباه هوشنغ . ولكننا كنا لانزال
نبحث عن بعض الاغراض في المخازن . لقد كان التسوق بالنسبة
لنا حديثا متقدما باستمرار ، حيث كنت اتوفى اليه فلفظ عندما
اكون في مزاجي الاكثر استرخاء للتحدث بالفارسية . وحتى بعد
ذلك لم يكن من الهزل التواجد لوحدي بين الحشود . فالمسألة
الذكور كانوا يحدقون في باطراد ، وكانوا سيلمسونني اذا سنحت
لهم الفرصة . ولم اهادر دكانا تقريبا دون أن يخامرني
شعور بأنني قد غششت لأنني اجنبية من قبل التاجر هناك . وعندما
كانت للمشتريات قيمة اكبر حاولت دائما ان أجد احدا ما من
المحليين ليرافقني .

تصرف زوجة جارنا الذي كان قد حذر جيرد من امير
بودمعي . لذلك سألتها يوما فيما اذا كانت ستذهب معي
الى البازار لتساعدني في شراء بساط صغير لمناسبة عيد ميلاد
جيرد . وقد وافقتني على ذلك . وفي اليوم المحدد للسوق مضيت
مبتهجة الى منزلها ، متشوقة للتجول في البازار برفقة شخص
ما يعرف ماذا يجري فيه . كنت في مزاج صاف حتى اني لم اكمل

الاحظ. ان نازي لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد ، حين وصولي . لعبت مع طفلها وابدت اعجابي بسجاداتها الحميلة بينمنا كنت انتظرها لتجهز نفسها . واخيرا ارتدت ثوبا خاصا بالشارع وسترة غليظة . وسلمت الطفل للخادمة وخرجنا من الدار ، وببئنا كنا نمشي نحو الشارع اخبرتها عن رغبة جبرد الملحمة في اقتناء واحدة من هذه السحادات وأي مفاحاة ستكون لشيء عندما يراها . اوقعت سبارة اجرة مجاة وبدون ان تتفوه بشيء ببئنا كما في منتصف الطريق الى ساحة المدينة . نوقعت السيارة وصعدتها و اوصحت من خلال النافذة ان لبس لديها الوقت لتساعدني بعد كل ذلك . بعدئذ سارت السيارة باتجاه البارار وتركنتني مصوقة الى جانب قناة صرف مكشوفة . لم استطع تخيل ماحدث سوى اننا وقبل ان يغادر كما نتلفى المصايفات المألوفة من جميع الذكور المتسكعين في الشارع . فشر ناري المصبوغ بالاحمر وعيناها الخضراوان الطبيعيتان بالاضافة الى فستانها القصير والمقور الصدر على نحو مثير كانوا قد اعدوها لنبدو غريبة على نحو مطابق للزي الحديث . من المحتمل ان الرجال حسبوها اجنبية هي أيضا، وقد سألتني متهمه ، تماما قبل أن تفر هاربة: - هل يفعلون ذلك معك دائما ؟

توصلت الى انطباع غير مشكوك فيه انها قد اعتقدت أنها غلطتي ، وانني قد قمت بشيء مالاشارة المضايقة التي اضطرت للمشاركة فيها .

كنت لا ازال افكر بغضظة نازي خانم عندما بدأ الجعفريون بالتحدث معنا عن حفلة زفاف يمكن أن تقام ضمن عائلتهم ، فقد كان اخو هوشنغ ، وهو مهندس متوسط العمر، قد انتقى فتاة تبلغ ثمانية عشر عاما من بلدته لتكون عروسا له قبل ان يمضي في رحلة عمل الى اليابان . واثناء غيبتة ظنست شهرزاد ان محمود الاخ سيفسخ الخطوبة عند عودته ، مدركا انه يمكن ان يجد أفضل من هذه الفتاة القليلة الاشارة التي

من بلده ، وقد لمتحت لي 'شهرزاد' انها مميزة في الدرجة الاولى
بشعرها الاشقر فقط . مهما يكن فقد قرر محمود وبمعنويات
نعوزها الحبوبة ان يمضي في اقامة مراسيم الزواج وكما قال
كان تعبنا من المكوث وحيدا في رجزاي . وحالما حدد تاريخ
العرس اكد لنا الجعفر بون بأننا سنستمتع كثيرا بروئية
عرس ابراني ونحن بدورنا عبرنا عن فرحتنا بالدعوة . وقد
تمنيت على نحو خاص ألا ينهي موقف العريس الاحتفالات .

على كل حال ، انضح ان كل شيء بهيج جدا واوربي على
نحو مدهش ، ابتداء من حمام منزل والد العريس الذي يتفاخر
بوجود مرحاض وحوض استحمام افرنجي فيه ، وصولا الى كميات
الجن المحظورة والغالية الثمن والتي كانت تسكب بسخاء في
كؤوس طويلة لمعظم الذكور وبعض الاناث الحاضرات . شهدت
العروس الساحرة في ثوب زفافها الاوربي بحواشيه الطويلة ،
مستمعة تماما لحفلة عرسها وقد ادت رقصة هن البطن اللطيفة
امام الصيوف المجنمعي .

وفي آخر المساء ، اخرج رجل شمل جيرد ، فقد طلب
منه بانزعاج ان يعرف :

- كم تدفع لكم الحكومة الايرانية مقابل عملكم
هنا ؟ انتم امريكيون اغنياء . نحن لانحتاج اليكم .
بقي الرجل ممسكا بعرف جيرد الى أن اتى هوشنغ واجبره على
أن يقدم اعتذاره . ووضح قائلا :
- لم يكن يعرف مايقوله .

أومأنا برأسنا بالموافقة على ذلك ، وقد ابدينا اللباقة ظاهريا
ولكننا كنا مرتابين في داخلنا . فهذه حالة من غياب الوعي
والشمالة الحقيقية .

حتى تلك اللحظة كنا نشعر بالترحاب في حفلة الزفاف
فكل شخص كان يعتني بنا بافراط ، يقدم لنا الغذاء و الشراب ،

بأتى ليتحدث معنا ، ويبين لنا باستمرار ، مهيجان الرجل
 الشمل لم يفسد أمستنا ولكنه جعلنا ننساء عما كان يدور
 في فكر هؤلاء المينسمين جميعا . فكلما طال نقاؤنا في
 ايران كنا نعلم النظر الى ماوراء الانسامات اكثر . ولكن
 لم يكن امبر هناك لناقش معه هذه الحوادث التي شبر الكآسة
 في النفس . لم يكن هاك مجال للنظر في امر احتمال ارسال
 السيد اسابي بغيرا عني للساماك . لم تكن لدينا وسيلة
 اختبار ما او موجه صوت ، ولا طريقه نشر فيها صدورنا من
 تراكم اضطراباتنا واحرانا وسوء فهمنا . فقد كنا أننا
 وحيد قد حزنا في رنزانة نفسية مع بعضنا البعض ، ولم تكن
 علاقتنا تنمو ضمن عزلتنا هذه .

في نهاية احد الشهور ارسل البنا امر رساله حارة
 من منزل لاماربه في طهران . وقد اجبت عليها مباشرة ، واخبرته
 عن مدى افتعادنا له ، وعن الاشياء التي حدثت لنا ، وعن
 حاجتنا للتحدث معه . وبعد عدة اسابيع وقبل حلول الشتاء
 والمطر كان امير ينف تحت ضوء الشمس عند مدخل ساحة دارنا .

" امبر " صرخت وعانفته وانا اعرف ولكن بدون أن
 اهتم بأن الرجال والنساء لا ينعانقون امام الناس ابدا في
 ايران ولا ينعانقون في أي مكان آخر اذا لم تكن بينهم صلة
 قرابة قريبة جدا ، أما بالدم او بالزواج . نزل حيرد على
 السلالم وعانقه هو أيضا .

كان اجتماعنا الثاني في فترة الغداء ولكن لم يكن
 لدينا الوقت الكافي لنتفوه بكل شيء كان يجول بفكرنا . فقد
 كان علينا جميعا ان نعود الى الكلية لنراه فيها . والآن وقد
 عاد امير ، شعرت بأن كردستان بكل رومانستها وامكانياتها
 يمكن أن تفنح صدرها لي .

بعد انقضاء ليلتين على عودة امير من طهران . جاء

ليتناول الطعام معنا . كان اللحم هذه المرة قد نفج تماما .
كان كل شيء معدا حسب الذوق الايراني لأننا في غياب امير كنا
قد استأجرنا رجلا تركيا ممتازا لطبخ لنا ثلاث مرات في الاسبوع
فقد اعتقدا بأننا بهذه الطريقة يمكن لنا ان نسنقبل ضيوفا
ايرانيين بدون ان نطبخ بخيبة روية الغذاء دون ان يمسسه احد .
بينما بدأنا انا وعزيز نضع الاطباق فوق الطاولة اتى امير
الينا وسأل :

— هل سينناول عزيز الغذاء معنا ؟

نظرت الى عزيز مضطربة وقد بدأ الشعور بالاشم بالنفاذ السى
قلبي المتسامح .

— لا ، انه لا يفعل ذلك ابدا .

— اذا سأطلب منه ذلك . هل انت موافقة على ذلك ؟
ذلك ما قاله طالبي وهو يذهب الى المطبخ خلف عزيز بدون
أن ينتظر ردي .

— طبعاً أحبته بفتور .

جلس عزيز المضطرب والخجول معنا على الطاولة وتظاهـر
بتناول شريحة من اللحم والسلطة . انه يعرف أمير من الكلية
حيث عمل عزيز لايام في مطعم الطلاب ، حسب القواعد الايرانية
لنظام الشكليات كان من غير المقبول أبدا أن يجلس طالـب
ومدرسه متماثلين ، ولكن الشيء الذي لا يصدق مطلقا هو أن
يتناول طالب جامعة ايراني ومدرسه والخادم طعامهم معا على
نفس الطاولة .

حتى أنا كأجنبية أحسست بذلك ، ومع ذلك فان أمير وكما هو
دائما كان قادرا على أن يجعلنا ننزل عند رغبته حتى لمجرد
ابداء اقتراحه ، فقد أعلن أن نظاما اجتماعيا جديدا هو على
وشك الولادة في ايران ، ولشكته بتأثيره علينا كان قد قرر أن
يدشنه في منزلنا .

شعرنا أنا وجيرد بالغرابية . فقد اندفع عزيز بعيدا عن الطاولة وأمير يحاول أن يتحدث معه قبل أن يقدم الشاي . لا أعرف حتى فيما اذا كان أمير قد لاحظ كم كان عزيز متضايقا .

دخلنا مرة أخرى في علاقة نمطية مع أمير . فغالبا ما كان يقوم بزيارة قصيرة الى منزلنا عند المساء وفي نهاية الأسبوع . وثانية كنا نجلس نحن الثلاثة لساعات ونحدث . ولكن الامور كانت قد تغيرت نوعا ما ، ليس مع أمير ، بل معنا فبعدما يقارب ثلاثة أشهر من وجودنا في ايران كنا قد أصبحنا أقل بساطة وأكثر تشككا . ولم نكن متفائلين جدا حول توقعاتنا في خلق أصدقاء جدد لنا . وكنا قد بدأنا نغير انتباهنا أكثر للفروق الدقيقة لما نقوله نحن للناس الآخرين وما يقولونه هم لنا . مع ان أمير ذاته لم يتغير وكان احد اصدقائنا الاولين والوحيدين . كانت انكليزيته قد وهنت قليلا في طهران ، ولكنها قوية حالا بتأثير المحادثات . لم يعلمني الكردية ابدا على الرغم من أن هذا كان السبب الأصلي لقائنا كنا ثلاثتنا احيانا نتحدث بالفارسية ، ولكننا كنا ندرك أن اميرا قليل الصبر مع جهودنا . وقد اتهمه جيرد مرة بعدم رغبته بتعليمي الكردية ، فارتسمت على وجه أمير تعابير الالم المميزة عنده ، حيث برزت شفته الى الامام واطالت عيناه التفكير . وبالطبع كان يعتزم تعليمي الكردية ولكن ، كان من المهم جدا له ان يتعلم الانكليزية . كل شيء سيأتي في وقته المناسب . ولشعورنا بألم اللوم في عينيهِ تراجعنا عما قلناه اضافة الى ذلك ، فشمة مسألة اخرى ، وهي زيارة مدينة أمير بوكان . متى سيأخذنا اليها ؟ لقد انتظرناه طويلا ببساطة لكي يشرح علينا وقتا مناسباً لذلك . ومن ثم وبعد عودته من طهران اثرنا الموضوع نحن بأنفسنا . ولكن أمير كان يوءجل ذلك دائما . الآن ليس الوقت المناسب . ستكون الجبال مغطاة بالثلوج ولكن امير اخذ الحافلة هو نفسه الى هناك مرة او مرتين ، وكان طلاب آخرون من بوكان يذهبون الى بلدهم بين الفينيسية

والاخرى . لماذا لانقدر على الذهاب الى هناك نحن ايضا ؟
ولماذا فقد امير اهتمامه بالذهاب معنا الى مهاباد؟ فقد كنا
قد اخبرناه عما حدث لنا مع الجعفرين وعن رغبتنا في
الذهاب ثانية برفقة كردي ، ولكن امير اوضح لنا بأسلوبه
المراوغ بأنه لن يأخذنا أبداً . وبعد عدة أسابيع أعلن امير
أن والده سيأتي في زيارة الى ريزاي . وعندما رأى الاهتمام
على وجهي ، اضاف مباشرة :

— اريده ان يلتقي بك . لقد اخبرته كل شيء عن

مدرسي، كاك جيرد ودادا مارغريت .

واخيراً رتب الامر على أن امير سيعد لنا طبخة ايرانية في
منزله واننا سنذهب لتناول الغذاء مع والده . وفي اليوم الذي
دعانا فيه امير وصل الى دارنا قبل الوقت بثلاث ساعات ، فسألته
محدقة في أسفل الدرج لأرى فيما اذا كان احد ما واقفا هناك :

— ماذا فعلت مع ابيك ؟

فقال امير :

— اوه ، لقد ذهب الى البيت توا .

— ولكن ماذا عن الغذاء الذي كنت ستعده ؟

— اوه الطعام، هل هو مهم لك ؟ سأعده هنا في منزلك .

نظرت الى امير ببرود . ما الذي كان يشغله ؟ بالتأكيد لقد ادرك
انني ماكنت اهتم به هو مقابلة والده وليس تناول الطعام .
فسأله جيرد :

— ما الامر ؟ الا تريد ان تأتي الى مسكنك .

— حسناً . انه ليس مكاناً لطيفاً ، ليس لطيفاً بالقدر

الذي يليق بمدرسي .

لم يمكث امير طويلاً ذلك اليوم ، بعد ان شعر وبدون
شك بالاسئلة التي تجول في فكرنا . فجأة بدأت المراوغات
حول تعليمي الكردية وزيارة مدينته ، وكل الاسئلة فيسـر

المجابهة من والده ، من يكون وماذا يعمل ؟ حتى الاسلوب الذي كان يتبعه امير في تجنبه اخبارنا اين يسكن ، كل ذلك بدأ يظهر الى الوجود ويشغل حيزا من تفكيرنا . لم يكن قد قام بأي اجراءات لتعليمي الكردية . والآن كان قد عرض علينا ان يقدمنا الى والده وبعدئذ وبدون أي توضيح سحب الدعوة . سألت جيرد :

- لماذا تظن انه لا يرغب في ان نرى والده ؟

فأجابني :

- لا أظن ابدا ان والده قد اتى الى ريزاي .

- اذا لماذا اخبرنا انه قد جاء ولماذا اصر على

دعوتنا ؟

فأشار جيرد :

- لقد دعينا الى اماكن عديدة قبل هذا ولم يكن

الناس يعمنون اخذنا فعليا .

ذلك صحيح . فالشكليات كانت ترفع رأسها المنافق في كل مرة كنا نقدم فيها دعوة او نلتقها . لقد كنا قد توصلنا الى النقطة التي لن نسمح فيها لأنفسنا بأن نظهر لهفتنا لأي دعوة ، مهما تكن مغرية ولم نقدر ان نتأكد ابدا فيما اذا كان الناس الذين ندعوهم سيلبون الدعوة أم لا . كان موقفنا هو الانتظار ومشاهدة ماسيجري عندما كانت الساعة المحددة تقترب . كان امير على الاقل يأتي دائما الى منزلنا عندما كان يقول انه سيأتي وكان ذلك ، قياسا مع الناس الآخرين ، أفضل بكثير بما فيهم الجعفريين . كان الجعفريون يهملون ان يكونوا الى جانب تقديم الدعوات اكثر من أن يكونوا الى جانب هدف تلقي حسن الوفادة من جانبنا . اما امير فقد بدا على العكس من ذلك .

ان سلوك امير الضامف نزع اعترافا من جيرد . فلتد اخبرني ان الكتابة والحزن كانا قد أخذنا من نفسه موقعا في الفترة

الآخيرة ، لأن واحدا من تلامذته المفضلين في الكلية ، وهو زميل
 أمير ، كان قد أخبر جيرد بأنه سيعلمه الكتابة المسمارية
 وبعدئذ وبعد ان أخذ درسا ممتعا رفض الطالب أن يلتقي معه
 ثانية . والسبب في ذلك هو أنه سيفقد كل اصدقائه اذا شوهده
 يتسكع مع مدرس امريكي . وقد اقر جيرد احتمال ان امير
 قد شعر بنفس الشيء . وبعد ان فكرنا قليلا تذكرنا انه على
 الرغم من عروضه فان امير كان قد تجول معنا في الطريق فقط
 لعدة مرات في بداية علاقتنا . ومنذ ذلك الحين كان ينكث
 بعهده اويتجنب كل الدعوات والعروض لروءيتنا في أي مكان
 سوى داخل منزلنا وعادة في الليل .

لم يقم أمير بزيارتنا لمدة اسبوع تقريبا وبعدئذ
 ظهر فجأة في احدى الامسيات في الساعة التاسعة ، فسأله جيرد
 بفضاضة :

— أين كنت ؟

لقد كنت مشغولا جدا بالبحث عن مسكن جديد ، عن مكان
 افضل بحيث يكون مناسباً اكثر لدعوتكما الى الغداء .
 فقال جيرد :

— هاه . .

بدا امير متضائقا من ذلك . وتابع جيرد قائلا :

— انت لا تريدنا أن نأتي الى منزلك لتناول الغداء
 أو بالاحرى ، لماذا تتردد علينا ؟ هل أنت من السافاك ؟
 شح وجبهه أخيرا ، ولم يتفوه أحد منا بكلمة لمدة دقيقة
 فشعرت بقوة خارجية تحثني على تغيير الموضوع ، كيف وصلنا
 الى هذه الدرجة من عدم الثقة ؟ . ماذا جرى لكل ذلك الحسب
 والدفء ؟

حدثت في امير الذي لم يقل شيئا يدافع به عن نفسه أو شيئا
 يعيد الطمأنينة اليه . فتركت جيرد يواصل ذلك .

— لماذا دعوتنا لمقابلة والدك بينما لم يكن هنا ؟

- أنا اسف جدا لذلك ، فقد كان عليه ان يعود
فجأة الى البيت . ولاكون صادقاً معكم فأنا ووالدي لسنا على
مايرام في علاقتنا معاً لقد تخاصمنا فقرر المغادرة . فقال
جيرد :

- لا أصدقك .

اخفض أمير نظره الى الاسفل وقال ببساطة :

- لا صدقك هي عبارة قاسية اينما كانت .

في ايران حيث يلوث الكذب مجلات التفاعل الاجتماعي على
نحو روتيني يكون السؤال الصريح عن صحة اقوال احد
شيء غير وارد ابدا .

التمع في ذهني تصور كان يفكر فيه امير فقلت :

- لا أظن أن امير يصدق ما نقوله نحن أيضا .

فسأله جيرد .

- هل هذا صحيح .

- انت لاتصدق اني فعلا قد اتيت الى ايران

لاكتب رساله الدكتوراه من الكردية اليس كذلك يا أمير ؟

نظر اليها امير وقال وهو مغمم بالامل تقريبا :

- حسنا انت صغيرة جدا لتحطبي على شهادة

الدكتوراه .

- لقد اخبرتك ان عمري خمسة وعشرون عاما .

فقال أمير بثقة :

- عمرك لم يبلغ خمسة وعشرين عاما . فلا أحد من

الطلاب يصدق انك في سن الخامسة والعشرين تهدين أصغر

بكثير .

فسألته بالحاح :

- ولماذا اكذب ؟ ولماذا اتظاهر بأنني أكبر

مما أنا عليه ؟ رفض أمير ان يجيب على سوء الي او حتى

أن ينظر الي .

- انت لاتصدق اني ادرس الكردية أيضا اليس

كذلك ؟ .

ـ لاء حسنا لربما تدرسين الكردية تقولين انك تهتمين بالكردية ولكن هل يمكنك أن تقومي ببحث و انت بعيدة من جامعتك ؟ ان الطلاب يقومون بالبحوث في احدى الجامعات و انت الآن في ايران . لذلك من غير معقول انك تعديين بحثا .

دار في خلدي احتمال تقبل امير حكابتنا مؤقتا كنت قد توقعت أن اشك فيها بعض الشيء ولكني بدلا من ذلك وجدت عدم تعديق كلي وانكارا لكل ماكنت قد وضحته عن نفسي ، عن كل شيء كنت قد ابدت اهتمامي به على مدى الاشهر الثلاثة الاخيره واخبرته عنه . كنت قد حدثته على نحو متواصل عن عملي الاكاديمي ، عن خطتي للبحث ، وقبل كل شيء عن اسباب رغبتني في المجيء الى ايران . كل حديثنا ذاك ، كل كلمة منه حاكها هذا الشاب ابن المدينة الصغيرة ، ومن الواضح انسه رفضها بعد دراستها في عقله . قاومت دافعا يملني علي تلمس وجهي لا طمئن على حقيقة وجودي . لقد بدا امير في تلك اللحظة قبيحا وحتى مرعبا . فكيف لي أن استمر بالحديث معه ؟

سأله جيرد بهدوء :

ـ هل تظن اننا من عناصر ال (سي . آي . اي) ؟

فقال امير :

ـ لا ، لا اظنكم منهم .

ـ اذا ماذا نحن ؟ ماذا تظن ؟

نظر اليها امير وقال مدافعا عن نفسه :

ـ لم يمر وقت طويل على معرفتي بكم . لا اعرف مسن

انتم . ان التعرف على شخص ما والثقة به يتطلب وقتا طويلا .

ـ ولكن كيف لك ان تعرفنا اذا كنت لاتصدق شيئا مما

نقوله ؟

لم يجبه امير على ذلك . ولم ينصرف مباشرة على

الرغم من اننا ، انا وجيرد شعرنا ـ ودون ان نقول شيئا ـ باننا نكاد لانستطيع البقاء جالسين وننظر في العينين الواسعتين

المتألمتين والشفة السفلى البارزة للحظة اخرى . كان كما لسو
 اننا كنا قد اتخمتنا انفسنا بالفستق وحتى ان مجرد روءيتسه
 تجعلنا نمرض . لم يكن أمير ، ذلك الذي كنا نراه امامنا ،
 بل بساطتنا المجسدة وسهولة انخداعنا ، وقابليتنا للتجريح
 والتفليل . لم يكن شك أمير وارتيابه فقط ، قد ولد فينا
 ذلك الشعور ، بل ايضا تخلصنا من المكر واهانات الرجل
 الثمل ، وغضب السيد اسيابي وتحفظ السيد خليلي . كان الاكرا
 والاتراك قد قابلونا على نحو مماثل . واطلقوا علينا حكما
 ولفظونا ، مغرقين في ذلك . وهأنذا اتفحص خيطا ملحولا
 بعناية اكثر ، الخيط الاخير على ملعه . ذلك الذي سيفودنسي
 الى كردستان .

استمر أمير في الجلوس على طاولتنا ، يحدق فسي
 احدنا ثم في الاخر . لم يصدق حقيقة اننا قد تحولنا ضده
 على هذا النحو الكلي . كان قد احتفظ بشكوكه لنفسه ، جالسا
 بصمت كل هذه الساعات ، وكل هذه الاسابيع التي افشينا له
 فيها عن مكنونات قلبينا . لماذا اجبرناه على قول ما كان
 يفكر فيه ؟ فقد كان كل شيء مبهما جدا . لقد كان يتعلم
 الكثير من الانكليزية . لماذا كان الامريكيون متبلدي الذهن ،
 مديمي الحس وحاسمين لهذه الدرجة ؟ نظرنا اليه بوجوه خاليه
 من التعبير وأخيرا نهض ليغادر والدموع تلتصع وراء نظارته .
 كنا أنا وجيرد ننساقش بين الفينة والاخرى احتمالية كون
 أمير عنصرا من السافاك الذي كان قد عين ليكتشف ماذا كنا
 نفعل في ايران وكدفاع اخير ضد غضبنا أوحى الينا أن ثقتنا
 قد تداعت ضد رغبته ، وانه كان قد خاض تجارب رهيبه كانت
 قد ظهرت الى حيز الوجود في بوكان واننا كأمركيين
 لانستطيع تصورهما .

- ماذا ؟ ماذا ؟

عاجلته بالسوء ال هذه المرة ، ولم يقدر ان يبقي غامضا . قال
 انه كان قد استدعى من قبل البوليس السري لنشره جريدة

طلابية في مدرسة ثانوية . وكان والده قد استدعى من المنسزل
ليقف معه ويستجوب هو أيضا . وسألته دون أن أبدى أى تعاطف
معه : - هل عذبت ؟ هل سجنتم ؟
فأجاب معترفا :

- لا ، لا شيء من هذا القبيل . ولكنني روعت حتى
الموت . لكن اعتراف امير جاء متأخرا جدا وفي نهاية جلسات
اعترافات عديدة اخرى . لم امرف ماذا اصدق . لقد كُـسـان
كرديا ، كان يتجول مع الطلاب الاخرين ، وكان يتكلم الكرديّة
هذا كل ما عرفته ولم اقدر أن ادرك اكثر من ذلك . من الذي
كان قد ظفر باخلاصه المتذبذب ؟ هل هي النقود التي حملته على
ذلك أم الخوف ام الحس الوطني الكردي ؟ اذا كان لا يثق بنـا
فلماذا كان يرغب باصرار في مناقشة الامور السياسية ؟ لقد
كانت تلك علامة سيئة في ايران ، حيث كان من المعروف ان عناصر
السافات فقط يتحدثون عن مثل هذه الامور .

بقينا الآن لوحدا ومعزولين حقا . فلم تكن هذه
مثل الحادثة التي جرت مع السيد اسياي . لاننا لانستطيع
الاعتراف للناس عن نوع العلاقة التي كانت تربطنا بهذا الشاب
فمثل هذا الاعتراف سيسبب ضررا اكثر . لم نستطيع أن
نناقشه مع امير صديقنا الحميم سابقا . لمت في نفسي
الناس الذين طلبت منهم افكار تمهيدية عن الاكراد . فكرت
في الجعفرين ، بهيئة الاداعة ، في المدرسين في الكلية ،
واقصيتهم جميعا عن تفكيري . كان من السهل في أمريكا الاتصال
بالاكراد القلائل الذين كانوا يقيمون هناك قبل ان اغادرها
فقد هتفت لهم ببساطة وقدمت نفسي لهم . ولكن في ايران التي
لم تكن فيها الهواتف عمومية ، لن يجدي ان اذهب الى منازل
الناس واقول لهم انني ادرس الكرديّة . فبدون الاتصالات المناسبة
وبدون الاعتماد على سنوات من تعزيز الثقة ، كانت وسيلة
الاتصال وجها لوجه بغير معنى . كان مثل محاولة صرف شيك
في مصرف في مدينة امريكية بدون " ID " .

كان انعدام الثقة سيننا وبين امير مثل حدوث تصدع في الحقيقة . فمئذ الآن وصاعداً ، اصبح لكل كلمة وكل فعل معنى مضاعف وخفي . اصبحت الآن اكثر يظه لملاحظات الناس بكثير مما كنت عليه في أي وقت مضى . فعندما اخذنا احدهم من الكلية الى المنزل بسيارته وقال في نهاية الرحلة : متى ستشترى سيارة ؟ ادركت من كلامه ان كل عنصر في الكلية يمتلك سيارة سوانا نحن ، وان اعضاء الكلية الآخرين يمتعضون من توصيلنا وفي نفس الوقت يشعرون بأننا خائفون لمنزلتنا الاجتماعية لأننا ركبنا حافلة المدينة مع العمال والطلبة .

لم أعد متشوقة الى قبول أي دعوات ، لأنني لم استطع ان اميز بين الدعوات الحقيقية وتلك التي كانت مجرد حركات ايمائية وفي الحقيقة بدأ ينتابني احساس ، كلما عرس احدهم شيئاً ما علي بأنه مقصور علينا فقط بقصد الارعاج . فقد كانت تلك الدعوات والابتسامات والترحيبات التي لاتعني شيئاً تبدو لي مثل مضايقات بحتة .

ظهرت حواجز غير مرئية في كل الجهات ، وبدأت افقد القدرة على رؤية الأشياء وفقاً لعلاقتها واهميتها الصحيحة والنسبية وأيضا الثقة التي كنت املكها يوماً في مجتمع كنيت اعرف كيف اتصرف فيه وكيف اجد المعلومات عندما كنت اريدها . بدأت امطار الشتاء بالهطول ، فبدت السماء والجبال اكثر قرباً ، ما جعلني اشعر وكأنني مطوقة بداخلها . ايمن كانت كردستان ؟ نظرت باتجاه الجبال حيث كان الثلج المنساق مبكراً قد حول القمم الى اشكال مخروطية بيضاء . هل الاكراد موجودون في الجانب الآخر فقط من هذه الجبال في العراق وتركيا ؟ لابل انهم هنا بالقرب مني تماماً ، تحت السماء ذاتها . ينظرون الى الجبال نفسها . دأبت في البحث عن الشخص المناسب الذي سيعرفني بالناس المناسبين وعن الكلمات السحرية لأقولها والتي ستجعل الجن يظهرون .

الجزء الثاني على تحف وكرستان

ليشكل مصدا دفاعيا اجتماعيا ، كانت ثمة حقيقة مذهشة أيضا وهي انه لم تكن بيني وبين جيرد صلة قرابة قبل أن نتزوج كان الاكراد دائما يسألون عن هذا ، متعجبين من كيفية لقائنا كان يجب على الأقل ان نكون اقرباء بحكم الزواج وبذلك فـان قريبا لنا يمكن ان يكون قد ذكرني لام جيرد ، حتى قدرنا على اللقاء ضمن هذا التقليد الاجتماعي اللائق معتمدين على العلاقات العائلية على وجه الخصوص . وبدلا من ذلك فقد التقينا لوحدها ، بعيدين عن عائلتنا ، وفي جامعة ذات اجواء موضوعية تماما حيث لايمكن لأحد ان يعرف كيف كان سلوكنا قبل أن نتزوج .

بعد طول انتظار ، قرر السيد خليلي ان يعرفني الى امرأة كردية . فقد هتف الى مكنتي في الكلية لينبشني بالاعخبار وليحدد موعدا لنا لنذهب الى منزلها سوية . صبرت على الانتظار بمصوبة . درست صفوفني واسرعت في القيام برحلات قصيرة الى البازار ، ومضيت الى النوم ومكثت افكر طوال تلك الليلة بالمرأة الكردية هذه .

عندما ظهرت عند مدخل غرفة الهیئة الكرمانجية فسي اليوم التالي التقط السيد خليلي الهاتف وطلب رقما واخبر شخصا في النهاية الاخرى اننا في طريقنا اليه . لم يقل السيد خليلي شيئا عن المنزل الذي كنا ذاهبين اليه . وكل ماكنت اعرفه كان اسم المرأة التي تكلم معها على الهاتف وهو مريم اوبلباقا اكثر ، مريم خانم ، السيدة مريم .

دخلنا الى شارع بهلوي وقد كنت اعرفه ، وهو أحسن الطرق العاقبة الرئيسية في المدينة . قادني السيد خليلي الى منزل يقع خلف بقالية غالبا ماكنت اتعامل معها ، وصعدنا السطح الاعلى حتى وصلنا الى باب معدني ازرق باهت ودق جرسه . اجابتنا امرأة ذات وجه وردي وخصلات من شعرا شقر قد فرت من تحت وشاحها البرتقالي الزاهي . وبعد ان اخبر السيد خليلي المرأة

ذات الوجه الوردى من اكون ودعنا وهم بالمفادرة ، حدثت بفزع
في شخص ذي بذلة سوداء يتمشى بعيدا في الشارع . ممن
سيقدمني لمريم خانم ؟ فقد احسست ان المرأة التي بالبواب
ليست مضيفتي ، ولكن من تكون ؟

قبل ان تتاح لي فسحة من الوقت لاصاب بالذعر امسكت
المرأة ذات الوجه الوردى المبتسم بيدي وقادتني الى الداخل .
اغلق الباب المعدني بصوت مكتوم ومن خلال ضوء خافت ميرت
قاعة خالية من الاثاث ومعتمة وفي داخلها زوجان من الحمامات
الرمادية الاليفة تطوفان ارجاء الغرفة ذات الارضبة المكسوة
برقاقات الفلين وهما تهدلان . وبرشاقة مدت المرأة يدها
ورفعت حقيبتى وآلة التسجيل الثقيلة عن كتفي . ماكنت قد
سجلت بعد شيئا منذ محيى الى ايران وفي الحقيقة كنت قد
سنتت لنفسى مبدأ بآتي لن احاول ان اسجل لأحد الى أن يعرفني
وبثق بي ، مع ذلك ، حملت الالة معى وكنت قد بدأت اخشى
الابعرفني احد اويثق بي . ربما كان علي ان ابدأ التسجيل
كلما سنحت لي الفرصة .

وحالا اشارت الي المرأة الكردية ذات الوجه الوردى
بلباسها الكردي المتألق ان اتبعها الى الاعلى . وقد كانت
الدرجات هي ايضا جرداء وكانت تكسوها رقاقات فلينية وسخه .
مثل ارضية الرواق ، وكان يغطي زجاج النوافذ الخشن خطوط
من الوحل وقد كانت مظه على الشارع على طول بيت الصدرج .
وصلنا رواقا آخر عند نهاية الدرجات وكان يحتوي على ثلاثة
ضخمة . ومن ثم وجدت نفسى واقفة فجأة في مدخل حجرة حيث
كانت قد وضعت مجموعة من الاجذية والخفاف المطاطية فسوق
حمير . سمعت هسهبة فتيات ودمدمة اصوات ، وبدون أي انذار
وجدت نفسى وجها لوجه امام حجرة ممتلئة بالنساء الكرديات .
لقد كن جميعهن واقفات ينتظرنني كي ادخل . وبحركة غير
رشيقة انحيت لأفك رباط حداثي الطويل ، فصاحت العديدات منهن

كى لا اخلعه ولكني لم ارواحدة اخرى قد ابقت حذايها حتى داخل
الحجرة وعندما دخلت بقدمي المكسوتين بالجوارب ، لاحظت ان
الحجرة كانت قد دثرت وزينت كأنها عليه جواهر . ركضت احداهن
الى الزاوية لتحضر كرسيها مطويا ولكني رفضت هذا ايضا فلم تكسن
اي منهن جالسة على كرسي .

كنت اقف وسط حلقة من السيدات - سيدات حقيقيات بملابسهن
الظولية الغضاضة وطبقات من الاثواب والسراويل والجوارب القصيرة
المكشكة يدويا . وفي مخدع متلى* بالالوان المميزة ، وكل جهة
منه مزينة بمناديل مبهوكة واقمشة مصنعة آليا مزدانه بالرسوم
والصور . كانت مرايا وقوارير عطور متقنه الصنع ، متلفة بسوائل
مختلفة الالوان قد احتلت مكانها فوق طاولة زينة قابعة في
الزاوية . بهرني كل ذلك . كانت احداهن تدفعني الى مقعد
تحت الخافذه واندفعت واحدة اخرى الى عدة من صناديق
الجلوس وانتزعت من فوقها وسادة مغطاة باطلس واقحمتها خلف
ظهري عندما حاولت الجلوس . رغبت بشدة في النزول لاجلس
على الارض ، عندما ادركت ان كل الانتهاء كان موجها نحو
وفي النهاية ربت وضعي وفق رضاهن ومقيت احاول تغطية ركبتني
العاريتين بقميصي البني القصير . كان لزاما علي الان ان افتح
فمي واتحدث . فساد الحجرة صمت منطو على توقع للحدث

قدست المرأة الجالسة بجانبني ، المرتدية ثوبا خارجيا باهتا
بلون الماء مع طبقات من ظلال اخرى من البسة زرقاء كانت تلسو
من تحته ، قدست نفسها بهوت خافض واحد على انها مريم
وببط* وهذو* شديدا شعرت انهن سيفقدون صبرهن فاجبتهن
على اسئلتهن ، من اكون وماذا افعل في ايران ، الو ، اي درجة
احببتها وفيما اداك ، ايران ابدل ام امرتك ، لم استلح
ان ازيل نظري عن مريم فقد كان لها عدد . بان ذهبيمة

في مقدمة فمها . كان شعرها احمر . ربما بسبب الحناء ، ولكنـه كان يناسب بشرتها الشاحبة تماما . كانت عيناها اصفى وأكثر زرقة من أي ألوان زرقاء في لباسها ، وكان حنكها يبرز إلى الامام ، فيسم وجهها بمظهر رجالي متناسب مع هيئتها الصارفة وصوتها المنخفض . ربما انها كانت مضيقتي فقد افترضت انها صاحبة المنزل . سيقدم لنا الشاي الآن ، فالمرأة ذات الوجه الوردى آتية عبر المدخل وهي تحمل طبقا عليه كؤوس صغيرة ممتلئة بشاي أحمر بني شديد التركيز وشمة امرأة أخرى مرتدية ثوبا حريريا رقيقا احمر اللون مزركشا بفراشات مزينة بنشار معدني لماع كانت قد ذهبت الى خزانة الثياب الخشبية القابعة في الزاوية واخرجت اربع علب صينية خزفية ووزعتها في ارجاء الغرفة فوق البساط . كانت العلب تحتوي على قطع من "القاند " السكر لتوضع بين الاسنان عند رشف الشاي . حدثت في كتل السكر ، محاولة ان التقط المقـسـدار المطلوب . وفي عجلة شديدة اخترت قطعة ضخمة وحاولت بعد ذلك وبحركة غير بارعة ان اقطعها الى اثنتين . استمرت النسـوـة سراقبتني وفي ثوان قليلة صرخت احداهن للخادم كي يحضر ملعقة ، فاعترضت على ذلك بحماس والخاح لدرجة ان الملعقة لم تجلب .

١٨٠ السكر اساسي نصر عندما شربت الشاي ، كأس ثلثو الآخر فحلما كنت انهي كأسا كانت الخادمة أو المرأة ذات الفستان الاحمر تأتي وعلوه ثانية .

— هذه عروسي .

قالت مريم هذا وهي تضع يدها حول خصر المرأة ذات الرداء الاصفر التي كانت قد تقدمت لي الشاي للتو . حدثت فيها متسائلة عما كنت ستفان يعني ذلك . كنت اقول ان كلمة " بوله " تعني العروس ، ولكنـه كيف يمكن أن تكون عروس مريم ؟ لم اكن اعرف بعد أن العرائس في كردستان لسن — ولدت الحديث — خاصة ازواجهن ، بل ايضا خاصية عائلـة ازواجهن وعلى نحو خصوصي امهات ازواجهن .

كنت قد قرأت أن أكثر الانماط شيوعاً للزواج في كردستان هو الذي يحدث بين أولاد اخين ، ما يدعى بزواج الـ " فابرودا " وهذه العادة مناسبة من وجهتي نظر : أنها تحتفظ بالأرض لتبقى ضمن العائلة وتهدف الى تخفيض مهر العروس الذي يمكن ان يكون مبلغاً باهظاً . تساءلت وأنا امعن النظر في مريم وخديجة فيما اذا كانت بينهما صلة قرابة قبل زواج خديجة من ابن مريم . لقد بدت من الناحية الجسدية مختلفين تماماً ، وكان من المستحيل بالنسبة لي ان اطلق حكماً عن ماهية شعور احدهما تجاه الاخرى في هذا الموقف المتمسم بالوسميات البالغة . ولكني كنت قد احسست مسبقاً بشباب خديجة الممتلئ حماسة وحيوية بالمقارنة مع صرامة مريم المسيطرة .

اعتبرت مريم انه من الاساسيات اخباري ان خديجة ، كنتها وهي ايها ستساعدني في تعلم الكردية ، فقد بدت مريم متحمسة تماماً لعزمي على تعلم لغتها . بينما سألتني النساء الاخريات بشيء من حياتي الشخصية ، هل انت متزوجة ؟ ابن هو زوجك ؟ هل لديك أطفال ؟ ولم لا ؟ كانت مريم قد اعدت نفسها مباشرة لمهمة التأكد من اني عرفت الاسماء الكردية لكل الاشياء الموجودة في الحجرة .

ان صدى عدم براعتي في الكردية بلغ حد سمعي . وقد كانت مريم مهذبة ولبقة جداً معي ، تنتظرني بصبر حتى اصبح اجوبتي وتكرر الاشياء اذا بدوت مرتبكة . ولكني استغرقت من الوقت دقيقتين او دقيقتين اضافيتين لكي اعالج بسلسلة من التكرار حتى ابسط الجمل . وسيكون متحدثاً نادراً في أي لغة ذلك الذي يستطيع أن يحدد مع هذا طويلاً . فانا نفسي كنت قد اخبرت طلابي في الكلية بأنني لن ابطء في كلامي اليهم لان ذلك لن يكون انكليزية حقيقية .

ولكن هو لاء النساء الكرديات - ولا أظن أن أي منهن كانت قد خاضت ليوم واحد تجربة تدريس رسمي في حياتها - كن

صابرات بما فيه الكفاية ليتحدثن لي بكردية دقيقة .

كنت استخدم الرموز اللفظية لأنسخ كل الكلمات التي علمتني اباها مريم ، وآلة تسجيلي تقبع عاطلة عن العمل . ارادت احدى النساء الحاضرات أن تعرف اذا كان بمقدوري فعلا أن انطق الكلمات الكردية تلك بنفس الطريقة التي من المفترض ان تلعظ بها . قرأت عليهن الكلمات التي كنت قد دونتها واحده تلو الاخرى . دمدت النسوة فيما بينهن فعد لاحظن أنني لم أكن استخدم الالف باء الفارسية . كيف كان لللفاظ ان تخرج بهذه الدقة بأحرف أجنبية غريبة ؟ لقد كنا قد شاهدنا آلات التسجيل من قبل ، لقد كانت الكتابة كتدوين ورسم للصوت هي التي ادهشتهم . فبقدر ماكن يعرفه هو أن لغتهن لا يمكن أن تكتب . فهي لم تكن تستخدم في المدارس ، ولم يكن شمة قواميس قياسية للتهجئة . بدأت النساء تدريجيا بتقليل الحديث معي والتحدث مع بعضهم البعض أكثر . كنا قد ارهقنا انفسنا ببذل الجهد للابقاء على التواصل . لم يكن هناك الحاجز اللغوي فقط لنقاومه ، بل ايضا كان الحاجز الثقافي موجودا فحتى هذه اللحظة كان بمقدورنا فقط ان نجلس ونطرح على بعضنا البعض الاسئلة . كان قد هالني ضخامة عددهن لذلك لم أسالهن عن شيء سوى لغتهن . ولكن على الرغم من فتسرات الصمت الذي سأقبله على انه امر سوي عندما نعرف بعضنا على نحو أفضل فقد استمر التواصل . لقد سمح الوقت لهن أن ينظرن الي بانتباه وببسم ولكن خديجة كنة مريم كانت تبتسم لسي ابتسامة عريضة باستمرار تقريبا . تخيلت حماسا مسليا في هاتين العينين الرماديتين المطوقتين بالكحل الاسود ، وتمنيت لو أنني مع خديجة لوحدا ، لم تكن صعبة مثل مريم ، وحكها لم يكن يبرز الى الامام ولم تكن تلفت النظر ببشرتها المكسوة بالبشرات وأنفها المعقوف . وقد بدت لي أكثر الموجدات ودا وأكثرهن امكانية في الوصول اليها ممن في الحجرة . وبطريقة ما وبدون أن أعرف ، خالطني شعور بالرباط المشترك بيننا . فقد كانت خديجة العروس الجديدة لا تزال غريبة مثلي في هذه الحجرة .

مضى بنا الوقت والشاي لايزال يقدم ، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية وقت التدفق الذى كان ينصب في كأسى . أصبحت اشعاعات ضوء الشمس تميل بشدة أكثر فأكثر صوب الحجرة جاعلة نشار الألوان أعمق وأكثر تنوعا عندما بدأت أتأمل الساعة الضخمة التي تعمل بقوة البطاريات وهي تدق على الحائط ، لقد مضت ساعتان فقط منذ وصولي . ولكن التعب قد أنهكني ورأسي يضيغ بغمغمات مختلطة بسبب الكافيين الموجود في الشاي . كيف يمكن لي أن استأذن الرخيل ؟ بدأت أشعر بالقلق حول الكلمات التي سأحتاجها لأخلف نفسي بأدب من هذه الحجرة التي بدأت تعتصم وترتفع حرارتها وتحبس الانفاس أكثر ، وعلى نحو غير بارع اندفعت واقفة بعجلة فسألت مريم متوقفة في منتصف محادثة أخرى كانت قد بدأتها .

— ماذا تفعلين مارغريت خانم ؟

— على أن أذهب الى المنزل الآن .

قلت ذلك بطريقة غير متقنة ، مدركة على نحو متأخر بأنه لن يكون لي ثمة مخرج لبق . ببساطة لم أكن أعرف كيف أجد لي مخرجا . وصاحت بعض النسوة الأخريات :

— ابق ، ابق .

وكررت مريم قائلا :

— نعم يجب ان تبقي .

فقلت :

— ولكن علي أن أذهب الى المنزل لاجهز الطعام .

فأجابت مريم :

— تناولني غداً معنا .

— ان زوجي ينتظرني

— اذهبي وأحضري زوجك لتناول الغدا .

هل كن جادات في دعوتهن رجلا ؟ اين سينتهي تعذيب

هذه الدعوات ؟ لم تهدد الدعوات وكأنها من ضمن نظام الشكليات

ولكن ماذا اعرف من ذلك ؟ وككل مرة أغريت بالقبول . ولكنني كنت قد تعلمت اخيرا واخذت درسا لن اقبل أي دعوة اخرى ثانية أبدا بمعناها الظاهري .

ـ شكرا جزيلا . ولكن علي أن اذهب .

قلت ذلك شاعرة بالابتسامة وقد ارتسمت على وجهي ، عرفت انهن قد قبلن رفاضي ، لان جميع النساء قد نهضن الآن في دمدمة وصخب عظيمين . اجلت بنظري باهتياج شديد في ارجاء الحجرة راغبة في اخذ آلة التسجيل والذهاب بسرعة كي لا يفيضن في الوقوف أكثر . ارجعت خديجه جهازي الي قبل ان اصله ومن ثم تبعتهني الى خارج الحجرة . وقبل ان نقدر على النزول عائدتين معا فوق الدرجات حتى الباب الامامي ، كان علي ان انحني ثانيا عند ربط حذائي الطويل الذي كنت قد تركته فوق الحصير . جميع النساء الموجودات في الحجرة لبشن واقفات يودعنني مرات عديدة قبل أن اعتدل في وقتي وعند الباب في الطابق السفلي ناولتني خديجة حقيبتني ومسجلتي وودعنني بأمنيات طيبة .

خرجت الى ظلمة اول الليل الكثيبه . كان الرجال بهذلاتهم الغامقة الرثة يسرعون الى المنزل بعد عودتهم من العمل ، بينما كانت النساء المحجوبات عن النظر بأعظيتهن السوداء ينتقلن من دكان غداء صغير الى آخر ، وهن يدسسن سلالهن تحت عبائتهن . كانت الالوان الحيوية لفترة بعد الظهيرة قد تلاشت ولكني عندما التفت ورائي ونظرت ، رأيت خديجة بفستانها الاحمر ولغاعها البرتقالي تنكس خارج مدخل المنزل مثل جنية وقد انبثق نصفها من المصباح .

اكدت لي مريم ، اجابة على اسئلتني الخرقاء أنها سعيدة لمساعدتي في الكرديية . فعرفت انه علي العودة الى منزلها حالا لكي اعملها على المشروع في تنفيذ عرضها ولكني ترددت، كانت هذه هي اتصالاتي بالمجموعة الاولى والحقيقية للنساء الكرديات ، اللواتي

كن يقمن على بعد نصف دزينة من المباني من منزلي ، وقد كن ودوات ومرحبات بي كأى مجموعة من الناس كنت قد القيت بها ، ومع ذلك فقد كنت اخشاهن . لربما انهن قد ابدىن اللباقة فقط . فمن المؤكد أن لديهن اشياء افضل للقيام بها بدلا من الجلوس طوال فترة بعد الظهر يحتسين الشاي ويعلمن الكردية لأجنيبة . لقد كانت الفكرة الاخيرة هي التي اوقفتني واستمرت في توقيفي لآشهر ، لى ان ادركت ماذا تفعل نساء الطبقة العليا الكردية حقيقة في ايامهن ، مع او بدون امرأة غريبة تراقبهن .

وبقليل من التشجيع من جيرد ، قررت ان احمل نفسي الى المنزل في شارع بهلوي بعد عدة ايام ، حيث وجدت مريم جالسه مع امرأتين اكبر سنا منها في مهباد . لم تكن الحجرة محتشدة مثلما كانت في يوم الاول ، فبالاضافة الي والى خديجة كانت هناك اربع نساء اخريات . كان لباس النساء المهاديات يختلف عن لباس مضيفاتي . فقد كن يرتدين سترات قصيرة واحزمة عريضة ملتفة عدة مرات حول خصرهن مما تجعل اجسادهن تبدو ممثلة اكثر مما هي عليه .

بالاضافة الى الاختلافات الواضحة في اللهجة بين الكرمانجية الشمالية والسورانية الجنوبية ، يمكن التمييز بين الاكراد بسهولة في لباسهم وخصوصا النساء . ان التقسيم الشمالي والجنوبي للعدادات واللفظ الكردية ينقسم في جزئي العراق وايران بينما يتكلم جميع اكراد تركيا ، سوريا ، الاتحاد السوفياتي الكرمانجية . وعلى الرغم من أن القوميين الاكراد يرغبون في قول أن هذه الاختلافات تافهة فقد ابدى العديد من الاكراد الشماليين ملاحظاتهم لـ بوضوح ، وهي ان لباس النساء الكرديات الشماليات هو اكثر جاذبية لان النساء الكرمانجيات لايفضن الاحزمة الضخمة حول خصورهن ، وزيهن يعطينهم مظهر ساعة رملية جذاب . ولكن حتى ولو ان الاكراد الشماليين يأتون في المقدمة في اسلوب زيهم ومن الناحية اللغوية فقد لحقهم الضرر في العراق على الاقل ، فعلى الاطفال جميعهم في كردستان العراق ان يتعلموا القراءة بالسورانية على الرغم من

حقيقة انها بالنسبة للبعض مختلفة جدا من الكردية الشمالية المحكية في المنزل . لقد بذلت جهدا بالغاً لفترة ، لفهم نبرات هؤلاء النساء المهابديات . هذه المرة قامت خديجة الجالسة بجانبني بأشياء أكثر من مجرد الابتسام بصمت . فقد التقطت خصلات من شعري وابتدت اعجابها بها . وثم امعنت النظر في وجهي واعلنت بصوت عال :

— اليسـت مارغريت جميلة ؟

كنت صامته ولكن بدا أن خديجة كانت غير منتبهة الى ارتباكي على الاطلاق ، واستمرت — في شروذ ذهني — تتلمس شعري وتنظر الي كما لو أنني طفلة . لم تبد مريم والمرأتان المهابديتان متحمسات جدا ، بعد اسراف خديجة في التعبير عن عاطفتها . ولكنهن لم يكن غير ودودات ايضا . ارادت المرأتان المهابديتان مثل كل ضيفات مريم ، ان تعرفا التفاصيل الاساسية : ماذا كنت افعل هناك ، الى أي درجة احببت ايران وفيما اذا كنت متزوجة أم لا ، وما ان تحول الموضوع عني هذه المرة وكنت قد شربت ثلاث او اربع كؤوس من الشاي ، قررت المغادرة . احثتني مريم على البقاء ولكن ليس بالاصرار الذي عهدته في المرة الاولى . مضيت بعيدا متسائلة من حقيقة شعورها تجاه زيارتي غير المتوقعة . تركت اسبوماً أو أكثر يمضي قبل أن اذهب الى منزل مريم للمرة الثالثة . رحبت بي خديجة كئنة مريم في عصر اليوم الذي عدت فيه اخيرا الى المنزل الواقع في شارع بهلوي . تمنيت أن تكون خديجة لوحدها لنقضي فترة العصر في الحديث لوحدها لدى وصولي الى مدخل حجرة جلوس النساء في الطابق الثاني . فقد كانت الحجرة محتشدة بالضيفات . ترددت في الدخول ولكن خديجة كانت ورائي تدفعني برفق لداخل الحجرة . وعندما انحنيت بحركة غير رشيدة لأفك رباط حذائي الطويل ، نهفن جميعهن عدا امرأة ذات عكان خشبي كان الى جانبها .

— " تسه خير هاتي يه " قدومك سعيد .

رحبت بي جميعهن في انسجام فاسرمت في الجلوس في المكان السدي

اشرن اليه ليجلسن هن أيضا . كانت جارتى هي المرأة المقعدة .
كنا انا وهي الوحيدتين المزودتين بالبطانيات والوسائد ،
والاخرىات جميعهن كن يجلسن على البساط المجرد من أي اثاث .

عرفتني مريم الى كل امرأة باسمها ، وحاولت ان تذكرهن
من لباسهن وملامحهن ولكن كان من الصعب التركيز على أي شيء وأنا
اعرف بأن جميعهن كن يحدثن ويتهامن مع بعضهن البعض بأحاديث
عني . قُدم لنا الشاي ، وبعد ان سألت الاسئلة المألوفة عما اذا
كنت قد احببت ايران ام لا ، وهل لدي زوج واطفال ام لا . عادت
المحادثة الى مجراها الطبيعي . كان العديد من النساء حاضرات بحيث
لم يكن باستطاعتهن الجلوس بصمت بينما تلقي احداهن علي الاسئلة .

بينما كنت احتسي الشاي بصمت محاولة ان التفت كلمه
من هنا وهناك دخلت الى الحجرة امرأة نحيفة ذات بشرة شاحبة
جدا وشعر اسود .

- مارغريت هذه زينب . لقد عادت لتوها من طهران
بعد ان عالجت اسنانها .

ابتسمت لي المرأة ، فلمحت لمعان الذهب في فمها . وحالما
بدأت مريم بالحديث مع امرأة اخرى التفت الى جارتى وسألتها :

- من هي زينب ؟ هل هي اخت مريم ؟

فنظرت الي المرأة ذات العكان الخشبي غير مستوعبة ومن ثم بدأت
بالضحك وقالت :

- انها زوجة الحاج .

فزمت لدى ملاحظتي ان ضحك المرأة المقعدة كان قد ركز انتباهه
جميع الضيفات على محادثتي . فكررت باندھاش :

- الحاج ؟

الحاج هو اللقب الذي يطلق على الرجال الذين أدوا فريضة

الحج . " رحلة الحج الى مكة " . صاحبت امرأة جالسة في نهاية
الحجرة :

— حاج اسماعيل طبعاً .

كانت النساء جميعاً يراقبنني في هذه اللحظة . كن قد عرفن ان هنالك
غريبة في وسطهن ولكنهن ماكن يعرفن كم كنت جاهلة . سألتنني
احداهن :

— الا تعرفين من هي زينب ومريم وسوسن ؟

هزئت رأسي منفية بذلك . وقالت اخرى :

— انهن ضرائر " هئي " .

لاحظت أن النساء الثلاث المسميات كن صامتات وقد تركن الإخريات
يوضحن . كتبت كلمة " هئي " في دفتر ملاحظاتي ورفعــــــــــــــــت
رأسي . قالت احداهن :

— جميعهن متزوجات من الحاج .

فصعكت النساء باضطراب هذه المرة كما لو أنه لم يكن من المصواب
تماماً التحدث عن الحاج . سألت زينب :

— الا يتخذ الرجال في امريكا اكثر من زوجة ؟

فأجبتها :

— هناك قانون يمنعهم من ذلك .

وشرمن في الحديث معاً مرة أخرى . سمعت المرأة المقعدة تقــــــــــــــــول
لجارتها :

— لقد اخبرتلك أن امريكا مكان جيد .

كنت لا ازال افكر بما اخبرتني به . من كان الحاج
اسماعيل؟ كنت قد لمحت اليوم مجموعة من الرجال يمرون بجانب
الباب ولكنهم بدوا مبهرين وكأنهم ليسوا مقيمين هنا .

اعتقدت اني عدت الى كوني غير منظورة ، ولكن احداهن

بدأت بالتحدث معي وقالت :

- مارغريت هل صحيح انك تريدني تعلم لغتنا ؟

اجبتها :

- نعم .

وعلمت احداهن :

- لقد زارت عايشة انكلترا .

سألته بلهفه :

- هل تتحدثين الانكليزية ؟

فأجابته :

- لبس تماما ولكني اريد تعلمها وسأعلمك الكرديسة .

تعالى الى منزلي اي يوم .

- شكرا .

اجبت بذلك متسائلة فيما اذا كانت تعني ماتقوله فهي لم تعطني عنوانها . بدأت بالنظر الى عايشة بتفحص اكثر عندما شرعت بالحديث مع امرأة اخرى . كان فستانها الاخضر الفاتح ذو القماش الشفاف المزين بخيوط فضية وخاتمها الزمردى واقراطها الذهبية الضخمة المتدللية ، كلها كانت رائعة . لم تبد الالوان المبهرجة والنظارات الملونة الموهطرة بالذهب الحقيقي زيبها المعتاد . سألتني المرأة المعقدة :

- هل ستذهبين الى منزل عايشة ؟

لم أكن أعرف أن هذه أم عايشة .

- لا أعرف .

قلت ذلك على نحو غير بارع . فأكدت لي عايشة :

- تعالى رجاء فانا لست مشغولة جدا . انا مثلك

لبس لدي اطفال .

فسألته او قد تملكتنى فكرة اني لا استطيع ان اطلب منها ببساطة ان تتحدث معي الكرديسة ولا اعطيها شيئا بالمقابل :

- هل بإمكانني ان اعلمك الانكليزية ؟

- حسنا .

قالت عائشة ذلك ، ففهمت النساء المحيطات بها ، وقالت احداهن بصوت ساخر :

- لايمكن ابدا ان اتعلم الانكليزية . ولكن طبعا زوج

عائشة رجل متعلم جدا . انه دكتور .

فسألت المرأة :

- ماهي اللغات التي تتكلمينها .

فأجابت :

- الكردية ، طبعا والتركية والفارسية .

فقلت مبدية اعجابي :

- انت تتكلمين ثلاث لغات . بالتاكيد تستطيعين تعلم

الانكليزية .

فاعترفت المرأة وهي مرتبكة :

- لا ، لا اعرف الكتابة .

بدا هذا التجمع ضخما على نحو غير مألوف وقد بدت

مريم غريبة في سترة مراء قديمة فوق لباسها الكردي ، وعندما خطر ببالي ان أسال عن المناسبة اكتشفت ان مريم كانت تستعد لمغادرة المدينة لتقضي الشتاء في قريتها . شعرت بالخيبة على نحو فظيع فمريم ستمضي الى قرية ما ، ولن اقدر على رؤيتها ثانية ، وكل ذلك لايحصل الا عندما بدأت اعرفها . راقبت المرأة التي زودتني بهذه المعلومات ردة فعلي بانتباه فسألتني :

- تظنين انه على مريم الاتذهب الى القرية ، اليس كذلك .

نظرت اليها مجفلة ، كيف كان لها ان تعرف ما بدور بخلدي ؟

بعدئذ ابدت المرأة اقتراحا :

- اذا ذهبت مريم الى القرية فان زوجها سيبدأ بالبحث

عن زوجة اخرى .

عندئذ غمر الضحك معظم الموجودات في الحجرة ، ولكنني كنت قد اضطربت ، ماذا كانت النكتة ؟ من هو زوج مريم ، وهل صحيح انها ستغامر بفقدانـه بذهابها الى القرية ؟ اين يسكن ؟ قالت لي مريم عند نهاية فترة الظهيرة تقريبا :

— اود أن تعلمي ابني الانكليزية هذا الشتاء .

أومأت برأسي متحمسة . فالآن ستوثر لدي حجة جيدة للعودة ، لأن ابن مريم كان طالبا في الثانوية وسقضي الشتاء في المدينة . وفضلت فكرة مفايضة الانكليزية بالكردية معه ومع عائشة على غموض الزيارة من أجل الشاي . وعندما علمت ان رحلما ، الابن سيكون في المنزل خلال ساعة انتظرت واحتسيت ثلاث كؤوس من الشاي وبعد الكأس الثالثة وضعت كأسي على جنبها ، فعلت ذلك ، كما فعلت النساء الاخريات تماما . وعندما قامت زينب لتعلم كأسي شائبة ضحكتم ، فلفتم انتباه صاحباتها لكأس المقلوبة وبعد ذلك ولتكدّر مزاحي سوت الكأس وصبت لي المزيد من الشاي . تركته هذه المرة ببساطة وبعد مضي فترة على صحبتي مع الاكراد عولمت كأس المقلوبة كالبقية تماما .

عندما غادرتنا بقية الضيفات ، قادتني مريم الى حجرة النوم التي كنا قد جلسنا فيها خلال زيارتي السابقة للمنزلها . نهض صبيان وسيمان بعيون زرقاء وحنكين بشبهان حنك امهما اثناء دخولي . صافحتني طه ، الولد الاكبر ونظر في عيني تماما عندما تعرفنا على بعضنا ، ولكن رحيم اهدق في الارض رافضا أن يسلم بوجودي . وبما ان رحيم لن يكلمني فلم تكن هناك وسيلة حتى لتحديد موعد لأخذ الدرس . بعدئذ التفت الى طه سائلة اياه فيما اذا كان يرغب في مبادلة الدروس الانكليزية بدروس في الكردية ، ولكنه ضحك وكما لو انني قلت نكتة .

بعد ذلك تكلمت مريم مع رحيم بسرعة وقد استمر بتجنب نظراتي . في وسط ارتباكنا المتبادل سمعت صوت جلبة في خارج الحجرة .

فقد كان جرس الباب قد رن في الطابق السفلي ويعد ذلك بدقيقة رأيت جيرد يدخل الى الغرفة . وفجأة اندفعت كل النساء اللواتي كن قد بقين واقفات الى غرفة اخرى ، وهن يققهن وقد رفعن لفاحاتهن فوق افواههن . ولكن مريم بقيت مسمرة في مكانها ولم تبرحه ، عرفت جيرد عليها ، وبعد ذلك حان وقت الرحيل . تمنيت لمرم قضاء شتاء طيب ، واجابتنني هي بدعوتي لزيارة قربتها ، ولكن لم يكن لدي اي فكرة عن موقع تلك القرية ولم يكن هنالك متسع من الوقت لأسألها عن ذلك .

مع رحيل مريم شككت في الترحيب بي اكثر من أي وقت مضى ، وقد فكرت في نفسي مليا وناقشت مع جيرد امره منصواب العسوة في هذا اليوم او ذاك . وكالعادة نجحت في ايجاد عمل اشغل نفسي به . واخيرا وبعد أن تخلعت من كل الاعذار بطردها ، وجدت نفسي في مواجهة الباب المعدني الازرق .

هذه المرة ، لم تكن مريم وحدها هي التي ذهبت بل خديجة ايضا كانت قد اختفت ، والمرأتان اللتان وجدتهما - زينب ، ضرة مريم ، وناديا كنة مريم الثانية - كانتا تضحكان ضحكا نصف مكتوم عندما اخبرتاني ان مريم قد اخذت خديجة على مضض الى القرية ، لتقوم بعمل ما ، كما قالتا . لم استطع التخلص من الانطباع الذي حدث لدي انهما كانتا تهزآن مني ومن خديجة أيضا . وعندما جلست معهما ، ادارت زينب عجلة آلة الخياطة اليدوية بينما ارفعت ناديا ولدها ذا السنة الواحدة ، القبيح الى حد لفت للنظر ، حيسا كان ذا رأس ضخم حليق . كانتا تتحدثان الى بعضهما بسرعة وكان من الصعب علي ان التقط أي شيء مما كانتا تقولانه ونادرا ما تنتظران الي . وبين حين وآخر كنت ابذل جهدي لكي انضم الي محادثتهما ، فكانتا تنظران الي وكما لو انهما تحاولان كبح ضحكة . ازدادت شكوكي المضطربة وتنامت الى حد لم اعد استطيع معه ايقافها اكثر ، فمضيت الى المنزل ببطة ، وكنت اقف لأنظُر في نوافذ الدكاكين دون أن ارى حقيقة أي من البضائع المعروضة محاولة ان اجد معنى لهذا اللقاء الاخير المحير .

كنت قد احسست بالانقسامات والولاءات في عائلة مريم قبل ان اعرف عنها أي شيء بوقت طويل . فكنتا مريم ، كلستا هــا كانتا دخيلتين . فهما لم تكونا من نفس العائلة كـمريم وزوجها فقط ، بل أيضا لم نكون من نفس القبيلة . لقد كان اختيار خديجة مستحسنا فقد كانت هنالك مصاهرة مسبقة بين عمها وابنة زوج مريم ، فقد مهدت الطريق للدخول في مفاوضات الزواج بين عائلتها وعائلة طه ؛ اما زواج ناديا فكانت له قصة مغايرة تماما .

بالرغم من أن الخطيفة هي اسلوب مقبول للزواج في كردستان فان ذلك لم يسعد مريم عندما هربت ناديا مع ولدها الثاني الاكبر مسعود . لم تكن هنالك مفاوضات ولا احتفالات ولا موافقة الوالدين المسبقة . لقد كان ذلك من خيار العروسين نفسيهما ولكن كان على ناديا اكثر من مسعود أن تتعايش مع هذا الخبر . وقد سمعت مريم تعلق مرة وبعدم رضى بأن مسعود لم يبنه دراسة الثانوية ابدا بسبب هذا الزواج المبكر ، فقد كان لايزال في السن السادسة عشر بعدد . وبما انه ترك المدرسة فقد اضطر للعيش على نحو دائم في القرية مع زوجته الجديدة . هذا يعني ان ناديا كانت خادمة مريم على نحو رئيسي ، بشكل مغاير عن خديجة حين الثقيتها . كانت تقوم باعداد كل الوجبات ، تجثم لساعات بالقرب من مراجل معدنية ضخمة موضوعة على نار حامية . تكس اوراق العنب بين الملح لحفظها في قدور ضخمة ، وتخلل تشكيلة من الخضار للشتاء . وبالإضافة الى كل اعمالها الروتينية التي كانت تقوم بها لحمايتها فقد انجبت أربعة صبيان على نحو متتال وسريع . لقد كانت ناديا معروفة بلسانها السليط ودكاها الحاد بالإضافة الى جمالها . كانت تثير اعصابي عندما لم أكن اتحدث الكردية جيدا بأجوتها السريعة والبارعة وضحكها الساخر . ولكنني موعظرا تمنيت لو انه كان بمقدوري ان اعرفها اكثر .

على الرغم من اني كنت اشعر انه لا اصدقاء لي ، فقد كان

بعض افراد عائلة مريم بوجهون لي الدعوات للقبام بزيارتهم فسي ذلك الحين . لقد كانت خديجة الكنة المختارة ، زوجة الاخ الاكبر ، وناديا كانت الهاربة . كانت مريم الزوجة الثانية للحاج ، وزينب كانت الثالثة . هؤلاء النسوة كن يقضين الابام والاسباح وحتى الشهور معا في نفس المنزل في المدينة . اما في القرية - وكما علمت فقد كانت كل واحدة منهن الشريكة الرئيسية للآخرى . ومع ذلك فقد كن دائما بتنافسن ، ويحاولن ان يحصلن على النصبب الاكبر لأنفسهن ولأولادهن . وكن يحرمن بشدة على ممتلكاتهن وصديقاتهن ، وحتى المعارف الامريكان الغرباء . وبالنتيجة لم يعد لدي صديقات مع رحيل مريم وخديجة . كانت هنالك مشكلة الحضور الدائم للمجموعة مثلما كان الحال في محطة الاذاعة . فقد بدأ أن أي واحدة لاتفعل شيئا بمفردها ولكن كيف يمكن لأحد ان يتعلم الكلام في ميدان كهذا سوى طفل صغير ؟ لقد ترسخت لدي قناعة بأنني محتاجة لأن اجد شخصا واحدا كمدرس ، لأجلس معه كل يوم وادرس معه الكلمات والقواعد الكردية على نحو ابدل فيه كل جهدي .

كان علي أن ادرك الدور الذي لعبته ثقافتي الخاصة في هذا القرار . فقد كنت محتاجة الى بنية معينة . احتجت لأن اعرف وفق أي نظام كان يعمل الآخرون ، ببساطة لم اقدر أن افهم ماذا كانت تفعل النساء الكرديات في حياتهن ، ومتى كانت ساعات الفراغ وساعات العمل لديهن ، متى كن مستعدات لاستقبال الضيفات باهتمام ومتى كن يرغبن في المكوث لوحدهن ، ولشعوري بالتطفل عليهن بطريقة ما ، وبوقف سير حياتهن الطبيعية فقد كانت تنتابني نوبات اشراج لدى وجودي معهن . اتمنى لو أن لي عرابة كردية . جنية لتأتي وتخبرني ان معظم العالم لايعيش وفق برنامج ثابت . ولكن حتى في القصة الكردية المتكاثفة مع " سندرلا " ليس هناك عرابة جنية بل مجرد بقرة حمراء . ولم تكن لدي بقرة حمراء بل فقط مفاهيمي الخاصة المسبقة ، لذلك واكبت بحشي " وفي النهاية نجحت في ايجاد كردي يعمل وفق برنامج محدد ، وقد شغل مكانا مناسباً في جنب من جنبات هذا العالم ، مثلما كان الامر معي تماما .

الفصل الثامن

كنت قد اندفعت عبر بوابة الساحة الواقعة امام الكلية ،
وكانت هذه هي المرة الثانية التي أصل فيها متأخرة ، فقد كان مدرسي
المتوقع دارا احمدي قد حضر ليبري العميد هذه المرة شخصيا ولكنه
كان قد ابعد .

علق الحارس وهو ينظر الي غير مصدق :

— قال ذلك الصبي انه قد جاء ليعلمك الكردية .

ظهر دارا ثانية بعد برهة قصيرة عند البوابة وقد ادخله
الحارس على مضى الى حرم الكلية ، "فقط هذه المرة " . كان العميد قد
اوضح تماما انه لا يريد ان يرى دارا هنا ، ولم يكن يُسمح لأحد
مهما كان مهما ان يتجاوز البوليس عند البوابة بالدخول دون اذن
العميد .

هل كان لزاما على دارا ان يخبر الحارس انه قد اتى
ليعلمني الكردية ؟ ماكنت سأفكر مرتين بتصريح كهذا في امريكا ،
ولكن في امريكا لم يكن لديهم بوليس مسلح لصد الجواسيس والمشكوك
في كونهم ثوارا عند بوابة كل كلية وجامعة .

لم يظهر معلمي اي انطباعات سيئة عن زيارته القصيرة
للعديد . لقد مشى بمرح يدل على التصميم وقد بدا أكثر حزما ببساطته
ذي النقوش المربعة والمكوي بشكل جيد ، وسترته اللطيفة الزرقاء الاليفة
وقد ارتداها فوق كنزة جيرسيه صفراء ذات ياقة ضيقة . لم أكن
اتوقع ان تكون له مثل هذه الخدود القرمزية او مثل هاتين العينين

البنيتين الهادشتين . لم يكن يشبه ابن اخته على الاطلاق ، السيد حق زاده الجدير بالاعتماد عليه بابتسامته العريضة بافراط والتسي تكشف عن اسنان بارزة وعينين ضيقتين متحركتين باستمرار في جميع الاتجاهات . اما عينا دارا فقد كانتا واسعتين ، وكانت تعابير وجهه يقظة وهادئة . وطبعاً فكرت في نفسي انه لا يمكن لنظراته ان تكون مخادعة مثل نظرات ابن اخته . فالسيد حـق زاده ، لم يكن مخادعاً البتة . كان ابن اخت دارا اكبر من خالسمه بخمس سنوات وكان واحداً من تلاميذنا القلائل المهتمين فعلياً بتعلم الانكليزية . كان السيد حق زاده قد ألزم نفسه طوعياً بالبحث لي عن متحدث باللهجة الكردية الشمالية . فمن بين جميع الناس الذين سألتهم كان هو وحده قد اثبت نجاحه في ايجاد شخص . وقد اشار ذلك دهشتي لانه كان تركيا وليس كرديا . فـفي عزلة في مكتبي عرفت نفسي بكتابة اسمي فوق اللوح الاسود . وقدم دارا نفسه بدوره على انه السيد احمدي بأن كتب اسمه الاخير فقط على اللوح بجانب اسمي الكامل . لا يقدم الناس في ابـرران انفسهم باللقاب ، فاضافة اللقب الى الاسم الاخير يقع على عاتق الشخص الآخر . كنت مسبقاً قد ناديت معلمي بدارا واشرت الى نفسي بمارغريت ولأنني قد اعتزمت الا بوجه الي اتهام بأنني اتصرف بلطف ولكن بطريقة اظهر فيها شعوري بالتفوق تجاه الشباب الاكبراء بعدد حُدود طابع واتجاه دروسنا - لقد كان ذلك السيد احمدي . وعندما اثرت مسألة النقود ، فقط لاحظت مسحة ضئيلة من الارتباك على وجه دارا ولاشيء من ذلك المشهد الذي كابدناه لدى تسوية مسألة راتب طبأخنا عزيز ، فقد تبادلنا آنذاك الآراء وناقشناها - وعزيز يصير خجلاً انه لا يستطيع مناقشة المسألة معنا . فاعطاه جبرد النقود ، لكن عزيز حاول ان يرجعها لنا بالحاح شديد . وكان ذلك يشير فقط الى العادات الشكلية السائدة على نحو حاسم . أما مع دارا فقد سويت مسألة النقود ببساطة اكثر ، فهو لم يناقش السعر الذي حددته وهو دولار ونصف الدولار عن كل ساعة ، ويقدر ذلك

بحوالي نصف ما يتقاضاه عامل بناء في ريزاي لمدة عشر ساعات من العمل في اليوم . اوماً برأسه موافقا ببساطة وابتسم ابتسامة خفيفة وبعد ذلك بوقت طويل ابلغني عن مدى اهمية تلك النقود له ولألمه الارملة ، التي تقيم في قرية يتعذر بلوغها ، بعيدة عن أي فرصة لكسب ايراد نقدي .

قضيت ساعتني الاولى مع السيد احمدي في مكتبتي ونحن نسجل حكاية خرافية ذات مغزى من شيخ كان يعد صيغانه قبل ان تفقس او على نحو ادق كان يحسب مقدار سمته قبل أن تمضى . وفي كل يوم ولاسباع متتالية كان على دارا ان يحكي لي قصة جديدة لأعمل فيها او اترجمها . وعندما شعر بخطر نفاذ القصص عاد الى قريته وحصل على المزيد منها من والدته . وقد ادركت مباشرة كم كانت القيمة التي ادفعها رخيصة - ليس فقط لمعلم دقيق ومنتظم يجلس بأناة ويجيب على كل اسفليتي عن طريقة استعمال الالفاظ الكردية ولكن ايضا للحكايات الشعبية الكردية وحكايات الجان جميعها التي لا تقدر بثمن .

انتهيت مع دارا في ذلك اليوم ، وانا اشعر بابتهاج غامر ولكن ساورني شعور بالخشية من تلاشي هذا بطريقة ما . حددنا موعدا للقاء المقبل . ومشى دارا بخطى واسعة نحو البوابة ومر بالحارس الذي كان يحدد فينا بينما كنت واقفة خارج مبنى حجرة الدراسة والآن حان الوقت لمواجهة العميد بسلوكه المستبد . وبعد المكوث لفترة كافية لاشارة الاعصاب . في حجرة الانتظار ، ادخلت الى مكتبه . نظر الي العميد من خلف واجهة مقعد ذي جلد اسود اصطناعي مزفب وقد التوت ملامحه المنغولية البارزة باتجاه الاعلى بقدر ماتستطيع لتبدو ودبة . من الواضح أنه لم تكن لديه فكرة عن سبب مجيئي ، وعندما اخبرته ، عقد حاجبيه وقال بحذر وحرص :

- لانستطيع السماح للمدرسين في هذه الكلية ان يستغلوا

اوقاتهم بتعلم لغات مثل " التركية " .

فصححت له :

- الكردية .

بدا العميد وكان صبره قد نفذ . لقد جاء من الجزء الشمالي الشرقي من ايران قرب مشهد . البعيدة عن ريـــــــــــــــــزاي واختلافاتها العرقية الخاصة . ولكونه منحدا بارعا بالفارسية ومتوسط الجودة بالانكليزية فلم يكن بسنح له وقته لادراك الفرق بين لغة غير مميزة وواضحة واخرى . وكما هو واضح تماما لبس لديه الوقت لبيالي باهتمام بها . مفيضا في الحديث ومقلا احيانا ، واخبرته بأنني لغوية ولذلك فان اللغات الاجنبية بالنسبة لي هي كالمواد الكيميائية والمخبر بالنسبة للكيميائي ، ولكنه لم يقتنع بشيء من هذا كله . فالدور الذي يتعلق به هو ان اقتصر على تدريس الانكليزية فقط . على الرغم من اني ادركت اني قد غلبت ، فقد اجبرته على اعادة تأدية رقصة الشكليات العشوائية المتسمة بالاعادة من جديد وذلك بأن يعطي الاسبقية لشيء ثانوي بينما يبقى العنان بيد المرء دائما .

واخيرا وبعد أن تعب من تأكيداتني وحججي الدفاعية المصرة قال على نحو خال من المنطق وبشكل مدهش :

- اذا سمحنا لك بتعلم الكردية وقت الدوام في الكلية ، اذا فعلينا ان نسمح للجميع بتعلم هذه اللغة ، وبذلك ستخلق لنا مشكلة .

فتحت فمي مندهشة واغلقته محاولة ان اتخيل كسل الفرس والأتراك يركضون الى مكتب العميد ، وهم يطالبون بصفوف وحلقات دراسية كردية . واضاف العميد موضحا :

- أنا لأسالك عما تفعلينه بعيدا عن الكلية .

عرفت انه كان يشير بحذق الى العبارة الواردة في عقدي،
والتي تقول محددة انه يمكن أن افصل من الوطيمة فوراً في حال
تعاطي نشاطات مهنية تفتضي شفافة بالاضافة الى تعلبم الانكليزية
خلال فترة اقامتي في ايران .

نهضت ونهض العميد أيضا خلف مقدمة مقعده ذي الجلـسـد
المرغب بازرارهِ الدائنية الخشنة . انتهت المقابلة ولطف ملامحه
ذات المطهر الجنكيزخاني وحولها الى شيء كان من المعترض ان يكون
مسراً تماما . اهتمت انا ايضاً الى أن غادرت مكتبه ، واذ ذاك
توقفت عن الابتسام .

واخيراً عندما رأيت السيد حق زاده اعتذرت بسبب المشكلة
التي تجشم عساءها خاله ، لدى استدعائه الى مكتب العميد . أجاب
السيد حق زاده على اعتذارِي بعجلة وانصرف . كيف يمكن لوقت صبي
بعمر حق زاده ان يكون اكثر اهمية من وقتي ووقت العميد ؟

وددت لو اواظب على دروسي الكردية مع السيد احمدي في
الكلية لأنها المكان الانسب لكلينا ، لأنها موقع اكثر رسمية ، ومناسب
لدراسة جدية . ولكن الاهم من ذلك كله انها لاثقة و مناسبة
اجتماعيا . عندما التفتيت به عند البوابة وقلت له اننا سندهب
الى منزلي من الآن فصاعداً ، تقبل السيد دي الاخبار بدون تعلبق،
لسوء الحظ ، لم يتقبل احد غيره الموقف ان يبدي تعليقا ما .

في كل يوم عدا يوم الجمعة يظهر السيد احمدي عند فناء
منزلنا . فيتوقف عمل البنائين العاملين في المسكن الجديد فـي
الجانب الآخر من الطريق فجأة ، فيلتفت كل واحد منهم ليحـدق
في المرأة الاجنبية وهي ترافق شاباً الى شقتها دون حضور زوجها .
وفي النهاية كنت اسوّغ كل الاشاعات التي كانت تحوم – وبدون شك –
منذ ان اكتشف الحي ان امرأة اجنبية تقيم في الزقاق . ان افكار

الرجال من المرأة في هذا القسم من العالم هي علي وجه الحصر جنسية بحتة ، لدرجة أن جيرد نفسه بدأ يقلق من وجود السيد احمدي في المنزل وحده معي . ولم اسمع ابدا رأي الجعفرين بزاكري الذي يزورني على نحو منتظم ولكنني متأكدة انهم قد انتبهوا الى ذلك.

بدأ جيرد بالمجيء الى المنزل خلال فترة الدروس ، كان يندفع بالدخول عبر بوابة غرفة الجلوس فيجدنا جالسين بلباقسة واحتشام حول طاولة حجرة الطعام عند الابواب الفرنسية تماما باتجاه الشرفة المكشوفة كليا امام الحي بأجمعه . بعدد ينظر حوله كما لو انه غير قادر على تصديق اننا كنا جالسين بكامل لباسنا وندرس الكردية .

وعندما اعترف لي جيرد اخيرا بأنه كانت تتشكل لديه ضروب من التصورات حول ما كنا انا والسيد احمدي منهيكين فيه لوحدها في المنزل ، شعرت لذلك بالاشمئزاز ، فوجودك لوحده مع رجل في ايران لهو دليل على نحو تقليدي على انكما قد مارستما الجنس و احتمالية التحفظ او اللامبالاة او الطروف المخففة لذلك بعيدة تماما . ودون أن اشعر بأي تعاطف مع جيرد فقد تركتاه يخلق مخاومة على هواه بينما مضيت انا لروية السيد احمدي في المنزل . وبفضل جهود العميد لم يكن لدينا مكان آخر لنذهب اليه . بدأت اتساءل كثيرا من أين جاء السيد احمدي ، وفي كل مرة يظهر فيها كانت تبدو على سروالذي النقوش المربعة جعدة حديثة كما لو أنه كان قد خرج لتوه من محل لتنظيف الملابس . وعندما كان الجو يتغير ويصبح باردا وماطرا كان مع ذلك يخضر دوما في موعده وبنفس البذلة ، بينما بدأت انا بارتداء معطف من جلد الخروف لأحتفظ بالدفء ، ففي السيد احمدي ملازما لسترتة القطنية الفضفاضة . وقد فوجئت به عدة مرات بتمشى في الزقاق عندما كنت اندفع مسرعة للعودة من الكلية في سبارة اجرة لكي ادرك الموعد

المحدد لدروسنا . سألتته فيما اذا كان يمشي دائما ام انه كان يأخذ سيارة اجرة احيانا فأجاب انه قد يأتي مشيا اذا كان لديه الوقت . قدرت ان المسافة لابد انها تقارب ميلين من قرب البازار حيث يقيم . ولكن الخمسين سنتا وهي اجرة السيارة كانت تعني له الشيء الكثير اكثر مما تعنيه لي .

لقد كانت ريزاي هي مدينة السيد احمدي على الرغم من انه قد ولد في القرية . كان يعرف اين والى أي مدى يتمشى . كان يتحدث اللغة المشتركة والتركية بطلاقة . كان من المفروض أن تكون ريزاي مدينة شهرزاد ولكني اشك فيما اذا كانت تسلم بها وتعتبرها حتمية كما كانت بالنسبة للسيد احمدي ، فهو كرجل لم يكن يحتاج الى فطاء او الى ملابس اخرى للنستر . وبسبب لعنه التركية الممبزة لم يكن يميز على انه كردي ان لم يكن يرغب في أن يكون كذلك . كان السيد احمدي في طريقه للارتقاء في هذا العالم .

من المحتمل انه الشاب الوحيد في قريته ، الذي يتابع دراسته الثانوية في الوقت الحاضر ، ومع ذلك فانكار السيد احمدي للمبادئ السلوكية الصارمة التي نشأ عليها او التخلي عنها ، احتمال بعيد جدا . لقد كان مساعدا في القواعد التركية ولكني حاولت أن اتحدث معه عن اشياء اخرى اذ كنت احيانا اجد نفسي في محادثات خفيفة لاتفيد في شيء سوى انها تشعرني بالغباء . فقد ابدت شكواي في احدى المرات للمعلمي من احدى النساء المغطيات في البنك ، حيث كانت قد اقتربت مني وحدقت في على بعد ستة انشات من انفي ، وقلت :

- لابد ان النساء المحجبات يظنن انفسهن غير مرثيات .
- لا أعرف .

اجاب السيد احمدي على نحو ملتبس بحيث لم يدل جوابه على موقفه وشعوره . فسألتته :

- هل تظن أن فكرة الحجاب جيدة ؟

فقال :

- لا أعرف . ربما لا .

فقلت ملحة :

- هل تظن أنك عندما تتزوج ستفزع زوجتك الغطاء ؟

- محتمل .

شدت على اسناني حتى صرّت وعدت الى القواعد . كانت مثل هذه الاوضاع تجعلني مدركة اكثر من أي وقت مضى مافعله امير في تلك الايام التي لم نكن نعرف مايفكر فيها ، فقد كــــان قد تركنا انفسنا من مشاعرنا ، ننتقد ، نشكو ، نصاب بالخيبة والاحباط والاهم من ذلك كله ان نعيد النظر في امور كثيرة .

بدأت انتزع بصعوبة من السيد احمدي ، بعض التفاصيل عن حياته الشخصية ، والشئ المهم الذي عرفته عنه في مطلع عملنا معا هو أنه كان لديه اخت تبلغ من العمر خمسين سنة . اشار ذلك اهتمامي ، على الرغم من اني واصلت التفكبر في انني بطريفة ما قد اسأت الفهم . وكان السيد حق زاده اصلا قد فكر أني سأرحب بالعمل مع هذه الاخت المتزوجة من جد حق زاده . كنت قد دهشت كثيرا لدى ذكر ذلك - ان هذا الجد قد تزوج من كردية - لأن حق زاده لم يكن كردياً بل تركيا . فهو لم يحضر مع طلابي الآخرين في مهباد والنهاية الجنوبية من البحيرة ، ليخبرني انه بتكلم الكردية . ومع ذلك فقد ابدى اهتماما منذ المرة الاولى التي سمع فيها انني ادرس الكردية . لقد بدت رغبته في المساعــــده غريبة بالنسبة لتركي . ماالقاسم المشترك بين حق زاده والاكــــراد ؟ فجد حق زاده نفسه كان تركيا ، اذا لماذا اتخذ جده التركي امرأة كردية زوجة شالته له ؟

اكتشفت أن السيد حق زاده كان ينتمي الى مجموعة ممن
 السنيين الاتراك القاطنين في اذربيجان . بينما الغالبية العظمى
 من الاتراك الآزريين هم من المسلمين الشيعة مثل غالبية السكان
 في ايران ، بالإضافة الى مجموعة صغيرة من الاتراك السنيين . أن
 الاختلاف بين السنية والشيعة ليس دينيا بقدر ما هو عاطفي وتاريخي .
 ان جميع الحكومات في العالم الاسلامي عدا - ايران - في الوقت
 الراهن ، تنضوي تحت لواء السنية وتقبل نظام الخلافة الاسلامية ،
 وتتبع قوانين واركاز وسنن الاسلام بدون ان تشغل نفسها على نحو
 غير مناسب بتاريخه المبكر القاسي . ولكن في جميع هذه البلاد
 وطوال نمو وانتشار الاسلام وُجد خارجون على هذا الدين وانفصلت
 طوائف عن جسد معتنقيه الاساسي . وفي ايران فقط كان هؤلاء الخارجون
 كثيرين ومنظمين الى حد مكنهم من تأسيس سلالة حاكمة وبالنتيجة
 اصبح التيار الاساسي في ايران شيعيا بينما بقي الاكراد المعزولون
 والمحميون بجبالهم سنيون مثلما بقي العرب . وعلى نحو مشوش
 تماما ، ومغاير لاتراك ايران بقي غالبية الاتراك في تركيا
 سنيين . وقد قدر للاكراد أن يبقوا منفصلين عن جميع الشعوب
 المحيطة بهم . منفصلين من ناحية اللغة والثقافة عن الاتراك
 والعرب ومن ناحية الدين مغايرين لليرانيين . والاكرا د دائما
 تقريبا يدعون الاتراك بـ " العجم " كنعت مهين وهي كلمة
 مقتبسة من العربية ، حيث تعني " بربري " أو غير عربي " . أما
 الاتراك السنيون فهم ليسوا بعجم بالنسبة للاكراد . لم استطع
 ان احول دون التساؤل عما اذا كان هؤلاء الاتراك السنيون اكرادا
 من قبل وانهم اتخذوا اللغة التركية يوما لغة لهم ولكنهم احتفظوا
 بعقيدتهم السنية .

كان شارع السيد احمدي يدعو، بشارع السنيين على نحو
 متوافق مع الموجودين فيه تماما، والبيت الذي يسكن فيه يخص زوج
 اخته ، جد السيد حق زاده المقيم مع زوجته وبناتها . كانت لغتهم
 اليومية التركية وليس الكردية . وفي الحقيقة فان الفتيات لم يكن

يستطعن التحدث بلغتھن الام مطلقا . كانت والدۃ السيد احمدی تعيش مع بناتها الصغيرات في قرية تقع الى الشمال من ريزاي حيث لا أحد فيها يتحدث بأي لغة اخرى سوى الكردية . عندما كان السيد أحمدی في السن السابعة تقرر أن یجیء الى المدينة ویقیم فیها بمعزل عن بقية مائلته لكي يحضر المدرسة . لم تكن توجد مدرسة فسی قریته في ذلك الوقت ، حتى ولا واحدة من تلك التي يديرها سلك تعليم القراءة والكتابة وبسبب حياته المنزلية كان السيد احمدی قد اصبح طليفا تماما بالتركية وبسبب حياته المدرسية كان قد اصبح جيدا جدا بالفارسية أيضا . لايسعی الا أن اقدر غالبا انجاز السيد أحمدی ، بعد بحثي عن متحدثين بالكردية في الكلية ، كانت لهجته الاصلية هي الكرمانجية " الكردية الشمالية " وهو منحدر من عايلة ريفية فقيرة . ومع ذلك وبمساعدة منحة تعليمية من مدرسة ثانوية محلية وبعلامات جيدة كان في طريقه الى الكلية ، ربما كلية ريزاي . فاذا ذهب فانه سيكون واحدا من الطلاب الاكراد الاوائل في كلية ريزاي في منطقة ريزاي . لقد نجح في التغلب على الحواجز التي قد ابقت الالف من الاكراد الشماليين الآخرين بعيدين عن المدارس الثانوية والكلية التابعة لمنطقتهم . فقط بقوة ارادته وبذل جهده وطبعا برجولته . ففي كلية ريزاي حيث أتى جميع الطلاب الاكراد القلائل نسبيا من مدن واقعة الى الجنوب من ريزاي كان غياب الاكراد الشماليين المحليين بشكل خاص ملحوظا . أن الاكراد ، ان لم يكونوا غير عاديين الى حد بعيد مثل السيد احمدی او اغنياء جدا مثل طه فانهم لا يملكون حرية الوصول الى المدارس الثانوية .

كان تحفظ السيد احمدی ورباطة حاشه واساليبه المنتظمة . تشير فضولي . فقد اردت ان اراه وهو ضمن البيئة التي انحدر منها . واصلت اسفليتي عن قريته . ولكن القرية قد انقطعت عن ريزاي بسبب الشلوج التي راح انخفاضها يزداد بشكل يومي في المنحدرات الجبلية

حوالي المدينة . وبما أنني لم اجد الوسائل لأصل الى هناك ، ففكرت
بدأت أسأله عن اخته وعن شارع السنيين كان يجيب على كل أسئلتي
ولكنه يتطوع بالقليل من عنده . واخيرا الحث عليه ليقدمني الى
اخته ، فقد قلت له اني احتاج الى تسجيلات لأحاديث نساء كردينيات
فأخذ طلبني هذا على محمل الجد مثل كل طلباتي للمعلومات وأخبرني
حالا انه يمكنني المجيء الى المنزل في الخميس التالي .

اتى السيد احمدي الى منزلنا اولا وسرنا بسيارة اجرة
الى السوق . كان علينا أن نتغلب على الوحل الذي يمتد على طول
الطريق من الشارع الرئيسي حتى البوابة الخشبية غير المتقنة قبل
ان نتمكن من الوصول الى الفناء . واخيرا وصلت الى منطقة ريزاي
التي تشبه الجزء القديم من مهاباد شبكة ازقتها الموحلة والمعقدة
وجدرانها المبينة يدويا . كان الجو باردا وماطرا لذلك لم نلفت
أنا والسيد احمدي الانتباه كما كان جازا ان يحدث في يوم صحو.
اسرعت في المشي الى جانب السيد احمدي ممسكة المظلة في يدي
وألة التسجيل في اليد الاخرى محاولة ان اجاري خطي السيد احمدي
بدا الناس الذين مررنا بهم فقرا ، رجال بثبالات عتيقة ونساء
باغطينتهن ، وكان لدى القليل منهم مظلات او ملابس دافئة الى حد
يتناسب مع قساوة الجو .

كان علي ان اخفض رأسي لأدخل من خلال المدخل المنحصر
يدويا لمنزل السيد حق زاده - بدا كل شيء غريبا في الحجرة ، عدا
خزانة التلغزيون ، حيث قابل فيها السيد احمدي اخته الكسرى
وابنتيهما ، واحدى كنائهم . جلسنا وقدم لنا الشاي واحضر
طبق فيه برتقالات كبيرة الى جانب كعك حلو مشتري من محل حلويات
مملوءة بالكريما المخفوقة . كانت اخت السيد احمدي وبناتها وعروس
ابنها يبتسمن ويرحبن بي مرة تلو الاخرى وبدفنن بالطعام الى
طبقني بينما لم يأكلن شيئا . لقد كنت مدركة لحقيقة انهن لم
يدعوني ، بل انا التي دعت نفسها . لأظن انهن قد استوضحن

كان ملن المشي الاسبوع تلو الآخر بجانب ابن صديق هوشنخ الذي استمر في التسكع في الزقاق مع رفاقه . ولم تفشل البندقية أبدا في اشارة اعصابي .

بلغ حنيني مبلغا في الاسابيع التالية . وقد احتفلنا بعيد الشكر بصحبة الامريكيين الآخرين في مقر الجيش الامريكي وقد راودني احساس بأنني سجين في حلبة بلاستيكية ضخمة وسط عشاء تركي فخم وكان شعوري مفعما بالكآبة لدرجة اني بدوت غير قادره على سماع ماكان يقوله الامريكيون من حولي . هسل نسيت لغتي الام ؟ وعندما اقترب عبد الميلاد اكثر اشتد حنيني الى الوطن اكثر . وملتنا رسائل من العديد من افراد العائلة يسألون فيها عن عطلة الميلاد وكان اخو جيرد قد اقترح أن نقابله في مكان ما في اوروبا خلال العطلة . ألم بدرك احد منهم أننا لانقيم في بلد مسيحي وانه ليست هناك عطلة ميلاد ؟ أو لسم نوضح لهم ذلك في رسائلنا ؟ .

قمنا أنا وجيرد بجولات منفصلة للباراز في محاولة لايجاد هدايا الماچي " المجوس " . لقد كان من المفترض أن تكون ربهزاي هي نقطة البداية للملوك الذين تبعوا النجم الى بيت لحم . انشدنا ترنيمة " طحن الملوك الثلاثة " مرات كثيرة لنخلقق لأنفسنا خو عيد الميلاد الحبوي . ولكن كلما كنا نحاول اكشـر كنا ندرك كم كنا غير منسجمين مع المكان الذي نقيم فيه . كان جيرد قد اوصى خفية على صنع خاتم ذهبي لي في سوق الجواهر، وعندما مررت في نفس المحل اندفع الصاغ ممسكا بالخاتم وقد رفعه ليريني كم انفق زوجي علي من النقود، وقد تفحصته عن بعد .

كان من غير الممكن أن يكتشف جيرد ماسأقدمه له ولكن بالمعدل الذي كانت تسير عليه الخياطة الارمنية في عمل تطريـس

للقمصان التي أخذتها دون علم جبرد من محل كي للملابس ، شككت أنه سيرها في عيد الميلاد . فقد مضيت في الذهاب والاياب بين منزلي ومنزلها الذي يبعد ربع ميل في فناء كنيسة ارمنية مرسوم فسوق جدرانها الخارجية مخلوقات مجنحة رائعة . لقد سوسني أن ارى احدا ما يعرف من عيد الميلاد ، حتى ولو انها احتفلت به في كانبون الثاني بدلا من كانون الاول . ولانها أدركت كم كان يعني لي فقد تدبرت امرها لانها في اليوم السابق لعيد الميلاد .

في عصر ذلك اليوم البارد والمليء بالغيوم ، كنت أمشي عائدا بمحاذاة الجدران المصمتة للزقاق المودي الى منزلنا عندما اصابني في جبيني زجاج مصباح كهربائي وقد اخطأ عيني اليمينى بقليل تماما وقبل أن استشعر شظايا الزجاج في شعري حكمت عليها بتجربتي الخاصة انها مجرد انفجار ، طاعة ان الصبي صاحب البندقية ذات الرصاصات الصغيرة قد اطلق النار علي أخيرا . حدثت بهذا الصبي الواقف امامي وقد بدأت ملامحي بالتفغن . كان كما لو أن احدا ما قد استهدف ان يفعل ذلك في يوم عيد الميلاد نفسه واطلقها علي من السماء . اسقطت سلة التسوق البلاستيكية المملثة بالقمصان المطرزة حديثا والمغلقة بورق الجرائد ونظرت حولي.

كان الاولاد مراقبونني بحذر . لقد كان هنالك اثنان آخران بالاضافة الى صاحب البندقية ، ماذا كان ذلك ؟ سألت بصوت مرتعش . اشار احدهم الى الزجاج عند قدمي وبعدد الذي سوء الشارع فوق رأسي . فسألت :

— من أين انت ؟

نظرا الصبية حولهم واثاروا الى زقاق في الجهة اليسرى . لمست رأسي وهزته بهدوء . لقد كان اقرب منزل في ذلك الزقاق يبعد عدة ياردات عن المكان الذي اقف فيه . على كل حال كنت اعرف مسبقا انه من المفروض أن يكون الزجاج قد اتى من اليمين . لقد كان في هذا الجانب من الزقاق منزل واحد فقط ، وهو منزل اغنى رجل في الجوار ، ذلك الرجل الذي سميت بأسمه جميع هذه الازقة — السيد أمير فلاح .

عندما مشيت متجاوزة الاولاد بدأت الدموع تسيل فوق وجهي وبعدئذ بدأت بالركض وعندما رأيت جيرد بدأت بالنشيج . كنت اغص بالبكاء لألتقط انفاسي وانا اروي له ماحداث ، فكرنا مليا بالحادث لبطع دقائق ، لم أتأذى منه ولكن الزجاج كان قد اصاب مكانا قريبا جدا من عيني . وكان من الممكن ان اصاب بأذى بالغ . فقرر جيرد أخذ نصيحة هوشنغ والشيء الاول الذى فعله جارنا هو محاولــــة تهدئتنا فقال :

— هذه الاشياء تحدث ، فهذه ليست امريكا . احيانا عندما ينتهي الناس من الاستفادة من المصباح الكهربائي وبدلا من رميه في النفاية ، يرمونه من خلال النافذه . لا يدركون انه من الممكن أن يوءى احدا . فسألته :

— اذاً لماذا حدث واصاب رأسي بالذات لحظة مرورى . لماذا لم يصب الشارع .

أُقْنَعْنَا هوشنغ الراحب عن الخروج معنا لنذهب الى الشارع ونتلقى عن الحادث . رن هوشنغ جرس أمير فلاح وبعد مضي ما—دا وقت طويل اتى خادم شاب مرتد سروالا فضفاضا الى البوابة وهو يبتسم ابتسامة عريضة . فسأله هوشنغ فيما اذا كان سيده موجــــودا في البيت وعندما اجابه الخادم بالنفي ، اخبره هوشنغ عن ســــبب مجيئنا . وعند ذلك استطاع الخادم بمعبوبة ان يسيطر على نفسه، وعندما نظرت الى هذا الخادم وهو يكبت ضحكة تأكدت من أنه هو الذي كان قد القى بالزجاج . ولكنه طبعا انكر حتى معرفته ماكننا نتحدث عنه . وبعدئذ وقفنا مباشرة بواجهة بوابة مغلقة ثانية .

اقنعنا هوشنغ الذي تضايق اكثر بعد هذا التقصي ، أن يقرع جرس منزل صديقه ، والد شاهدنا الصغير على الحادث ، الذي نتمنى له أن لا يرى شرا . لم يجبنا أحد . وخلال فترة العشر دقائق الاخيرة كانت ساحة الارقة المحلية المتشابكة قد خلست من الناس ، وهو شيء غير مألوف في فترة العصر تماما .

عاد هوشنغ معنا الى منزلنا وقال لى :

- فقط انسى ذلك .

- لا استطيع . افترض أن هذا حدث ثانية .

- كانت شهرزاد تمشي مرة في الرقاق هنا مع ابننسا ،

لحقها الصبي وامسك بها من خصرها ، وكان ولدنا قد تضايق كثيرا ،
ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟

فقال جيرد مشيرا :

- ولكن ذلك لم يكن امساكنا بالحصر ، لقد كان ذلك

القاء زجاج مصباح على رأسك .

فهز هوشنغ كتفيه غير مبالي . وقلت :

- اريد أن استدعى البوليس .

التفت هوشنغ وقال ونبرة حادة في صوته :

- يجب الا تفعل ذلك ، فالسبد امير فلاح رجل جيد .

فتسائلت ، اذا كان رجلا جيدا كما يقول ، اذا ماذا لديه ليخاف
عليه من البوليس ؟ وقلت بصوت مرتفع :

- لا يمكن لخدنه ان يمضوا في القاء المصابيح على الناس .

فقال هوشنغ مجيبا بصراحة :

- البوليس لن يحل المشكلة .

وكنا قد وصلنا الباب الامامي لشقة هوشنغ ، فقال جيرد وهو يصافحه

- شكرا لمساعدتك .

بعد ذلك مشينا انا وجيرد عبر الزقاق الذي كان مابزال

خاليا واستوقعنا سيارة اجرة لنذهب الى مخفر الشرطة المدنية .

روينا قصتنا لرجل شرطة متحهم الوجه ، حيث لم يبد أي تعاطف

نحونا ابدا . ولكنه رجع معنا بسيارة اجرة الى مكان الحادثة .

ووقفنا نحن الثلاثة خارج بوابة امير فلاح ننظر الخادم أن يستجيب

لقرع الباب ، كان اكثر تحفظا في قهقهته هذه المرة ، ولكنه احتفظ

بنفس الانكار وبنفس النظرة الضاحكة .

وبعد ان وصل البوليس واصبح الموضوع رسميا اكثر . تجمهر الناس حولنا في الزقاق وكانوا يبتسمون ويتضحكون وهم يوضحون لبعضهم البعض ما حدث .

حضر فتى في طور المراهقة وتطوع للترجمة ، لم تكن لغته الانكليزية سيئة ، وعلى نحو مغاير عن الآخرين جميعا بدا مهتما اكثر من أن يتسلى . كان شيئا مثيرا للاعصاب ان يضحك جميعا هؤلاء الناس وهم بشيرون الينا . كان ذلك زقاق امير فلاح وهو من المناطق المأهولة بالطبقات الوسطى والعلبا الاكثر تأصلا في المدينة . لم يكن الاختلاف الطبقي هنا هو الذي يضيف علينا هذه العزلة ، فالناس المجتمعون حولنا كانوا يضحكون كما لو اننا لسنا بشرا .

— اخبروني ماذا حدث ؟

طلب منا الشرطي ذلك للمرة الثانية او الثالثة . وظهر في تلك اللحظة صديق هوشنغ الذي يقتني ابنه البندقية عند طرف الجمهور مذهبته اليه وقلت :

— كان ابنك متواجدا عندما اصابني المصباح ، ربما يستطيع رواية ما حدث . ؟
فقال الرجل بهدوء :

— ولدي لا يعرف شيئا .

وسألنا الشرطي انا وجيرد :

— ما اسمكما ؟

فاخبرناه .

— ماذا تفعلان في ايران ؟

واجبنا ثانية .

— نعم ولكن لماذا جئتما الى هنا ؟

فانفجرت في وجه جيرد قائله :

— انه يوجه الينا اسئلة بدلا من توجيهها الى أي شخص

آخر من هؤلاء الناس . والشيء الثاني الذي سيرغب في معرفته هو

كم نكسب من المال ولماذا ليس لدينا اطفال ؟ وعندما هممنا

انا وجيرد بمغادرة هذا الميدان ، سارت سيارة جيب الى الزقاق
وخرج منها السيد امير فلاح ، المهيب ذو الشعر الابيض ، صاحب المنزل
الذي من المفترض ان المصباح قد القى منه .

اخبر الخادم السيد امير فلاح ما حدث بسرعة . فتقدم
نحونا قائلا انه متأسف لعلمه بوقوعنا في هذه المشكلة ، ولكنه
ابدى ارتياحه كثيرا حول ان هذه المشكلة يمكن ان يكون من
منشأها وقرر الشرطي لدى حضور هذه . مهمة انه الوقت
المناسب لانهاء المشكلة برمتها .

اقترح ان يتصافح جيرد وامير فلاح ، رفض جيرد ذلك ، ثم
ابتعدنا عن الحشد وجيرد يهتاج غضبا . لم يناسب ذلك امير فلاح
أو الشرطي الذي طلب منا بعد ذلك أن نرافقه هو والسيد امير فلاح
في سيارة الجيب في جولة اخرى الى مخفر الشرطة وقد حضر مسرعا
معنا مترجمنا ايضا .

قابلنا هذه المرة في المخفر ملازما ، وقد اصغى البننا
بتركيز عندما شرحنا له مرة اخرى مجمل ما حدث . التفت الملازم
الى امير فلاح وسأله فيما اذا كان عازما على التأكد من أن خدمه
لن يفعلوا شيئا من هذا القبيل ثانية وبدون أن يعترف امير فلاح
ان هذا التصرف قد ارتكبه خادم من خدمه وعدان بلوي اذن الصبي
الخادم المذنب . فهمست في اذن جيرد متذمرا :

— ولكن لا احد يعترف بالخطأ ، لا أحد يهتم باكتشاف
من قام بالحادثه حقا .

سجل محضر بالحادثه ، ولارضاء الايرانيين الحاضرين تصافح
جيرد وامير فلاح . ولكوني مجرد امرأة تخص جيرد ، فقد فعت مسي
هذا الخلط . بعد ذلك عدنا جميعا لزيارتنا ، حيث تصافح جيرد وامير
فلاح ثانية .

بعد يوم من ذلك ، وفي ليلة عيد الميلاد وبينما كنا

جالسين في حجرة الجلوس ، رن جرس الباب ، هناك في الاسفل ، في الزقاق كان يقف ستة من الصبيان والصبايا ، وكانت احدى الصبايا تحمل علبة من السلومان ممتلئة بالورد والقرنفل ودفعتها الى يديهم دعوتهم ليصعدوا الى الاعلى لاحتماء الشاي واكتشفت انهم كانوا اخوات واحوة مترجمنا في ذلك اليوم . وكانت ابنة امير فلاح أيضا قد حضرت معهم لتقدم لنا امنباتها بقضاء عطلة سعيدة . كانوا يعرفون انه يوم عيدالميلاد فقط لأنني ذكرته هدية مرات خـلال المباحثات في اليوم الفائت . وتحدث الصبي ذو الشعر الاجعد الذي كان قد ترجم لنا قائلا :

– والدتي تريد ان تعرف متى ستحضران لتناول العشاء

عندنا .

شكرناهم على الورد وعلى الدموة وقال جبرد :

– ولكن لاداعي لدعوتنا لتناول الغذاء .

فقال مترجمنا :

والدتي نرغب في أن تأتيا الينا لتناول الغذاء .

– هل أنت متأكد ؟

قلت ذلك كارهة سرّة الشك القاسية في صوفي فقد كنت اشعر كأنني متأكدة تقريبا من أن الدعوة ليس حقيقية . من كانت امهم ؟ ولماذا لم توجه الدعوة الي هي بنفسها ؟ من عيـر رب ان هؤلاء الاطفال كانوا غومون بالالبماءات المهدبة النبي كانوا قد تلقنوها .

ولكن ولدهشتي ، اصروا على الدعوة ، لذلك فقد حددنا موعد للذهاب الى منزلهم على مضض . ولدى مغادرتهم التفت الى جبرد وسألته فيما اذا كان يعتقد ان الدعوة حقيقية . فأجاب :

– لا أعرف .

في تلك اللحظات لم تكن لدي رغبة في قبول أي دعوة .

حتى اني لم ارجب في مفادرة منزلي . لقد كان واضحا ان عائلتي مترجمنا لم تكن تنتظرنا فحسب ، بل كانت تتلهف لمقابلتنا . ولكن وعلى الرغم من كل ابتساماتهم وترحيباتهم الصادقة فقد شعرت بالقلق^{وتأ} محاطة بالورود البلاستيكية والحلي الرخيصة المذهبة اضافة الى صور عديدة للشاه كانت قد زخرفت حجرة جلوسهم . وتمنيت لو اني قابلت هو^{لا} الناس قبل ان يلقي علي المصباح او بالاحرى لو ان الضوء لم يلق ابدا . وتمنيت أيضا لو أن هو^{لا} الناس لم يزينوا منزلهم بهذا الاسلوب المويد للشاه .

بدانهم يحبوننا لكوننا امريكيين بفدر ما يبدو أن اناسا آخرين في ريزاي يكرهوننا لنفس السبب .

لم يبدو لنا بعيدا جدا مصير احد المدرسين الامريكيين في كلية ريزاي الذي كان قد لقي حتفه في عشية عيد الميلاد قبل ست سنوات . فحتى الشهر الثاني كلما كنت اخرج من المنزل كنت انظر خلفي . وقد قللت من عدد المرات التي اذهب فيها لوحدي الى مركز المدينة كثيرا جدا . على الرغم من انني كنت اتسوق لساعات لوحدي في عشيات قبل الميلاد . الا انه لم تعد لي رغبة في مواجهة لمسات وتحديق زمر الرجال والصبية الذين يملؤون ارفعة مركز مدينة ريزاي . كنت اتحس الآن أكثر من أي وقت آخر الحقد والاحتقار اللذين كانا يكمنان في ذلك اللمس والتحديق ومنذ اللحظة التي هبطت فيها مطار طهران ورأيت الحجاب للمرة الاولى أدركت أنني سأكون عرضة للهجوم في ايران كامرأة والآن فهمت أن كوني اجنبية قد وضعني أيضا في خطر مضاعف .

أما بالنسبة للاكراد فقد تراجع فكري عنهم وقد استغربت عدم ظهور أحد اللاجئين بين الحشد في الزقاق . واصلت تأجيل زيارة منزل مريم وكان من النادر أن أرى السيد خليلي في أيام الشتاء الطويلة المظلمة هذه . لم يبد الايرانيون الذين أخبرتهم عن هذه الحادثة تعاطفهم معي . وقد أبدى هوشنغ وشهرزاد على نحو خصومي دهشتهم لاستدعائنا الشرطة للسيد أمير فلاح وقد كانوا يكررون "رجل طيب مثله" .

لم أذكر ما حدث للسيد أحمدى أبداً . فبطريقة ما اعتقدت أنه لا يومئداً على الإطلاق . وموئداً عندما حصلت حادثة كريمة في نفس زقاقهم عرفت أن ظني كان في محله . لقد كنت أعتبر بالنسبة للسيد أحمدى " الأخرى " حتى نهاية إقامتي في إيران تقريبا . حتى عندما فهمنا كبشر وكأصدقاء فقد كان يظن دائماً أننا أغنى بكثير مما نحن عليه ، أو على الأقل مما نشعر به . كان بروده هذا موئداً ومع ذلك فقد كان بإمكانه أن اعتبره دفاعاً . لقد كان أحمدى يتصرف مثل رجل راشد بينما كان لا يزال طفلاً .

واصلنا أنا والسيد أحمدى لقاءاً اتنا وكان قد تكون لىدى احساس بتعلم اللغة بطريقة آلية ، وفي آخر الأمر ، افترضت أنها ستساعدني على اتمام بحثي ، ولكن ما نفع ذلك ؟ فكلما كنت أتعلم الكردية والفارسية أكثر، كانتا تبدوان لي بغير فائدة أكثر . ربما ستجعلني قادرة على أن أكون مهذبة أكثر ، أو ربما مشوشة أكثر عندما يطرح الناس علي أسئلة ، ولكن هل سأقدر على معرفة أي امرئ على نحو أفضل ؟ وقطعا يوجد أناس آخرون يتواصلون مع بعضهم البعض بالفارسية والكردية ولكن اتضح لي أن فعالية هذه لن تؤثر علي بهذا القدر ولن تفيدني في حياتي اليومية إطلاقاً .

أقبلت عشية السنة الجديدة ومضت . لقد كانت كئيبة حتى أكثر من عيد الميلاد . وبما أن العطلات كانت بعيدة فقد بدأنا نفكر في الخروج من ريزاي لفترة . لقد كانت عطلة منتصف الشتاء التي تتقدم عطلة الشيعة الكبيرة - في محرم ، فترة الحداد على الامامين الشهيدين ، الحسن والحسين . قررنا الطيران الى طهران وان نأخذ القطار راجعين الى تبريز وبعدد نستقل الباص الى ريزاي .

ذهبت الى طهران وأنا أتفجر بالانطباعات والاسئلة حول الأربعة أشهر الأولى من إقامتي في إيران . ولكني كنت أهد من قبل الطلاب الأمريكيان الباحثين الذين يتابعون دراستهم بمنح تعليمية في

العاصمة . لم يبد أي منهم احساسهم الحقيقي ورأيهم في السياسة الإيرانية . لقد كان معظمهم يحتقرون ايران والاييرانيين ببساطة . وبعد التحدث مع هؤلاء الناس عرفت كم سيكون من السهل لسي أن أكتب بسرعة ويغير تردد من جميع الايرانيين ، على أنهم يعانون من رهبة الاجانب على نحو ميوءوس منه . لم تقدر تعليقات الأمريكيين أن تساعدني في معالجة احساسني الخاصة ، بل كانت تزيد في ألمها وتثيرها أكثر .

ولكوني عائدة الى شوارع طهران حديثا وخائفة من الضجة وحركة المرور فقد بدأت أكون روعية عن الأوضاع في ريزاي وفقا لعلاقاتها الصحيحة بأهميتها النسبية . بدا واضحا أن هناك أمكنة أسوأ على الأرض أكثر من العاصمة المغيرة النظيفة الهادئة بريفها ذي المشاهد الطبيعية الخلابة التي كنا ندعوها بالوطن . عدت بعد مدة أسبوع بروج جديدة واختفت تعابيري الساخرة . وعندما رأيت السيد أحمدى ثانية ، أكرهت على التحقق من أنني قد تعلمت الكثير من الكردية منه . لقد كنت مستعدة للخوف في مجازفات جديدة ، ولأفامر وأن أحاول التواصل مع الناس .

الفضل التاسع

كان يندر أن تجد كرديا في المرحلة الثانوية في ريزاي .
لذلك لم اكن متأكدة من ان ماسمعه صحيح لدى بدء السيد خليلي بالحديث عن دكتور كردي شهير ، قد حصل على الدكتوراه في الفلسفة وهو رجل لا يتحدث لهجة المدن الجنوبية مثل مهاباد او سننداج ، بل هو متحدث حقيقي بالكرمانجية مثل السيد خليلي . وانه لا يتحدث الكرمانجية فحسب ، بل العربية ، الفارسية ، التركية - كلا الاستانبوليه والآزرية - الروسية ، والانكليزية وربما شيئا من الالمانية . لقد بدا هذا شيئا لا يصدق ، ان يقيم رجل مثله في ريزاي ولا تكون له صلة بالكلية . المؤسسة الوحيدة في المدينة والتي من المفترض أن تكون لها علاقة مع الدراسات العليا .

لقد ذكره السيد خليلي عرضيا وبحذر شديد بنفس الاسلوب الذي كان يقول فيه معظم الاشياء لي :
- هناك دكتور كردي .

قال مقبدا ملاحظته على نحو متردد ، بالاستجابة الى تساؤلاتي الملحة عن ايحاء نساء كورديات . جرى ذلك قبل ان يودعني عند درج منزل مريم لفضة ابام وكان آنشد بزعم دائما انه بريء من معرفة أي نساء كورديات . على الرغم من أن الدكتور كان رجلا مهما جدا فانه ربما يوافق على أن يقدم لي المساعدة في الكوردية اذا كنت محظوظة جدا .

بساطة كان من المستحيل للسيد خليلي ان يصدق انني حقبا كنت ابحث عن نساء كورديات عاديات . فمن وجهة نظره كنت دخلة الى حد بالغ - امرأة احنبة عالية الثقافة تبحت في القواعد الكردية،

حتى شعر اني كغربية موءهله فقط لأن اكون مدرّسة . محبّة أن الدكتور يعرف الانكليزية ستكون ذات فائدة عظيمة في خليلي . لم يكن لدى السيد خليلي الصبر والوقت ليعلمني الكردييه . ولكنه يعتقد انني لا اتقدم كفاية بسبب العائق اللغوي الذي بيننا وليس لأي نقى في الممارسة والتعليمات . وحسب اعتقاد السيد خليلي فان الترجمة ستحل المسألة برمتها واني سأقدر على تعلم الكردية في فترة قصيرة .

لم يكن تفكيرى يمتدّ الى الشك في أن أي شخص حائز على دكتوراه في الفلسفة سيتكلم لغة الريف النموذجية التي أردت دراستها، ان شخصا كهذا من الموءكد انه سيكون متأثرا بمصادر غير كردية أكثر من السيد خليلي . ولكن حتى لو فكرت انني لا احتاج مدرسا يتحدث الانكليزية فقد اردت ان التقى بهذا الدكتور الغامض وكما الحث على السيد خليلي فقد اردت ان اقابل زوجته على وجه الخصوص . وقد قادتنى افتراضاتي غير المشكوك فيها الى تصور انها ستتكلّم الروسية والانكليزية .

عندما استيقظت آمالي لتجاري فضولي ، عند ذلك فقط أصبح السيد خليلي غامضا أكثر فأكثر حول فكرة ان يعلمني الدكتور، الى ان انقطع عن مناقشتها ثانية كليا . هل كان الدكتور مسغولا جدا من مقابليتي ؟ هل كان شكاكها جدا ؟ وهل ذكرني السيد خليلي له يوما ما ؟ ولكن بما انني قد اطلعت على وجود دكتور كردي، فلم استطع أن انسى امره ، وذكر السيد خليلي انه كان قد درس في جامعة روسية ، وقد تساءلت الى ما لا نهاية عن موضوع شهادته .

كنت قد مرتت برفقة السيد خليلي ودون علم منسبي ، بمنزل هذا الدكتور نفسه مرات عديدة . الفى اثنان من الرجال التحية على السيد خليلي وهما بينظلفان سيارة اللاندروفر فى الخارج

وقد حدثنا في بفضل ولكن ليس بطريقة غير ودية . كانا يعملان أمام المنزل السحري نفسه الذي كنت قد لاحظته خلال اسابيعي الاولى في المدينة - ذلك المنزل القابع خلف الابواب المعدنية الزرقاء . أمام هذه الابواب كانت تقف عادة سيارة اللاندروفر الطويلة والرجلان ببذلتيهما الخاكيتين وعمامتيهما وهما ينظران الي خلسة بعد مارآياني برققة السيد خليلي . وبعد ذلك باسبوع كنا نتجول معا ثانية قريبا منه عندما استأذنتني السيد خليلي ليذهب الى الدكتور ويقدم احتراماته له . كان قد اضطر اخيرا ان يفشي سر صاحب هذه الدار . ولكنه لم يدعني للدخول معه .

بعد عودتنا من طهران بعد ايام وبينما كنت اتفحص برتقالا في كشك فواكه في شارع بهلوي ظهرت امرأة ، وقد وضعت غطاء ، على مقربة مني . ولاعتقادي انها وقفت هناك لتحقق في فقط بدأت بالانصراف ولكنها امسكت بيدي والقت علي سلاسا حاررا قبل ان اتمكن من المغادرة . وعندما نظرت الى لباسها البراق بكامله تحت غطاءها الاسود المخرم ، ادركت انها كردية . بسدا وجهها الوردي مألوا جدا ، ولكنني لم استطع تذكر فيما اذا كنت قد التقيت بها أم لا .

وسألت :

- اين كنت ، خانم ؟ قلوبنا مشتاقة اليك .

بدأت اشعر بالارتباك لعدم قدرتي على تمييز هذه المرأة ، وبعد ذلك تذكرت انها كانت الخادمة التي رحبت بي عند الباب في المرة الاولى التي ذهبت فيها لمنزل مريم . ابتسمت لها معبرة عن شكري لودها .

- متى ستحضرين لروايتنا ثانية ؟

قالت ذلك وكانت لاتزال ممسكة بيدي بعدما انتهينا من المصافحة بوقت طويل .

راودني احساس بأن اكون غامضة . وكان ذلك فعلا

منعكسا كنت قد اكتسبته اخيرا بالاستجابة لأسئلة من هذا القبيل
كانت تطرح علي بالفارسية . ولكنني سيطرت على نفسي بعد ذلك . ألم
تكن هذه المرأة رفيقة وودودة معي على وجه الخصوص ؟ ألا تتكلم
الكردية وليس الفارسية ؟ وبالإضافة الى ذلك كنت قد وعدت نفسي
بأن اعود الى منزل مريم في نفس هذا الاسبوع . فأجبتها
بأندفاع :

— سأحضر عصر هذا اليوم . هل هذا حسن ؟—

فقلت :

— حسن جدا ، اذا سنراك .

بينما راقبتها تمشي مبتعدة عبر الشارع بالخطى غير
السريعة المتعثرة التي تميز مرتديات الحجاب تساءلت فيما اذا كنت
قد ارتكبت خطأ ما . افترض انها كانت تعني بهذه الدعوة الشكليات
فقط ؟ افترض ان لا احد في المنزل الواقع في شارع بهلوي يريد أن
يراني ؟ افترض انها لن تخبرهن بأنني ذاهبة اليهن ؟

هدأت مخاومي لتوها عندما قرعت جرس الباب ، بعد ذلك
بعده ساعات . وقفت خديجة بنفسها في المدخل تبسم ابتسامه
مريضه وهي تصافحني وتسألني عن سبب غيبيتي طوال هذا الوقت .
اوضحت لها اني كنت في طهران ، ولكنني شعرت بالذنب لأنني كنت
قد بقيت في طهران لمدة اسبوع فقط بينما غبت عن منزل مريم
لأكثر من شهر . وقد اخبرني خديجة بأنها قد بقيت في القرية
لمدة اسبوعين فقط وعندما عادت كانت تنتظرنني وترقب قدومي
كثيرا . وعندما قادتني الى الطابق الثاني الى حجرة النوم مارة
بالحمامات جعلت حقيبتي بيد وامسكت بيدي بالآخرى . وحالما
جلست ، جلست هي ايضا بجانبني على الارض وهتعت قائله :

— مارغريت ، ان لك اسما جميلا .

فابتسمت لها . وقالت لي :

- هل تعرفين مارغريت الثانية ؟

اعتقدت ان مارغريت اسم مسيحي في ايران ، مقصور فقط
على الاشوريين والارمن .

- هل هناك مارغريت كردية ؟

- سآريك .

ففسرت خديجة وذهبت الى الخزانه واخرجت من داخلها دفتر
ضخما ذا غطاء بلاستيكي .

- دفتر صور العائلة .

في البداية بدأنا بتقليب صفحات من الصور لأكبر
متجهمين ، كانوا جميعا افراد عائلة الحاج اسماعيل وعائلة
مريم ، وقد كانوا مصطفين بنفس الطريقة مثلما كانوا في الصور
التي اظهرتها شيرين وبروانه لي في مانوا . في حوالي منتصف
دفتر الصور وفي صفحة لوحدها وجدت صورة لفتاة متمرسه ، محترفة
للقتال، آشورية سمراء ، صغيرة ، تدعى مارغريت . كنت قد رأيت
هذه الصورة في كتاب عن الحرب الكردية في الستينات . كانت مارغريت
هذه قد قتلت مع الشوار الاكراد في العراق . ومع انها كانت
مسيحية فقد قتلت هي وآشوريون آخرون مع جييرانهم الاكراد ضد
سياسات الاضطهاد التي كانت تمارسها الحكومة العراقية . قالت
خديجة :

- اسمك مارغريت ، تماما مثل اسمها .

كنت ارجب في الاطلاع على المزيد وسماع الاكثر منها
ولكن بدأ أن خديجة كانت تعرف عنها فقط بقدر معرفتي وربما
أقل . بالنسبة لخديجة كانت كردية وليست آشورية . على الرغم
من انه لم تكن لدي نوايا في الوقت الراهن لحمل السلاح مع الاكراد
فقد كنت سعيدة لأن اعتبر من ضمن جماعة تحمله .

بعد تقليب صفحات من الالبوم وصلنا الى صورة عروس .
كانت تلك صورة عائشة نفسها التي قابلتها في اليوم الذي سافرت
فيه مريم الى قريبتها . فأخبرتني خديجة قائلة :
- لقد درس زوج عائشة في بلدك ، مارغريت . انه
دكتور .

تمثل في ذهني مباشرة ماكنت اعلمه عندما قابلت عائشة
ذات النظرات الملوكية لأول مرة وما اخبرتني اياه خديجة الآن مع
وصف السيد خليلي البعيد العهد . هل يمكن ان يكون هنالك دكتوران
كردبان في ريزاي - وأن يكون احدهما قد درس في امريكا والآخر
في روسيا ؟ فكرت في احتمال ان احساس خديجة الغامض بالجغرافية
قد دمج الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في مكان واحد بعيد
على نحو متساو ، فسألتها :

- هل انت متأكدة من انه لم يدرس في روسيا ؟
فبدت عليها الحيرة وقالت متفائقة :
- بلدك ، اظن انه كان بلدك ، مارغريت .

ان من أهم صفات خديجة واكثرها ابهاجا كانت اساليبها
الريفية ، وسلوكها الودي الصادر من القلب ، والطريقة التي تسرب
فيها على ركبتيك او تمسك فيها صدرك . وتردها على نافذة
منزل مريم وعندها احاديث طويلة مع الجيران عبر الزقاق . أن
هذا الضرب من السلوك من غير الممكن ان يليق بسيدات متمدنيات
ولكن خديجة كانت قادمة جديدة الى المدينة قليلة التجربة
عندما قابلتها في المرة الاولى . كانت قد تزوجت منذ عدة شهور
فقط وهذه هي المرة الاولى التي تزور فيها ريزاي في حياتها
لم تذهب الى المدرسة اطلاقا ولم تتعلم القراءة والكتابة أبدا
ومؤخرا لاحظت انزعاجها لجهلها القراءة والكتابة عندما لفتت
سلفتها النظر الى ذلك في حضوري .

ان عدم معرفة خديجة لمواقع البلدان لم تكن غلطة من

صنعها . كان اخوتها الاصغر منها ببضع سنوات قد ارسلوا الى المدرسة الثانوية في ريزاي . ولكن خديجة كانت خجلة لافتقارها للتعليم كما لو أنها الملوثة في ذلك . لم استمر في سوءها عن المكان الذي درس فيه زوج عائشة . فخديجة المتحمسة والغالية لم تكن واحدة اريد مضايقتها .

قبل ان اغادر سألتني فيما اذا كنت قد ذهبت لرومية
عائشة :

— انها تنتظرك يامارغريت .

عند ذلك شهرت بوخر من الندم والخجل . فطوال هذه المدة كنت افترض ان مسألة الذهاب الى منزل هؤلاء النسوة مهم بالنسبة لي فقط ولم يخطر ببالي قط انهن ايضا يمكن ان يكن قد جلسن يتسألن عن سبب عدم قدومي . وانه من الممكن انهن يتشوقن لوصولي . في طريق نزولي الى الطابق السفلي شهرت برغبة فسي تقبيل الخادمة ذات الوشاح البرتقالي والوجه الوردي وقد وقفت خديجة في ردهة الطابق الاول تحديق في عيني وقالت :

— انت مثل اختي يامارغريت ، تعالي الى منزلنا
شانية ودون تأخير .

لقد كنت مسحورة بزوجه لدرجة اني في البداية لسم اقدر كم كانت رائعة هي نفسها — ربما اكثر روعة ، لأنها لسم تتمتع بالمزايا التي يتمتع بها زوجها بصفته ذكرا . فهي لسم تكن قد تعلمت في كلية في بغداد ولم تسافر الى الاتحاد السوفياتي لدراسة التاريخ الكردي . ووالدها لم يسمح لأطفاله الاناث الذهاب الى المدرسة مقصرا تعليمهن على الدروس الخاطفة والسريعة التي يلقنها الملالي في المنزل .

عندما ذهبت الى منزل عائشة لأول مرة شهرت به مختلفا

تماما من منزل مريم . فقد بدا اوسع واكثر تهوية ، من جهة
لأن عدد الافراد فيه كان اقل - حيث لم يكن لدى عائشة اطفال -
ومن جهة اخرى انه كان ذا ارضية نظيفة وسقوف عالية . لقد كانت
حجرة الجلوس ، المكان الذي استقبلني فيه في الطابق الثاني ، مغطاة
بسجادتين كبيرتين عجميتين ، راضعتين برسوم الحيوانات والورود
المنسوجة داخل تصميمها الفني الاجمى . كانت اصص المزروعات بأحجامها
واشكالها المختلفة تكتظ على طول الرف الطويل في اسفل النوافذ
الممتدة من الارض حتى السقف في واجهة المنزل كلها . ففي إحدى
النهايات كانت توجد شجرة تحمل ثمر الليمون وفي النهاية الاخرى
كانت شجرة الفوشية السهلة الكسر ولوحات مطرزة وموطرة كانت
معلقة على الحائط . وفي الزاوية كانت تقف خزانة تلفزيون مع ابن
مرس محنط فوقها والشيء الاكثر غرابة في الغرفة كان خزانة الكتب
الخشبية الضخمة المصنوعة من الزجاج والخشب . فحتى الجعفريون
المتمدنون على طريقتهم لم تكن لديهم رفوف للكتب في منزلهم
ذي الاثاث الفخم .

لدى بقائي لوحدي وجها لوجه مع عائشة جالسة في كرسي
معدني موضوع على نحو غير مريح قربها في وسع حجرة الجلوس تلك ،
خامرني شعور بأن شخصا ما يلاحظني ويحكم على تصرفاتي بطريقة لم
احس فيها بهذا الشعور وأنا مع مريم وخديجة . فعائشة لم
تأخذ رفاي للكرسي على محمل الجد ، ولم تهمل امدادي بملعقة
عندما أمرت باحضار الشاي وبدلا منه شربت ماء دافئا قدمته
الي بلهافة عندما سألتها ماذا كان ذلك . جلسنا ببساطة نحقق
بعضنا وقد كانت كراسينا قريبة جدا من بعضنا لدرجة أن ركبتينا
كانتا تتلامسان تقريبا . بدا أن عائشة كانت تنتظرني لبس
حديث ما . كنت اظن دوما ان رغبتني الملحة هي ان امكث لوحدي
مع امرأة كردية دون جمهرة تصرف انتباهي عنها ولكني الآن
لست متأكدة جدا من ذلك . نظرت الى عائشة وابتهامة مسلية

تكاد تكون ساخرة تلوح على شفيتها .

- هل تريدان ان اعلمك الانكليزية .

سألتهما دون ان اعرف ماذا اقول غير ذلك . فأجابت بنعم
بجرس اقل حماسة بكثير مما كانت عليه من قبل عندما سألتها السوء ال
نفسه في منزل مريم . حاولت اعطاها كلمات وعبارات ولكنها
بدت فائرة الحماس ومرتبكة لدى تكرارها ايها ، لذلك توقفت
عن ذلك . فسألتهما وبدون مناسبة تتعلق بهذا السوء ال :

- الا تفتقدان اهلك يا مارغريت ؟

فأوضحت لها مفصلة :

- بلى افتقدهم ولكن ليس كثيرا فايران بلد ممتع

جدا وأنا سعيدة بوجودي هنا .

وفجأة انفجرت بضحكات مدوية . محدقت فيها متضايفة .

- ماذا قلت ؟

فأجابت معلقة وهي تلمح عينيها :

- ان لغتك الكردية مضحكة جدا .

بعد ذلك مضت محادثتنا على نحو اخرق ، وقد تكلمت
بهذوء وبغير تواصل لأنني خشيت ان تجد لغتي الكردية مثيرة للضحك
شانية . وقد واصلت تفحصها لي بقساوة . بعد ذلك لفترة قصيرة
دخلت امرأة ، ممتلئة الجسم ، تفاحية الخدين الى الحجرة وجلست على
الارض بينما مكثنا انا وعائشة على الكراسي ، تكلمت هي وعائشة
بسرعة وبلهجة مختلفة قليلا لم اقدر على فهمها . ولكن عائشة
لم تنس وجودي وكانت تقممني في الحديث قدر استطاعتها . لاحظت
أن عائشة وصديقتها تقفان فجأة على قدميهما حتى قبل أن ارى الرجل
الطويل عند مدخل الباب ، فوقفت انا أيضا . هل كان هذا الرجل
الضخم الواقف عند مدخل حجرة الجلوس هو الدكتور المشهور ؟

نقدم الى الامام وعيناه تلمعان وقال بانكليزية دقيقة :

— كيف حالك سيدة مارغريت ؟ اهلا بك في منزلنا .
أوماً ت برأسي واجبتة ببعض الكلمات لقد اوقع في نفسي رهبة ليس
لضخامته فحسب — فقد كان واسع الصدر طويل الفامه — بل ايضا
بانكليزيته وبالطريقة التي كانت تنقف فيها هاتان المرأتان وهما
صامتتان وتظهران فيها الاحترام البالغ في حضوره بما في ذلك
زوجته نفسها . بدا انه احس بعدم الراحة التي سببها ، لذلك
فقد انحنى احتراماً وخرج لتوه من الحجرة متمنيا لي اقامه سعيدة
في ايران . دار في خلدي تساؤل فيما اذا كنت سأراه ثانية
أم لا . لقد تصرف كما لو انه زائر في هذا المنزل ولكن من المؤكد
انه يقيم هنا .

اجلت بنظري في حجرة الجلوس على الابواب المغلقة المؤدية
للحجرات الاخرى وتمنيت لو اني استطعت روءيتها جميعا واعرف
ما يدور في هذا المنزل الغامض . وعندما اخفت عاشة لمدة عشر
دقائق دون ان تخبرني عن ذهابها تساءلت فيما اذا كانت تنوّه
بذلك انه علي المغادرة . لربما انها كانت مشغولة جدا ولم
ترغب في ان تخبرني بذلك . وعندما عادت اخيرا وقفت بسرعة
وقلت انه قد حان وقت الرحيل .

فلو كان ضحك عاشة من لغتي الكردية مقرونا بغيابها
الغريب غير المفهوم من الحجرة قد حدث قبل زيارتي لخديجة لشكل
ذلك دافعا لي لتجنب زيارتها في المستقبل وذلك اعتقادا مني
بأنها في الحقيقة لا تريد روءيتي ، ولكني والسبب ما اعتقدت انها
تريد ان تراني وانها قد وجدتني مسلية ومثيرة للاهتمام مثلما
وجدتها انا ايضا كذلك . دعيتني الى زيارتها ثانية متى شئت
والا أتاخر في ذلك . لقد جعلني منزلها اشعر براحة اكبر للقيام
بزيارته وذلك لأنه لم يكن لديها اطفال مثلي ولأن منزلها
كان خاليا نسبيا .

في المرة التالية التي قمت فيها بزيارة منزلها
اكتشفت ما كانت تفعله عائشة اثناء اختفائها المفاجيء خلال
زيارتي الاولى لها . فهذه المرة ادت صلاتها امامي ، حيث مضت
الى احدى زوايا حجرة الجلوس وخلعت سروالها الطويل تاركة اياه في
كومة صغيرة بجانبها لم ار من قبل ابدا أي من النساء في
الكرديات يخلعن سراويلهن قبل الصلاة ولكن بقية الطقوس من الترتيل
والركوع والسجود نحو الجنوب صوب مكة كان عملا مكررا ودقيقا
لسلوك يتكرر خمس مرات في اليوم في جميع انحاء الشرق الاوسط .
لقد قامت بأداء كل ذلك بحضوري وحضور المرأة القصيرة الممتلئة
ذات الخدين التفاحيين ، التي بدت على انها رفيقتها الدائمة .
جلسنا كلانا في صمت ، بينما تأملت أنا الصورة المزدانة المصنعة
آليا والمعلقة قرب خزانة الكتب وكان قد رسم في هذه الصورة
رجلان معتمران طاقيتين نسيجيتين وهما يقفان الى جانب بعض
النبايا والطيئات السوداء يمعنان النظر في شكل بيضوي اسود .
وقد علمت انها تمثل الكعبة ، البيت الحرام في مكة المكرمة . وقد
كانت فترات العصر في منزل عائشة تفعم بالنشاط جراء تحديفي
في هذه الصورة المثيرة للفضول . لقد استوقفتني امر هو : ان الاكراد
يميلون الى تعليق صور مصنعة مبهجة على الحائط ، بينما يتركون
السجاجيد المصنوعة يدويا التي لاتقدر بثمن على الارض ، بعد أن
وجدت هذه النماذج من الصور في اكثر من منزل كردي . أن الإيرانيين
المعتمدين الاثرياء الذين كانت لهم القدرة اللامحدودة للوصول الى
المحلات التي تفيض بالبشائع المصنعة كانوا قد بدأوا بثمنون الصناعات
اليهودية القديمة أكثر فأكثر ، بينما كان الاكراد المعزولون في
قراهم لا يزالون يعتبرون المنتجات الجديدة لايران (العصر
البلستيكي) على انها جميلة .

تطور ت العلاقة بيني وبين عائشة حالما بدأت بزيارتها
بانتهام وقد توسعت اكثر بكثير من علاقتي مع النساء في منزل

مريم . وقد سألتني عائشة لمرة واحدة فقط ، فيما اذا اجببت
ايران اكثر ام امريكا بدلا من كل مرة اقوم فيها بزيارتها . وبعد
ذلك سألتني بالتفصيل عن عائلتي ، عن حياتي ، عن ردود فعلي
اتجاه عملي في الكلية ، وعن السياسة الامريكية ، وقد ارادت أن
تعرف لماذا رضي والدي بابتين فقط ودون أولاد ، ارادت ان تعرف
ماذا تفعل امي الان حيث لم بعد اطفالها في البيت ، ارادت ان تعرف
لماذا استقال ريتشارد نيكسون عن منصبه (وكانت الصحف الايرانية
قد اوردت ان اليهود قد اضطروه الى تقديم استقالته) . اريدت أن
تعرف رأي الامريكان بالمخدرات . ماكنت سأصدق ابدا ان محادثتي
مع عائشة هي ممكنة . وذلك لسببين اولهما هو انني اعتقد
اني لا اعرف اللغة جيدا وبما فيه الكفاية . وثانيهما هو انني
ولبساطه مني شككت في امكانية درايتها واهتمامها بأشياء
خارج المجتمع الكردي . وعلاوة على ذلك كانت عائشة تطلق احكاما
اخلاقية ، فقد سمعت - وذلك بعد مضي ثلاث سنوات من بعض افراد
عائلتها - انها قد اوضحت رأيها فيّ وهو انني شخصية تتمتع
بصفات جيدة . ولكني لم استغرق ثلاث سنين لاكتشاف كم يقدر
بعض هؤلاء النسوة الاخريات آراء عائشة عاليا او ان اسمع
عائشة وهي تخبرني عن شؤون تخص عائلتها والتي لم يرد احد
غيرها الاشارة اليها .

ولكن من كانت عائلة عائشة ؟ لقد بدا أنها قريبة
مريم ولكني لم افهم لفترة صلة القرابة هذه على وجه التحديد .
وقد سألتني يوما فيما اذا كنت اربح في زيارة منزل والديها
في وقت قريب فأجبت مندهشة

- منزل والدك ؟ من هو والد عائشة .

فأضافت قائلة :

- المنزل في شارع بهلوي .

فصححت لها :

- منزل مريم .

فقالمت متسامحة :

— نعم منزل مريم .

لا بد أن عائشة قد بذلت جهدا في محاولتها لتقبل فهمي الخاطيء بأن المنزل كان يخص مريم . ولكن عائشة كانت تتفهم اكثر بكثير من اخواتها وزوجات اخوتها اني اجنبية لاتتعرف الكثير عن العادات والاعراف الكردية .

ولأن عائشة نفسها قد اقامت في بلدان لايعرف فيها سكانها شيئا عن الاكراد ، فقد ادركت امكانية عدم استيعابي لتربيتها ابدأ ، بأنها قد انشئت على كره مريم والشعور بالغيـره لما كان قد اعطي لها ولأطفالها . وادركت تدريجيا فقط ، أن والدة عائشة ومريم كانتا صرتين عند والد عائشة . لقد كانت عائشة الاخت الثانية ، الاكبر سنا من بين اطفال والدها الكثيرين جدا ، ولكنها في عمر اولاد مريم تقريبا . وبينما كان لـدى والدة عائشة بنات فقط ،ولدت مريم للحاج اربعة اولاد اقوياء . وهذا الشيء لم يجعل المنافسة المألوفة بين الزوجتين اسهل على ام عائشة لتتحملها ، ولكن وعلى الرغم من كون الاولاد ذوي فائدة عظيمة لمريم فانهم لم يوءلـوها لأن تكون مالكة المنزل في شارع بهلـوي اكثر مما كان لوالدة عائشة ، فالملكية كانت متبقية للحاج . لقد كان لعائشة مكانة خاصة عزيزة علي ، وذلك بسبب ذكائها وحساسيتها ولكنها كانت مريزة ايضا على اناس آخرين بسبب منزلتها الاجتماعية وليس بسبب شخصيتها . وقد كنت اتساءل قبل أن افهم هذا الوضع عن سبب ارتدائها البسة رائعة وفخمة وسبب تزيينها بالذهب اكثر من اية امرأة كردية عرفتها ،وسبب تحدثها بالفارسية افضل بكثير من غيرها ، وسبب سفرها لوحدها الى انكلترة واوروبا .

كانت عائشة في سن الثامنة عشر عندما زوجت من اخي مريم الابن الاكبر لعم والدها وبذلك فان مريم لم تعد زوجة ابيها فقط ،

بل ايضا .اخذت زوجها . ومنذ زواجها ، ذلك الزواج الذي اخبرتنني عايشة بأنها قد خشته واشتكت منه امّ الشكوى وانها لم تغفر لأمها أبدا لأنها قد سمحت به ، فان عايشة قد ارتفعت الى مكانة ما كان لها ان تحلم بها بغير ذلك . على الرغم من اهمية والدها ، ذلك الملاك الكبير والشيخ المشهور في كردستان ، فهو لم يبذل أي اهتمام ببناته اكثر من صيانة عفافهن . لقد كان قد ترك عايشة حبيسة القرية ، حيث لا يعرفها احد سوى افراد اسرتها من الاناث . والآن هي زوجة رجل اكبر سنا واكثر اهمية من والدها وهو وكما اتضح رجلا - وبلاساها - لم يمنحها أي طفل . ان مكانة عايشة كزوجة للشيخ عبد الله وبدون اطفال يحومون حولها ، ولاضرائه لتتنافس معهن ، وباقامتها في منزل جميل مع العديد من الخدم والجواهر قد جعلها اميرة حقيقية . ان لديها نفودا تحت تصرفها ، وايضا قدرا مذهلا من الحرية بالمقارنة مع والدتها ، وزوجة ابيها واخواتها لقد كان زوجها رجلا مثقفا ، وكان واضحا من الحديث مع عايشة انه قد امضى بعض الوقت في تعليم عروسه الشابة . وقد راودنني تساؤل فيما اذا كانت دائما معتزة وواثقة من نفسها كما بدت لي الان .

اتيحت لي الفرصة كي ارى عايشة وهي تقوم بدور المضيفة الكريمة للاجئين العراقيين الاكراد الذين كانوا يترددون على منزلها ، وقد اخرجت في احد الايام جدولا مدونا فيه شجرة عائلة الشيخ عبد الله . وذلك لكي تسلي اما وابنتها كانتا تقومان بزيارتها . وقد كان اساس الشجرة هو النبي محمد (ص) نفسه ، وبسبب ذلك ، فان العائلة تتمتع بحق لقب " سيد " وقد قدم جميع افراد العائلة على الشجرة بدوائر خضراء مرسومة بدقة وبداخلها اسماء مدونه بخط حسن . وقد انطلق الجذع نحو الاعلى متضمنا الشيخ عبد القادر ، وهو مؤسس طريقة صوفيه في بغداد في القرن الثاني عشر وتفرعت منه عقد ورقية محتوية على دوائر بداخلها اسماء للعديد من الشخصيات القيادية في كردستان في القرنين التاسع عشر والعشرين .

وكان من بينهم الشيخ عبيد الله ، الذي كان قد هدد بالسيطرة على معظم منطقة ريزاي وبسط السيادة الكردية عليها الى ان خدعه مبشر امريكي ومن ثم نفى الى مكة حيث وافته المنية هناك . ومن ضمن الاسماء المدونة كان اسم زوج عاتشة نفسه ، الشيخ عبد الله ، ذلك الرجل الذي كتب تاريخا منهجيا عن الثورة الكردية باللغة الروسية .

سألت عاتشة :

– ولكن اين انت ؟ وأين اسمك ؟

فأجابتنني وهي تنظر الي وكما لو ان بي مسا من الجنون :

– لا توجد نساء هنا .

ومنذ هذه اللحظة كنت اتحرق شوقا للتحدث مع الشيخ عبد الله ولكنني لم اره ابدا عندما كنت ازور زوجته . فقد كانت حجرة الجلوس في الطابق العلوي مخصصة للضيوف الاناث . وقد افترضت أن هؤلاء الرجال الذين يأتون مع هؤلاء النسوة لابد انهم يمكنهم التحدث مع الشيخ في الطابق السفلي وعلى الرغم من اني لم أرهم ابدا فقد اشار جميع هؤلاء العراقيين الذين يقومون بزيارتهم تساوياتي .

كنت اعرف ان الشيخ قد عاش جزءا من حياته في العراق ، ولكنني لم اكن اعلم متى وفي اية ظروف . وقد كانت اخته مريم قد عاشت هي ايضا في العراق . وكانت قادرة على القراءة بالعربية جيدا ، ولكنها كانت تقيم في ايران منذ فترة طويلة كما كان والد الشيخ . وتساءلت لماذا بقي زوج عاتشة في العراق كل هذه المدة ، ولماذا يأتون لروءيتي ؟ .

لمحت في احد الايام اضافة جديدة لتزيينات منزل عاتشة فقد رأيت تقويما معلقا على الحائط وقد كتب عليه عنوان " تقويم الثورة الكردية العراقية " بالانكليزية والكردية والعربية . وقد كان الشهر الجاري – كانون الثاني – قد زود بصورة للملا مصطفى البرزاني ورسم وجهه على نحو انطباعي بظلال زرقاء مع عمامة

حمراء . ولدى تقليبي اوراق الشهور الاخرى تأملت صور نسساء
 باكيات مطبوعات بالطباعة الحجرية بألوان زاهية ، وصور جنود
 وحمامة بجرح ينزف وصورة فتاة معلقة بمسئقة معنونه ب " ليلي "
 وكان قد دُون في كل شهر العديد من التواريخ الهامة في الكفاح القومي
 الكردي - منها اعدام قواد عديدين ، الانتصارات والهزائم الرئيسية
 في ايران ، العراق ، وتركيا خلال القرن الاخير . تاريخ معاهدة
 سيفر وتاريخ معاهدة لوزان التي تلتها ، والتي اسقط فيها كل
 ذكر ممكن للدولة الكردية .

وقد قالت عائشة في اجابتها على اسئلتي : انها لاتعرف
 اين تجد تقويم آخر . وقد ابدت اعجابي به عدة مرات وقبل أن
 اغادر اهدته الي . ولم يكن من ضمن الشكليات بل هدية حقيقية .
 وقد عرفت ذلك لأن عائشة كانت قد تجاوزت اعتراضاتي الشكلية
 والمجاملة مسبقا باعطائي هدايا عديدة غير التقويم ، اشياء رائعة
 مصنعة يدويا من خزانة النفائس القابعة في الزاوية . كانت خديجة
 ايضا قد اعطتني زوجين من الجوارب الكردية المصنعة يدويا . وقد
 خلعت من ذلك الى نتيجة ، وهي انك اذا ابدت اعجابك بشيء فسي
 منزل كردي فانك ستجد هذا الشيء يقدم اليك كهدية .

لم تكن طريقة الاهداء هذه شائعة بين الابريانيين ففي
 حين يهضر صاحب شيء ما لأن يقدم هذا الشيء لك فعليا ، فانك ملزم
 بالمقابل ان تجاري الشكليات وترفضه . وقد تعلمت مؤخرا ألا ابدى
 اعجابي بالاشياء التي اراها في كردستان . ولكنني ضعفت امام هذا
 التقويم ومثل طفلة صغيرة ، بريئة ضممته الى صدري عندما هرولت
 الى المنزل لاثبته على حائط منزلي وقد طلبت مني عائشة ان امسكه
 بطريقة ، بحيث لايمكن لأحد في الشارع ان يعرف ماذا يكون .

اعتدت على القيام بزيارات قصيرة لمنزل عائشة فسي
 طريق مودتي من الكلية الى المنزل اناقش معها احداث اليوم . وفي

احدى المرات زرتها في منتصف النهار ، فدعنتني لتناول الغذاء معها
 رفضت دعوتها وهممت بالمغادرة بسرعة خشية ان اكون قد دموت نفسي
 بطريقة ما ، فدروس نظام الشكليات والمجاوله الايرانية قد ترسخت
 لدي بثبات . ولكنني قبلت في المرة الثانية التي دعنتني فيها وحثتني
 على دعوة جيرد ايضا . واتتني الفرصة التي كنت انتظرها منذ اسابيع
 دون أن ادرك ذلك فقد سألتني عندما وصل جيرد :

— هل تحبين تناول الغذاء مع زوجك ام معي في الطابق

العلوي ؟

لقد كنا جالستين في الاسفل في حجرة جلوس الشيخ لأن المطبخ
 ايضا كان هناك وكانت عائشة تتناوب في دروسها كمشرفة على
 الطباخين وكمضيفة . كان الشيخ عبد الله يستند بظهره على احد
 الكراسي الفخمة المريحة المصفوفة على طول جدران حجرة جلوسهم
 يتكلم القليل بلغة انكليزية رسمية جدا ومهملة . وقد اجلس
 بنظري ونقلته بين الشيخ وعائشة عندما اتى جيرد الى مدخل الحجرة .
 ها هو جيرد ، وقد شرع في لقاء الشيخ عبد الله في زيارته الاولى لهذا
 المنزل ، وقد كانت فرصة انتظرتها اسابيع عديدة . ولكن لواخترت
 البقاء مع الرجال ، فماذا ستفعل عائشة ؟ ان عليها ان تتناول
 الغذاء لوحدها . وعلى نحو غير بارع ناشدت ادراكات الشيخ عبد الله
 الغربية وسألته :

— الانستطيع تناول الغذاء كلنا معا ؟

— طبعاً نستطيع .

اجاب بلطف واخبر عائشة ان تتناول الغذاء معنا . لقد
 كان ذلك سهلا بالنسبة للشيخ عبد الله . اما بالنسبة لعائشة فلم
 يكن سهلا مطلقا . فهي لم تلمس الطعام تقريبا ، فشعرت بالاسف
 لأن " فضولي " فاق مشاعر آخذها بعين الاعتبار . ولكنني لم استطع
 ان ابدي أسفي فعليا . اخيرا وخلال هذه الوجبة عرفت سبب قيام
 العديد من اللاجئين العراقيين بزيارة الشيخ عبد الله . واخيـرا

اتخذت المقالات والفصول التي قرأتها عن التاريخ الكردي في الولايات المتحدة والدوائر الخضراء والاسماء المدونة في شجرة العائلة شكل وجه بشري. فهنا كانت اسطورة حية للشورة الكردية .

ولد الشيخ في تركيا منذ اكثر من نصف قرن مضى . لقد رأى وهو لا يزال فتى يانعا اعمامه واحداده يعدمون من قبل الحكومة التركية كعقاب لاحدى ثورات الاكراد التي تلت استلام مصطفى كمال اتاتورك مقاليد الحكم . ولكن ، ماكان لعائلة عبد الله وهى احدى العائلات الرئيسية في كردستان ، ان تتخلى عن كل شيء تملكه لكي تلوذ بالفرار من الاضطهاد المستمر الذي كانت تمارسه الحكومة التركية الجديدة . فقد ذهبوا ببساطة واستقروا في بلد آخر يملكون فيه ارضا . يمكن ان تصادر الحكومة قراهم ولكن كان لديهم العديد من القرى الاخرى في العراق وايران .

نشأ عبد الله في العراق . وعلى الرغم من كونه كرديا فقد منح امتياز حضور كلية الضباط في بغداد ، وذلك لأنه سليل اسرة ذات شأن عظيم . وبعد التخرج عين ضابطا في الجيش العراقي . ولأسباب معينة غير واضحة لي ، اتى والده ، وهو شيخ موقر مع عدد ضخم من الاتباع ، ليستقر في ايران ، بينما بقي عبد الله في العراق ومن ثم وعندما اصبحت العراق غير آمنة بالنسبة للاكراد النزاعين الى الحرية ، تبع عبد الله الشاب الملا مصطفى البرزاني الى مهلباد ، حيث اصبح عضوا في الجيش الذي دافع عن تلك الجمهورية . ولدى سقوط الجمهورية ذهب عبد الله وآخرون مع البرزاني عندما فر الى روسيا ، وقد تبعه الاكراد اللاجئين الذين رافقوا البرزاني حالا في اصقاع الاتحاد السوفياتي ، وقد قدر لهم ان يكايدوا نصيبهم من جنون العظمة والارهاب عند ستالين . وقد قضى عبد الله نفسه سنتين في سيبيريا وجزءا منها قضاها مضربا عن الطعام . وقد عمل لفترة في مصنع احدى المقاطعات الشرقية ، حيث اتخذ زوجة روسية وانجبت له بنتا . واخيرا وكما وعده بعض الموظفين السوفييت

العاملين في اذربيجان الايرانية تمكن من الدراسة في جامعة لينينغراد . وقد بدت الاحداث في العراق مواتية مرة ثانية لعبد الله والاكراد الآخرين بعد مضي احدى عشرة سنة من وصولهم الى الاتحاد السوفياتي . ففي سنة ١٩٥٨ قام عبدالكريم قاسم بانقلاب في بغداد ودعا الاكراد الى ان يمارسوا حقهم الشرعي في القوى الاقتصادية والسياسية في العراق . وقد جعل الملا مصطفى البرزاني العودة المنتصرة من الاتحاد السوفياتي كيوم جديد للتقدم وكان من المفترض ان تنبثق معاهدة صداقة عرقية متبادلة في العراق . والتحق عبد الله فوراً برجال البرزاني للعودة الى بغداد تاركاً وراءه زوجته الروسية وابنته .

وفي سنة ١٩٦٠ عمت الفوضى العراق ثانية فقد كان الشيوعيون يقاتلون القوميين العرب . ولم يبد احد اهتمامه عدا الاكراد بقضية الحكم الذاتي الكردي . وعندما اتضح ان قاسم لن ينفذ ماوعده الاكراد به ، بدأ الاكراد المشاركون في حرب العصابات بالقتال في الجبال . وقد رد عليهم قاسم بالحرب الشاملة . وتحت ضغط هذا الانكار الجسدي لحقوقهم بدأ الاكراد بتشكيل حركة موحدة .

لقد كان الملا مصطفى - وهو رجل قبيلة البرزانيين القوي الشكينة والجنرال من ايام مهباد - قائدا عسكريا لاجدال في ذلك ، وقد كان هنالك ايضا قواد سياسيون آخرون في ح . د . ك وهذه الاحرف ترمز اصلا الى الحزب الديمقراطي الكردي ، الى ان تغير الاسم الى الحزب الديمقراطي الكردستاني ليمثل كل المجموعات المضطهدة في كردستان العراق بما فيهم - الاشوريون ، والتركمان ، والعرب ، وايضا الاكراد . وقد توسع الجيش الكردي من المقاتلين البرزانيين غير النظاميين الى " البيشمرگه " وتعني حرفيا " مواجهوا الموت " وهو الاسم الذي عُرف به الجيش الكردي منذ ذلك الحين .

لم يكن عدوان سنة ١٩٦١ مثل الحروب الاخرى ضد الاكراد

يشمل غالبية الجنود العراقيين وقد حصل الاكراد على الكثير من الاسلحة من الفارين من الجندية وكذلك من السوق السوداء وقد تسرك العديد من الضباط الاكراد مواقعهم في الجيش العراقي وانضموا الى الملا مصطفى .

لقد قصف العراقيون القرى الكردية بالقنابل ورشقوها بالرشاشات ، واسقطوا النابالم واطلقوا الصواريخ عليها . وسوي الريف خرابا ، وفر الكثير من القرويين الى التلال والكهوف بحثا عن ملاجئ لهم . وعلى الرغم من هذا الهجوم الضاري ، كان الاكراد لا يزالون غير قادرين على ان يتوحدوا سياسيا . وقد تحالف بعض الاكراد مع الحكومة العراقية وقتلوا ضد اخوانهم الاكراد . وقد كان الزباريون ، الاعداء القبليين التقليديين للبرزاني ، قد عززوا بسرعة من قبل الحكومة العراقية لمقاتلة العميان المسلح . بعد ذلك بدأ النزاع بدب بين القواد الاكراد أنفسهم ، وقد انقسم : د . د . ك . بين المصالح الاقطاعية القبلية ، التقليدية الممثلة بالبرزاني وبين العناصر الاشتراكية ، اليسارية الجديدة المتعاطفة مع حلال الطالباني . ان الحدود الاجتماعية والسياسية لعائلة الشيخ عبد الله جعلت منه مالكا للاراضي ولكنه اخذ اليسار من البرزاني لثقافته السوفياتية . ربما ان البرزاني خشيته لأنه كان ممن الممكن ان يقدر على توحيد هذين الطرفين المنشقين . كان ممن الممكن لعبد الله ان يعارض حق البرزاني في حكم كردستان على اساس السلالة الارستقراطية فقط . فقد كان اسلافه ثوارا معروفين ، كما كانوا شيوخا موقرين . ولم تكن للبرزاني شجرة عائلة تمتد بنسبها لتصل الى النبي .

اشار الشيخ عبد الله الى البرزاني بازدراء ووصفه بأنـه دكتاتور ، مع تشديد على المقطع الاخير . وحسب اقوال الشيخ فانه كان قد اطلق سراحه عملاء السافاك المبعوثون من ايران ، بعد ان سجنه البرزاني في الجبال ، وذلك نزولا عند طلب والده . فكرت كثير

في الجزء الاخير من القصة المتضمنة تورط والد عبد الله مع البوليس السري الايراني . وربما كانت هذه مسألة منفعة فقط بالنسبة لعبد الله ، فقد كان عليه الخروج من العراق بأية وسيلة . وفي سنوات عديدة لاحقة بدأ البرزاني بتطهير ح . د . ك ممن ارتاب فيهم على انهم شيوعيون ولكن عبد الله وهو ابن شيخ مسلم مشهور لم يعد شيوعيا اكثر من معظم الذين اختلف مع البرزاني . فقد كان يرى فقط انه حتى لو تمكن الاكراد من اعلان الاستقلال الذاتي من الحكومة العراقية فان معظمهم سبطلون مضطهدين وسيستمرون في قوة عملهم ومحاصيلهم لمالكي الاراضي . وقد شكك عبد الله ومفكرون آخرون من الاكراد في امكانية انتصار البرزاني كاشفيين عن ولاءاته ، واساليبه الآيلة الى الزوال . وفرقائد المعارضه الرئيسي ، جلال طالباني من العراق ، تاركا زمام قيادة ح . د . ك في يد الملا مصطفى البرزاني لوحده .

استمرت الحرب الكردية تسع سنوات اخرى بعد عزل قاسم عن السلطة بعد بضع سنوات من حكمه ، وقد اعلن في البدايه عن اتفاقية وقف اطلاق النار ، ولكن الحكومة الجديدة تشدقت فقط بتأييدها لاهداف الكردية . واتفق بعد مدة ليست بطويلة من تعزيز سيطرة الحكم الجديد على العراق انهم كانوا المقاومين الاكثر عنفا للاكراد اكثر من كل الذين سبقوهم . وكممثلين من جميع العرب لم يبد هولاء الحكام العراقيين تعاطفا مع الآشوريين ، التركمان ، اليهود او حتى العرب الشيعة في الجنوب العراقي . وفي سنة ١٩٧٠ وقع الاكراد والحكومة اتفاقية سلام متضمنة على خمسة عشر بنداء . ولقد كان من المفترض ان يجري احصاء في شمال العراق لتحديد المناطق التي تقطنها اغلبية كردية واقرار هويتها . وبعد ذلك سيعلم عن هذه المناطق على انها مستقلة . ولكن الاحصاء لم ينفذ ابدا . وفي الحقيقة بدأ العراقيون بابعاد الاكراد عن اراضيهم نفسها بالقوة وايضا كان من المفترض على البعثيين ، بموجب الاتفاقية ان يملحوا

— من الناحية الاقتصادية — المناطق التي دمرتها حرب التسع سنوات
بالإضافة إلى ضمان الحقوق اللعوية والثقافية . للاكراد وحسب رأي
الأكرا دلّم تتخذ أي إجراءات من شأنها أن تحسن المعيشة في كردستان ،
وفي سنة ١٩٧٤ كان من السهل على الساء في العراق المرتبة الأمريكية
تشجيع الاكراد بـ... . في الوقت الذي اعتبر
فيه الاكراد ان النازلار التي قدمها... لم تحقق السنود الاصلية
لاتفافيتهم . ولكن لو كانوا يعرفون اسمهم سيفقدون فيما بعد حتى
حقهم في التحدث بالكردية في مدارسهم الخاصة ، لما خاصوا الحـرب
على... .

عبد عبد الله الى ايران قبل عقد في مطلع الحرب
الـ... ، وجد ان ثروة العائلة ماتزال ضخمة
على الرغم من انها قد استغرقت الى حد كسر . كان الشاه سنة ١٩٦٠ .
قد نفذ مشروع الاصلاح الزراعي ، الحرة الاساسي مما دعاه على نحو
متسم بالمسالفه بشورته البصاء . وبموجب هذا القانون ، لم يسمح
لأي مالك للأراضي ان يمتلك اكثر من قرية واحدة . واما الباقي
فيجب أن يعاد للحكومة . وعلى الرغم من وجود الدليل الكافي الذي
يشير الى التنفيذ غير العادل لهذا القانون على نحو فاضح في ايران
فقد طبق في كردستان ، على الاقل ، بهذا الشرط وحده ، أي فيما
يتعلق بابقاء قرية واحدة لكل خان (سيد) ولم التق ابدأ بمالك
اراضي كردي مهما كان غناه او سلطته ونفوذه يمتلك اكثر من قرية
واحدة . وقد بدا ان الاتراك من الجهة الثانية قد اصابوا نصيبا
اوفر ، بعضهم على الاقل . فقد كان يظن ان امير فلاح — ذلـسك
الرجل الغني القاطن في بداية زقاقنا — يمتلك ست قرى .

بعد ان تبع والد الشيخ عبد الله الاصلاح الزراعي ، بطلبه
ابتياع احدى قرى العائلة مسترجعا اياها من الحكومة ، نجح في ذلك
وكانت هذه هي القرية التي اتاها عبد الله مؤخرا ليوظف ماله
وببحث في اسباب تأمين مستقبله . كان قد وصل ايران وهو على

حافة الشيخوخة ولدى حدوث تغيير مفاجيء في غير اوانه في النهج السياسي الذي بدا واعدا بالكثير والذي من المؤكد قد اقتضى استعدادات ضخمة ومعاونة من جهته ، لم يعتمد على ثرواته او يعلق آمالا على المركز الاجتماعي لعائلته بينما بقي ابن عمه الحاج اسماعيل فسيح الموروثة عن اسلافه وتزوج من خمس نساء ، كان عبد الله قد قاتل في العراق ويران ، ثم في مصنع وعاش في سيبريا .

الى ايران بعد كل هذه السنين لم يكن يملك شيئا حتى زوجة .

عُثر على زوجة له بسهولة من بين عائلته ، اما الباقي فقد كان يقع على عاتقه هو نفسه . لم يستطع ان يتبع خطى والده لأن قضاء عظم من الزمن في روسيا لم يكن بها من الاستعدادات الملائمة لأن يكون شيخا صوفيا مزاولا للشاشة مع وجود اتساع ومريدين له . وكذلك لم يستطع الاستفادة من دراسته وثقافته الجديرة بالاعتبار . ففي ايران لا تقدر الشهادات الصوفياتية عاليا ، لأنه ينظر الى الذي عاش في روسيا - ولو بشكل مؤقت - بارتياح ، أي كان سابقا به الشيخ عبد الله خلال وقته وهذا مما لم يكن حليا بالنسبة له . اطلاقا ، فقد كان واضحا من الطريقة التي يتحدث فيها انه يشعر بأشياء عيون السافاك كانت تراقبه دائما . فعندما سألته عن سبب عدم كتابته مذكراته اجابني وهو يتسم وكما لو انها كانت نكته ، على ان ذلك لا مجال للتفكير فيه على الاطلاق . فحتى كتابتها وبسودون محاولة لنشرها ستعرضه للخطر .

على الرغم من عدم كون الشيخ عبد الله شخصا فذا في ايران وعلى الرغم من القيود التي تربطه بمدينة متخلفة وقرية صغيرة ، فقد كان من الواضح انه ذو شأن في كردستان . وقد كان ذلك سبب مجيء اللاجئين لزيارته وسبب مآرأيته من تدفق الملاهي والقواد الذين يأتون يسألون نصيحته عندما قمت بزيارة الى قريته مؤخرا . تساءلت فيما اذا كانت هذه القلة القليلة من التقدير والاحترام تعوض

عما فقدته بعد كل هذا .

حاولت ان ابلغ بعضا من ماهيه شعور الشيخ عبد الله تجاه ماضيه عندما كنت جالسة في ايوان منزله اتناول نباتا شوكيا مطهو مع الارز واللبن ، نظرت بفضول الى الصورة المعلقة على الجدار وقد كانت تظهر والده وهو ينحني للشاه . ان مثل هذه الصورة كانت ضرورية في أي منزل يمكن ان يفخرناسه بأي صلة شخصية مع الشاه . ماذا يعني لعبد الله - ذلك الرجل الحاصل على دكتوراه في الفلسفة من لينينغراد والذي كان قد فر لدى انهيار جمهوريية مهاباد - ان يعلق صورة كهذه في غرفته ؟ تفحمت عاشقة وهي تنحني نحو طبقها متضايقه عندما جلست على كرسي قاس ، بدلا من الارض التي اعتادت عليها. هل رغب عبد الله في الزواج من فتاة ريفية غير متعلمة ؟ لم تكن هذه الحجرة تنطوي على شعور بالمأساة او على تضارب عنيف او مشير بين قوى مختلفة. ولا على شعور مفعم بما اخبرنا به الشيخ لتوه ، فقد رأيت امامي فقط زوجا وزوجة يتناولان الغداء مع صديقين لباقة فقط . لقد كانت قصة عبد الله جديدة علي ولكنها كانت قديمة جدا بالنسبة له .

بعد ان تناولنا الغداء بقي جيرد مع الشيخ ، بينما اخذتني عاشقة الى الطابق العلوي ثانية لاحتساء الشاي في حجرة جلوسها . وبينما كنا نحتسي الشاي تأملت صورا في البوم كبير انزلته من على رف الكتب . وجميع هذه الصور التي كانت بالابيض والاسود كانت تخص عبد الله واصدقاءه في روسيا - منها مشاهد رحلات عامة واشواب سباحة لا يمكن تصورها في كردستان مع وجوه آله تصوير او بدونها . رأيت صورة للزوجة الروسية بخديها السلافيين والابنه الروسية بغفائرها الشقراء الطويلة وعيني عبدة الله الزرقاوين بمظهرهما الغريب . اخبرتني عاشقة بجديّة :

- لقد كتبت لها وطلبت منها المجيء لتعيش معنا .

- من ؟

سألته ، متصورة انها قد عنت الابنه .

— زوجة زوجي .

لقد ادهشني ذلك . الا تتمتع عائشه بمكانتها كزوجة وحيدة ؟

وقالت عائشة بحزن :

— ولكنها لاتستطيع المجيء .

عائشة وعبد الله لم يكونا كرديين نموذجيين ، ولكني كلما كنت اعرف اكرادا اكثر ، كنت ادرك اكثر ان لأحد من الذين التقيت بهم يمكن أن يعتبر نموذجا ، وحتى خديجة بهيئتها الريفية لم تكن المثال النموذجي . لقد كانت ردود افعالهم جميعا تجاهي مختلفة ، ولكن بدا أن عائشة وعبد الله فقط يريان ماهو ابعد من غربتي ، ونظراتي وسلوكي الغريب . كنت اشعر مع الآخرين انهم لن يستطيعوا فهم ماكنت ارغب فيه فعلا ولكن عائشة كانت تعرف ما اريد . وفي زيارتي الثانية لابران اشارت عائشة الى حقيقة اننا — انا وجبر — دون ريب قد عشنا معا قبل ان نتزوج ، وهذه الحقيقة لم اذكرها لكردي ابدأ . وعندما حاولت على نحو واهن ان انكر ذلك ضحكت كما لو انها تعرف اكثر من ذلك بكثير . أن مثل هذه الدراية وخصوصا هذا التسامح في الآراء والمبادئ والسلوك كان غير مألوف اطلاقا بالنسبة لامرأة كردية ، او في الحقيقة لأي امرأة في ايران . فقد سمعت سيدات ايرانيات مدنيات ، وعلى الرغم من وجود اولاد لهن يدرسون في الولايات المتحدة ، انهن — يشرن وبثقة الى حقيقة ان جميع الفتيات الامريكيات فاسدات .

أي مستقبل يتصوره الشيخ عبد الله وعائشة لنفسيهما ؟ هل سيفادران ايران يوما ما ؟ هل يمكن لعبد الله ان يستأنف نشاطه السابق في الحركة الوطنية الكردية ؟ لم تخطر ببالي هذه الاسئلة في الاشهر التي بدأ فيها جيش البرزاني وكأنه قد ربح الجولة في العراق . وقد بدا لي ان عبد الله كان يشكل تهديدا للبرزانيين

ولكنه قد خسر ، اما البرزاني فقد ظفر . ولو تمكن البرزاني من قيادة الاكراد العراقيين نحو الانتصار ، لعنى ذلك الانتصار الاعظم لنهجه .

حدثت تغييرات شاملة موعرا ، تذكرت كلمة عبد الله - دكتاتور - وهو ينطقها بانفعال اكثر مما قد اعتاد عليه لـدى مناقشة ومجادلة مسائل متعلقة بالسافاك والحكومة الايرانية . كان الشيخ عبد الله مايزال وطنبا مخلصا . ولاأظن انه كان سعيدا للحظة لما حدث للاكراد على الرغم من الضربة التي سددت للبرزاني . ولكن كان لعبد الله كلمات قاسية عن قواد هذه الثورة ، فقد وصفهم بأنهم رجال باعوا ثورتهم للحكومة الايرانية والسافاك وملءوا جيوبهم بالذهب . فبعد عشر سنوات من وجوده في ايران كان الشيخ عبد الله في موقع افضل من الجميع ليقدر ماذا كانت الدوافع الايرانية الحقيقية في دعمها للقضية القومية الكردية .

الفصل العاشر

لا يزال جزء وحيد من كردستان ، يلزم تفكيري . فلو
 أغلقت عيني ، فباستطاعتي ان ارى تلك الحلقة من الوجوه الشاحبة ،
 القلقة ، وجوه بعض المدرسين الذين يعتبرون من خيرة الاكراد واكثرهم
 ثقافة في العالم . كان العديد منهم يتحدث بانكليزية طليقة وكانوا
 جميعا يتقنون العربية . كانوا يرتدون مثلما ارتدي ، ولكونهم
 اكراد لم يبدووا كاجانب . استطع تخيلهم في أي مدرسة ثانوية
 في الولايات المتحدة . ان وجودهم في ايران وحتمية مواجهة العديد
 منهم التعذيب والموت كان في حدود الامكان ، لم يكن هؤلاء الناس
 مثلي فحسب ، بل اني كنت قد ارتكبت خطأ محاولة توريث نفسي
 ومواجهة نفس مصيرهم .

ان الوجه الاكثر حيوية هو وجه جمال ، ذلك الوجه الذي
 كنت اتخيله مرة تلو الاخرى عندما قرأت اسماء الذين اعدموا في
 العراق . اتخيل حديث هذا الرجل ، الودي والرفيق وعينه الاكثر
 رقة والذي يمتحن تدريس الصف الاول . كنت واحدة من تلميذات صفه
 الاول وقد اظهر لي الاهتمام والصبر بنفس القدر الذي اظهره لجميع
 طلابه - كان يناظر السادسة والعشرين ، لم ار ابداعا مثله ولم
 اتصور امكانية وجود رجل مثله . ربما لن يشاهروا على ما كانوا
 عليه تحت فغط الظروف القاسية والوحشية في ايران ، ولكن جيلا كاملا
 من الاكراد في العراق كان قد نشأ ودرس بلغته الام وتعلم في
 الجامعات في السليمانية . وقد تملح هذا الجيل بكتبه التمهيدية
 لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وكتبهم المدرسية . وكل ذلك
 بالكردي . كان من الصعب علي تمديد ان هؤلاء أيضا كانوا اكراداً .
 فاللهجة التي يتداولونها ، ويكتبون بها كانت مختلفة لدرجة كبيرة

عن لهجة اكراد ريزاي حيث كان من الصعب علي تتبعها .

حضرت الى مدرسة اللاجئين تحت رعاية العدو - فقد كانت الحكومة وراء قناع جمعية الاسد والشمس التي كانت تمنح المساءة للاجئين . وعلى الرغم من ان البرزاني ومستشاريه كانوا قد قرروا ان يتركوا الايرانيين يقودون امر الثورة الكردية ، فان الاكراد العاديين لم يشقوا بالاييرانيين . فهم لايتذكرون مهاباد فحسب بل انهم كانوا يكرهون العيش في ايران . لقد ذاقوا طعم الحرية في العراق ، حرية ان يكونوا اكرادا وان يحملوا السلاح عندما يشعرون انهم مضطهدون . لقد كانت ايران بشاهها الكلي الوجود بصورة وبوليسه السري اكثر من قدرتهم على التحمل .

كنت اراقب اللاجئين لفترة طويلة ، قبل ان التقى بأي منهم . كان اغلبيه سكان ريزاي غير الاكراد ينعتون اللاجئين بالبرزانيين وكما لو انهم كانوا جميعا من قبيلة ملا مصطفى البرزاني . ولكن هذا النعت كان يلائم الجنود ذوي العمام الحمراء فقط ، الذين كانوا يشكلون جزءا من مجموع اللاجئين .

لقد اتى الاكراد من كل حذب ومذهب ليشاركوا في الثورة الكردية سنة ١٩٧٤ . وكان بعض المحترفيهم والمتمرسين الاكراد في الجيش العراقي قد اخلوا مواقعهم في بغداد لينضموا اليها . وحتى ان اكرادا من الخارج تركوا حياتهم المريحة واتوا للبرزاني واثقين من ان تكريس حياتهم لهذا الجهد الموحد للاستقلال الذاتي لن يذهب هباءا .

علمت من حديثي مع امير أن هناك طبقتين في التسلسل الهرمي للاجئين . فالمجموعة الضخمة من اللاجئين كانوا قد اسكنوا في معسكرات واسعة حول منطقة ريزاي ، وكان احد المعسكرات قد اقيم في غرب المدينة مباشرة ، بينما كانت معسكرات اخرى مديدة في الجنوب . كان القرويون العاديون ورجال القبائل وكذلك سكان المسد

الفقراء من العراق قد انتظمت اسماؤهم في لوائح في هذه المعسكرات كانوا اناسا قد التقطوا اطفالهم وفروا من القصف المستمر مع اشياء اخرى قليلة غير الستهم على ظهورهم .

حتى الاكراد الاكثر غنى ، الذين نجحوا في احضار الذهب وواحد او اثنين من خدمهم من العراق ، قد عانوا القساوة والرعب في الطرق الجبلية السرية المؤدية الى ايران . كانت احدى العوائل مع اطفالها قد بدأت رحلتها في سيارتها الخاصة ولكنها خوفا من أن تكون مكشوفة للطيارين ، انتهت الى اتمام رحلتها سيرا على ارجلهم . زوجة طبيب ثري غير معتادة على بذل الجهد العضلي من . كانت قد اتت لوحدها دون زوجها على ظهر حمار . ولكن مصيبتها الفرويين كانت هي الاكثر اثاره للحن والاسى . ففي البداية لم ارى وحوهم الملوحة بالشمس والمسمره من الغبار ، ولم اشهد معاناة هؤلاء الناس الذين يشكلون جزءا من الغالبية العظمى لمجموع اللاجئين فسي نهاية هجرتهم الجماعية الفظيعة عبر الجبال الاقي نهاية اقامتي في ايران تقريبا .

كان معظم اللاجئين الباقين في أواخر الشتاء من النساء والاطفال وكان الرجال يأتون بين فينة واخرى في اجازات من القتال . عند ذلك سنرى المحظوظين الذين حصلوا من الحكومة الايرانية على تصاريح للقيام برحلات قصيرة الى المدينة . كانوا يزورون البازار وبعدئذ يتجمعون في سيارات الجيب المعطوبة ليسيروا عائدين الى المعسكرات

خان يقيم في المدينة نموذج آخر من اللاجئين الاكراد وهم عائلات قواد الحزب الديمقراطي الكردستاني وضباط البشميركية " مواجهي الموت " وقد كانت جمعية الاسد الاحمر والشمس ، واجهة السافاك ، تدفع تكاليف معيشتهم ، بينما يمضي الرجال جيئة وذهابا عبر الحدود ليوصلوا سير الحرب . كان اللاجئين المقيمون في المدينة اكثر غنى بكثير عادة واكثر تعلما من الجزء المنتم لهم في المعسكرات . كانوا يميلون الى ارتداء الملابس الغربية فسي

الشارع على الرغم من أن البذلة الرسمية لجيش البرزاني كانت تتألف من " شلوار " خاكي مع سترة مشدودة ملائمة له ، وعمامة مثل اللبسة التي يرتديها خدم عبد الله تماما . وعلى الرغم من غناهم والراحة النسبية لحياة المدينة فقد كانت هذه العائلات حبيسة هي أيضا . فلم يكن باستطاعتهم الذهاب الى أي مكان خارج ريزاي بدون اذن سفر .

ان جزءا من الدمع الايراني لسير الحرب العراقية - الكردية كان يشمل على جولات شخصية لعدد من المراسلين الغربيين الذين قدموا لزيارة معسكرات اللاجئين عبر ريزاي وبعد ذلك يعبرون الى العراق ليشهدوا المعارك . قررت ان استخد م طيتي الوحيدة لأرى اذا كان باستطاعتي أنا أيضا زيارة معسكر اللاجئين . كنت اهتم على نحو خاص بروية المدرسة هناك . فالمدارس ذات الادارة الكردية الوحيدة في ايران كانت مدارس هؤلاء اللاجئين . كانت صلة الوصل لدي ، ذلك الرجل الذي التقينا به في يومنا الاول في ريزاي أو بالأحرى في الطائرة حتى قبل هبوطنا على الأرض . لقد كان مسؤولا عن ادارة جميع المعسكرات ، لكونه مدير فرع ريزاي التابع لجمعية الاسد والشمس . ومنذ اقامتنا في ريزاي كنت قد رأيت هو وزوجته في مناسبات اجتماعية عديدة وقد عرف اني ادرس الكردية . وبما انه هو وزوجته كانا ودودين معي ، فقد كنت واثقة تماما من انه سيصفي لي على الاقل .

وعندما وصلت الى مكتبه ، افصحت عن طلبي ، شعرت بالارتياح لانه بدا مغفيا وكما انه لا يوجد شيء ملفت للنظر على الإطلاق في رغبتني رؤية احد المعسكرات . كانت هناك صعوبة مخفية وحيدة وهي انه كان عليه ان يستدعي السافاك ليعقدوا على قراره لانه لا يسمح لأحد بالدخول الى المعسكرات دون موافقتهم . قضيت معظم فترة الصباح في مكتبه ، انتظر رد السافاك عليه ، واخيرا اجابوه بالنفي . على أية حال حصل انعطاف غير متوقع في الموضوع . فقد عانيت القلق لعدة شهور من أن السافاك كان يراقب نشاطاتي في

ريزي ، ولكن اتضح - وبغض النظر عن معرفة ماكنت منهمكه فيه - ان السافاك لم يعرف حتي من آكون . وحسب أقوال مدير جمعية الاسد الاحمر والشمس فانهم كانوا قد صنفوني على اني امرأة أمريكية أخرى في المدينة كانت متزوجة من إيراني وكانت قد قُضت وقتها في إيران تخدم في فرقة السلام . ولكنني انكرت هذه الهوية . نظر الي المدير الذي كان من المفترض انه يعرف اكثر وكما لو انه كان متأكدا من كذبي . واتضح انه على الرغم من عدم اهتمامهم بالفيط من آكون ، فان السافاك لم يكن يسمح لأي امرأة اجنبية بالدخول الى معسكرات اللاجئين بدون اوراق اعتماد تظهر انها مراسلة صحفية . بعد ان قرأنا القصص التي ارسلها اليها بعض اقاربنا في امريكا من النيويورك تايمز عن المعسكرات والحرب استطعت ان ادرك النقطة الاساسية لدى السافاك . ان المرء وبدون معرفة للفارسية او الكردية وفي رحلة قصيرة لمدة اسبوع في المنطقة من موقع رسمي في طهران او بيروت او باريس كان يتوه ويبتعد كثيرا عن حقيقة الاحداث ، لدرجة أن معظم هؤلاء الصحفيين ماكانوا يعرفون حقيقة السافاك في إيران ومن يمثلون . ولكن لو كنت انا أيضا صحفية قد استضيفت تحت الطلب لجعل الحرب الكردية قضية مشهورة كان من الممكن آنذاك أن ينظر الي السافاك نظرة مختلفة تماما .

عندما رأى مدير جمعية الاسد الاحمر والشمس كم اصبحت بالخيبة ، قدم لي عرضا مقابل لذاك . فبدون موافقة السافاك لم يستطع السماح لي بزيارة المعسكر ، ولكنه يستطيع - على حد زعمه غير المؤيد بدليل - ان يرسلني الى مدرسة اللاجئين المحلية في المدينة . لم يخطر ببالي أبدا ، امكانية وجود مدرسة خاصة للاجئين في المدينة ، ولكنني وافقت مباشرة على الاقتراح وان اعود الى مركز قيادة الجمعية خلال يومين لتأخذني سيارة خاصة الى هناك . ابتسم مدير الجمعية وكان واضحا انه قد سر لأنه استطاع عمل شيء لي . وابتسمت انا ايضا ، وسررت لأنه لم يعد لزاما علي أن

امضي وقتا آخر في الجلوس في مكتبه اراقب مواكب المتوسلين الذين حضروا امامه يترجونه ان يوعدي لهم خدمات معينة . عندما عدت بعد يومين ولعدم معرفتي اين تنتهي سلطة الجمعية واين تبدأ السلطة الكردية ، لم استطع أن اخمن اذا كان الرجل ذو الشعر الاسود بسيارته البايك الامريكية المعطوبة كرديا ام ايرانيا . سرنا بصمت الى المدرسة وقد كانت حقا مجرد منزل قديم خلف جدار عال في احد الشوارع الرئيسية في المدينة . كان المدرسون في الطابق العلوي يجلسون مشكلين حلقة في مقاعد معدنية في حجرة هيئة التدريس . وعندما قادني الرجل السائق - الذي اتضح انه كردي الى الداخل توقف الجميع عن الحديث وهدقوا في .

حاولت ان اوضح سبب مجيئي بكردية خشنة ، فتغيسرت تعابير الفصول على وجوههم الى حيرة . توقفت ثم بدأت وتوقفت ثم بدأت وتوقفت ثانية . لقد كنت اهذي بالنسبة اليهم وبقدري مايتعلق بـ لا . سألني احد المدرسين بانكليزية طليقة ، فيما اذا قد كنت من الكردية . فأومأت برأسي مؤكدة ذلك . حدثوا في بعضهم البعض وهم يبتسمون وقالوا :

- آه ، لقد اتت لتتعلم الكردية .

كنت متأكدة من أنهم يفكرون في كيفية مجيئي من مكتب رئيس الجمعية من عند السافاك مباشرة . هل من المعقول أن يثقوا بشخص مثلي ؟ لقد استقبلوني بغض النظر عما اذا وثقوا بي أم لا ، واعطوني واحدا من الكتب التمهيدية لتعليم القراءة والكتابة المهربة عبر الحدود من قبل الجيش الكردي . اجلسوني بينما كانت وجوههم تنم عن الاضطراب والخوف على مصيرهم ومصير العوائل والجيران الذين كانوا لا يزالون في العراق .

رحب جمال بي بحماس كطالبة في صفه الاول . وبعد يومي الاول في المدرسة تساءلت عن مدى قدرتي على الصمود في الصف الاول ، فقد بدا مملا ومقيدا الى حد بعيد . كنت اتلوى فسي

مقعدي تماما مثل زملائي في الصف ، الجالسين بقربي في مقاعد خشبية ضيقة وطاولات ضيقة للقراءة والكتابة موضوعة امامهم .
 حدق في تلاميذ الصف الاول - المرتدون على نحو نظيف ، البسة أطفال ملونه . غربية الطراز - وجحظت عيونهم لروية زائرهم الضخمة .
 كنا نستدعى الى اللوح الواحد تلو الآخر لنقوم بعمل ما . كان الاطفال يضبطون بحزم ولكن لسوء الحظ لم يكن جمال يعاقبني عندما كنت اسرح بعيدا . كان يعلن عن الفرص بجرس كل اربعين دقيقة ، كنت اقصيها في حجرة المدرسين . كان يوجد مدرسون لمادة الرياضيات ، والانكليزية والعربية والجغرافية ، والفيزياء ومدرسة للتربية البدنية ومختصون لأغلبية المواد الضرورية لتعليمها في الصف الاول حتى الثاني عشر . لقد ترك في ذهني انطباع عميق ليس فقط بسبب حقيقة ان مجلس الثورة الكردية قد تحرك لتأسيس هذه المدرسة حالما قدم اللاجئون الى المنطقة فحسب ، بل ايضا بسبب تفاني المدرسين لدرجة كبيرة في عملهم . لقد علمت في كلية وليس في مدرسة ثانوية في ايران ، ولكن المدرسين هناك بدوا اناسيين وغير مهتمين ليس فقط بالطلاب ، بل ايضا بالمادة نفسها . كان في مطلع كل كتاب مدرسي ايراني فني المدارس الثانوية صور تملأ صفحات بكاملها للشاه وزوجته وولي العهد . لم تكن أي من الكتب الكردية تحتوي على صور من هذا القبيل . وكانت النصوص الانكليزية في المدارس الثانوية الايرانية حافلة بالأخطاء . اما مدرسا الانكليزية في هذه المدرسة كانا قد درسنا في بلاد تتحدث الانكليزية وكانت النصوص التي يستخدمونها دقيقة ولو انها كانت قديمة العهد .

كانت مديرة المدرسة الكردية تحثني على المجيء كل يوم ولكن ذلك كان مستحيلا . فقد كانت صفوفي لاتزال موجودة في الكلية واعرف الانطباع القوي الذي سألخفه لدى العميد عندما يسمع أنني كنت احضر في الصف الاول في مدرسة اللاجئين المحلية . بالإضافة الى ذلك كان باستطاعتي فقط ان اوقف حضوري في الكثير من دروس

المصف الاول . وقد قررت ان افوت حصص الحساب لهذا الصف بعدد آن
تمكنت من مصطلحات الرياضيات الخاصة بالصف الاول بالكردي . كانت
سرعة سير حصص القراءة تمضي ببطء شديد وقد كانت مؤلفة
من استظهار من غير فهم . وحفظ عن ظهر قلب ، والشيء الذي كان
يمتعني اكثر هو جلوسي في حجرة المدرسين واصفاي الى احاديثهم
بالكردي والعربية .

جلست في منطقة محايدة حيث يقابل فيها نصف حلقة النساء
النصف الآخر من الرجال . لقد كان عدد الرجال والنساء في الفصل
الاول من السنة متساويا تقريبا . ولكنهم كانوا يتحدثون معا
عبر الحلقة اكثر مما يتحدثون وهم جالسون جنبا الى جنب . كان
جمال غالباً مايتني ويأخذ دفتر ملاحظاتي المليء بالوظائف ليريسه
لمدرس آخر . ويسأل مدرس الفيزياء .

— اليس خط يدها جميلا ؟

فأخجل معتقدة انه ليس بالضرورة على كل امرئ ان يحكم بالمبادئ
المأخوذة في الصف الاول . ولكنني كنت اسر لمديحهم على الرغم
من ارتباكهم .

قاسمني المدرسون كل ما عندهم ، الكتب المدرسية القيمة
والغذاء الذي كانت الحكومة الايرانية تمنحه لجميع اطفال المدارس
على نحو روتيني . وكان يشتمل على البرتقال والفستق والشاي
والحليب . وقد استطاعت احدى المدرسات أن تتخطى الى المنطقة
المحايدة بشجاعة لتأتي وتكلمني فعليا . لقد كانت مدرسة
التربية البدنية ماري . كنت اراقبها منذ فترة طويلة . كانت
فارعة الطول وذات جسم رياضي رشيق . وشعرها الفاحم كان طويلا
وقد ملصته الى الوراء ليظهر وجهها النحيل والشاحب . كنت
اسمعها باستمرار تقول للطلاب " يا الله ، يا الله " عندما كانت
تحتهم على النزول الى الطابق الاول وإلى الخارج ليلعبوا في
الفرصة . وبالله ، شعني بالعربية " هيا ، اسرعا " وقد علمت

مؤخرا أنها كانت تتحدث بالعربية مع الطلاب على وجه الخصوص
على الرغم من أن جميع المدرسين كانوا احيانا يتحدثون مع بعضهم
بالعربية .

في المرة الاولى التي غامرت فيها بالتحدث الي ، كان
في يدها مجموعة من الصور بالابيض والاسود ، قد احضرتها لتريهما
لي . لقد كانت تلك صور حفلة زفافها . تأملتتها وقد اندهشت
لدى رؤيتي تنورتها القصيرة وقبعتها العريضة . بعدئذ ادركت
ان جميع الصور قد التقطت في كنيسة في ريزاي .

— هل انت كردية ؟

سألتهامتشككة فيما اذا كان في سوءالي اساءة ما . فأجابتنسي
وهي تضحك .

— لا ، نحن آشوريون .

كان لماري عدة اخوة واخوات بهضرون الى المدرســــــــة ،
ولكن لاأحد منهم كان يتحدث الكردية . ومع ذلك فقد كان عليهم
أن يفروا من الكتب المدرسية المدونة بتلك اللغة .

كانت واحدة من المدرسات الاخريات تركمانية ،عراقية
تتحدث بلغتها التركية الام في المنزل والعربية في المدرســــــــة
تماما مثلما كانت تفعل ماري ، حيث كانت تتحدث بالآرامية مع
اخوتها وأخواتها وتحتفظ بعربيتهامتحدث بها مع الاكراد.في
البداية بدا غريبا جدا أن تجد اناسا غير اكراد من مدرســــــــة
لاجئين كردية ، حيث كان التشديد كله مركزا على استخدام اللغة
الكردية كوسيط للتعليم . ولكن ذلك لم يكن لافتا للنظر ضمن محيط
الشرق الاوسط . فقد كانت جماعات اخرى قد انضمت الى القتال
الى جانب الاكراد ، لأن حقوقهم جميعا كانت قد انكرت من قبل
الحكومة العنصرية التي كانت تؤشر العرب السنيين على جميع
السكان في العراق . كانت قرون من العداء بين الاكراد والاشوريين
قد تلاشت في مواجهة حكومة حالية ارادت ان تبيد كلا المجموعتين .

لو كنت اعرف أن ايام هذه المدرسة معدودة ؛ لربما حضرت على نحو مكثف أكثر ولكني لم أكن اعرف . لقد كان لدي عملي في الكلية ، وكنت التقى بالسيد احمدي بانتظام وكذلك بالنساء الكردييات في المدينة . ومع ذلك فقد شعرت انه عليّ المجيء ، فقط للحلوس في حجرة المدرسين . كبح اندفاعي شيء ما بالاضافة الى عملي والملل من منهاج الدراسة في الصف الاول على الرغم من اعجابي بعمل المدرسين المنجز وفقا لما يرتضيهم الضمير وتصميمهم على تعليم لغتهم الام وسط حرب رهيبه ، تستهدف استئصالهم من الجذور .

كان ينتابني في بعض الايام احساس بالذي تجشم عناءه هؤلاء اللاجئين وما جرى لهم لدرجة اني لم اكن ارغب في البقاء معهم في نفس الحجرة وكان ذلك يعود الى جو الكآبة الى حد ما . قضت احدى الفتيات الصغيرات وقتا طويلا من يومها مختبئة تحت مقعدها . وكان جمال يصيح بها باستمرار أن تسلك سلوكا حسنا ، ولكني لم استطع ان اخفي اندعاشي وتساؤلي عن ماهية الانطباعات التي تركها القصف في ذهنهم . كان المدرسون يركضون بعصبية وانفعال نحو النافذة كلما كانت تمر طائرة على نحو منخفض فوق رؤوسهم . وقد لاحظت ان طياري الجيش الايراني كانوا يستمتعون باشارة دعر السكان المحليين وذلك بالتحليق على مقربة دائية ما أمكن من سقوف المنازل في المدينة . بعد فترة قصيرة اعتدت عليهم تماما ، ولكن ذلك سيستغرق سنينا قبل أن يتغلب هؤلاء الاكراد على الخوف اللا ارادي . فقد كانت كل طائرة بالنسبة لهم ميغ عراقية . لم يكن حزنهم وكآبتهم هما اللذان كانا يبقياني بعيدا ، بل ارتياهم ايضا . ففي كل مرة - وكان ذلك نادرا - كنت أبذل فيها جهدي بشكل خاص لا تتبع محادثة ما ، كان احدهم يسألني بحدة :

- هل تفهمين ؟ هل تفهمين ما نقوله ؟

وعندما كنت اجيبهم بأنني لا أفهمهم تماما كما كنت

أفعل دائما ، كانت تبدو عليهم امارات الرضى وعلى الاغلب لا يحاولون أن يوضحوا لي ماكانوا يناقشونه ، فهم لا يريدونني أن افهم امورهم . كانوا ينتقاسمون حزنهم وخوفهم ، ومع اني لست ايرانية فان بعضا منهم كان يعرف ان امريكا ليست افضل من ايران ، بالنسبة للاكراد والمصالح الكردية في الوقت الراهن .

بينما كنت جالسة في الصف الاول في احدى الايام حدث اضطراب وصخب عظيمين في القاعة ، فتوقف قلبي هنيهة لذلك. ماذا حدث ؟ ربما أن قنبلة قد انفجرت . انفتح الباب بقوة ونقل طالب شاب الاخبار الى جمال " وقف اطلاق النار " .

اندفع الجميع من الصف الى القاعة حيث تعانق جميع المدرسين. وقف اطلاق النار . السلام . ضجت هذه الكلمات موضححة ذلك . ابتسم لي الحاضرون وابتسمت بدوري لهم كذلك . كانت هناك اشاعات بأن ايران والعراق سيتوصلان الى اتفاق واخيرا حدث ذلك في الجزائر تحت مظلة مصالح الدفاع عن الذات لمنظمة الاوليك . ولكن ماذا عن المصالح الذاتية للاكراد ؟ ماذا ستفعل بهم ايران الان ، بما أنها لم تعد بحاجة اليهم لتستفز بهم العراق ؟ اردت أن أسال المدرسين . ماذا كانوا يعرفون أكثر مما اعرفه ؟ لاحقا عرفت الجواب وأنا في طريقي الى المنـزل. انهم يعرفون القصف ، القصف فقط . لم يكونوا جنودا . لقد خافوا على حياة الذين خلفوهم وراءهم في كل يوم منصرف وكل يوم آت . والان حيث توقف القصف وكذلك هدأت مخاوفهم ليوم أو يومين لم يفكروا بما سيحدث بعد ذلك وقد اتضح انه شيء اسوأ بكثير مما تصوره .

اجبرت المدرسة على الاغلاق بعد ذلك بعدة ايام . وهدد اللاجئين بانذار يتضمن العودة الى العراق فورا أو أن الحدود ستغلق في وجوههم للابد وبذلك سيتحتم عليهم وعلى اطفالهم البقاء في ايران . لم يرغبوا في البقاء في ايران فهي لم تثبت حتى

وضعهم القانوني كلاجئين ابدا وبذلك لن تسمح للصليب الاحمر على الاطلاق أن يعاين المعسكرات رسميا . لقد عبثت بمصير الاكراد، والان بما انه لم يعد لهم نفع فقد بدا كما لو أن العبث سيصبح أكثر قساوة .

عاد بعض المدرسين عبر الحدود في غضون الاسابيع القليلة التالية . وقد سمعت ان احد مدرسي اللغة الانكليزية قد اعتمد مباشرة . كانت العراق قد اعلنت عن عفو عام لكل اللاجئين العائدين ولكن كل شخص كان يعرف انه توجد قائمة للموت . لن يرجع والد ماري ، ووالد الاطفال الذين كانوا يقطنون خلف منزلنا ابدا فقد قضوا مسبقا فترة في السجون العراقية وكانوا معروفين جيدا لدى الحكومة . حاول البشيميركة الاكراد المعاقون الشديداوا الاهتياج في الجبال أن يواصلو القتال حيث أعلن بعض الفساط عن عدم تخليهم عن القتال بالرغم من موافقة البرزاني على هدنة وقف اطلاق النار . اصدرت الاوامر للمدافع الابرانية المتمركزة على الحدود وفي اماكن اخرى التي كانت تدعم الاكراد سابقا ، اصدرت اليها الاوامر الآن لتسد د نحو الجنود الاكراد الذين لم يستجيبوا لاتفاقية وقف اطلاق النار . كان للفوات العراقية يوما مخصصا للمناورات العسكرية وللقيام بعمليات تمشيط واسعة للتطهير من بقايا الاكراد وضرب نطاق من الجنود حولهم في ممرات جبلية ممتلئة بالثلوج وقد عانى العديد منهم الجوع حتى الموت .

عقد اللاجئين في ريزاي الاجتماع اثر الاخر . ليقرر البقاء ام الرحيل ؟ افتتحت المدرسة ثانية ثم اغلقت مرة اخرى . وقد علمت طلاب الثانوية الانكليزية لفترة نزولا عند طلب المدرسين المتبقين ولكن لم يعد احد يواظب على دراسته . واخبرني جمال بأنه يهرب في المجيء الى امريكا وقد فكرت مباشرة فسي كيفية مساعدته . وقد تصادف أن القنصل الامريكي كان في رحلة قصيرة عبر ريزاي ، وهي واحدة من رحلاته العديدة التي كانت تأخذه ايضا الى اقصى الجنوب والغرب على مقربة من الحدود العراقية .

وقد تساءلت عن ماهية دوره في الحرب الكردية . ولكنني لم امض في تساؤلاتي على نحو كاف عندما عقدت لقاءً بينه وبين جمال وقد افترضت ان مهمة القنصل هي روية الناس الذين يرغبون في المجيء الى امريكا والاصغاء اليهم جيداً فحسب ، ولم يخطر ببالي ببساطة انه يمكن ان تكون لدى القنصل اولويات مختلفة فيما يتعلق باللاجئين الاكراد .

وصل القنصل الى منزلنا برفقة السيد خشيني ، وهو رجل قصير، قوي البنية، وذو ملامح بدينة وكان يتمتع بفضافة غير مألوفة جداً بالنسبة ليراني . كنت اعرف ان السيد خشيني ، وهو مدرس في الكلية ، يقضي الكثير من الوقت يسلي خيراً الجيـش الأمريكي المقيمين في ريزاي . ولعلمي بقدرته على أن يكون فظاً ولمعرفتي شعوره نحو الاقليات الموجودة في ايران تساءلت عما يفعله في منزلي . أي معلومات من الولايات المتحدة كان خشيني سينقلها الى جمال .

لم يجر اللقاء بين جمال والرجلين كما توقعت أو أردت على الاطلاق . فقد بدأ باستجوابه وبما ان جمال لم يكن يعرف الانكليزية ، فقد كان السيد خشيني يطرح عليه السؤال تلو الآخر بالفارسية ، أسئلة لم تكن لها علاقة بالموضوع المتناول - هل كان ممكناً او مستحسناً بالنسبة لجمال ان يهاجر الى امريكا أم لا ؟ كنت قد سمعت ان لائحة بأسماء المنتظرين الراغبين في الرحيل كانت تعد وانه سيسمح لمئتين من الاكراد بالذهاب الى الولايات المتحدة ، هذا الرقم الذي اتضح انه ضئيل على نحو يرثى له على ضوء معلومات حديثة . ولكن القنصل كان متحفظاً على ماورد في هذه القائمة . وانتظر حتى يسمع ماسيقوله جمال بالاجابة على اسئلة خشيني ، التي لم يستطيع جمال فهمها ، لأنه لم يكن يتحدث بفارسية أفضل بكثير من الانكليزية . حاولت ان اترجم له الى الكردية ولكن خشيني قاطعني قائلًا :

- دعيه يتكلم الفارسية ، انه يعرف الفارسية ، اليس

كذلك يا ... جمال ، هل قلت ان اسمك هو ذاك ؟

بعد مرور فترة طويلة وبعدما عرفت ماكان يجري ، لم يكن لدي حول ولاقوة لايقاف ماشرغت في تحريكه . كانا يعيشان به . ويحاولان ان يكتشفا ماهيه مشاعره ودور جمال في الكفاح الكردي، ويحاولان ان يعرفا رآية في ايران . شعرت كما لو ان جمال كان كبش فداء وانني انا التي قدمته الى هذا الفخ . بماذا كان الغنمعل وخشيني منهمكين ؟ لقد كان خشيني شخصا مرتابافيه لدى الامريكيين والاييرانيين منذ فترة طويلة . كان فضوليا جداوودودا جدا مع الجيش الامريكي وكان ذانفوذ واسع واكثر ايذاً من الكثير من أمثاله . اما بالنسبة للغنمعل ، فقد اندهشت منه لأنه كان يبدو دائماً انسانيا وحتى متعا طفا قبل هذا . ولكن طبعا كنت اراه من قبل برفقة الامريكان فقط . وقد بدا سلوكه مع الاكراد غير مماثل لذلك الود الشهم الذي كنت اميزه فيه من قبل . هل يحتاج فعلا الى اشارة مثل هذه المضايقات للاجئين الاكراد ؟ من الموءكد انه كان يستطيع فهم ان جمال هو مجرد مدرس ، وانه حتى لو عرف شيئا ما فلن يقوم باخبارهم به . اذا ما الفرض من هذا الادلل ؟ لم استطع ان افهم ذلك . لربما كان المقصود منه اعطاء درس لي ، لتلك الامريكية المُكَلِّة ، وذات القلب الذي يتفطر حزنا . وكما يعلق لاحقا هنري كيسنجر ردا على اتهامات حول قساوة التورط الامريكي في المأساة الكردية ووحشيته " يجب أن لا يخلط العمل السري خطأ مع العمل التبشيري " ولانتهاء تلك الامسية ، حدق خشيني في ساعتسه وسأل جمال الذي بدأت الكآبة تلوح عليه أكثر فأكثر فيما اذا لم يتأخر الوقت . لقد كان هذا التلميح بالانصراف سمجا جدا لدرجة انه حبس أنفاسي . نهض جمال فورا وغادرنا . أما ضيفاي الآخيران فقد مكثا بعده طويلا يتحدثان وكان شيئا لم يحدث . ولم اتحدث اليهما الا قليلا .

وفي اليوم التالي ولدى ذهابي الى منزل جمال اعتذرت له عما حصل ، نظر الي وابتسم وقال : انه ليس شمة مايدعو للاعتذار.

وبعد ذلك بعدة أيام سمعت انه قد اخذ عائلته وعاد بها الى العراق واخبرتني ماري انه كان موظفا صغيرا في الحكومة الكردية الشورية قبل الحرب .

كان أحد اللاجئين الذين لم يقاسموا مصير جمال طبيبنا يتحدث الانكليزية . تكلم هو أيضا مع القنصل في منزل امريكي آخر مقيم في ريزاي . ولكنه كان قد اشترط عن دراية منه الايحضر المقابلة سواه هو والقنصل . وبعد ذلك بعدة أيام دعانا ذلك الطبيب الى منزله ، وبعد قضاء ساعة مريحة او نحو ذلك ، تفاخر فيها الطبيب باتصالاته بالبرزاني وعناصر من السافاك الايراني ، نهضنا لنفادر مقرين أننا قد سمعنا الكفاية . ولكن الطبيب اصر على أن نبقي لندتسي الشاي معه . فجلسنا ثانية تأملنااه وهو ينزل بسرعة نصف قنينة من الكونياك الايراني المصنع . وافضى الينا قائلا :

- هل تعرفين ؟ أنا اكره امريكا .

- لا ، لم اكن اعرف .

اجبته بجفاء .

- اعتقدت انك كنت تحاول الذهاب الى هناك .

- نعم ، نعم ، انها المكان الوحيد الذي يمكن أن اذهب

اليه تحت ضغط الظروف . ولكن لن ننسج ابدا ما فعلته امريكا

بنا . انتم مسوولون عن مصير الحرب الكردية . انتم اخبرتمونا

أن نبدأ بالحرب . ماكننا سنبدأ الحرب ابدا لو لم يعدنا الامريكان

بالسلاح . وليس مهتما ما وعدت به .

قال ذلك منهما . فسألته :

- من وعدكم ؟ ريتشارد هيلمز ؟ كيسنجر ؟ نيكسون ؟

فقال الطبيب على نحو متكتم :

- لن اخبرك من وعدنا . لقد كنت هناك وسمعت ما كان

على السب . أي . اي . ان تقوله . ربما انت لاتعرفين أما أنا

فأعرف .

لقد اوقع هذا الطبيب النفسور في نفسي بنفس القدر الذي اوقعه خشيني . الا أن المرء له العذر ، عندما يضطر أن يقوم بفعل أي شيء يعدر عليه لينجو بجلده ، عند وجوده في موقع محفوف بالمخاطر .

لم يكن الطبيب حذرا مثل خشيني . فقد شرب الكثير وشعرت حتى نسف عظامي ان ما قاله كان صحيحا . مالمذا كان يحدث هنا في ريزاي بالفيط وامام ناظرنا تماما ؟ من الذي فوض الجيش الامريكي لأن يكون هنا . والى أي حد كانوا يعملون مع الاكراد ؟ لماذا يقوم القنصل برحلات كثيرة الى الحدود ؟ وقساوة القنصل مثل قساوة كيسنجر تخلفان لدى المرء الشعور بادانتتهما .

كنا هنا في فييتنامنا الخاصة والسرية التي لم تكن قد اعدت الانساء بعد ، ولن تعدا ابدا الابالطريقة الاكثر سطحية . هنا كنا نشهد مباشرة اسلوب كيسنجر المبني على نهج السياسة الطبيعية وكذلك السياسة الواقعية ، ولكن ضباط الجيش ، القنصل وامريكيون آخرون في المدينة استمروا في تأجيل اسفلتنا وانكار ملاحظتنا . كنا قد اعتدنا الى حد كبير على الكلام المخادع في ايران ، حتى اننا كنا نسأل انفسنا باطراد فيما اذا لم نكن نخلق اشياء من مخيلتنا .

ولكن ثمة ما يدعو للازعاج اكثر من هذا . فالبرازيلي وجنرالاته كانوا قد تراووا من بعيد محقين وانقياء الى حد بعيد . كان وليم . او . دوغلاس . قد قارن في مذكراته عن رحلة في كردستان قبل عشرين عاما ، الوطنيين الاكراد بالوطنيين الامريكيين في الحرب الثورية . وقد قال : هنا كانت قضية محفة بكل ابعادها وشمولييتها واناس شجعان لامجال لاحد أن يشك في ذلك أو يعترض عليه . ولكن القضية لم تكن واضحة المعالم الى حد بعيد . لم نكن بالقرب من الثورة الامريكية ، ولكن صدف ان قابلنا عددا من القواد الاكراد . لقد كان هنالك الكثير من الاطباء ومن الشوار

الاثرياء ينشرون ذهبهم هنا وهناك في المدينة ، بينما يتلمس الناس في المعسكرات طريقتهم في حال من الذل والهوان . وأيضا كان هناك الكثير من التعاون مع السافاك وأيضا جرى الحديث حول منسح بترول كردستان لأمريكا . وأيضا الكثير من الشك والارتياح وكابنة للغرب الليبرالي ، فقد توقعت أن يكون الاكراد أقل خوفا بكثير لأنني لم استطع ان افهم حقا ما الذي كان يخيفهم .

لم تكن اتهامات الطبيب تختلف من تلك التي سمعتها من الابرايين الذين يعتبرون امريكا مسؤولة عن كل خطأ في بلدهم . حتى أن احدى النساء ، وهي موهبة قوية للشاه ، ادلت برأيتها قائلة : ان السبب في تدني قيمة الالبسة الصناعية الايرانية يعزى جزئيا الى أن الامم الغربية قد باعت ايران حيوطا من نوع رديء . اما مع اللاجئين الاكراد فقد كان يسووني ان اسمع هذه الاتهامات كلها اوجزيا . كنت قد تصورت اللقاء مع اللاجئين ومصادقتهم ، هؤلاء الاكراد الذين يقولون ان ليس لهم اصدقاء . كنت قد ظننت ان العائق الوحيد سيكون قانونيا اوماديا صادرا عن الحكومة . ولم اكن اتوقع عدم ثقتهم الشديدة وامتناعي الحاسم بسببها . ولم اكن اتوقع الثروة الاسطورية للقواد الثوريين في المنفى - رجال تضع زوجاتهم . الذهب واطواقا من الياقوت - رجال يقدم لهم الكافيار الشمين في حفلات العشاء التي يقيمونها .

كنت أقرأ ادبيات الحزب الديمقراطي الكردستاني منذ وقت طويل ، حتى اني توقعت ان اجد النساء الكرديات العراقيات أكثر تحررا وان اجد العلاقات بين الناس أكثر مساواة . وبدلا من ذلك فقد وجدت النموذج المألوف لمالك الارض والتابع ، للسيد والمسود تماما كما في القرى الايرانية . ان الاخت الصغرى في أسر اللاجئين تخدم الاخت الكبرى . الاخت تخدم الاخ والزوجة تخدم الزوج بينما حاول اللاجئين الاثرياء وبدون جدوى ان يتكيفوا مع النقص الشديد في عددالخدم الذين يعملون لديهم . كان تعدد الزوجات والتباهي بالتمايز منتشرا بين اللاجئين المتمتعين باهتياز السكن

في ريزاي على الرغم من التأكيدات المصادرة عن الحزب الديمقراطي الكردي بأن تعدد الزوجات قد تلاشى من بين الاكراد المتعلمين . وكان اللاجئين غالباً ما يخبروني كم كانت الحياة أفضل بكثير في العراق منها في ايران . ولكن كلما كنت اتحدث معهم اكثر ، كنت افهم تماماً انهم كانوا يعيشون عهداً من الارهاب في العراق ، اما دور ايران فقد كان محصوراً في تكثيف هذا الرعب والارهاب .

كان الطبيب أول من سمح له بالهجرة الى الولايات المتحدة من بين الاكراد اللاجئين الذين قابلتهم في ايران . وقبل أن يغادروا رأيت صدفة حقيبة اوراق بنية ممثلة برصاصات الرشاش في المقعد الامامي من سيارته اللاندروفر . وبما أن جميع الاكراد اللاجئين كانوا وعلى نحو طبيعي غير مسلحين عند الحدود ، فلم يكن أمامي الا أن افترض ان السلطات الايرانية قد اعطته ايها . وواضح أن الشيء الأكثر ملاءمة للحكومة الامريكية هو استئصال طبيب ثري ، كان قد تعاون مع الساماك واذلال مدرس ثانوي فقير وصده .

الفصل الحادي عشر

ان مسألة القومية الكردية في تركيا - ذلك البلد الذي يبلغ فيه الاكراد عددا اكبر من أي بلد آخر - فقستها أكثر عندما بكثير من قصة الشوار الاكراد في العراق . لقد ترسخت القومية التركية في وقت مبكر وبالتالي فان القضية الكردية مثل القضية الارمنية كانت قد عولجت بشمولية أكثر . فللأترك سمعة مخيفة في الشرق الاوسط فهم يعدون جدوا عديمي الحضارة ، انقضوا من الشرق ، كالمغول مثلا ، فأخذوا يضطهدون ويذبحون الشعوب المستقرة في طريقهم . وبالقدر الذي يتعلق بالاكراد فانه لاشيء أكثر جدارة بالازدراء سوى التركي . وبقدر ما يهتم الاتراك فان " الكردي الجيد الوحيد هو كردي ميت " . وكما صرح احد السياسيين المحنكين في ثورة كردية في تركيا " كان الجنود الاتراك قد أمروا بأن يطعنوا الاكراد بالحراپ بدلا من أن يفقدوا طلقات الرصاص عليهم " .

قبل مجيئي بسنة الى ايران ، كنت قد وجدت مدرس كرمانجي في الولايات المتحدة حيث كان موظفا لدى استاذ تركي يدرس في جامعة امريكية . اشار صديق لي ، وهو استاذ في اللغات الايرانية الى أن الموظف موسى هو كردي الاصل ، وبالنسبة لمستخدم موسى وموسى نفسه فان كرديته كانت تعتبر ، في الحقيقة سطحية وهامشية . فقد احضر الى الولايات المتحدة لكي يتحدث بالتركية مع الاطفال وكان يقوم بذلك على احسن وجه . وكما اكتشفت مؤخرا كان يتحدث بها أفضل مما يتحدث بالكردية ، لغته الام . كان قد قضى ما يقرب من نصف حياته في استانبول حيث فعل كل ما بوسعه لينسى ذكري طفولته غير السعيدة في بلدة صغيرة واقعة على اطراف ديار بكر في فقر تركيا الكئيبة .

وحالما علمت أنني في طريقي الى كردستان ، ارهقت معلمي

بالاسئلة : ماذا تشبه الحياة في البلدة الصغيرة التي جئت منها ؟
 ماذا يرتدي الناس ؟ بماذا يفكرون ؟ ماذا علي ارتداؤه لـدى
 ذهابي الى ايران ؟ كانت جل معرفتي في امريكا نظرية ، غامضة
 ومعتمدة على اخبار ثانوية . وقد اخبرني موسى المستحي والخجل
 من أصله الريفي اشياء لم اصدقها . فقد اكد لي أن كل ملابسها بما
 فيها الصيفية ، ستكون مقبولة في تركيا الشرقية وان الناس لن
 يهتموا فيما اذا كنا انا وجيرد متزوجين أم لا . ومن وجهة نظره
 فان المواقف والعادات في كردستان التركية تكاد لا تختلف من تلك
 التي في بوسطن . ولكن حتى في بوسطن لم يستطع موسى ان ينسى
 عقدة كونه كرديا .

في حفلة اقمته مرة ، اخذ موسى صديقا تركيا لي الى
 زاوية وسأله عن سبب اصراري على كرديته . لقد كان مسرورا لكسبه
 مالا اكثر لتعليمي الكردية ولكن طريفتي في التركيز على ثقافته
 كانت تقلقه . وسأل :

— الم تدرك بعد أنسي تركي ؟

ان الاكراد الذين يرغبون في ان يفلحوا او حتسى أن
 يبقوا احياء في ظل الحكم الذي اسسه مصطفى كمال اتاتورك
 " جد الاتراك " عليهم هم انفسهم ان يصبحوا اثراكا . لأن ماتسى
 اليه الحكومة التركية وتحاول أن تثبته لبقية العالم منذ سنوات
 هو انه في تركيا يوجد اشراك فقط . وهذه حقيقة ذات اهمية كبيرة
 بما انه يوجد في ايران الجارة المتاخمة تماما اكراد وارمن
 وآشوريون ويهود . وهذا الخليط من القوميات والاديان نفسه يتواجد
 في نفس الوقت في مدن وقرى تركيا الشرقية . كان الاكراد قد
 استخدموا من قبل العثمانيين ومن قبل الجمهورية التركية للتخلص من
 الشعوب غير المسلحة . وللخزي الذي جروه على انفسهم ، فانهم قد
 لعبوا دورا دمويا في مذبة الارمن . وخاليا تجري محاولات
 للتخلص منهم هم انفسهم . ليس عن طريق المذابح ، بما ان عددهم
 كبير جدا ، وبما انه لم تعد هناك عصيانات مسلحة واسعة النطاق

لتخمدها الحكومة . بدلا من ذلك ، تجري ازالة الاكراد بصهر مقاتليهم في الجيش . لا يوجد اكراد في تركيا ، بل هناك فقط " اترك الجبال " لاتوجد لغة كردية ، بل محرد خليط موءلف مما يقارب الثلاثمائة كلمة مأخوذة من اسلاف الفارسية ، التركية والعربية يتداولها بعض القرويين الجهلة . حتى الاترك الاكثر ثقافة وتعلما يعتقدون بذلك ولم تعترف الاغلبية الساحقة من الاترك ابدا بمذبحة الازمن التي حدثت في بلادهم . تركيا هي ارض الاترك ، ولن ترتكب الخطأ الذي ارتكبه ايران الراحة ابدا تحت وطأة تهديد التمزق بأيدي قومياتها المعادية .

ان تركيا هي البلد الذي يقيم فيه غالبية الاكراد ويتكلمون اللهجة الكردية الاقل دراسة في الحقبة المعاصرة ، ولكن الصمت المطبق الذي جابه محاولات في ايجاد شيء ما عن الذهاب الى تركيا لدراسة الكردية اشار الى بداية ونهاية اية محاولات حقيقية للذهاب الى هناك . فالحكومة التركية كانت تختلف عن حكومة الشاه في ايران ، فهي من الممكن ان تقبل الاسلحة من امريكا ولكنها لن تتردد في القضاء الامريكان خارج البلاد اوزجهم في السجن اذا ظنت انهم مصدر ازعاج فعلي او محتمل . عرفت اناسا كانوا قد اعتقلوا لاتهامات اقل اهمية بكثير من محاولة كتابة قواعد لغة محظورة قانونيا . لذلك فقد وجهت ناظري نحو النهاية الشمالية من اذربيجان الغربية والى اللهجة القريبة جدا من الكردية المحكية في تركيا . ولكني لم اتخل عن عزمي على الذهاب الى تركيا .

كنت قد تأملت الجبال التي تشكل الحدود ، لمدة خمسة أشهر . وعندما وصلنا الى ابران في الخريف كانت الجبال معبرة ، وذات لون بني باهت مع مسحات من اللون البرتقالي الفاتح والارجواني . وكانت الرطوبة والخضرة تنعدم كليا حتى الشتاء . كانت الاوراق قد بدأت بالتساقط في بداية آب ولكن منحدرات سلسلة جبال زاغروس كانت جرداء . فالاحراج المزالة والعوامل الطبيعية ساعدت على تعريتها منذ اكثر من قرن مضى . كان من الصعب تصديق ان موسم حصاد وفير قد جرى في وديان وسهول منطقة ريزاي . قبل شهر فقط من وصولنا .

ورطوبة الشتاء وامطار الربيع الاخيرة قد تبخرت دون ان تترك أي اثر . ومابقي كان منحدرات جبلية جرداء ، لاشجر فيها وسهول صخرية ومغبرة .

ان العلامة الاولى على حلول فصل الشتاء في ريزاي هـي ابيضاض المنحدرات العالية الواقعة الى غرب المدينة . وقد اتسع البياض تدريجيا من اللمم المخروطية نزولا الى السفوح الجبلية ، الى أن تساقط الثلج فوق السهل نفسه . في البداية لم استطع أن ابعد نظري عن المنحدرات المبهرة ، ومن ثم وعندما تقدم الشتاء مللت من الثلج وكنت اتشوق لحلول الربيع . يقول الاكراد : في الربيع تصبـح الجبال " كسك وشبن " خليط من الخضرة والزرقة .

احتجت لبعض الوقت كي اعتاد على الجبال ، بعد ان قضيت معظم حياتي بالقرب من المحيط . حتى انها استحوذت على آفـاق ذهني وروحي رويدا رويدا . كنت ارى الجبال المشرفة على تركيا كلما نظرت الى الغرب والشمال الغربي . والى الجنوب والجنوب الشرقي حيث كانت العراق . كان معظم معارفي من الشباب الاكراد قد عـبروا الجبال في وقت او آخر ، الى العراق او تركيا ، اما هربا من الحروب او لمجرد الذهاب للصيد . كان الاكراد يميلون الى اعتبار كردستان برمتها لهم ، على الرغم من الحدود الدولية . لقد عرفوا التشاريـس وعركوا الجبال وهذا ما جعل ذهابهم الى أي مكان يرغبون فيه ممكنا . ولكن دوريات الكشف المتزايدة بأسلحتها وتجهيزاتها المتطورة كانت انتهاكا لهذا الحق الكردي . ومع ذلك فان الشباب الاكراد لا يزالون يتباهون برحلاتهم الى تركيا . كان الاكراد الذين التقيت بهم يثيرون رغبتني في رؤية المزيد ومعرفة كردستان اكثر . قالت احدي النساء :

ـ آه ، كردستان العراق . تلك هي كردستان الحقيقية .
فجبالها ذات خضرة دائمة .
سألت كرديا آخر :
ـ ولكن ماذا عن تركيا ؟

فأجابني :

– الاكراد كلاب .

يهز اكراد العراق وايران الوطنيين رؤوسهم استهجانا عندما يتحدثون عن اكراد تركيا . وقد تساءل احد اكراد العراق الرفيعي الثقافة بصوت مرتفع امامي :

– هل مايزالون اكرادا ؟ انهم يطيعون الحكومة التي تدعوهم بأتراك الحبال . انهم يتحدثون التركية . ولايلبسون مثل الاكراد . لقد اصبحوا اتراكا .

كان القنصل التركي في ريزاي سعيدا باعطائنا معلومات عن التنقل في تركيا . فالى جانب تقديمه قهوة تركية جاهزة وممتازة تحدث بحماس مفرط عن أنواع الطعام وعن خدمة سيارات الاجرة الممتازة ، عن النشاطات الثقافية الرفيعة التي سنجدها في تركيا وعلى وجه الدقة في استانبول . تشكل تركيا الغربية جزءا من اوربا ، اما تركيا الشرقية ، فتشبه ايران في ايام ما قبل البترول وهذا يشكل اختلافا كبيرا بالنسبة للمسافرين . قلت للقنصل لا استطيع مقاومة ذكراني ارغب في الإقامة في تركيا اكثر من ايران فقال مبتسما :

– حسنا ، لم لا ؟ فنحن بالتأكيد نحتاج الى اناس مثلك ليدرسوا هناك . أنا متأكد من انه يمكنك الحصول على مركز وظيفي في استانبول او انقره .

تلاشت ابتسامته عندما اضفت قاشقة :

– في الحقيقة كنت افكر في الإقامة في انطاليا ، حيث يمكنني ان ادرس الكردية . ولكني اعتقد انه لايمكنني ان احوز على اذن من الحكومة التركية لمثل هذا المشروع ، لذلك فقد اتيت الى ايران . فقال معلقا وقد بدا عليه الارتباك :

– ليس لدينا مثل هذه المؤسسات في تركيا .

انتقلت المحادثة بسرعة الى خطط سفرنا . وبعد ربع ساعة من ذلك جمعنا الكراسيات الجميلة الخاصة بالسفر التي اعطانا اياها ومشينا الى المنزل تحت حبات البرد الشتوية التي كانت تسقط فوق ريزاي منذ يومين .

كان علينا ان نجرب حظنا مع الحافلات المحلية ، بما أن جميع المقاعد في القطار من تبريز الى طهران كانت قد حجزت قبـل أن نفكر بقطع تذكرة سفر بوقت طويل ، مما جعل اختيار مبـور الحدود على الاخص أمرا خطيرا . وحالما اقترب (٢١) آذار ، تاريخ بدء السنة الايرانية الجديدة ، بدأنا نفكر على نحو مفصل كيف ومن أين علينا ان نعبـر الحدود . وكانت سيرو وهي مركز الجمارك الرسمي الاقرب ، حيث تبعد ساعة فقط عن ريزاي ومبـر كيلو متر عن وان التي يوجد فيها مطار . سيأخذنا الطريق الجبلي في سيرو عبر جزء من كردستان تركيا . وبازرگان، المحطة الحدودية الوحيدة الاخرى مع تركيا ، الواقعة في أقصى الشمال والغرب من تبريز كانت قد انشئت على الطريق الرئيسي من اوربا الى الهند . وارضروم كانت المطار التركي الاقرب الى ذلك المركز، وهي مركز ارمينيا التركية القديمة . كانت فائدة سيرو تكمن على نحو رئيسي في قربها من المكان ولكن بازرگان يمكن ان تقدم امكانية اكبر للنقل العام .

نصحتنا اصدقاءنا الاكراد في ريزاي أن نتخذ طريق سيرو وأوضحوا انه اكثر راحة . وقد تساءلت لاحقا وبعد امعاني في التفكير فيما اذا لم تكن تلك النسيحة من وجهة نظر العبور غير القانوني . من المحتمل انه توجد دوريات كشف اقل من سيرو . لم يحمل معظم الاكراد الذين التقيت بهم ابدا على جواز سفر ايراني حتى بشرائه .

حالما قررنا الذهاب عن طريق سيرو ظهرت المعوية الثانية وهي تشخيص الوسيلة التي سنذهب بها من ريزاي الى هناك . وفي الوقت الذي لم نكن نملك فيه سيارة وحتى لو كانت لدينا ، فانه سيعتبر

ضربا من الطيش ان نسير بها الى تركيا الشرقية وان نتركها قابضة
لثلاثة اسابيع بينما نظير نحن نحو الغرب . توقعت أنني لن أرى
منها شيء حتى لو ممسحة الحاجب الزجاجي للسيارة . وبما أننا لم
نكن ذاهبين بالسيارة ، فقد كان واضحا اننا سنغتر للاعتماد على
النقل العام . كانت هناك حافلة مخصصة للانطلاق من ريزاي التي
سيرو . ابلغنا متطوع في فرقة السلام كان قد قام برحلة في السنة
الماضية :

- لاتزعجا نفسيكما بأخذ الحافلة .

فسألناه :

- ولم لا .

- لأن الحافلة ستصل بكما الى تركيا بوقت متأخر حيث
لن تقدرنا على أخذ الحافلة من يوكسيكوفنا الى وان في نفس اليوم .
- يوكسيكوفنا ؟

قلنا ذلك باندھاش واستشرنا دليل الحافلة الذي وصف يوكسيكوفنا
على انها مركز الانطلاق العام لبعثات تسلق الجبال الخاصة بنسنا
في تركيا . فقال المتطوع موءكدا :

- نعم ، نعم ، لن أنساها أبدا ، انها ممتلئة . بصيبة صغاردوي روموس
حليقة برداءة . ولن يدعك سكان المدينة تغيبين عن انظارهم
ويوجد فيها فندق واحد مزدحم على نحو فظيع ولا نصح به للنساء
على وجه الخصوص .

كانت صورة تركيا ، الموصوفة في كراسات القنصل تضمحل في
ذهني ، وماتراء لي انه سينبثق ، ويفرض نفسه ، كانت تركيا
التي من المحتمل ان تكون حتى افقر واكثر عدوانية من ايران
الريفية . وقد نمحنا المتطوع قاتلا :

- لاتخبروهم ابدا ان لكما نسبة مختلفة في تركيا

فهم سيفترضون مباشرة انكما لستما زوجين وان مارغي هي برسهم
البيع .

خلف ذلك في ذهننا انطبعا اسوأ مما خلفته ايران التي لم يسألنا فيها احد بعد ، فيما اذا كنا متزوجين ام لا . وقد قررت على نحو حاسم انه سيكون من الحكمة ان اضع وشاحا على رأسي ولكنني لم أعرف مايمكنني ان افعله اضافة الى ذلك لأجعل من نفسي أقل وضوحا . كان الحجاب في تركيا قد حظر لسنوات عديدة على نحو مغاير عن ايران ، حيث كان الغطاء لا يزال سائدا لدى العديد من النساء .

ابدى السيد خليلي استعدادات لمرافقتي لمركز المدينة بالقرب من منزل دارا احمدي لينتقي لنا سياره اجرة يمكن لها أن تأخذنا الى الحدود . وقد شعر بشقه بأن أحد سائقي سيارات الاجرة ممن يعرفهم سيأخذنا بسعر معقول ، وذلك لما كان يتاح له دائما من فرص السفر الى قرب الحدود . وما حصل بعد عثورتنا بالصدفة على خط سير الفولكات الزرقاء والبيضاء البالية بدا وكأنه نذير لما كان سيأتي في يوكسيكوف .

تجمع حشد من رجال شبان ، مرتدين على نحو بدا فيه الفقر واضحا ، حولنا عندما مشى السيد خليلي نحو خط السير يسأل أولا أحد السائقين ومن ثم الاخر اذا كانوا يقدرون على اخذ اصدقائهم الامريكان الى الحدود في الساعة السادسة من صباح الجمعة التالية . وعندما لاحظهم السيد خليل وهو في غمرة اسئلته طلب منهم المغادرة ولكن صديقي ذا الاخلاق الدمثة لم يكن يجاري هذا الحشد الذي أخذ يتزايد اكثر ويصبح اكثر عدائية في كل لحظة . بدا السيد خليلي متضايقا الى أقصى حد وهمس في اذني قائلا :

— لن يرضى أحد بسعر اقل مناسب . ويقولون أيضا أن السادسة صباحا ، هو وقت مبكر جدا . يعتقدون انه عليك الذهاب بسيارتك الخاصة . وعلنا أخيرا الى نهاية خط سيارات الاجرة دون ان نجد سائقا يرغب في أخذنا الى سيرو . كان الحشد قد تزايد الى حد اخذ يعيق حركة المرور في أحد اكثر شوارع ريزاي ازدحاما انتابني شعور بأن السيد خليلي كان يتمنى لو أنه لم

يعرض علينا المساعدة أبدا . خلصت نفسي من الجمهور وركضت الى الجانب الآخر من الطريق ، فتوقفت سيارة برتقالية فجأة ، وبينما عدت اليها ، لوحث بيدي مودعة السيد خليلي الذي كان لا يزال في الجانب الآخر من الطريق . وقد سألتني السائق عن تلك الجمهرة عندما تحرك بي بخفة مبتعدة الى حيث يتوفر أمان نسبي في حي من احياء الطبقة الوسطى . وبدا انه يعرف ما كنت اتحدث عنه بالفضبط على الرغم من توضيحي الطفيف لذلك . ألم يكن واضحا انه في المكان الذي تتواجد فيه نساء اجنبيات سيتواجد فيه حشد من الرجال الايرانيين ايضا ؟ ولتعرف ذلك ما عليك الا أن تنظر الى مداخل دور السينما الايرانية المكتظة بالرجال عندما تعرض افلاما ايطالية عاطفية حتى الصميم .

بدأنا أنا وجيرد ، بعد أن يثسنا - نسأل بعض اصدقائنا الايرانيين ممن يفتنون السيارات ، اذا كان لديهم مانع من اخذنا الى الحدود . ولقد رفض الامريكيون ذلك لمراحة ، امـ الايرانيون فقد تنحنوا وتلثموا متمسكين بالشكليات وآداب السلوك . واخيرا عرض علينا كولونيل في جيش الولايات المتحدة عرضا فيه من الكرم والسخاء ، بعد ان سمع بمحتنتنا ، وذلك بان يأخذنا فساط ايراني الى الحدود في سيارة تابعة للجيش .

مع ضوء الصباح الباكر ، ليوم رحيلنا ، عبرنا المبانى الستة الضخمة متجهين نحو مقر الجيش ، لتلقي بالسائق . كنا نتحدث مع السائق عندما انطلقت بنا السيارة الامريكية الضخمة معودا ونزولا فوق الهضاب وحول المنعطفات الحادة لطريق سـيرو . كان الهواء ربيعا ، ولكن الثلج كان لا يزال يكسو الجبال في كل الانحاء حولنا . وصلنا في أقل من ساعة وغادرنا السيارة وبدأنا بالسير بما انه لم يكن مسموحا للسيارة رسميا أن تأخذنا الى الحدود تماما . امسكنا بحلقائنا بعصبية ، بينما كنا ننظر الى السيارة . سمعنا سقسقة الطيور واصوات ذوبان جليد النهر المنتشرة حولنا . كان مركز الحدود الايراني يقع امامنا مباشرة

وخلف ذلك وعلى بعد مسافة لم نستطع ان نميز وسيلة نقل تركية قط . عندما وصلنا محطة الحدود الإيرانية ، لاحظت انها تشبه منطقة حدود واسعة بين الولايات المتحدة وكندا بموقف خاص مضاء جيدا وبنائية ضخمة حديثة وذات تدفئة مركزية . وكل ذلك من أجل ثلاث سيارات اوشاحنات كانت تعبر من هناك خلال يوم مخصص لذلك . استغرق الوقت ساعة كاملة حتى استيقظ ضابط الجمارك الإيراني ، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة حتى ذلك الوقت . امسكنا بجوازات سفرنا المختومة ومن ثم تصافحنا وقلنا " خودا حافظ " . بدت لنا ايران فجأة آمنة وآمنة على نحو مدهش . وما كمن أمامنا تماما كان لغزا . لم يكن موظفوا الجمارك الإيرانيون قادرين على الاجابة على أي من اسئلتنا عما كان يحدث على بعد نصف كيلو متر من الجانب التركي .

تحولت الطريق المعبدة وموقف السيارات الإيرانية فجأة الى تراب . وبينما كنا نمشي بمحاذاة مجرى النهر المتدفق عبر الممر الجبلي القينا نظرات على سفوح الجبال ورأينا منزليين خشبيين من الممكن ان تنمية الاسكان الأمريكية قد هجرتهما سنة ١٩٤٠ . تبني معظم المساكن في ايران من القرميد ، مع اقلية محاطة بجدران ولكن هذه كانت تركيا الجمهورية الغربية التي أنشأها اتاتورك حيث تشكل الجدران ومن المحتمل الغطاءات أيضا بقلبيها ماض غير منور ثقافيا .

كان افراد دوريات الجيش التركي قابعين في مواقعهم وعلى رؤوسهم خوذ بيضاء بأشرطةها المربوطة حول الدقن ، وفي اقدامهم احذية جزوها الاعلى ابيض وقد كانوا يبدون مثل جنود من الدمى اكثر مما يبدون كالجنود العديمي الرحمة الذين وصفهم الاكراد . ارشدونا الى مخزن اسمنتني . وفي داخله وجدنا ارضية طلبة جرداء ، وموقدا صغيرا يعمل على حرق الخشب ورجلين قصيرين قويين بجسميهما الممتلئين ولامح شرقيمسة ذات تعابير حادة ، وثوبين فضاضين واسعين قد تدليا على اكتافهما

وقد ادعى الرجلان انهما من باكستان ولكنهما كانا قادرين على
التحدث بالفارسية . شاهدنا رجلين آخرين ايضا وقد بدا انهما
ليسامهري سبيل ، الا انهما كانا فقيرين جدا بحيث كان من
المستبعد أن يكونا من موظفي الجمارك . وقد علمنا بعد عبدة
اسئلة ان ضابط الجمارك كان لا يزال نائما . على الرغم من أن كلا
من ايران وتركيا بلدان ممتدان من الشرق حتى الغرب امتدادا
واسعا فانهما يندرجان تحت توقيت موحد . واخيرا وصل رجل
نحيل وذو عيني زرقاوين . لم يكن لقائنا لطيفا او ودودا
مثلا كان في الجانب الايراني . فُحصت حقائبنا برمتها وبعد
بضعة أسئلة اشير الينا ان نخرج من المكتب الصغير الواقع خلف
المستودع . وسألنا الموظف بينما كنا نهم بالمغادرة :

— اين يمكن ان نجد الحافلة الذاهبة الى بوكسيكوفنا؟

— تحدثي الى الرجال هناك .

واشار باتجاه السكيرين غير الشرقيين اللذين كنا قد رأينا هما
مسبقا . وقد تلاشت رغبتني في ذلك . عندما عرفت انهما يحاولان
خداعنا . فقد كانا يقولان بخليط من اللغات :

— تاكسي ، تاكسي ، نقود ، نقود .

اذا فالشاحات التي سمعناها في ريزاي صحيحة . فلن
تمل حافلة ما ابدا لتنقلنا الى المدينة الاخرى ، بوكسيكوفنا . وبدلا
من ذلك علينا أن نستأجر سيارة اجرة لتعبر بنا العشرة
كيلومترات هذه . وسيكون السعر عشر دولارات ، وهو نهب يمارسه
سائقوا سيارات الاجرة الريفية ، الايرانية والتركية بتقديرهم
لهذا السعر . وعلاوة على ذلك فان المبلغ يدفع سلفا والافلس
يأثوم السائق بنقلك . كان موظف الجمارك قد خرج من مكتبه ، وكان
يراقب هذه المفاوضات من كذب وباتزان .

ولكي نبدد الوقت مشينا انا وجيرد الى مقدمة المستودع
واطللنا من خلال النافذه . لم تلح وسيلة نقل على مرمى البصر ،

ولو كنا محظوظين جدا ربما استطعنا ان نوقف سيارة ايراني او اوروبي صديق ، لنسافر مع احدهما متطفلين . ربما يحدث هذا في الاسبوع التالي . قررنا اخيرا أن ندفع العشرة دولارات ، عرضت النقود التركية وانا اتساءل ما الذي يمكن أن يمنع الرجال من سرقة النقود دون ان يعدوا لنا سيارة .

تقدم نحونا احد حراس الحدود حيث بدأ انه على علاقة طيبة مع السائقين ، بينما ادار احد سائقي التاكسي قرص الهاتف ليطلب يوكسيكوفنا . لقد كانوا يتظاهرون بطلب سيارة على الاقل .

اشناء مفاوضاتنا من سيارة الاجرة شد حديثهم انتباهي فقد كانوا يتحدثون الكردية وليس التركية . بدأت لتوي في غرفة الحارس بالتحدث مع مضيفنا بالكردية . اتسعت عيناه قليلا ولكن لم يبدر منه أي تعليق . ومن ثم ادار مفتاح الراديو بسرعة الى محطة اذاعة الحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق . بدأنا نشعر براحة اكبر عندما تدفأنا بموقده الذي يعمل على الحطب . صوب لنا مضيفنا حالا كأسين ضخمين من الشاي التركي العشبي النكهة مرفقا بقطع ضخمة من القاند . وأظهر لنا كتبنا كان يستخدمها ليتعلم الفارسية ، وكان ذلك مشروعا قد بدأه ليمضي به الوقت في مركز الحدود الموحش هذا . وصلت الحافلة العمومية الصغيرة من يوكسيكوفنا بعد ساعة من ذلك وبينما كنا نصعد الى المقعد الثاني سمعت الحارس الذي قدم لنا الشاي بهمس للسائق ومساعدته ويقول :

— انها تتحدث الكردية .

سألني السائق مباشرة فيما اذا كنت اعرف الحاج اسماعيل أم لا . فقلت اني اعرف ابنته .

— اذا ذلك هو المكان الذي تعلمت فيه الكردية .

قال احدهما للأخر .

عاود حي خشية من شر مرتقب حالما سرنا خارج منطقة

الحدود . دقت النظر من خلال نوافذ الحافلة ، لأقارن كردستان تركيا بكردستان ايران . بدا الطريق الترابي المتآكل والمتعرج كما لو انه في مكان ابعد من ايران التي بدت وكأننا لم ننطلق منها ولكننا وبعد ذلك لم نتنقل ابدا حول ريزاي وفي الريف بدون دليل . ها نحن قد بقينا وحدنا ، وعلى الرغم من أن معرفتي بالحاج اسماعيل قد خلقت انطبعا قويا لدى السائق فقد كنت أشك ان اسم الحاج اسماعيل سيمضي بعيدا لدرجة حمايتنا من خشونة تركيا الشرقية .

توقف السائق عدة مرات ليملأ مبرد محرك السيارة المسرب بالماء من قناة للري . توقفت الحافلة في القرية الاولى القابعة عاليا فوق منحدر تل ليأخذ السائق اناء صغيرا من اللبن الطازج . رأيت بعض النسوة على بعد مسافة وقد كن يرتدين الزي الكردي التقليدي ذا التنورات العديدة ولكن الرجال كانوا واقفين في هيئة مختلفة تماما عن الاكراد الايرانيين . فقد كانوا يرتدون قممات مستديرة ومسطحة من الاعلى وذات حواف وسترات صوفية قديمة وسراويل . من الممكن ان تكون البذلة برمتها في طرازها وحالها امتداد للزي البريطاني السائد في الثلاثينيات . ولاتمام الصورة فقد كانوا يحملون عصوات للمشي . وقد افترضنا انها لابد ان تكون البذلة الرسمية الغربية التي ادخلها اتاتورك في السنوات ما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ لتحل محل الشلوار والعمامة الكرديين المحظورين وكذلك محل اللباس التركي التقليدي . وبعد نصف ساعة من الارتجاج فوق اخاديد في الطريق والالتفاف حول تراكمات ضخمة من الثلوج والصخور المنهارة وبعد اضافة الماء الى الرادياتور المسرب وصلنا الى الجزء الادنى من مدينة بوكسيكوفنا . وقد ذكرنا الضباب الابيض الصاعد من الارض المكسوة بالثلج بوصف فيودور للمكان حالما ترجمنا من فوق المقعد العالي للحافلة المغيرة . ولكننا لم نشهد أيها من السواح أو متسلقي الجبال . وبدلا من ذلك فقد تقابلنا مباشرة مع حشد من الرجال والمهنية مرتدين على نحو سيء وقد اتضح انهم سكان غرفة جرداء قذرة اشار اليها السائق على انها محطة الحافلة .

خطوت صوب منضدة خشبية تقوم مقام طاولة المحادثات
وكان يجلس خلفها رجل طويل القامة وسيم وذو شعر احمر مجعد
وشارب احمر . وقد لمعت عيناه الزرقاوان بينما كان يراقبني وانا
انطق الكلمات الضرورية بالكردية ، وبدأت قاتلة :

- نريد شراء بطاقات الى وان .

حدق الرجل ذو الشعر الاحمر لبرهة خارج النافذة وكان بقية الرجال
يراقبون من كذب هذا التفاعل الناشئ . واخبرني قاتلا :

- لقد تأخرت كثيرا ، فالحافلة المخصصة لهذا اليوم

قد غادرت .

نظرت الى ساعتني ، لم تكن قد تجاوزت العاشرة بعد ، وكان صديقنا
الامريكي قد اخبرنا ان الحافلة من يوكسيكوف الى وان لاتغادر
حتى الساعة الحادية عشرة ، فقلت :

- لايمكن ان تكون قد غادرت ، فلزال الوقت مبكرا جدا

فقال وقد بدا عليه السرور :

- نعم ، ولكنها قد رحلت .

نظرت خلفي نظرات عجل الى حيث كان يقف جيرد قرب حقائبنا ويجهد
لفهم ما كان يجري . واطاف الرجل ذو الشعر الاحمر استجابة
لنظرتي القلقة :

- نعم،لم العجلة ؟ لابد ان تبقي وتشاهدي مدينتنا .

نقلت هذا لجيرد الذي بدأ متخوفا ومتضايقا . لم يكن معتادا
على البقاء من غير اتصال بالآخرين . ففي ايران كان معظم الاكراد
الذين التقينا بهم يعرمون بعض الفارسية . ولكن الآن وبما انه
لايعرف التركيكية او الكردية فقد بقي مهملا . احس الحشد بهذه الحقيقة
حالا ، وقد اشار ذلك فضول الرجال . سأل الرجل ذو الشعر الاحمر مشيرا
الى جيرد :

- من هو ؟

فأجبتة :

— انه زوجي .

— انه لا يتحدث الكردية ، لماذا تتكلمين في السفر معه ؟

لو لم أكن في تركيا الشرقية لربما سرتي ذلك التحول ، عندما عرض على جيرد زوجة اخرى في مانوا . ولكن هنا بيوكسيكوفنا لم اكن في موقع يدعو للضحك . وكنت سعيدة جدا لوجود جيرد معي ولم أكن ارجو ان يظن هو ^{لا} الرجال غير ذلك . كنت قد سمعت أن امرأتين امريكيتين عبرتا الحدود التركية — الايرانية بسيارتهما الخاصة وحدهما ، كانتا قد سلبتا من قبل عصابة هاجمتها .

تفحصت جدران ولوائح محطة الحافلة بحشا عن أي لاشعة يمكن ان تخبر عن موعد مغادرة الحافلة الفعلي . وبعد ذلك سألت الرجل ذي الشعر الاحمر ثانية ولكنه استمر في تأكيده لي ان الحافلة قد غادرت في الساعة الثامنة من ذلك الصباح ولو أنني فقط اكيف عن القلق ، فاني سأقدر على قضاء الليلة في بيوكسيكوفنا وأخذ الحافلة في اليوم التالي . فكرت في نفسي ، حسنا ، لربما ان مواعيد السفر قد تغيرت منذ السنة الفائتة . ان احتمال الغاء جميع الحافلات المخصصة للجانب في شرق تركيا لم يبد بعيدا جدا ، بعد تجربتنا عند الحدود . فسألت الرجل :

— حسنا ، اذا لم تكن هناك حافلة ، هل توجد سيارة اجرة ؟ يجب ان نذهب الى وان اليوم .
فكر وهو يبتسم :

— تاكسي ؟ طبعاً ، طبعاً . ولكن اولا يجب ان نذهب ونشرب الشاي معا . ومن ثم يمكننا ان نذهب الى وان . اعرف شاحنة ستأخذكما الى هناك .
فسألته :

— هل انت متأكد ؟

— طبعاً ، هل تظنين أنني اكذب عليك ؟ انت مثل اختي .

وقد كرر هذه العبارة في غضون الساعة التي تلت عدة مرات

وغالباً ما كان يرفقها بدعوات الى منزله . على الرغم من اني فسي محطة الحدود كنت قد بدأت اشعر وبثقة بأن معرفتي باللغة ستقربنا من السكان المحليين او على الاقل انها ستجعلنا اقل غربة ولبو قليلاً ولكنها سرعان ماتحولت الى شيء بغيض . فقد كانت معرفتي باللغة الكردية تساعدني ببساطة على فضح مجونهم اكثر .

طلبت من جيرد ان نذهب الى المقهى . وبما أن الرجل ذو الشعر الاحمر قد ابدى استعداداً للخدمة ، فقد قررت انه سيكون من الافضل أن نسايره لفترة . وعلى الرغم من تحفظاتي فقد كنت نصف مفتتنة بهذا الكردي الوسيم ، المليء بالحيوية والحماسه . وبتردد وضعنا حقائبنا على الارض في زاوية حجرة الانتظار . هل ستبقى في مكانها الى حين عودتنا ؟ كان حشد الرجال والصبيات ينظرون اليها شزراً وكنا مكرهين لأن نتصرف وكأننا لم نشق بهم وقد ارانا الرجل الذي عين نفسه دليلاً لنا شاحنة حمراء كبيسة كانت مستقرة على الطريق حالما خرجنا من الحجرة وتوجهنا نحو الطريق الرئيسي . واخبرني قاطلاً :

— تلك ستأخذكما الى وان .

فسألته :

— حقاً ؟ متى ؟

فأجاب دليلاً بتأن :

— حالا ، حالا ، ولكن في البداية لابد من تناول الشاي .

دخلنا المقهى الذي لم يكن يتميز عن مقاهي ايران حتى بطاولاتها المخيرة المربعة . لم ألمح حتى ولا امرأة فيها . وقد التفتت الروءوس جميعها نحونا ، وحالا دخلت مع الرجل ذو الشعر الاحمر وجيرد . واستمتعت لبعض الدقائق الاولى من جلوسنا هناك بجو التشويق والاشارة . ففي كل مرة تحدثت فيها ، كان يسود الحجرة ، هدوء يمكن المرء من سماع صوت طحن قطعة من السكر . وبعد ذلك تضح الجدران بهممات مختلفة عندما ينقل الرجال الى

اصدقائهم في الاماكن البعيدة ماكنت اقله وذلك على مراحل متتالية . لم يكن التلفزيون قد وصل مقاهي يوكسيكوفنا بعد. ولكن الشيء الاخر الاكثر اشارة ، وهو وجود امرأة اجنبية تتحدث الكردية ، كانت قد وصلت الى هذه المقاهي . بينما كنت اتحدث ، كان العرق يسير على ظهري تحت سترتي وكنزتي الصوفية وتحت معطفي المطري الثقيل . بدأت اتساءل بالحاح اكثر عن كيفية خروجنا من هنا . كان الرجل ذو الشعر الاحمر يتصرف كما لو انه يرغب في الاستمرار في مرضي الى الابد على رفاقه في المقهى متباهيا بي.

بينما كان يقدم لنا الفئجان الثاني من الشاي لمحست بطرف عيني من خلال النافذة، الشاحنة الحمراء التي كان من المفترض انها ستقلنا الى وان وهي تنعطف في زاوية على طريقها للخروج من المدينة . وقد فرغت لدى روءيتي ذلك ونقلت المعلومة الى جيرد . فقال الرجل ذو الشعر الاحمر متملقا :

— تكلمي الكردية ، نحن لانعرف الانكليزية .

حدثت فيه وانتفضت قائلة وتبعني جيرد ومشى مضيفنا وراءنا الى خارج المقهى مع العديد من الاحتجاجات المستاءة لعدم اتمامنا احتساء الشاي حتى . اختار عدد من السادة رواد المقهى هذه اللحظة للمغادرة . والتف حشد كالحلقة حولنا بينما شققنا طريقنا عاصدين الى الشارع الى حيث المكان الذي بقيت فيه حقائبنا سليمة على الرغم من انها لم تكن غير ممسوسة . وبعد محادثة سريعة مع جيرد التفت الى الرجل ذي الشعر الاحمر خاطبته قائلة :

— كنت اظن ان الاكراد اناس طبيبون وشرفاء وانهم معروفون بحسن ضيافتهم . فابتسم الجميع لذلك واتممت :

— ولكنني لأظن انك تقول الحقيقة . كنت تعرف ان الشاحنة ماكانت ستأخذنا الى وان . لماذا حاولت أن تخدعنا ؟

منذ ذلك تلاشت الابتسامات وبدأ الناس باللفظ . كان الرجل ذو الشعر الاحمر قد اندهش لذلك . ان الاهانات المندرة بالسوء

في كردستان قلما تلفظ جهارا ، بغض النظر عن مدى صحة الاتهام .
لم يعاملني هؤلاء الناس كضيف ، بل كسائحة عابرة ، يمكن ان
يتسلوا معها . على الرغم من أننا كنا تحت رحمتهم فهم لم يرغبوا
بأن توجه لهم التهمة بالسلوك غير الحسن .

هذه الصفة المتناقضة ظاهريا ، هي حقيقة بين الاكراد
حيث يحتوي تراثهم على حكاية خرافية ذات مغزى تشبه هذا
الموقف . تقول الحكاية انه وقع احد الصيادين أثنا عاصفة ثلجية
في حفرة دب ، وللفرج الذي نزل على الرجل ، فان الدب لم يقتله
ولكنه تركه يمكث في جحره لبقية الشتاء . وكلما بجوع الرجل
أو يعطش ، كان الدب يعطيه قدمه ليلعقها ، واتضح ان هذا
كان شيئا مثيرا للاشمئزاز ، فقد بدأ الرجل بفقدان شهيته باطراد
وعندما حل الربيع ، ساعد الدب الرجل على التسلق للخروج من حفرة
وقبل ان يمضي الرجل في طريقه ، يسأله مفيقه :
- هل احسنت معاملتك يا أخي ؟

فيجيبه الرجل بصدق :

- نعم ، ولكن كان لقدميك رائحة كريهة حقيقية .
آنشد يتوسل الدب الصياد ان يطعنه في ظهره فيتردد الرجل ولكنه
اخيرا ، ونزولا عند الحاج الدب يذعن لذلك . بعد عودته الى
القرية ، يتذكر الرجل الدب ويخبر عائلته بانه يرغب في
تقديم زوجين من الخراف له ، تعبيرا عن شكره لابائاه عنده
طوال الشتاء ، وعندما يعود الرجل الى حفرة الدب يجد ان جرح
الدب بالسكين قد شفي ، فيعطيه الخروفين ولكن الدب يجيبه قائلا :
- انا لا اريد هداياك . انظر الى الجرح الذي سببته
مديتك انه قد شفي بدون مساعدة الاطباء او الدواء ولكن جرح
كلما لك البغيضة لن يبرى ابدا .

كانت تركيا الشرقية قد فتحت ابوابها للسياح الاجانب
في السنوات الست او السبع الاخيرة فقط . وقبل ذلك كان السلب

والنهب والثورات شائعة هناك . في الوقت الذي جرحتهم اتهاماتني حتى الصميم فكرت في احتمال ان معرفة الرجل ذي الشعر الاحمر بالبرنامج هي التي احشته على قبول طلبي . من ثم أعدت لنا سيارة اجرة قديمة مزودة بسائق وتفاوضا حول الاجرة . وعلى الرغم من أن السعر كان اعلى مما كان يجب ان يكون ، فان الخمسة عشر دولارا لرحلة ، الثلاث ساعات الى وان كانت مقداراً أقل بكثير من العشرة دولارات التي دفعناها لرحلة النصف ساعة من الحسدود . حشر اثنان من المحليين نفسيهما في المقعد الامامي مع السائق لانه سيعتبر ركوبا مجانيًا بدون شك .

تجمع الرجال حول سيارتنا ليودعونا ، بينما سأل الرجل ذو الشعر الاحمر نحو النافذه . وسأل :
- هل ماترايين تظنين ان الاكراد اناس سيئون ؟
فأجبته :

- لا

لقد كنت سعيدة لمجرد مغادرتنا يوكسيكوفنا .
فقال :

- حسنا . لاتنسينا . وتذكري انك اختي . عـودى
وزوريني .
فأجبته من خلال مقعد السيارة الامامي :
- شكرا جزيلا .

بعدئذ تقدم نحوى العديد من الناس وصافحوني من خلال نافذه السيارة .

بعد ذلك ، لمحت المرأة الوحيدة التي شاهدتها فـي يوكسيكوفنا فقد مرت على بعد ما يقارب خمسة اقدام مثل شبح عبر حقل مكسو بالثلج . كانت تضع على رأسها قماشا أسود سميكاً ، يوصل حتى ركبتيها ، وبانت تحته ساقان عاريتان ، وكاحلان مكسـوان بجوارب بيضاء داخل حذاء اسود مسطح . بدا انها تحديق باتجاهي واستغربت لقدرتها على الرومية من خلال القماش . كان علي أن اعرف

قبل ان افكر ان الغطاء بكل اشكاله غير المستحبة قد حُسم
في تركيا .

بينما انطلقنا خارج مركز المدينة ، انعطفت حافلة
في الزاوية وانطلقت بسرعة ، مارة بنا ولكنها لم تكن بالسرعة
المفترقة ، فقد استطعنا ان نقرأ كتابة عليها من الخارج " بحيرة
وان " . نظرت الى ساعتي وكانت تشير الى الحادية عشر الاضع
دقائق ، كما كان قد اخبرنا متطوع فرقة السلام .

بدا ريف مقاطعة هكاري في تركيا اكثر اخضرارا ولكسن
أقل كثافة بالسكان من غرب اذربيجان . وحالما سُقنا طريقنا في
منعطفات في الجبال ، رأينا رعاة ومعهم كلاب ضخمة .

كان بعضهم يرتدي العمامات الكردية والسراويل الفضفاضة
وكان اغلبهم يرتدي لباسا من الطراز البريطاني يعود لسنة ١٩٣٠ .
بعد عدة ساعات انطلقنا الى بوشقالة وهي مدينة كردية معنونة
في القدم ذات شوارع مرمطة بالحجارة ، مبنية على جانب جبل .
تناولنا عشاءنا فيها مع السائق وركابه الآخرين . ابسديت
ملاحظتي لحقيقة انهم دفعوا بدلا منا ، ولكن جيرد اشار متشكيا
الى أن من الطبيعي ان يكونوا كراما جدا بالنقود التي نهوها منا .

بعد العشاء تحول الطريق شمالا مباشرة باتجاه وان ،
وبدانا بالتسلق نحو الالسة الجبلية العالية لزاغروس . اختفت
الشمس وراء الغيوم وكان قد حل الجليد والثلج ، محل العشب الاخضر
الباهت في مطلع الربيع . وقد سرنا نحو عاصفة ثلجية صغيرة فسي
قمة رحلتنا وبدأت السيارة بالانزلاق ، بينما كنا نغالب المنعطفات
الحادة . اهللت عيناى محاولة الا افكر في كيفية عدم ملامسة
عجلات السيارة الارض هذا اذا تجاوزنا ذكر السلاسل الجبلية .

بينما كنا نهبط من فوق الجبل ، حدثنا عاليا الى حافة
الجرف وشاهدنا هيكل واجهة حمن قديم . سررت لانه لم يهد

مأهولا . ان أي امرئ كان يقدر على انتزاع مايرغب فيـــــــــــــــــه
كضريبة على العابرين ، بسبب موقعها السيطر على الطريقــــــــــــــــق .
كان الاكراد حتى بدون هذه القلاع قد بسطوا سيطرتهم على الممرات
الجبلية في تركيا الشرقية ، الى ان اوقفهم الجيش المرسل من انقرة .
من ذلك .

فأدركنا الجبال تدريجيا وبدأنا باحتياز الحقول . كانت
قد أنشئت في ضواحي وان مساكن مشابهة بالمباني التي رأيناها
عند الحدود وكانت هذه ايضا ذات افنية غير محاطة بجدران
وقادنا طريق عريض تكتفئه الاشجار لمركز المدينة بينما كنا
نلقي نظرة عجل على كتاب الدليل السياحي بحثا عن اسم فندق ما .
وافق السائق على اختيارنا لفندق بيش كارديش ، وبينما توقف
امام مبنى كبير ذي مظهر مهمل بساحته المفروشة بالحصى والمزينة
بمجموعة تماثيل ، كتب احد المسافرين - كانت قد جرت بيني
وبينه محادثة ودية - اسمه واسم قريته بسرعة على قطعة ورق
وناولني اياها . وقال موءكدا :

- عندما تعودين الى الحدود ، اتمنى ان تزوريني .

شكرته وانضم الي جيرد بتوديعه توديعا حارا بعد ان كانت
معنويات جيرد قد انتعشت بعد نجاحنا في الوصول الى وان برغم
كل شيء .

دخلنا الى حجرة الانتظار في الفندق ومشينا بجانب
بعض الكراسي الركة المحشوة وحوض سمك مغبر . سألت الموظف
الشاب الانيق الجالس الى مكتبه :
- هل تفهم الكردييه ؟

فقلت بالكرديية بأننا نريد غرفة ، معتبرة ان صمته هو
تهديق لذلك . فابتسم دون أن يتفوه بكلمة وناولنا
استمارات لنملأها بالمعلومات المطلوبة ومن ثم ناولنا المفتاح .

بحيرة ملحية كبيرة وتحيط بها الجبال وتشبه ريزاي الى حد كبير بما ان تركيا تفتقر الى بترول يحقق لها ازدهارا اقتصاديا كما تفتقر الى لاجئين عراقيين حيث كانت الحدود مع العراق قد زرعت بالالغام لتبقي الاكراد في الخارج ، فقد كان عدد سكان وان يقارب حوالي ثلث سكان ريزاي فقط . واذا كان ثمة مجتمع اجنبي في وان ، فهو لم يكن واضحا ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كان من النادر ان يحدق بنا احد وكان ذلك يوفر لنا راحة عظيمة بالمقارنة مع ماكان يحدث في ايران . وكان السكان ينظرون الي وكأنهم لم يروني من قبل ابدا بغض النظر عن المرات التي كانوا يشاهدوني فيها . كانت بعض النسوة في الخارج مرتديات نوما من الغطاء المستعمل كبديل موءقت للذي رأيناه في يوكسيكوفنا ، ولكن بشكل عام بدا ان النساء كن قد حللن مسألة الحجاب المحظورة بعدم الظهور في الشارع مطلقا . وطالبات المدارس كن يمشين ييدا بيد مرتديات البسة على الطراز الغربي مع السراويل ولفافات على رؤوسهن . وجدنا أنا وجيرد مقهى وجلسنا لنتمتع باحتساء الشاي وفي ذلك الحين لاحظت ان رجلا يراقبنا عن كثب من طاولة كانت بقرنها . كان ثمة شيئا ما في نظرتة لم ارتح له . انهينا شاينا بسرعه وخرجنا نازلين فوق الهضبة وانعطفنا حول زاوية لننهى تنساول فطورنا في محل معجنات . وبينما كنا جالسين هناك فتح الباب ودخل نفس الرجل وجلس بالقرب منا .

عند العودة الى الفندق جلست في غرفة الانتظار بالقرب مجموعة من الرجال . كنت متأكدة من أن السكان في وان هم من الاكراد . ولكنني كنت قد سمعت ، مصادفة ، بعض الناس في المدينة يتكلمون التركية مع اطفالهم . بدا الناس هنا راغبين من التحدث معي بالكردية على نحو مغاير عما كان في يوكسيكوفنا . ولكن عندما اخذت السرعة التي وضعت فيها تحت المراقبة بعين الاعتبار لم يبد خوفهم شيئا غريبا .

على كل حال كانت حجرة الانتظار في الفندق ممتلئة

بنماذج رغبة شبيهة باليوكسيكوفين . فقد كانوا جميعهم
يتحدثون بالكردية فيما بينهم .

التفت الى الرجل الجالس بجانبه والقيت عليه التحية وسألته
عن صحته . كانت اجابته ودية وحالا عقدت محادثة مع مجموعته
كاملة من المهربين الاكراد . سألتهم :

— ماذا تهربون ؟

فنظر الرجل حوله ومن ثم اجابني بصراحة :

— اغنام ، سيارات ، أي شيء .

فكرت متسائلة :

— أغنام ؟

— آوه ، نعم يمكنك ان تحصل على سعر افضل بكثير
للغنم الواحدة في ايران اكثر مما يمكن ان تكسبه هنا ، اكدوا
لي ذلك وسأل احدهم :

— هل اتيت من ريزاي ؟

— نعم ، هل تعرفين اين هي ؟

— طبعا ، ذهبنا الى هناك عدة مرات .

وانفجرت وجوههم المفجرة بتأثير العوامل الجوية عن ابتسامات
عريضة مسلية .

— هل تعرفين الحاج اسماعيل ؟

— نعم .

اجبت بذلك مندهشة الى المدى الذي قد وصلت اليه شهرة الحاج
اسماعيل الغامض هذا .

كان مطار وان بالنسبة لمطار ريزاي نفس ماكان يعنيه
مركز الحدود التركي قرب سيرو بالنسبة للجانب الايراني . كان مبنى
مطار وان ذا كلفة باهظة ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ، ان كلا

من ريزاي ووان كانتا تقومان بثلاث رحلات اسبوعيا لعاصمة البلاد.
لم يكن البناء يحتوي على ناد ليلي او على رخام مزيف . وقد
تجولنا خارجا في الجو المشمس والبارد بردا قارسا لنراقب وصول
الطائرة من استانبول عندما مللنا من صور اتاتورك المعلقة في
مكتب المدير .

بعدما ترجل الركاب انزل تابوت خشبي غير مزخرف على
السلالم من الطائرة وتحركت مجموعة من الرجال المرتدين اغطية
ذات طراز كردي لاستقباله . لم نشاهد في أي وقت آخر في تركيا
الشرقية مجموعة من الناس مميزين بهذه السهولة على انهم اكراد.
رفع الرجال التابوت وحملوه الى مجموعة اخم من الرجال الذين كانوا
ينتظرون ويبكون خلف البوابات . واخيرا شرعنا في الطيران ونظرنا
نحو الاسفل الى تضاريس تركيا الشرقية الملتوية والملتفة على بعضها
وقد ضرب زلزالان هذه المنطقة بعد سنة ونصف من ذلك الحين ، نشر
الاكرد العراقيون تقارير عن المعانات الرهيبة التي تلت هذه
الهزات ، وعن المساعدات الدولية المرسلة التي لم تصل الضحايا
ابدا . ونقلت الصحف الكردية العراقية عن تصريحات لمسؤولين
اتراك يقولون فيها " على كل حال ، هم ليسوا الامجد اكراد " .

وصلنا الى استانبول بعد ست ساعات . وقد بدت لنا
كما لو انها ستة قرون . استانبول هي مدينة جميلة تضح بالتجارة
والصناعة بالإضافة الى التباين بين المباني القديمة والحديثة
الجميلة . في وان ، البنايات القديمة الوحيدة هي الكنائس
الامريكية التي كانت قد انتهكت قدسيته لعقود ممت . ومنذ ذلك
الحين كانت الحكومة قد انشأت الشيء القليل من المباني الجميلة
والممتلكات في وان . ولماذا تتجشم عناء ذلك ؟ فالذين
يقيمون هناك هم من الاكراد فقط .

يبلغ عدد الاكراد القاطنين في استانبول خمسين ألفا
او ما يقارب ذلك ، وقد قدموا اليها لايجاد عمل فيها وتباعدوا
في رحمة هذا الحشد . لم نلقو على التضاخي من سماع الكرديسية

لدى تحوالنا في شوارع وازقة المدينة عندما اخذنا موسى السذي عاد من امريكا لروبة معالم المدينة . وقد اصبحت بذهول عندما اكتشفت انه لن يتحدث معي بالكردية في استانبول على الرغم من انني كنت قد قضيت سنة في الولايات المتحدة اتعلم الكردية منهم. والان بعد كل تجربتي في ايران استطيع التحدث بلغته افضل من أي وقت آخر ولكن موسى كان يفضل الانكليزية المكسرة .

سألته فيما اذا كان سيذهب معي الى البازار للبحث عن كتب وبيانات كردية مسجلة ، حيث كانت تظهر بين فينة واخرى على الرغم من ضغط الحكومة . فأجابني بلطف ولكن بحزم :

لا يامرغريت ، لا أظن ذلك .

— هل تظن انني سأقدر ان اجد كتباً من هذا القبيل ؟

فأجاب بحذر :

— ربما ، لأعرف .

وفي اليوم التالي كنا نشق طريقنا من بائع كتب الى آخر في البازار ، الى أن انتهينا الى شارع ضيق مئرج موء الى ساحة يتفرع منها شوارع . وقد حصلت على نسختين من قاموس كـردى-تركي واربعة اشربة موسيقى كردية ، ذات الخمسة والاربعين دورة. في كل دقيقة . كان الباشعون ينظرون الي نظرات شاقبة وتساءلت فيما اذا كانوا ينتظرون اجنبيا ليتلقف هذه الكتب فير القابونية من اياديهم . او لربما تكون لديهم غرف خلفية مكدسة بفـسواد كتابية كردية ولكنهم ولانهم لايتقون بي ، لم يقدموا على بيعي ايهاا .

وبعد ان امسينا اسبوعا في تركيا ذهبنا الى مصر وقد قرأنا المزيد عن نهاية الثورة الكردية في صحف القاهرة . وقد ورد في احدى المقالات ان الجنرال البرزاني كان يطلب حق اللجوء السياسي في الولايات المتحدة . فكرت في المدرسين في مدرسة اللاجئين . فكرت في مدى اختلاف نهاية الحرب عن توقعاتهم كانوا

يصدقون أن نصرا كرديا هو ممكن ، وكنت آمل ان تتاح فرصة
لأزور كردستان العراق . وتساءلت فيما اذا سيبقى اللاجئين في
ريزاي حتى عودتنا .

وقد طرنا من القاهرة الى بيروت ومن ثم الى انقرة واخيرا
الى ارضروم . وهي مدينة قديمة ذات ابنية وجدران حجرية
وشوارعها المعتمة ايضا كانت حجرية . لقد رحل الارمن عنها منذ
زمن بعيد فقد أبيدوا في مذابح جماعية في مطلع القرن العشرين
وشتتوا في ارض اجنبية . لم اجد احدا في ارضروم يتحدث الكردية
معي ، لقد بدا ان الاختلاف قد تلاشى ، فقد كان الجميع يرتدون
نفس نسوع الالبسة الغربية وطبعا كان كل شخص يتحدث
التركية .

واخيرا ، بعد رحلة طويلة ، مغبرة وخطرة في الحافلة
من ارضروم وصلنا الى الحدود الايرانية مارين عبر بارزكان
أولا ومن ثم عبر مازكو ، واخيرا وصلنا الى تبريز . وقد
بدت لنا ايران اكثر جمالا حتى على الرغم من مشهد الجماهير
المثير في بارزكان . فهنا كان البوليس السري قد رآنا من قبل
على الاقل ولم يتجشم عنا مضايقتنا بالحديث معنا في اوقات
معتمة . كان الاكراد هنا يتحدثون ، ويرتدون مثل بقية الاكراد
أما هناك ، فقد كان الاختلاف موجودا بدلا من النظام . ربما
كان علينا ان نبتعد منذ زمن أبعد لنكتشف بعجلة اكثر
ان ايران كانت موطننا . لم احتمل انتظار الوصول
الى كردستان حيث كنت قد سمعت اسم حاج اسماعيل
في تركيا على شفاء كل مهرب اغنام . وقد اعتدت على التفكير
بأن الاكراد الحقيقيين يقطنون في مكان آخر . في تركيا في العراق
في مهاباد وليس في ريزاي . لم يبارحني التفكير بأن الاتراك
الآزريين سيستوفونني وان السافاك سيرحلوني من البلاد بسبب
بحثي في اوضاع كردستان . كان علي الذهاب الى وان التي
يتحدث فيها اطفال الاكراد بالتركية ، لكي اكتشف اني مشيت
في كردستان ، وان الحاج اسماعيل كان ينتظرنني في ريزاي طوال
هذا الوقت .

الفصل الثاني عشر

كان يقف في مدخل حجرة الجلوس الضخمة شخص طويل القامة ، يميل الى النحافة ، ببذلة سوداء ، وذووجه شاحب وعينين زرقاوين غامستين ، وهو يتكلم مع مريم حيث كانت جالسة مع نساء عائلتها في يومها الاخير في المدينة . لقد ظهر لل لحظة ومن ثم اختفى الى حيث لا ادري . وعندما عدت موعرا الى شارع بهلوي لارى خديجة كنت ادرك بين الفينة والاخرى حضور هذا الرجل ولكن بطريقــــــــــــة سطحية جدا وبعيدة عن زاوية نظري . لم يدخل الغرفة التي كنت اجلس فيها ابدا ، او يعطي أي إشارة تدل على انه يعلم بحضوري ، لذلك ، تساءلت عما اذ كانت النساء قد اخبرنه بزياراتي .

عندما أقبل الربيع ادركت تماما ان رحلا قويا جدا ، سيسطر على حياة هؤلاء النسوة اللواتي قضيت معهن الكثير من الوقت . كن يتحدثن عنه دائما بهمسات تقريبا او بقلهقهات مكتومة . " قال الحاج ذلك " أو " الشيخ يريدنا ان نفعل ذلك " وعلى الرغم من انه لم يقدم الي رسميا ، فقد ثبت لقب الحاج على ذلك الشخص الغامض الطويل القامة الذي لمحتة في الخريف .

وبعددة غريبه كان اليوم الذي التقينا فيه انا والحجاج وجها لوجه ، هو نفس اليوم الذي اخترته ، لألبس متباهية اللباس الكردي الذي كان جيرد قد اوصى به لي في البازار . وقفت وحدي أمام مرآة حمامنا الصغيرة محاولة ان اسوي الوشاح البرتقالي لكي لا ينزلق عن رأسي ، مثبتة الفستان الاحمر الساتين الضارب الى الزرقه بدبوس امان ضخم ، فوق " الكراس " الابيض والاحمر والاصفر الذهبي . لم ألبس ثيابي الكردية بنفسي من قبل ، على الرغم من اني كنت قد ارتديتها في مانوا وفي قرية السيد شيخ زاده . و كان علي أن اجهد في وضع " الكراس " علي وان ألف حزام هــــــــــــذا

اللباس الداخلي حول خصري واسحب نهايات الاكمام الطويلة الرفيعة خارجا لكي استطيع ان اربط اكمام " الكراس " عندما ارتدي الفستان ، وللقيها من فوق رأسي لتأخذ مكانها فوق ظهري واشبت الفستان المفتوح أسفله من الامام بدبوس امان ضخم . عندما نظرت الى بذلتي ، ادركت ان مظهري هومثل مظهر معظم النساء الكرديات تماما ولكنني لم أكن على وشك ارتداء فستانين ، مثلما كانت تفعل خديجة . كان الثوب القطني الذي يدمى فستانا داخليا يشكّل غطاء كافيا لي بدون " الفستان " او " الكراس " والصدارة المنطبقة عليه . تحت ثقل كل هذا القماش ، كنت اشعر كما لو ان السروال الفففاض ، الساتين سينزلق من خصري ، وقد تساءلت الى أي مدى سأقدر على المشي في الشارع ، قبل ان ينزلق ساقطا حول كاحلي. لقد كان صعبا للغاية . اردت الجلوس ونسيان هذا الشيء برمته ولكنني كنت اخاف ان اجهد البستي الجديدة . فوقفت في حيرة من امري . ألم أكن انا التي رغبت في اظهار نفسي بهذا الزي وارتديت الالبسة الكردية في الشارع ؟ لأفترض أن الاتراك عرفوني ، عندئذ ستصبح الالبسة الكردية تسليتهم المفضلة وستعني لهم الكثير . استطيع ان اتخيلهم يحتشدون حولي ، ويتبعونني . وقد حثني على الخروج فقط تفكيري بمنظر خديجة المندهشة والنساء الاحريات . ولو كننت اعلم ان الحاج اسماعيل سيكون موجودا او ينتظرني فلا أظن ابدا اني كنت ساستجمع شجاعتي وتخوفي معا ، لأخطو بحذر نازلة على الدرج المؤدي الى الفناء . لدى خروجي اندفعت والدّة شهزاده فجأة من الدار وتفحصتني من قمة رأسي حتى قدمي . كنت قد القيت غطاء اسود مخروما على البذلة بكليتها ولكن اللباس الكردي كان يرى من خلالها بوضوح .

— مبارك .

غمغمت بطريقة جافة وهي تهنئني اما على بذلتي الجديدة ، أو على اعصابي وتحملي ارتداءها وهذا الاحتمال كان وارد اكثر .

خرجت بلباسي المهفهف ، عبر الفناء وفتحت البوابنة .

ووضعت نظارتي في محفظتي لأنني لم أر امرأة بغطاء ، تضع نظارة ابدا . وآملت فقط لو أنني استطيت ان اجد طريقي خلال الازقة الى الطريق الرئيسي بدون الاصطدام بشيء . ولحسن حظي اعطاني ثقل ملابسي زخما في حركاتي ، حيث كانت تدفعني الى الامام على الرغم مني . بدا غطائي كأنه يتلاطم كال موج حولي وبدا كل شيء ينزلق وينزلق . وفكرت في نفسي ، اذأ هذا مايفعله الحجاب فهو يبقي المرأة منشغلة كلياً بامسাকে . ان الاغطية العربية الاكثر جدية لها فوائدها ، فهي على الاقل تبقى ثابتة بنفسها ولاتنزلق .

مر بي راكب دراجة ، فالتفت لأنظر اليه ولكنه استمر في طريقه حتى دون ان ينظر نظرة باتجاهي . عرفت انه لم ينظر وراءه لأنني انا ذاتي نظرت باندھاش . ما الامر ؟ ففي الأشهر الخمسة الفائتة لم يمر بي صبي على دراجة دون التحديق وراءه . كان من المستحيل تقريبا ان اوفق بين شعوري الغامض بالروعة مع مظهري الجدي غير الجلي . كنت سأصل لبيت خديجة دون أن يلحظني احد ابدا لولا ارتكابي خطئي المشؤوم . فقد حدثت في عيني بائع الخسروات وأنا في طريقي ، بينما لاتحدق امرأة ترتدي فطاء ابدا في عيني رجل في الطريق . وقد فغرفاه البقال اندھاشا عندما عرفني ، فاسرعت باحثه من جرس باب البيت التالي آملية ان تجيب خديجة قبل ان يبادر بالكلام .

هناأتني خديجة بصوت مرتفع ، عندما رأت ملابسي واجتمعت النسوة حولي في الطابق العلوي ليبدین اعجابهن بها . كان جميع الاكراد الذين رأيتهم يفتخرون حقاً بملابسهم . فقد كانوا يظنون ان ملابسهم أمظم قيمة من الملابس الغربية وكانوا يسرون لروية الآخرين يرتدونها . ان هذا تقليد حي بين الاكراد وهم يفتخرون به . وليس بالضرورة ان تنعدم لديهم ، الثقة بالنفس ليروا انفسهم كما يراها الاتراك والفرس .

تقدمت زينب نحوي وهي تضحك ، وفكت دبوس الامان الكبير
وتركت الفستان متدلجا .:

— مارفريت ، ليس على هذا النحو .

عدلت لباسي ، مغلقة " الكراس " الداخلي ، حيث رفعتة ولفتة
حولي لكي تبقي السحاب من الامام وليس من الخلف . ان السحابات
ودبابيس الامان يمكن أن تمتد رديئة في الغرب ولكن دبوس الامان
في كردستان له فعالية عند الاكراد ، فهو وكما اكتشفت موءخر
يفيد تماما في طرد " الخلبليك " هذه الارواح الكردية الشريرة
التي تظهر مند المغيب متنكرة بشخصيات اناس حقيقيين ، وتنزل
الغراب على ضحاياها . لا اعراف اذا كان للسحابات خاصية
سحرية ، لكنها من الموءكد ليست غير مرئية .

عدلت زينب ايضا وشاح رأسي الذي كان يظهر نصف شعري
وهذا شيء لا تظهره المرأة الفاضلة . وحالما بدأت التعديلات
والاوه والآهات بالتوقف تدريجيا ، ظهر الرجل النحيل الفارع القامة
مند المدخل بنفس البدلة السوداء . كانت قد ارتسمت ابتسامات عريضة
شيطانية على محياه ، بينما كان يخلع حذاءه نهضت حالا وانسا
انقل نظري بينه وبين النساء الاخريات وتحول عدسي الى صدمة ،
كان كما لو ان مصيبة حلت على الحجرة او كما لو أن ميسدوزة
قد انت الى الباب ، بدلا من رجل يبتسم بخبث . كانت وجوههن
قد شحبت وصمتت اصواتهن . بدا كما لو انهن تحولن الى تماثيل
وهن يلفن بلا حراك . توقفت عن الابتسام ولكن حالما خطا
الحاج اسماعيل نحو الحجرة ورفع يده ليصافحني بثبات ، لم
استطع مخالفة الابتسام ثانية :

— تفضلني بالجلوس ، تفضلي .

بقي يردد هذا لي ، ولكنني بقيت واقفة . ماكنت سأجلس وجميع
النساء منتصبات حولي وقد تجمدت حركاتهن . فسأل زينب
مستغيبا :

.. بماذا لم تلتصق ؟

فأجاب زينب وعيناها مسدلتان :

— انها نعرف عاداتنا .

انحنى الحاج اسماعيل نحو الارض بسرعة ، وتبعه اسما ولكن بدا لى وكأن النساء الاخريات ينكمشن بدلا من ان سطسن بحبوبة . امر الحاج زينب بأن تحضر طبقا كبيرا من الفواكه ، ففعلت وخرجت بسرعة ، وظهرت ثاسية بعد دسقة اودقبعين وهي تحمل طبقا مزخرفا مصفولا من الموز . بعد ذلك قدم لي الحاج واحدة والتقط بعضها منها لتعسه . وكانت النسوة لايزلن يسدون حراك .

— شاي ، هل قدمت لها الشاي .

سأل زينب التي نهفت ثاسية بصمت لتحضر الشاي نزولا عند رغبة الحاج . ومن ثم لمحت حديجة التي بدت كما لوأنها كانت تتجشم معاناة تجربة زلزال . فهي حتى لم تجلس ، بل قرفت الى جانب الحائط تماما فوق الارض على مسمع بارد ، مفروش وراء طسرف السجادة قرب الباب . كان لغامها قد انسحب فوق وجهها المتجه صوب الجدار .

كان الحاج لايزال يتحدث معي ، كما لو انه ليس ثمة خطأ على الاطلاق ، لذلك حاولت ان اتجاهل الافة التي اصابت كسل النسوة حولي ، وبعد عدة زيارات كانت مقتصرة على النساء فقط بدا ان هناك شياغير طبيعي ابدا ، حتى بالنسبة لي في اللقاء مع رجل وجهها لوجه في هذا المنزل . قال الحاج مبتسما :

— حسنا ، لقد اخبروني انك تتعلمين لغتنا .

أو مات برآسي موكدة ذلك . فسألني وهو ينظر الى النسوة اشباه التماثيل :

— ماذا تعلمت لحد الآن ؟ ماذا علمتك ؟

لم أعرف بماذا أجيب ، ولكن الحاج أطلع على دفتر ملاحظاتي الذي كنت أحمله معي في كل مكان وسألني :

— ما الكلمات التي كتبتيها عندك ؟ اقرئيها لي .

فتحت دفتر ملاحظاتي وانتابني شعور كما لو أنني على وشك خوض أول امتحان لي في الكردية . قرأت ببطء مادوننته . فطلب مني الحاج أن أحدد معنى كل كلمة وعندما لم يوافق على ماقلتة بدأ بتفريع نسائه . وقال مذكرا أياهن :

— يجب أن تعلمنها على نحو صحيح . انها مقدمة على تأليف كتاب .

شعرت بالذنب لأنهن حوسبن بسبب اخطائي ، ولكن زهنب وخديجة لم تظهر اي علامة تدل على اعتراضهن على هذا اللوم غير المنصف . لقد كانتا ارفع بكثير من أن تظهر أي علامة من هذا القبيل .

بقي الحاج اسماعيل ينظر الي وعلت وجهه ابتسامة مريضة . بدا سعيدا لانه اخذ يقاطعني بالانتقادات والاسئلة ، وكأن ابتهاجه معديا فقد شعرت انا أيضا بالابتهاج لأنني اتعلم الكردية وكنت سعيدة لاني اتحدث معه . ولو ان النساء فقط لم يهدون كما لو انهن قد اصبن بصدمة لكنت اكثر سعادة . بعد حوالي مشربين دقيقة استأذن الحاج اسماعيل ليذهب للملا في الحجرة المجاورة ، وحالما فادر عادت النسوة الى الحياة .

— ما الامر ياخديجة ؟

سألته شاعرة بالراحة لرويتها تبدو وقد انتعشت من جديد ومادت الى طبيعتها . ضحكت صديقتي بمرح . كانت تعرف ما أتحدث عنه على وجه الدقة .

— انها عادتنا ، مارغريت . على المرأة ان تكون محتشمة في حضور حميها . وتحركت بسرعة صوب المدخل ، فناديتها :

— الى اين انت ذاهبة ياخديجة ؟

فأجابتنني ٪

— سأقوم ببعض الاعمال .

من الواضح انها قد شعرت بالراحة لقدرتها على الفرار .
في ذلك الحين ، خشيت أن ابقى وحدي مع هذا الحاج ، سـاحـر
الجماهير . لقد اصابني بعض من خوف النساء . كانت خادمـة
خديجة ايضا قد ذهبت في الوقت الذي عاد فيه الحاج . وزنـب
فقط هي التي بقيت معنا .

كان الحاج اسماعيل قد استمع لتوه للاخبار من المذيع
واراد ان يعرف كل آرائي عن حادث مايبا غور . وبما اني كنت
افتقر الى سماح معظم الاحداث الدولية خلال اقامتي في ابران ،
فلم اعرف ما قوله ، ولكن الحاج جلس مبتسما لي ، كما لو
أن أي شيء سأقوله سيفتنه . نجحت في قضاء نصف ساعة اخرى
في الحديث معه ، بذلت فيه قصارى جهدي وقد ارهفتني مقدرة الرجل
وكذلك الجهد الذي بذلته لكوني الوحيدة في الحجرة التي تقـوم
بمحادثته . شعرت ان كرديتي هي قيد الاخبار ، لذلك كنت
اختر كلماتي بحرص متخوفة من ارتكاب خطأ ما . واخيـرا
استنفذت معظم قدرتي لهذا اليوم وخاصة تلك المحسدة في مجموعة
من المواد التركيبية ، التي تطلبت جهدا مصاعفا . فاخبرت الحاج
انه علي ان اغادر ، ولكن هذه المرة وعلى نحو مغاير عن تلك
المررة الفاشلة ، في احدى فترات العصر ، عندما كنت مع مريم ،
حيث جهدت على ان اعرب عن رغبتني بالمغادرة على نحو لبق
ومهدب .

— هل تسمح لي بالمغادرة ؟

نظر الي مبتسما ، رافضا ان يجيب على مثل هذا السؤال فجريت
طريفتي القديمة .

- علي ان اذهب للمنزل واحضر الغدا ١٠
- لابد ان تمكثي وتتناولي الطعام معنا .

لقد سرتني ذلك ، وجعلني حذره في نفس الوقت . كيف يمكن أن
ابقن واتناول الطعام ؟ سنكون أنا وهو الشخصين الوحيديين في
الحجرة ، نتناول الطعام . فأضفت قاضية .

- ان زوجي ينتظرني

- زوجك ؟

كرر ذلك ونظر الى زينب للتأكد من ذلك .

- هل هي متزوجة ؟ اطلبني منه ان يحضر الى هنا .

كان الحاج قد اشار اهتمامي لدرجة اني عزمت على أن
يشاطرنني جيرد في معرفته . اخذتني زينب الى حجرة نوم الحاج
حيث هتفت الى منزلنا ، ودموت جيرد كياتي وياخذني . لقد شعرت
حقيقة بالراحة ، لأشني لن اتجاوز عقبات الطريق الى المنزل لوحدي
في بذلتي الكردينة .

حالما دخل جيرد للحجرة ، امر الحاج باحضار كرسي معدني
له . وتصفح الرجلان ومن ثم جلس جيرد في كرسيه ، بينما جلست
انا والحاج على الارض . وقد دغنا الحاج وهو يبتسم طـوال
الوقت ، للذهاب معه الى قريته دستان في نهاية الاسبوع . نظرنا
انا وجيرد ، احدا الى الآخر . ماذا علينا ان نقول ؟ فقبل
ثلاثة اشهر كنا سنقبل مباشرة ، ولكننا لم نعد نقبل اي شيء
فورا في ايران . فقلت :

- شكرا . ولكن لن نقدر .

سأل الحاج :

- لماذا ؟

فأجاب جيرد :

- علينا ان نعلمي دروسا بعد غد .

- سأعيد كما الى دروسكما .

فأجبتنه :

- ولكن ذلك سيشكل ثقلاً عليك .
- ولكنني اريدكم ان تأتيا ؟

أجاب الحاج بالحاج :
نظرت الى جيرد متسائلة ، ولكن جيرد هز رأسه .
- لا ، لن نقبل ..

لم يتدخل الحاج عن دعوته مباشرة ولكنه عندما رأى
اصرارنا ارتسم تعبير في نظراته ، متعذر مهمه . وعندما عدت
الى المنزل لاحقاً ، اجتذبت السيدة الكردية والرجل الاجنبي بعض
النظرات المستغربة . وسألنا انفسنا عما اذا كنا قد تصرفنا على
نحو صائب برفضنا دعوة الحاج . وعندما عدت الى منزله بعد عدة
أيام لرؤية خديجة اخبرتني ان الحاج قد استاء كثيراً من رفضنا
لدعوته . وكررت زينب نفس المعلوماً ، مضيفة ان الحاج قد اخبنا
كثيراً . عند ذلك افعمت بالندم ، ولكن كيف كان لنا أن نعرف أن
هذه الدعوة حقيقية ؟ هل سيدعوننا ثانية ؟ لربما قد انزعج
لدرجة انه لن يكرر الدعوة ثانية .

لقد اصبح الحاج الآن حقيقة جلية بعدما رأيته ، وتحدثت
معه فعلاً . تحدثت عنه الى السيد خليلي ، وقد ادلى ببعض
التعليقات التهكمية الموضوعية الى حد ما .
- آوه ، الحاج اسماعيل . هل تعرفين ان له خمس
زوجات ؟ خمس زوجات ، تصوري ذلك .
قال ذلك ومن ثم ضحك ضحكة مكتومة .
- خمس زوجات ؟

كنت قد رأيت وسمعت من ثلاث فقط الخمس زوجات ، تشغل
زوجة زائدة عما يسمح به القرآن . كيف يمكن لرجل متدين مثل
الحاج ، يصلي الفرائض الخمسة كل يوم ، ان يتخذ خمس زوجات ؟

في احد الايام ، كانت امرأة ذات ملامح حادة ، ووشم

ازرق باهت فوق حنكها المغير المديب ، تجلس بين النساء في منزل
تسارع بهلوي . نظرت اليها بفضول . فالمرأة الكردية الوحيدة التي
رأيت وشما ازرق على وجهها كانت لاجئة عراقية . ان الوشم
وخزام الانف التي تستخدمها النساء في اجزاء اخرى من العالم
الاسلامي لتزيين انفسهن ، يعتبران عادة عتيقة الطراز ، وقد
بطل استعمالها لدى العديد من الاكراد اليوم . وموخرًا سألت
خديجة عن تلك المرأة الموشومة ، فأخبرتني خديجة قائلة :

— انها والدة احدى زوجات الحاج . لا احد يحبها .

ومن ثم هزت كتفيتها غير مبالية .

تقت لمعرفة كل شيء عن جميع هؤلاء الزوجات . أين يسكن ؟
هل لديهن منازل منفصلة ؟ هل يقضي الحاج اسماعيل وقتًا متساويًا
مع كل واحدة منهن كما يأمر القرآن . لقد كان ذلك شيئًا غريبًا
حقًا بالنسبة لي . كانت من الزوجات يعيشن في القرية ، عدا
زينب التي كانت قد عينت لتعتني بأولاد الحاج الذين قد بلغوا
السن المناسبة لدخولهم المدرسة في المدينة . بدا لي أن كل
امرأة مستقلة بذاتها . وبدا أن مريم لديها القليل مما يربطها
باسماعيل . لقد أدركت الآن كنه الدعابة الموجهة اليها والتي
تقول ان زوجها سيبحث عن زوجة أخرى اذا تركت المدينة . كان
قد اتخذ ثلاث زوجات بعدها ، مسبقًا ، ولكن اتضح أن ذلك لا يكفي فقد
بدا أن زينب وحدها كانت تتصرف كزوجة في المدينة ، فقد كانت
تنام في حجرة نومه معه . والزوجات الثلاث الأخريات كن غامضات
كليًا بالنسبة لي . حتى والدة عائشة التي قابلتها مرة والتي
أكاد لا أستطيع تذكرها . ربما يكون الحاج معروفًا في كل أنحاء
كرديستان بتجاوزاته المتعلقة بالزواج ، ولكنني لم أستطع فهم
هذا الجانب من شخصيته بسهولة . فهو لم يظهر لي سوى الأدب والود
والاحترام خلال كل الوقت الذي عرفته فيه . أما علاقته مع نسائه
فكانت شيئًا آخر . وقد حصل بيننا مدام مباشر ، لمرة فقط ، فقد
كنت طلبت من خديجة وزينب بالاضافة الى أولاد الحاج الصغار أن
يأتوا في رحلة الى قرب البحيرة ، وكانت زينب قد ردت علي وهي

تضحك بعصبية أن علي أن أستاذن الحاج ، فعلت ذلك ولكن الحاج رفض طبعا وقال ونبرة الانزعاج في صوته :

- لماذا ؟ لماذا تريدان الذهاب الى البحيرة ؟ اذا أردت أن تذهبي لمكان ما ، اذن تعالي الى القرية . ذلك هو المكان الوحيد الذي أريدهم أن يذهبوا اليه .

اخبرتني خديجة انه ماكان علي ابدا ان اطلب منه ذلك مباشرة ، وانها كانت ستجد طريقة لاقناعه . لم يكن زوجها طه ابن الحاج الاكبر صارما لهذا الحد . واشتت مواعدا انها موفية لوعدها في تحديدها حكم الحاج . ولكن زينب رفضت أن تتزوج وقالت انها لن تسمح لنا بأن نصورها ابدا مدعية ان تلك هي رغبة الحاج . وعندما سألت الحاج عن قرار عدم التقاط الصور قال انه ليس لديه أي اعتراض . ماهي حقيقة المسألة ؟ كان الحاج اسماعيل - وهو زوج لخمس زوجات مستاءات ، ووالد لـ ١٢ عديداً من الاطفال ، رجلا سارا جدا . لم يك هناك شك ، في قدرته او ذكائه ، ولكنني استغرقت وقتاً طويلا لكي افهم كم كانت علاقتنا معه تتمتع بامتيازات . لاحظت في احد الايام بينما كنت انا وجيرد جالسين مع طه وابن عمه رحيم في حجرة ضيوف والده ان طه ذا الاربعة والعشرين عاما ، ورحيما ذا العشرين عاما كانا يتهاامسان كتلاميذ المدارس . فهما لم يتحولا الى حجر كما حل بالنسوة فسي حضور الحاج ولكنهما لم يجروا على ان يتحادثا على نحو مباشر مع والدهما وعمهما . لقد كانت كلمة الحاج قانونا لمسات عديده على الاقل من الرجال الاكراد المسلحين . لقد كان مشهورا في كل انحاء كردستان . فضلا عن ذلك فقد اتى زمن نجح فيه الحاج بقوته نجاحا عظيما . انه لأمر مقبول لدى ابناء الحاج وموئديه ، ان يهزأ بالقوانين الايرانية بالقدر الذي يريد لو شاء ذلك ، فهم معه حتى النهاية . ولكنه عندما حاول ان يهزأ بالقانون الاسلامي معرضا شرف وخير عائلته للخطر فقد توقف طه عن الهمس في حضوره .

لدى مودتنا الى كردستان بعد ثلاث سنوات من مغادرتنا

اياهما شعرت ان شؤءون عائلته الحاج اسماعيل لم تكن على مايسرام على الرغم من أن اهتمام متصيفينا وانشغالهم فيما اذا كنا نقضي وقتنا طيبا لم يتغير ابدا ولو للحظة واحدة . كلما كانت تطول اقامتنا هناك كان يصعب عليهم اكثر اخفاء حقيقة ان امرا ما كان يجري ، امرا كان يجعل مريم في حالة قلق لاتصدق . امرا كانوا يتوقفون عن الحديث عنه ، عندما ادخل الحجره .

رأيت مريم في احد الصباحات ، وهي تكتب رسالة على قطعة من الورق ، كانت قد مرقتها من دفتر ولدها الاصغر انه امر غير مألوف بالنسبة لامرأة ريفية ان تكتب رسالة ، لذلك فقد راقبتها وهي تطوي الرسالة وتسلمها لطفه وتطلب منه ان يأخذها الي منزل الحاج اسماعيل . وبينما كانت تعطي الرسالة لطفه ، سمعتها تقول شيئا عن " العار " والكثير من الاطفال ، ولكني لم استطع ان استجمع هذا اللغز الذي كان قد بدأ يلفتني . وفي وقت لاحق في المدينة ، كنت جالسة بين مجموعة من نساء العائلة ، عندما سمعت مناقشة غريبة لم تكن مفهومة تماما . كان شخصا مقبلا على الزواج والتساكن غير موافقات على الاطلاق . من يمكن ان يكون . ظننت انها العروس التي كانت زينب زوجة الحاج الثالثة على وشك ان تزفها لابنها الاكبر . وحسب معرفتي لم يكن شخص آخر مقبلا على زف عروس في القرية . ولكن النساء لم يكن يرغبن في اطلاقني على ما كن يتحدثن عنه . وبقيت يتحدثن بأجوار اكثر فأكثر واخيرا اقلعن عن الموضوع كلياً

وبمؤخرا عرفت عائشة الموضوع معي وحدي ، هل فهمت بما كن يقلن ؟ لقد أخطأت في افتراساتي وانما اراقب وجه عائشة الذي كان يوحى الي بأنني مخطئة . لقد كانت حاسمة في تأكيدها على صحة ماتقوله . فلم يكن هناك مايعيب الفتاة التي كانت ترغب فيها زينب عروسا لابنها . لقد كانت فتاة طيبة ولم يكن لأحد اي شيء ضدّها . اذا ماهي المشكلة ؟ اريد ان اعرف ، قرأت عائشة هذا التساؤل على وجهي ؛

- يريد والدي ان يتخذ لنفسه عروسا اخرى .
- زوجة سادسة ؟

قلت ذلك ، وانا اللفظ كلمتي لاهثة .
- نعم ، يريد ان يتخذ من الاخت الصغيرة لزوجته
الاخيرة زوجة له .

الآن ، اتخذت اشياء كثيرة اماكنها وقد ذهبت لـدى تفكيري بالاضطراب الذي لابد من ان العائلة تعانيه ، بينما كنا نحن نمضي معهم بمرح ظانين انه ليس هناك ما يشغل بال مضيق سوى تسلبتنا . استطيع ان اقدر مقدار الاضطراب والحقده الذي تسبب الحاج في اشارتهما . لقد اغاظ مريم والزوجتين الكبيرتين الاخريين . ان الحاج قد اتخذ زوجته الرابعة ومن ثم الخامسة اللتين كانتا تعتسر ان كخادمتين والاحيرة التي قد حرّمها القرآن كزوجة اضافية على الاربعة اللواتي حددهن القرآن لكل رجل . ماذا يمكن ان يكون رد فعلهن تجاه السادسة ، وخاصة انها اخت الخامسة ، مضيقا بذلك الخليفة الى الاخرى التي سيرتكبها الحاج امام مراءى الله ؟

جلس الشيخ عبد الله الى الحائنه الآخر من عائشة . وكان تعليقه الوحيد :

- ان لدى الحاج العديد من الاولاد ، لدرجة انه لا يعرف اسماءهم .
- واضافت عائشة قائله :
- نعم ، والدي مصاب بمرض ما . انه مريض رهيب .

جلست مستغوفة في التفكير ، محاولة ان افهم . تراءت امام ناظري صورة كنت قد رأيتها من قبل . كانت تلك والدة الحاج بين مجموعة من الصور ، كانت قد التقطت في تركيا ، قبل ان تغر العائلة لتنجو بحياتها . كان الحاج اسماعيل في ذلك الوقت لا يزال ضيقا صغيرا ، وكانت هذه الصورة القديمة من تركيا الشرقية قد أظهرت والدته امرأة جميلة على نحو اخاد ، ذات ملامح

رقبقة . امرأة أجمل من كل النساء اللواتي رأيتهن في دستان .
 ذات يوم حضر رجل لزيارة مريم وعلمنا منه أنه ابن مرضعة
 الحاج اسماعيل الكبيرة التي كانت تخدم عند والدته الحاج منذ
 ما يزيد على نصف قرن مضى في تركيا الشرقية . قال ابن المرفعة :
 - لقد كانت والدته الحاج لا يصدق أن يوجد لها مثيل .
 لم ير رجل وجهها قط .

اذن ، ذلك هو تعريف المرأة التي لا يصدق أن يكون لها مثيل .
 فكرت بصمت مع نفسي . هل يعرف هذا الرجل أنه قد التقطت لها
 صور ، ودون شك ان الذي التقطها هو رجل ؟ كانت السلطات
 التركية قد أهدمت والد وجد الحاج قبل أن يبلغ العاشرة من
 العمر . وكان لدى والده زوجتان . احدهما رحلت الى استانبول
 ورمت ولدا لا يتحدث الآن حتى ولا كلمة كردية . وعلى الرغم من
 أنه هو والحاج يعتبران نفسيهما أخين وأنهما قد قاما بزيارة
 بعضهما ، فهما لا يقدران على التواصل بيسر . كان الحاج اسماعيل
 وأخته قد نشأا في ايران كأكراد ، تحت وصاية شخص غير معروف ،
 ومن المؤكد أنه كان قد حل محل الأب والجد .

ما هو مصدر مرض الحاج اسماعيل ؟ لا شك أن ذلك المصدر
 كان أيضا منشأ قدرته الحياتية ، الحياة التي جعلته صوفيا ،
 باحشا ومحبا للأجانب . كان الحاج اسماعيل رجلا جذابا ولكن على
 الرغم من ذلك فقد أوقع الحزن والنفور في نفسي بسبب معاملته
 السيئة لزوجاته وأطفاله . لماذا يتجاهل قواني الزواج في
 الاسلام ، في الوقت الذي يبدو متفانها له ؟

سلكت مسألة اتخاذ الحاج زوجة أخرى له سبيلها ببساطة ،
 ووصلت ذروتها قبل رحيلنا تماما . كانت عافشة قد أخبرتنني أن
 عائلة الفتاة التي يريد الزواج بها ، كانت تحاول على نحو
 جنوني أن تزوجها لرجل آخر قبل أن يتزوجها الحاج . كانوا قد
 وجدوا لها هروسا مناسبة اكثر ولكن ليس قبل أن يتخذ أولاد
 الحاج الكبار خطوة يائسة وذلك بالذهاب لوالدهم في احدي

الليالي وتهديده بالقتل اذا مضى نحو تحقيق ما يريد . ما كنا سنعرف شيئا عن هذا اذا لم نخبرنا عايشة به . غادرنا طه فسي تلك الليلة المقدرة الى ريزاي قائلا أن لديه بعض الأعمال في القرية فحسب . عاد في اليوم التالي وقد أضناه التعب وقال لنا انه كان يقوم ببعض الأعمال طوال الليلة الماضية . وقد افترضت أنه لا بد أن يكون شيئا متعلقا بالحصاد الذي كان يجري في تلك الفترة .

لأنني عرفت الحاج اسماعيل شخيا لم أستطع مطلقا أن احتقره لا يقامه الظلم بالنساء اللواتي يسري نفوذه عليهن . لربما كان ذلك بسبب معاملته لي بلطف . ربما لأن أجداد الحاج كانوا قد سحروا السواح الأجانب الذين وجدوا أنفسهم في كردستان. كانت بعثات تبشيرية قد قدمت من الغرب في القرن التاسع عشر لتخفف من قساوة عيش الآشوريين المسيحيين . كانت القباثل الكردية ونصف المستقرة في منطقة ريزاي ترهب هؤلاء الآشوريين باستمرار . وكان بعض المبشرين قد " استشهدوا " عندما خافوا هذا النزاع وهو في أشده . ومع ذلك فقد نقل العديد من الغربيين اعجابهم بهؤلاء الإكراد الاباة والنزاعين الى الحرية ورفع القيود عن أنفسهم . على الرغم من وجود أمل ضعيف فسي استمالة المسلمين الى المسيحية ، فقد درس المبشرون الكردية وكتبوا قواعد اللغة . وقد تزوجت احدى المبشرات من كردي وقد كانت ممرضة ، ومكثت في مهاباد ، في حين غادر رفاقها . يمكن أن يثير اختيارها مثل هذه الحياة ، استغراب النساء الغربيات، ولا فرو ، فهن لم يذهبن الى كردستان .

الفصل الثالث عشر

احب ان اصغي الى لفظ اصوات النساء الكرديات . ليم
أمل من الاستماع الى الاسطوانات المسجلة لهذه الاصوات حسنتي
بعد ايام واسابيع وشهور من اعادتها ، بل كنت احن الى
العودة الى هؤلاء النسوة : صاحبات هذه الاصوات . كلما كنت
اصغي الى الاشرطة التي سجلتها في ريزاي وفي القرى كنت ادرك
خاصية اصوات النساء الكرديات : وهي لفظ ذو صوت خفيض ، يخرج
من الحنجرة ، ، وغني لا يشبه مطلقا ما تصفه عدة لغات بـطبقة
الصوت والخاصية المثلثية للصوت الانثوي . ليس فيه ما يسمى
بالصوت الخافت او المرتفع ، فالصوت ينبثق بكامل قوامه من
الحنجرة . انه ليس مثل الصوت الحاد ، ذي النغم الرتيب للغه الفارسية
او الشبيه بهمس الفتيات لبعض النساء الامريكيات . انها اصوات
نساء مرفن القساوة ، فهذه الاصوات تنطق عن الخبرة والسيطرة على
الذات . انهن يتحدثن عن حالات ولادة ، حالات موت ، عن الخرافات
المعنة في القدم ، عن مجريات احداث حالية ، وعن الزواج .

كنت قد اصغيت للاسطوانة التي سجلتها خديجة وهي
تصف يوم زفافها لطفه احيانا كثيرة . ومع ذلك لم اصغ
اليها دون أن اتمنى لو أنني هناك حاليا ، او لو اني كنت
هناك في كل من الماضي القريب لمشهد التسجيل الذي حضرت به ،
وفي الماضي البعيد لمشهد الزفاف الذي لم اشهده أبدا . تُسمع
من خلال التسجيل اصوات كوموس الشاي وهفسات اولاد زينب المضار
في منزل الحاج وهو المكان الذي جرى فيه التسجيل . ولكن خديجة
هي التي تملأ الشريط بصوتها الصادح ، الراضع ، بضحكها
وارتباكها عندما سئلت عن يوم زفافها وسعادتها لدى تذكر
عظمته . فتبدأ خادمة خديجة بتصحيح خطأ سيدتها التي ذكرت
بأن خمسين وساطة نقل وصلت الى القرية عند بداية الافسراح
فتقبل .

- مائة سيارة وثلاثمائة ضيف .

تستمر الحفلة لمدة عشرة أيام بلياليها . وحسب
أقوال خديجة وخادمتها وصبيان صغار لم يقم احد بأي عمل
بل كانوا يرقصون ويرقصون فقط . سألت :

- هل الرجال والنساء يرقصون معا ؟ ام منفصلين ؟
فأجابوا :

- بل يرقص الرجال والنساء معا .

تنبثق في خيالي صورة لصخب رافع . حيث يحلّق
هؤلاء الاكراد الذين لم أرهم ، يغنون او يرقصون أبدا في لهو
معربد ماصف . تحضر العروس من قريبتها ويصعد العريس الشاب
إلى سطح منزله ويطلق النار من بندقيته ليعلن عن وصولها .
تقول الخادمة :

- تاك ، تاك ، تاك .

ولكن انتظر . هناك ماسنضيفه الى القصة وهو ذو اهمية
خاصة لخديجة . لقد اتضح انها ليست جزءا من الحفلة بل انها
مسنيفتها فحسب . لقد احضرت مغطاة بخمار أحمر من مسافة
عدة كيلومترات من منزل والديها في الجبال الواقعة قرب الحدود
العراقية الى قرية الحاج اسماعيل . وكالعادة بكى والداها
بمزارة ، لأن ابنتهما أخذت منهما ولم يحضرا الزفاف ، وكانت
خديجة نفسها تبكي . لم تكن قد رأت طم أبدا الا في صورة له
فحسب . ومع هذا ، لقد كانت قد خطبت للولد الأكبر للحاج العظيم
لأن أحد أقاربها كان قد تزوج من فتاة من عائلة الحاج من قبل

تفتخر خديجة لحقيقة أنها لم توطئه أبدا قبل أن تحضر السن
القرية . وهي فخورة بالانتماء للموالية من الدولارات التي منحتها
اياها مريم ، وذلك وفق التقليد الديني الموعود أمام المساء
وهذه النقود لا بد من اعادتها اذا طلت رابطة الزواج والمعتبرة

أيضا كمهر لها . وقد دفع لوالدها حيث يمثل ثمن اطعام الفتاة الى أن تبلغ السن المناسب للزواج . كان الخوف والألم اللذان تجشمت خديجة عناءهما لدى أخذها معصوبة العينين وتسليمهما لرجل غريب ، لتمنح نفسها له في قرية لم ترها من قبل أبدا قد تناسبا مع الفخامة التي رافقت ذلك . كان مهر العروسة ضخما ، والضيف كان يعد من اللامعين ، والعائلة التي كانت ستتزوج أحد أفرادها هي عائلة عريقة وقوية . وقد اكتشفت في وقت لاحق فقط ، انها كانت مائلة العدو وان خديجة وعلى نحو مغاير عن فتيات كرديات عديدات لم تتزوج من ابن عمها . وبدلا من ذلك فقد تزوجت من وريث عشيرة ضخمة كانت في حرب ناشطة مع قبيلتها ، عندما كانت لاتزال صغيرة قبل ما يقارب عشر سنوات . لماذا كانت خديجة سعيدة لهذه الدرجة وهي محاطة بأناس لم تعرفهم من قبل أبدا ؟ كانت قد اقحمت رسميا ولكن على نحو مفاجيء وسط محيط غريب لتقوم على خدمة حماة ولتسعد زوجا لم تختاره أبدا . تعجبت كثيرا لامتلاء خديجة بالحياة وتحريها من الارتباك وسط جميع هؤلاء الناس الذين كان ممن الممكن أن يغرموها . مما لاريب فيه أن خديجة كانت دمثة ، حسنة العشرة وهادئة في بدء تعاملها معهم . وبالإضافة الى ذلك ، كانت قد أنشئت وفق تربية لاتتوقع فيها زواجا بغير هذه الطريقة . ولكن شمة سبب شالك آخر لموافقة خديجة ، وهو الأكثر اهمية ، فهي الآن تقيم في ريزاي محاطة بكل وسائل الراحة وهو حياة المدينة التي كانت تحلم بها في القرية . لم يكن يعني لها الكثير أن الشلاجة في منزل الحاج اسماعيل هي معطوبة دائما ، فهناك مخازن ممتلئة بالاعذية تلج على بعد خطوات فقط من بابها الامامي . من يهتم اذا كانت الاضواء العارية ، المعلقة وسط كل حجرة مجرد مصابيح رديئة ، ذات اضواء خافتة ، وانها ذات اربعين واطا فقط ؟ ان الفرق بين المصباح الزيتية والكهربائية جعل اي قوة كهربائية معجزة . فبالنسبة لخديجة لم تعد هناك مطابخ معتمدة مكسوة بالسخام ، وقدور فوق النار لتجشم عندها .

لم يعد هناك مزيد من الغبار والحشرات . والاهم من ذلك كله
انها تخلصت من المعاناة من الوحدة .

ربما كان التشابه الذي بيني وبين خديجة هو نتيجة
لحقيقة ان تلك السنة كانت خاصة لكلينا . فقد كانت بالنسبة
لي تحقيق حلم استغرق سنوات من الاعداد له . وبالنسبة لخديجة
كانت فرصة للعيش في المدينة . ولم تكن خاصة السنة حفيضة
زواجنا الحديث ، بل بالاحرى الحياة التي ترتبت عليه . فقصود
منحني زواجي جواز سفر الى زاوية نائية من ارض بعيدة ، كنت
سأغامر بالمجيء اليها لوحدي .

اما زواج خديجة فقد شكل لها انقذا موءقتا من القرية
التي عرفتھا طوال حياتها . لقد كانت هذه سنة الحرية والاستكشاف
وممارسة السلطة في منزل محتشد بالاطفال وبالزوار القرويين،
وبالنسبة لخديجة كانت هذه هي السنة التي ذهبت فيها الى السينما
المحلية لمشاهدة افلام هندية وتحدثت فيها من خارج النوافذ
مع جاراتها وذهبت الى الحمامات العامة وتنقلت في الريف مع
الامريكان . لم اعرف كيف وبأي سرعة سيمضي هذا الوقت بالنسبة
لخديجة . والذي هربت منه في الماضي ، وماذا ستواجه في
المستقبل ؟ وهي ايضا فترة كانت فيها قراراتها نافذة المفعول،
لقد كانت بالنسبة لكلنا مغامرة .

كنت امضي معظم وقتي مع خديجة في حجرة الجلوس
او حجرة النوم التي كانت هي وطه يتقاسمانها في الطابق الثاني
من منزل الحاج اسماعيل . كانت حجرة النوم ، تلك الحجرة البهية
المكتظة بألوان فوسقزح التي جلست فيها لأول مرة مع نساء
الحاج اسماعيل ، تخص خديجة . كانت قد زينتها برقة ونسحت
المناديل الملونة التي تعطي كل واجهة ، وقد اهديت اليها صوبر
نسيجية مزدانة بالرسوم ، حيث علقتها على الحائط .

ومن حسن حظ الكثير من سكان هذا المنزل ومنازل
كردية اخرى ان سكان المدينة كانوا يتدفقون باتجاه القرية
كلما اصبح الجو اكثر دفئا . وقد شعرت بالسعادة لأن خديجة
كانت تقضي فترة الصيف في المدينة . كان زوجها ذو الاربع
والعشرين سنة لا يزال طالبا . وكان قد آمن لنفسه عملا صيفيا
في ريزاي . وعندما غادرت زينب مع الاطفال وانشغل الحاج
اسماعيل اكثر بمحاصيله الزراعية ، بقيت خديجة في منزل
شارع بهلوي ، وتقوم اسماء على خدمتها . كنا ثلاثتنا نجلس
ونتحدث ونشرب الشاي . كانت خديجة تتحدث معي بعفوية وتلقائية
كما لو انها تعرفني منذ سنين عديدة . كان واضحا انه لا يمكن
لأي موضوع ان يزعجها . تحدثت عن تحديد النسل وعن حقيقة انها
هي وطه قررا ألا ينجبا طفلا مباشرة لأنه لم يبنه دراسته بعد . على
الرغم من ان العديد من افراد العائلة كانوا يضغطون عليهم
لأنجاب طفل حسب التقاليد . سألتني بخبث وهي تتحدث عن الجنس :

ـ مارغريت ، كم مرة في الاسبوع تستحمين ؟

فأجبت على نحو لم اشك فيه بشيء .

ـ لأعرف ، مرة او مرتين .

فقلت وقد بدا عليها المكر والعبث :

ـ أما انا فأستحم يوميا .

انتابتنني حيرة لذلك ، لأنني نسيت ما اخبرني به
رفاقي في فرقة السلام في مهباد . فقد كانوا يذهبون الى
الحمام العام في المدينة بسبب عدم وجود حمام في منزلهم . وبعد
الفترة قصيرة ، عرفوا ان العامة المحليين كانوا يهتمون على نحو
غير عادي بعدد المرات التي يذهب فيها الامريكان الى الحمامات .

اخبرتني خديجة عما كانوا قد تعلموه ، فقلت :

علينا ان نأخذ حماما في كل مرة نقترب فيها من
ارواحنا . كما اننا نأخذ حماما عريضا ، لدرجة انها نراة كما

لو انها تكذب تعبيراتها عن المواقف التي عرفت انه من المفروض ان تتخذها .

اقترحنا خديجة ان نذهب جميعا الى البازار في احسب الايام التي زارتنا فيها امرأة من القرية . ولشعوري بالابتهاج للخروج من المنزل ، وافقت على مرافقتيها في حملة تسويق ، كي تشتري المرأة الريفية بعض الاحذية . عدلت المرأتان الكرديتان سترتيهما أمام المرأة ، بينما كنت انتظر مستعدة مسبقا للخروج للشارع ، ببنتالي القطني الاصفر المفلح المتناسب مع ستر صفرية ذات ياقة عالية . لم نر في الخارج سيارات اجيرة ، لذلك شرعنا في المشي ولكن خديجة بدأت تقلقني . قائلبة بأنني سأتعيب كثيرا . أكدت لها اني لن اتعب ولكنها استمرت في القلق . واكتشفت حالا حقيقة المسألة ، انها نفس مسألة اليوم الذي تخلت فيه ناري عني . كان جميع الرجال الذين نمر بهم يرمقونني بنظرات غرامية ، يضايقونني بأسئلة مزعجة وشعرت المرأتان الكرديتان ، بالانزعاج بسبب اعتيادهما على لأشكال الأخرين بسبب أغطيتهم . ولكنهما لم تتخليا عني . اسرعتا في حطانا اكثر فأكثر ، لذلك ، وصلنا البازار في زمن قصير جدا . كانت خديجة طوال الطريق تنقل نظرها من جانب لأخر منزعجة وتصدر التعليقات عن كيفية تحديق الرجال . في .

ازداد الا نبتاه الموجه نحو المرأتين الكرديتين المغطاتين والمرأة الاجنبية المكسوة بالاصفر وشعرها السامر داخل البازار ذي السقف المقنطر . احتشد الناس حولنا ليحدثوا فينا والبائعون يحاولون ان يوقفوهم عن ذلك . قدوت خديجة حجم الموقف بلمحة ذكية . ألفينا نظرات عابرة واصرت خديجة على ان تشتري لي قفاز حمام ليلقى ذكرى لهذه المناسبة . ومن ثم قادتنا خديجة الى سيارة اجرة منتظرة ، وبعد ذلك بآيام علقنا على حقيقة أن :

- كل الرجال في الطريق كانوا يحدثون بمارهريت ،

ولكن هذا التعليق ، كان مشار تساؤل اكثر منه استهجانا .

كانت حرية خديجة نسبية ومحدودة جدا بالمقارنة مع الحرية التي تسلم بها معظم النساء الغربيات ، فقد كانت تقتصر بموجب ضوابط قاسية . فهي لم تكن تخرج دون مرافقة خاصة معها ، ودون حجة مقنعة . لم أربط أبدا بين ذهاب وايباب الحاج وقيام خديجة بالزيارات ، ولكن مما لا شك فيه ، أن زياراتها لمنزلي كانت تتوافق مع غيابها . وعلى أية حال فقد سرتني كثيرا أنها أخذت تدعو نفسها لمنزلي . كانت أحيانا تهتف لي مسبقا وعادة حوالي السادسة صباحا ، حيث كانت ساعتها المفضلة لتتلف لي فيها . وأحيانا تحضر مع أي كان من الحاضرين في منزل الحاج في اليوم الذي تزورني فيه . كانت خديجة تأخذ راحتها تماما لدى حضور زوجي أو أي مخلوق لا يوءمن جانبه في منزل المرأة الأجنبية ، بينما كانت خادمتها أسماء تبدو عصبية ، فقد كانت تلف سترتها وتشدها حول نفسها اكثر مما تفعله عندما تكون في الشارع ، بينما كانت خديجة تدع خمارها ينزلق عنها . ولكن أسماء لم تكن متزوجة بعد ، بينما كان عفاف خديجة قد بيع مرة وللأبد .

رافقت أخت خديجة " غلنام " الفاتنة ذات الخمس سنوات أختها لحظات الشاي هذه في منزلي لفترة من الزمن . وقد أخبرتني خديجة أن عائلتها قد أرسلت غلنام من القرية لتبقى برفقتها في المدينة . كانوا قلقين بسبب اختهم الكبير المعتادة على أن تكون محاطة بالعائلة أو بأناس آخرين في القرية وكانوا يخشون أن تهزل صحتها بسبب الفراغ الصيفي الذي يمكن أن تتجشمه في منزل الحاج اسماعيل في المدينة . سألت خديجة عما إذا كان والداها ، قد قاما بزيارتها ، فأجابت بالنفي ، فلكونها عروسا جديدة لم يكن يسمح لها بالعودة الى قريتها وروئية والديها الا بعد سنة على الأقل وبعد أن ينعم عليها زوجها بالموافقة على قيامها بزيارة العودة . وبدون هذه الموافقة يمكن أن تقضي بقية حياتها دون الذهاب الى منزل والديها ثانية .

لأنني أصبحت أقضي الكثير من الوقت مع خديجة ، فقد التقيت مصادفة زوجها طه الذي كان يبدو في مزاج حسن معظم الوقت ، مثل خديجة تماما ، بعد مجادلتي مع الحاج اسماعيل التي رفض فيها السماح لي بأخذ نسائه في رحلة طلبت من طه ، رسميا ان يأذن لي بأخذ زوجته الى اماكن شتى . وافق طه مباشرة وهو يقلد طريقتي الرسمية ويريق يلعب في عينيه . كان طه مثل والده ساحرا ولكن كانت تنقصه قوة اعصاب والده وتزمتة المحافظ . واطن ان حياة طه سهلة ، بالمقارنة مع حياة الحاج اسماعيل على الرغم من أن الراحة لم تكن تعني كل شيء مع والد متقلب المزاج مثل الحاج اسماعيل ، حيث اكتشفت فيه هذه الصفة موعرا . كان طه لا يزال يتمتع بامتيازات عديده لكونه الابن الاكبر . فقد اتفقت ثروة للحصول على عروس له . كانت له ولخديجة حجرة نوم خاصة ، حيث لا احد سوى طه والحاج الكبير يمكن ان يتباهيان بسريرين قابلين للنقل في هذا المنزل . ان مشكلة طه الوحيدة هي في كيفية بـروزه وكيفية ان يصبح قويا . فقد كان لا يزال طالبا في الكلية بسبب الخدمة العسكرية والتأخير في الذهاب الى المدرسة . ولكن حتى لو لم يكن طالبا ، فقد بدا انه قد انعدمت لديه الوسيلة في المجتمع الكردي ، ليحرر نفسه من والديه .

عندما توقفنا أنا وجيرد عن العمل اخبرا اشترينا سيارة جديدة خاصة بنا ، ايرانية الصنع ، ذهبنا الى منزل الحاج اسماعيل لنحتفي بها . كنا نعرف ان من رغبات طه الملحة هي اقتناء سيارة خاصة به . وقد نزل مباشرة ليتفحصها ويبيدي اعجابه بها بينما كانت خديجة تبتسم وهي واقفة امام مدخل الباب . منذ ذلك الحين ، شرعت خديجة بالتخطيط لـ لا مكنة التي سنذهب اليها في نهاية كل اسبوع .

كانت رحلتنا الاولى الى وادي يقع جنوب ريزاي ، حيث

يقوم الناس الذين لا يميلون الى الاحتشاد أو التجمع برحلاتهم اليه . اقترحنا أنا وجيرد القيام بالرحلة ، وجهزنا السيارة ، بينما عرفت خديجة وطه مرافقتهم لنا . كان هذا أول اختبار لنا في تسليّة أصدقائنا الاكراد وبأسف وأسى أقول اننا فشلنا .

فالمخطأ الأول الذي ارتكبناه هو أننا تصورنا أن خديجة وطه هما وحدهما سيأتيان . لأننا دعوتهما وحدهما . كنا قد تبادلنا الآراء حول الرحلة على أنها موءلفة من أربعة أشخاص ، ولكن عندما أتى صباح يوم الجمعة ، معد أخو خديجة الى سيارتنا ، وكان طالبا في الثانوية ، ولم أكن استسيغه أبدا - جاء - المقعد الخلفي المريح يعج بالازدحام ، مما تسبب في جعل المحرك يشد الى أقصى مدى وبقوة في المنحدرات الجبلية التي كنا نعبرها .

خطئي الثاني كان مرتبطا بالأول . فقد كنا قد اشترينا سندويشات كافية ومشروبات غير مسكرة لأربعة أشخاص فقط ، ليس أكثر . لم نقدر الدرس الذي تعلمناه من كل تلك الطاولات التي تثن تحت ثقل الاطعمة التي شاهدناها في حفلات الغذاء الايرانية فلا احد من الذين يستحقون لقب المضيف ، يقدم مقدار الطعام الكافي واللازم لعدد الضيوف المدعوين . فليس من المناسب أن تقدم ضعفي أو ثلاثة أضعاف مقدار الطعام الذي يمكن أن يتناوله الشخص فحسب بل أيضا أنت ملزم به .

خطأنا الاخير الذي لم يكن ممكنا لنا تجنبه ، كان معرفتنا الشيء القليل من قواعد التشريفات وآداب المعاشرة بين المضيف والمضيف في كردستان . فقد وجدنا أنفسنا تقريبا ، منذ بداية ركوبنا السيارة الى حين عودتنا الى المدينة داخل هذه المحادثة الدورية وكنا نسأل :

- هل لنا أن " نقف هنا ؟ نأكل الآن ؟ نذهب هنا ؟ الى آخره .

فيجب ضيوفنا :

٢٩٠ " كيفاته " .

وقد تعلمنا حالا قول " كيفاته " التي تعني كما تحبون .
كان نتيجة هذا السلوك أن القرارات كانت تؤجل الى أطول وقت
ممكن الى أن نضطر جميعا وكالعادة الى خيار يكاد لا يرضي الجميع .
تجولنا في الريف ، وقمنا بزيارة نبع من المفترض أن شيئا
مبجلا كان مدفونا عنده ومن ثم ذهبنا الى مدينة كردية مغيرة
تدعى " شنو " واشترت خديجة من بازارها زوجا من الصنادل
البلاستيكية بلون أرجواني باهت . وبعدئذ ظهرت المشكلة . فقد
بدأنا نشعر بالجوع ، لذلك اقترحنا على ضيوفنا أن يختاروا
مكانا لتأكل فيه . وبينما كنا نمر عبر عدد من البقاع الخالية
الرائحة شعرت أنه ليس لدى هؤلاء الناس معايير خفية توجه
سلوكهم هذا .

كان الحماس ينقص قولهم " كيفاته " لكل مكان اقترحه ،
وأخيرا عندما أتينا الى المكان الأول المحتشد بالناس مع
دريعات من السيارات الواقفة ، اتخذت " كيفاته " خاصية مشوقة .
أوقف جيرد السيارة ونزلنا منها ، وشرعنا بالسير ، كان المكان
يعج بالحشود وتنتشر فيه ركام النفايات ، لدرجة أنه يتطلب
نا ان نمضي بعيدا حدا قبل أن نجد بقعة نظيفة لنجلس عليها . ولكن
لدى جلوسنا هوجمنا بروائح كريهة لم تكن بالحسبان . ومرة
ثانية مضينا ضمن حلقة " الكيفاته " قبل أن نقدر أن نتخذ
قرارا جماعيا بالمغادرة .

عندما قدم لنا الغذاء أخيرا كان كل شخص منا قد شعر
بالجوع لدرجة أن قلة السندويشات بدت واضحة وملحوظة الى حد
أكبر مما لو كانت غير ذلك . كان الجميع ظمأنيين ومغبريين ،
حتى أن جميع قناني الكوكا وكانوز البرتقال التي أحضرناها
معنا ، لم تكف لأرواء عطشنا .

مضيت مع خديجة للبحث من نبع ، وانضم اليها أخوها ، وعندما
شاهدنا قطيع أغنام على سفح الجبل الذي كنا نتسلقه ، أمر على

أن التقط صورة للحيوانات وهو يحمل واحدة منها . وذكرني قائلا:

- سيكون هذا ممتعا حقا في أمريكا .
- لقد رأوا الأغنام في أمريكا من قبل .

أجبتة بحدّة ، متمنية على نحو بغيض أن يتحول الى واحدة منها ، لكي لا يقدر على العودة معنا .

قررت أن أنتظر ، عندما بدأت خديجة بإشارة مخاوفي حول إمكانية وجود الأنعام ، بينما واصل جيرد وطه وحدهما المضي الى النبع عند قعة التل . وعندما عادا ، وصفت خديجة ما رآته من وجبة الطعام المولفة من الكباب والبيرة التي تتناولها مجموعة من العجم . فحتى العجم قد تناولوا غذاء أفضل منا .

على الرغم من النقص الواضح في ضيافتنا ، أراد طه وخديجة وأخوها أن تستمر حملتنا أكثر . ولكن كل ما كنا نفكر فيه أنا وجيرد ، كان في كيفية عزل الأخ غير المرحب به ، وتركه في المدينة والانسحاب لبقية فترة العصر الى منزلنا الى حيّث الوفرة في الماء المتدفق النظيف ، حيث لم نجلب منه المقدار الكافي للشرب . وفي طريق عودتنا الى المدينة توقفنا في إحدى محطات الاستراحة ذات الطراز القديم ، الواقعة الى جانب الطريق ، حيث يشكل علامة على أننا في الريف ، واشترينا كازوز البرتقال لكل واحد منا ، ولكنها كانت حلوة جدا . وأخيرا وصلنا ريزاي وأنزلنا ضيوفنا من السيارة ومغينا .

لم تتضاءل رغبة طه وخديجة في القيام بنزهات في سيارتنا ، حتى بعد فشلنا ذاك . لذلك توجهنا في الجمعة التالية نحو البحيرة . كان الجو مليلا ودافئا . وبالطبع ما كان لأحد أن يسبح ، لأن فعل السباحة ما كان ليبدأ الا بعد شهور عديدة . شرعنا أنا وخديجة في الحديث عن الخوف في الماء ، بينما جلس جيرد وطه فوق الصخور يشربان البيرة التي كنا قد أحضرناها معنا . رفعت خديجة أن تمس المشروبات الروحية ، وشربت أنا مقدارا ضئيلا منها على مرأى من نظرات طه المتسلية

الضاحكة ، والمشدوهة . لم يكن معظم أكراد القرية يتعاطون المشروبات ، ولكن القليل الذين كانوا يتعاطونها ، كانوا من الذكور .

أكد لنا الرجال أنهم سيتبعونا في الخوض في الماء ، لذلك مضينا أنا وخديجة حول المنحني ، وبدأنا بخلع ملابسنا خلف بعض الصخور . وبينما كنا نخلع ملابسنا التحتية توقفت فجأة سيارة على الجرف المطل على شاطئنا الصخري ونزل منها زوجان مع طفلين ، وشرعوا بالمشي نحو البحيرة . وحتى قبل أن أدرك أنهم كانوا ناسا أعرفهم من الكلية ، بدأت بالنظر حولي ، باحثة على نحو يائس عن مأوى في الشاطئ الاجرد . كانت توجد صخرة ضخمة فقط ، ولم تكن تؤمن لنا ستارا أفضل مما يوفره لنا الجرف . تصورت أن خديجة قد ذمرت ، ولكنني عندما نظرت إليها تعرفت بانفعال أكثر مما لو كانت فزعة . في الحقيقة بدت أقل ارتباكاً مني . بكثير . وعندما سمعت أن المرأة التي فوق الجرف امريكية ، تملكها الفضول لدرجة أنها نسيت حالة العري التي كانت فيها . كانت المسافة بعيدة تماماً ، حتى اني لم أتأكد فيما اذا كان يقدر الزوجان على أن يريا وجهينا ، ولكن اتضح انهما ادركا وجودنا . لانهما اسرعا مع طفليهما بالعودة الى سيارتهما والسير بعيداً . وبعد ان خبرت البحيرة جيداً ، ادركت كم كنا محظوظين أن هؤلاء الناس اللطفاء - وليس بعض الاتراك - هم الذين فاجؤونا .

وعندما اصبحنا وحيدتين ثانية ، خرجت من خلف الصخرة التي كنا جاثمتين بقربها ، وارتحت جسدي بالخوض في الماء المالح الدافئ . بدا الماء مبهجاً ، الى ان رششت بعضاً منه في عيني . خضنا أنا وخديجة في ماء ضحل ، لما بقارب من العشرين دقيقة ومن ثم خرجنا .

جف الملح على شعرنا وجسدينا اللذين أبيضا وتشكلت عليهما قشرة ملحية صلبة ، عندما عدنا ثانية واقتربنا من

المنحني، حيث وجدناهما بكامل لباسهما بدا انهما لم يعزما ابدا على الخوض في الماء . لم نستطع السير بالسرعة الكافية التي تناسبني الى المنزل . فقد شعرت أن مسامات جسدي تكاد تختنق. حاولت خديجة ان تراني عارية ، عندما نزلت هي وطه عند منزل الحاج اسماعيل ، حيث سألتني :

- الا ترغبين في الدخول واخذ حمام معي ؟

فأجبتها :

- لا ، شكرا .

اظهرت خديجة قمة جراتها ، في يوم وافقت فيه على المجيء معي الى البحيرة ، وحيدة ، او بالاحرى وحيدة بقدر ماتستطيع . لم يأت طه معنا ، بل رافقتنا خادمتها أسماء وماراز ، وهي امرأة آشورية كانت قد اعتادت على التردد على منزل الحاج اسماعيل . استحمننا هذه المرة في الماء المالح، واغتسلنا بماء عذب كنت قد احضرته معي في السيارة ، وبعدئذ توجهنا عائدا الى المدينة . وحالما توقفنا امام منزل الحاج اسماعيل ، بدا ان خديجة ترتعد خوفا وهي في مقعدها . وهمست بذمر :

- استمري في السير بامرغريت ، استمري .

وحالما عبرنا المنزل ، نظرت خديجة خلفها وتنهدت براحة ، بصوت مرتفع عندما رأت ان اللاندروفر الذي توقفوا نا لم يكن لاندروفر الحاج اسماعيل . وهمست قاضلة :

- كنت سأشعر بالخجل الشديد لو أن الحاج رآني.

حقيقه ان خديجة لم تكن تحتفظ بمخاوفها وافكارها وآرائها لنفسها . كانت ذات فائدة عظيمة لي . فبينما كانت الاخباريات يبقين صامتات ، اما بسبب الآداب العامة او بسبب الارتباك ، كانت خديجة تصرح بكل شيء . وبفضلها تعلمت الكثير مما هو مناسب بين الاكراد . عرفت في احد الايام ماكان يفكر به الجعفريون بضيفاتي من النساء الكرديات . فقد تحدثت عنهم

خديجة باحتقار وعن كيفية اغلاقهم بابهم الداخلي بعنف ، في كل مرة يرونها تمعد اليها . وفي يوم آخر علمت سبب تمنع مجموعة النساء في صورة لي ولجيرد ، كنت قد اريتها لهن فقد سمعت خديجة تدافع عني وتقول للاخريات :

— أن يد زوجها ليس حولت خصرها تماما . مارغريت لاتفعل ذلك .

ارتكبت مرة غلطة مروعة في سلوكي الاجتماعي هناك وذلك بأن قلبت فنجان شاي ضخم من البرسلان رأسا على عقب بدلا من أن يكون على جانبيه حدثت كل النساء في برعب مضحك وهن يرفضن اخباري عن حقيقة الخطأ . وقد علمتني خديجة من بينهن ان تلك هي علامة على أن المضيضة امرأة رديئة . بوجودي مع خديجة ، كنت محمية من أن اصبح دخيلة بالنساء الاخريات قد لاحظن ذلك عليها . فقد قالت امرأة اخي زوجها مستغربة :

— خديجة تحب مارغريت فعلا . انها تخبرها عن

كل شيء .

في المرات التي ذهبت فيها الى منزل الحاج اطلعت على دستان وسمعت الكثير منها . فقد كان يأتي من ذلك المكان الغامض اشخاص مختلفون وذوو ملامح غريبة .

التقيت في احدى المرات بگل بهار ، العديمة الانسان ، والداية العجوز التي كانت قد حضرت ولادة العديد من أولاد الحاج . وفي مرة اخرى تعرفت الى هاجر وكانت امرأة في بدايات الثلاثينات ، اتت الى المدينة لتتلقع اسنانها المسوسة جميعها ، ولتضع مكانها طبقا من الانسان المصنعة . وأيضا التقيت بالمرأة ذات الوشم الازرق ، والدة زوجة الحاج اسماعيل الخامسة ، وكذلك بعدد من النساء الاخريات لم اكن اعرفهن ابدا . ومن جهة اخرى وعلى مستوى مختلف تماما التقيت بنساء مثل ناديا كنة مريم الاخرى ، ونسرين ابنة مريم الوحيدة . كانت هؤلاء النسوة

يأتين لبضعة أيام لروءية الطبيب ، أو للذهاب في رحلة قصيرة في عمل مهم ، ومن ثم يجبرن على العودة الى القرية الى حيث حياتهن الحقيقية . اما حقيقة حياة خديجة السابقة فكانت تختلف قليلا . كان ذلك سبب سخرية زينب وناديس القاسية والمستمرة من خديجة في ذلك الشتاء عندما اخذت على مضى الى القرية للعمل .

كنت افكر دائما بدعوة الحاج اسماعيل لنا الى دستان فمئذ ذلك الحين لم اره لاتحدث اليه ثانية . ولكن خديجة وطه كانا ودودين معنا ، لدرجة شعرت فيها ان الحاج لايمكن أن يكون قد انزعج منا . ومع ذلك فلم يذكر احد شيئا عن الذهاب الى دستان . وفي احد ايام الجمع وفي فترة الظهيرة ، اشار طه الموضوع ، بعد ان تناولنا الغداء في بيوتنا .
- متى ستأتين الى دستان ؟

فقلت :

- لا اعرف . في الوقت الذي ترغبون فيه .
- مارأيكما لو اننا نذهب في الاسبوع القادم ؟
سأحاول ان استعير سيارة لاندروفر ، ويمكننا جميعا ان نمضي ظهر يوم الخميس .

فقلت :

- لا ارجب في ذلك كثيرا .
لكن جيرد لم يتفوه بشيء . وبعد ان غادرنا فيفانا ، قلت لجيرد .

- اليس ذلك شيء عظيم ؟ واخيرا سنذهب الى هناك .
سأرى مريم والحاج اسماعيل كلهم . وبما أن الربيع قد حل ، فان الجبال ستكون " كسكوشين " . تلفت حولي بسعادة وأنا افكر بذلك .

نظر الي جيرد دون ان يبتسم وقال محذرا :
- لاتعيري ذلك اهتماما كبيرا . لربما ينسى طه

ذلك . ولربما لن يقدر على استعارة لاندروفر . أوربمما انه يقول ذلك من باب آداب السلوك فقط . يمكن أن يحدث أي شيء من الآن حتى يوم الخميس القادم .

أولا لن ادع جيرد يشبط معنوياتي المرتفعة . فهو لا يعرف ، خديجة ومقدار صراحتها . فهي وبالقدر الذي اعرف لم تكن تتعامل بطريقة تلتزم فيها بالشكليات والآداب السلوكية التقليدية . كان جيرد ، الاكثر حساسية مني اتجاه الدعوات ، قد عانى من حالة سيئة من هذه الشكليات الخادعة . كان يكره ان يصدق احدا . وحالما اقترب اليوم ، اصبح جيرد اكثر تشككا ، وذلك تحسبا للموقف الذي يمكن ان يحدث . شعرت بالشك يتعاظم في تفكيري أنا ايضا . لم أكن متأكدة بعد من هذه العلاقات لأطردها من تفكيري . ففي لحظة احلم بالقرية وافكر بما سأرتديه هناك . وفيمن سأحدث اليه . وفي لحظة أخرى اقرر في نفسي الا ابتهج كثيرا .

كان احد اسباب التشاؤم لدى جيرد معرفته بأهمية هذه الرحلة بالنسبة لي . فهي ليست فترة ترفيهية كما حدث في مانوا ، التي لم استطع التحدث فيها بالكردية بأي وسيلة . لم تكن عائلة الحاج قد اصبحت وسيلة اتصالي بالاكراد فحسب ، بل أيضا اصبح افرادها اصدقاء المفضلين في ايران . واذا لم يعنوا هذه الدعوة بجدية ، فماذا اذن لي في ايران لأتطلع اليه ؟ ومنذما اقبل اليوم الذي وعدنا فيه طه بالمجيء لأخذنا جهزت نفسي على نحو يعوزه الحماس ودون ان اخصص الكثير من الوقت لذلك ، كان جيرد قد اضطجع لياخذ سنة من النوم وقد غلبه الخوف من رفض آخر . هل كنا على وشك المضي في رحلتنا القصيرة الاولى للمكوث في قرية كردية أم لا ؟ كانت شقتنا جرداء ، صامتة ، بينما كنا ننتظر طنين جرس الطابق السفلي .

الجزء الثالث
د'احل كردستان

الفصل الرابع عشر

— هذه هي كردستان ، يا مارغريت .

قالت ذلك نسرين ، أخت طه وابنة مريم الوحيدة . تتبععت بنظري القوس الذي رسمته بيدها ، عندما مدتها باندفاع لتشمل الوادى المستدير برمته ، كان قاع الوادى المجوف والجبال التي تشكل حوافه مغطاة بخضرة لطيفة . ان فصل الربيع هو الفصل المفضل لدى الأكراد ، فصل نوروز ، السنة الجديدة حيث تكون فيها الجبال في أتم خضرتها والقطعان تتكاثر بالمواليد الجديدة . سألتني نسرين على نحو أهدت فيه ازدراءها :

— انهم يطلقون على هذه المنطقة اسم أدريجان ، ماذا يعني ذلك ؟ هذه كردستان .

أشرت في كلمات نسرين حتى العميم في أرض لا يتحدث فيها أناسها بعلنية عن الاضطهاد الذي يمارس ضدهم . لم أكن أعرف بعد كم كان أكراد القرية وخصوصا نساؤها ، يصرخون عما يجول في فكرهم بحرية . ما قالته لي نسرين كان صحيحا لدرجة أنني اندهشت ان أحدا لم يقله من قبل . تطلق الحكومة الايرانية اسم " كردستان " على مقاطعة صغيرة في ايران . وتقع جنوب مهاسباد تماما ، تبدأ كردستان ايران الحقيقية على بعد أميال جنوب مقاطعة " كردستان " وتمتد بعيدا الى الشمال من مهاسباد ، حتى الحدود الروسية .

اذن ، لقد حضر طه ليناخذنا الى قرية والده ، وقد وصل مبكرا ، ووجدنا غير مستعدين بعد ، مما أوقعنا في الارتباك ، ولكن ، وبما أنه طه المحب فقد انتظرنا طلق المحيا في القاعة الخالية من الاثاث ، بينما اسرعنا نحن للاستعداد للذهاب . صادفت فترة العصر تماما ، في الوقت الذي وصل فيه اللاندروغر وسائقه

جنبنا الى جنب مع خديجة وگلنام وابن عم طه وطه وجيرد وأنا .
والشيء الاول الذي لاحظته كان الصمت المطبق . بعد ذلك ظهرت
مريم مرحبة بي وبجيرد رسميا ومعانقه طه . وكالعادة كانت
مكسوة باللون الازرق من فمها رأسها وحتى اخمص قدميها . اخذت
اتصطحب نسرين وهي فتاة قصيرة ، ممتلئة الجسم ، ذات حنك طويل
بارز الى الامام وعينين ضاربتين الى الزرقاء كعينني والدتها تماما
وقبل ان اعرف ماذا حصل لخديجة ، كانت قد اختفت وراء خلفية
المنزل ولم ترى ثانية حتى وقت متأخر من ذلك المساء .

اكرمنا انا وجيرد بسرعة في الفعاليات الرئيسية التي
تؤدي للضيوف في القرية ، من شرب الشاي والجلوس والتحدث والتجول
وعلى نحو تقريبي ضمن هذا الترتيب . اخذت نسرين على عاتقها
مهمة السير معي في كل جولاتي ، بينما مضى جيرد مع الرجسالة .
تجولنا أولا في الخارج امام منزل والدتها الواقع في مقدمة
القرية كان يطل على مشهد فسيح ومريض من الوادي . تنزهنا
متجولتين بين الاغنام والخراف والماعز والجداء المتبعثرة عبر
منطقة رمي واسعة . كانت نسرين تجاهر بقلقها باستمرار ، بانها
تتعبنني ، لذلك عادت بي حالا لاحتساء المزيد من الشاي ، ولا أظن
أن ساعة مرت دون قدح من الشاي على الاقل . فقد كنا ننظر
في دفتر الصور الخاص بمريم ونحن نحتسي الشاي ، وكنا نتحدث
ونحتسي المزيد منه ، جلسنا نحقق في بعضنا بصمت ونحن نشرب
الشاي .

في آخر النهار ، حيث امتدت الظلال ، اخذتني نسرين في
جولة اخرى ، افقت بنا الى القرية الحقيقية ، بأزقتها الترابية
المكتظة بالسكان ، وجدراؤها الطينية . صادفنا الحاج اسماعيل
وجهها لوجه في بداية الرقاق الذي يشق القرية متلوها ، وكان
يتوحيص منه المرء شرا على نحو غريب وهو بهذله السوداء نللك
وهبته المارة النحلة ، ولكن لم يكن شمة ما ينبغي بالنسبة
في عينيه للنس سعتا بالسعادة عندما رأنا . قال لي :

— أهلا وسهلاً . هذه فريتك . تعالي الى هنا متى شئت .

شكرته ، وشعرت بالارتباك لكشافة معاني كلماته .
وعندما غادرنا الحاج طفحت نسرين بالسعادة لهذا اللقاء المبشر
بالخير مع والدها . ومن ثم كررت الكلمات لوالدتها واختها وابن
عمها . خلقت لدي شعورا بأنها كانت نادرا ماتتحدث الى الحاج
وانها كانت تنظر اليه باجلال كما لو انه ملك وليس والدا فحسب .

شققنا طريقنا عبر الزقاق الموادي الى قلب القرية بهدوء
وعلى بعد ميل تقريبا ، من منزل مريم . كان منزل الحاج
اسماعيل قد شيد فوق منحدر وعلى مسافة من منازل عامة القرويين .
لم ادرك العظمة التي تضفيها عزلة ارستقرا طيبي دستان عليهم
الا بعد ان حبرت اهتمام الاكراد ، القرويين العاديين ، الففراء
بهم . لم يكن مضيعونا اكثر الناس غنى ، هي قرية مزدهرة نسبيا
فحسب . بل كانوا ايضا الاكثر ثراء في جميع انحاء كردستان .

عتمة الفسق جعلت كل شيء يبدو باليا واشد تعتيما مما
هو عليه عندما تفرست في الممرات الضيقة المتعرجة بين الجدران
الطينية المحيطة بالمنازل الطينية . ربما كان وقت النهار ، ولكني
شعرت فجأة بالكآبة والغربة مثل زائر من المستقبل ، يشهد فساد
القرون الوسطى الممكن تفاديها . حيث مجموعة من النساء ، والاطفال
يحومون حولهن وكانت نسرين وافقه في هذا الجو الطيني المعتم
مثل نجم في فستانها التفتت ، ذي اللون الكرمي . رد ،
نسرين بابتهاج استجابة لتحياتهن الرسمية والتي يلوح ميهما
الخضوع . اقتربت النساء الواحدة تلو الاخرى من نسرين ، امسكن
يدها ، وقبلن ظهرها وانحنين حتى لامست يدها جباههن .
تأملت هذا المشهد باندهاش بينما مضت النسوة بعد ذلك ، بعيدا ،
نظرت الى احدهن كما لو انها تتساءل فيما اذا كنت انا ايضا
جديرة بهذا الاحترام . ولكن اتضح انها قررت عكس ذلك .
ولكني عندما ظهرت في دستان بملابس كردية بعد شهر من ذلك
تقريبا كانت النساء يمسكن يدي ابصا ويقبلنها .

هذه النظرة الاولى المعتمدة لمنشأ القرية الاصلي ،
 افسدت المشهد الريفي الذي كنت قد تخيلته في ذهني عن دستان ،
 مضت فترة الظهيرة بسرعة في محادثات صابية لانهاية لها ، وفي
 ابتسامات واسئلة وشاي يقدم فوق سجادة فارسية جميلة وجديدة ،
 حيث كنا جالستين مقابل جدران مبيضة وتوافذ ذات اطارات
 معدنية انيقة . لم افكر مليا بمسكن الخادمت في منزل مريم
 ومن كان يعتني فعليا بذلك القطيع الضخم من الاغنام المنتشرة
 في تلك المنطقة الرعوية . كنت قد أرهقت أيضا من حماس ونشاط
 نسرين ، فقد كانت قد اخذت على عاتقها دور المضيفة بمقدرة
 كافية لارشاد وتوجيه عشر نساء على الاقل ضمن انحاء قريرتها .
 واصلت تساؤلاني عما يمكن ان يكون قد حدث لخديجة . كنت
 اعرف ان جيرد يمضي وقته مع طه واولاد عمومته وبعض شباب
 القرية . ماسبب وجود خديجة معي ومع نسرين ؟ شعرت بالراحة
 في نهاية المطاف عندما قادتني نسرين بعيدا عن القريــــــــــــة
 المظلمة واخذتني باتجاه منزل والدتها ، حيث استطعت ان أرى
 بصيص الضوء من الفوانيس المضاءة للنسوة . وبينما ذهبت الى حجرة
 الضيوف التي كنت قد امضيت الكثير من فترة العصر فيها ، غادرت
 نسرين الى مكان آخر . كانت الحجرة ممتلئة بالرجال والصبيان
 وكان من الموجودين جيرد وطه واخوان لطفه وابن عم طه رحيم .
 وكنت انا المرأة الوحيدة هناك .

ثبط همتي شعوري بالارهاق عندما جلست اتحدث مع
 المضيفين واشرب الشاي . وعندما اشارت نسرين الى انني منهكة
 احتججت على ذلك . ولكن كان ذلك صحيحا فقد كنت تعب جدا
 مع اننا لم نمض يوما واحدا بعد فقد قمت بجولات كثيره مع
 نسرين والالبسة التي كانت ترتديها نسرين لم تكن تصلح للتجول
 ابدا ربما كانت اللغة هي التي اتعبتني . فحتى الآن ولدى
 جلوسي مع جيرد ايضا كنت اتحدث بالكردية . ولكن ماتطلبه
 وجودنا هنا بالذات من الجهد قد اتعبنا اكثر من الجهد الذي كنا
 نبذله في التحدث بالكردية ، آخذين في اعتبارنا التناقضات

المبهمة ونتساءل دوما عما هو متوقع . والان وبعد ان حل الليل شعرت بالضيق لبعيد القرية . بدت المجموعة التي كانت تحيط بنا اصغر واكثر هشاشة . وكأنها ستختفي بين ومضة من المصباح وخبوها . لاحت الجبال في الافق مجسمة اكثر ، لم استطع رؤية أي من الازسواء البعيدة في السهل لدى تحديقي من خلال النافذة . كان الظلام والصمت المطبق قد غمر الطريق الذي سرننا عليه للوصول الى هنا . تشكل القرية في الليل ملجأ وتجمع كائنات بشرية لأخذ قسط من الراحة والدفء والظوء . ولكني كنت حديثة العهد بالنسبة للقرية لانتزع منها اذنا الشعور بالموءازرة . وكانت اقل قرية بقليل من صمت السهل المطبق فحسب . ظهرت فجأة مجموعة من الرجال عند مدخل حجرة مريم ، مدبري لا ظلالهم عبر الارض . نهض الجميع عندهم دخل الحاج اسماعيل وحاشيته الى الحجرة . كن الحاج يبتسم ويصافحنا بحيوية ولهفه وحالما جلسنا جميعا ، لاحظت ان رجاله كانوا يحاولون متمدبن الا ينظروا الي . كان الحاج بفيض بجاهزية عالبة كالعادة ، وكان ممثليا بالاسئلة والتعليقات الموجهة اليها . ومما كان يهمهم الى حد كبير هو اكتشافه عدم حلولنا ضيوفا عليه . لم اعرف في البدايه ماكان يتحدث عنه ، مدستان هي قريته . ومريم هي زوجته وطه هو ابنه . وفي سلسلة التبعية فمن الموءكد اننا ضيوفه هو ايضا . قال مشيرا :

— في منزلي كهـ باء . في المرة القادمة التي ستأتيان فيها الى دستان ، يجب تمكثا معي .

أومأت برأسي على نحو مهذب ، متسائلة عن سبب وجود الكهرباء في منزله فقط ، ومندهشة اكثر لهذا الفصل بين الضيوف . لم اكن ادرك بعد اننا نخص مريم . ولم ادرك بعد كم كان مجيء الحاج الى هنا وراءنا الى منزل مريم ذا اهمية عظيمة . لقد كانت حركة السير العادية بين المنزلين تصعد الى منزل الحاج فوق الهضبة ولاتنزل الى مريم في طرف السهل . لم يمض وقت طويل قبل أن تتلاشي فارسية جيرد عندما لاحست

على عينيهِ غشاوة تدريجية شبه رجائية نتيجة الازهاق . فاضطرت الى متابعة الحادثة مع الحاج الذي ابدى اعجابه لتمكني من الكردية ، بينما كنت اتلعثم خلال ذلك بسأم محاولة ان اتاح ماكان يتحدث عنه . اراد الحاج ان يريني كيف علم نفسه كتابة اللغة الكردية بالحروف اللاتينية المستخدمة في التركية . نسخ الحروف على عليه سجائرة الامريكية ووعدني ان يكتبلي بحروف لغتي عندما اعود الى الولايات المتحدة . عندما كان الحاج يتحدث ، لم يكن احد ينبس ببنت شفة ، ملقن بذلك ثقل نصف المحادثة على كاهلي . ولكن هذه المرة لم أكن استطيع ان اركـز انتباهي جيدا ، على نحو مغاير عما كنت عليه في المدينة فقد كنت منهكة القوى لدرجة كبيرة .

اخيرا حضرت مريم الى مدخل الحجرة . و ارادت ان تعرف هل سأتناول عشاّي مع الرجال ام مع النساء . وعندما لاحظت عدم قدرتي على الاجابة على هذا السؤال البسيط ، قادتني بسهولة الى الطرف الاخر من منزلها . على الرغم من ان المنزل كان مؤلفا من اربع حجرات فقط ، كل حجرة في طـرف ووراءهما مخزان ، فان نصفي المنزل لم يتصلا من الداخل . قادتني الى حجرة نوم اخرى حيث كانت مريم وخديجة ونسرين وناديا يتأملنني وانا آلتهم الغذاء من الصينية الكبيرة الموضوعة امامي . وعلى الرغم من احتجائي فانهم لم يقتربن من الطعام الى ان انتهيت منه . وبعد العشاء حاولن ان يرينني اشكال الرقص الكردي حيث و فـعن شريطا مسجلا وشكلن صفا في الفراغ الضيق بين السرير المزدوج والجدار . وكنت لا اكاد اقدر على فتح عيني .

— مارغريت تعبها .

ابتدت مريم ملاحظتها واسرعت باخراج الفتيات من حجرة النوم الى الطرف الآخر من المنزل ، حيث كان الحاج اسماعيل وبطانتسه قد غادروا لتوهم . اخرجت بندقية ضخمة بسرعة من تحت الفراش

المزدوج ومن ثم عدلته ثانية . وضعت خديجة طبقا كبيرا من الفواكة وطبقتين صغيرين لخدمة المائدة ، مع سكينين للتقشير وابريق ماء وكأسين ومسجلة مع حافظة اشربة محبوكة فسوق عتبة النافذة قرب الفراش . وحالما وضع كل شيء كما رغبنا تمننت لنا مضيفاتنا بقضاء ليلة سعيدة واغلقن الباب . تركنا انا وجيرد لوحدها ، لتأمل احداث وسب وجود تلك البندقيّة بما أن هذه كانت الليلة الاولى لوجودنا في القرية ، فقد كان تأثيرها علينا قليلا نسيا . كنا نعرف ان الحاج اسماعيل وابنه كانا صيادين متحمسين ولم يخطر ببالنا مباشرة ان هذه البندقيّة تخص مريم . فهي لاتذهب للصيد . وموئرا وبعد أن انتهت اقامتي في كردستان ادركت انني لم اكن اخطو عشر خطوات في القرية دون ان اكون مرافقة بأحد ما للحماية ، والاهم من ذلك لم ننم ليلة واحدة دون وجود حارس يحرسنا . لم يكن الاكراد الايرانيون مسلحين من الناحية النظرية ، ولكن سيطرة الضغائن الدموية وسفك الدماء جعل ذلك موضوع نقاش . ايا كان نوع القانون ، فقد كان واضحا ان العديد من الاكراد يقتلون اسلحة نارية .

نظرت الى الساعة الفخمة المعلقة على الجدار وكانت تشير الى التاسعة والنصف . وفجأة لم أجد أشعر بالتعب . تناهي الى سمعي في الجانب الآخر من المنزل احاديث وقهقهات ، ونظرت خارجا من خلال نافذتنا الى حزم الضوء المنبعثة من نوافذ حجرة نوم ناديا . لم يكن السرير طويلا بما فيه الكفاية لجيرد ليتمدد بكامل طوله . وكان كل شيء يتدلى مثل ارجوحة شبكية ، حاولت المشي للنوم ، لمعرفة مدى التعب الذي سأتجشمه في اليوم التالي . وبعد نوم متقطع وقلق استيقظت على فجر بارد اخضر ، سديمي يمتد بعيدا حتى اطراف الجبال . تلاشى شعوري بالنعاس عندما سمعت سقسقة الطيور من خلال النافذة المفتوحة . وحالا وصلت خادمة الى الباب وهي تحمل طبق المنيوم مستدير ضخم ممتلئ . بطعام الفطور المكون من الخبز الطازج المنبسط

المصنوع من القمح الخالص مع جنبه بيضاء ولبن خاشر وعسل وكووس من الحليب الحار التي يتصاعد منه البخار ، حضر رحيم ليبقى برفقتنا وحالا بدأ يوم جديد . جاءت نسرين بعد الفطور لتأخذني لألتقي بأختها امينه .

بعد مشي مايقارب ربع ميل صعدوا نحو الهضبة ، افتربنا من المنزل من خلفيته وشرنا نحو موقع حجرة الحريم . لم ارى في هذه المرة الجدار ذا العشرين قدما الذي يفصل حجرة الحريم من حيوان خانة الحاج اسماعيل ، حجرة الجلوس تلك ، الطويلة والمعممة المبنية جانبا ، للرجال الذين يقومون برعاية القرية . رأيت هذه المرة فقط خادمة مرتدية على نحو بلوح فيه الفقر واضحا وهي تجد مع مجموعة اواني كبيسة ، معدنية وزيتية المظهر ، مدعمة بركاثر عند الحنفيات خلف المنزل . صعدنا انا ونسرين الدرجات الصلبة عند مدخل حجرة الحريم وخطونا فوق قشور خيار وبرتقال مرمية بالقرب من كلب رمي ضخم في القاعة المعتمة . وبعدد اقلت نسرين بيدي عندما توقفنا كلانا لنخلع احدىتنا امام الباب المعدني. نهضت نصف درينة من النساء لدى دخولنا بلبت المرأة الثقيلة المقعدة التي تذكرتها وبغموض منذ ذلك اليوم البعيد ، في حجرة جلوس مريم ، جالسة فوق سجادة وعكازها الى جانبها . حيث ، نسرين اولا المرأة الاكبر سنا ومدت عنقها الى الامام باتجاهي وابتنسامة تجعد ثنايا وجهها . فهمت اخيرا ان المرأة ذات العكاز هي سوس خانم والدة عائشة . وامينه الطويلة القائمة ذات الشعر الاسود والعينين الرماديتين التي عرفت نسرين الي كانت اخت عائشة الصغرى ، وكذلك اخت نسرين بما أن اللغة الكردية لاتفرق بين الاخت الشقيقة والاخت .

عندما جلست جلست جميع النساء ، بدأن بسوءالي فيما اذا احببت القرية أم لا. وهذا السوءال كان يتردد على شفاه نسرين اكثر من الجميع بما انها قد دارت بي في انحاءها

في اليوم الفائت . قدمت الشاي المرأة ذات الوشم الأزرق على حنكها ، التي اشارت اليها خديجة على انها والددة احدى زوجات الحاج الاخريات . تساءلت أين يمكن ان تكون الزوجات الاخريات ومن كانت النساء الجالسات امامي ، وخيل الي كما لو انهن يقضين النهار جالسات في حجرة نوم سوسن خانم . اليهين لديهن ما هو افضل للقيام به ؟ شككت في انهن قد اجتمعن خميصا لشرب الشاي . وانهن قد تعطلن لوفادتي . وبعد أن مضت نصف ساعة فقط وانا برفقتهم ، بدأت اشعر وكأنني قد سمرت بسير الحياة البطيء . تخيلت انهن جالسات يوما بعد الآخر في هذه الحجرة الداكنة ، المعتممة حيث يحوم فيها الذباب فوق فتات الطعام المرمي ارضا فوق السجاد . بَدُونُ متبلسات بسبب وجودهن في القرية كما لو انهن لا يعرفن ما يتحدثن عنه لي سوى فيما اذا احببت القرية اكثر من المدينة ام لا . بالطبع زال الآن عنهن الملل قليلا ، بسبب حضوري ، حيث أشكل وجهها جديدا بالنسبة لهن ليحدثن فيه . ما كنت سأستشف ابدا من هذا اللقاء مع سوسن خانم زوجة الحاج اسماعيل الكبشري انها كانت قد تورطت منذ زمن بعيد في فضيحة ومغامرة . كل ما استطيع ان اخبره الان انها كانت تجلس من يوم لآخر تتلمس مسبحتها بأصابعها وعقلها - والله اعلم - ممتلئة بأي مشاعر من الندم وبأي افكار عن السنوات الاربعة السابقة المتتالية او عن الزوجات الاخريات اللواتي كان عليهن أن تتحملن او عن بناتها الاربعة .

سمرت نسرين ، التي بدت وكأنها لم تتأثر بجو الحجرة المشير للوهن ، تتحدث عني بسرعة كما لو أنني لست موجودة اخبرتهن عن عملي في الكلية ، وعن انواع الاطعمة التي اجهزها للغداء وعن كيفية تزييني منزلي . كانت معظم هذه المعلومات ثانوية نوعا ما . سألت النساء عن زوجي ، فأوضحت نسرين انه فارغ القامة ، والاهم من ذلك انه كان شابا . كنت صامته ، وقد تملكني شعور شابه قدرة نسرين

على تحمل الكدر . حاولت امينه بين فينه واخرى أن تفسح المجال لقول كلمة او اخرى ولكنها فُسلت . استمرت آلال ابنة اخ الحاج - ذات المظهر الطائش في القهقهة والذهب يتلأل ، في ثغرها ذى الخمسة عشر ربيعا . فهمت من هذا أن نسرين معتادة على عقد مجالس كهذه في حجرة جلوس سوسن ، وتساءلت عن شعور اختها الصغرى وابنة عمها نحوها .

صرحت لي نسرين موءخرا ، عندما أتت الى ريزاي في زيارة ، انه ليس لديها مديقات في القرية .

- ماذا تعنين ؟

سألتها وأنا أفكر بالوقت الذى تلقضيه مع أمينة وآلال .

- ماذا من اختك وابنة عمك ؟

فأجابت باردراة :

- أوه ، انهما ليستا مديقتي . كيف يمكن لأمينة أن تكون مديقتي .

ولكنني خلال زيارتي الاولى لدستان لم أستطع أن أكون رأيا من هذا التوتر في علاقتهن . كان العمل العدائي الذي شعرت به آنشد ، هو التنافس على امتلاكى ، أنا الزائرة . كانت نسرين قد كسبت النزاع مسبقا ، ووضعت يدها علي ، لأنه كان واضحا للجميع أنني ضيفة مريم ولست ضيفة حريم الحاج اسماعيل . عندما ناشدتنا سوسن على نحو مشير للشفقة ، للبقاء لتناول وجبة غداء الظهر ، كانت نسرين حاسمة تقريبا بالطريقة التي نهضت فيها وأخذت بيدي نازلة فوق الهضبة باتجاه منزل والدتها .

تساءلت فيما اذا كانت أهمية نسرين تنبع جرفيا من حقيقة كونها ابنة مريم . لقد عاشت مريم في السنتين الاخيرتين منفصلة من جناح الحريم المشير للملل . بدا في وقت زيارتنا أن مجموعة من الابنيسية تنشأ في دستان . حيث كانت كلاًويژ ، اخت الحاج اسماعيل ستنتقل الى خارج مساكن

النساء المشاعة في ذلك الصنف . كنت متأكدة تماما من أن سوسن كانت ترغب بالمفادرة هي ايضا ، ولكن ليس بيدها حيلة ، فهي عجوز مسنة ومريضة جدا . وبما انها لم تنجب اولادا وبالنتيجة لم يكن لديها كنانين ، فقد كانت تعتمد على الزوجات الشابات كي يطبخن لها . يمكن فقط للنساء اللواتي لديهن اولاد شباب مثل مريم ان يسكنن وحدهن وهذا فقط ما سيبدو معقولا .

لم يد لي أحد على عجل في تجهيز نفسه على الرغم من انني سمعت انهم سبأخذوننا في رحلة الى نبع حار في الانحاء القريبة . قدم لنا في البداية غداء عامر ، وافر ، ومن ثم شعرنا بالنعاس . واخيرا اتضح اننا سنصعد الى اللاندروفر . وبما انني كنت قد تناولت غذائي مع الرجال والصبيان ، لم أر النساء لفترة ، لذلك عندما صادفت مديجة في جانب المنزل ، سألتها فبما اذا كانت ذاهبه هي ايضا الى النبع الحار . فقالت وهي تبتسم :

— لا أظن ذلك يمارغريت .

— ولكن لم لا ؟

تلاشت هذه العبارة على شفاهي ، بينما اختفت ثانية وراء المنزل في مكان ، أظن انه المطبخ .

عندما حان الوقت ، اتضح ان جبرد وطه ورحيم ، وأحد اخوة طه الصغار وأمينه ونسرين وأنا فقط كنا ذاهبين . أخذنا طه بندقبته المنقشة وعلق حزاما عريضا من الرصاص حول صدره ، كانت نسرين تقفز من الفرع جيئة وذهابا ، عندما بدأنا بالخروج متتبعين الطريق والسلك الكهربائي باتجاه الحدود العراقية ، تساءلت بصوت عال فيما اذا كانت كهرباء الحاج اسماعيل تستمد من هذه الاسلاك ، ولكن الجواب من طه كان انه لا يسمح لأي قرية ان تستمد من هذه الطاقة . وأن استخدامها والافادة منها تقتصر على الجيش المتمركز على الحدود فقط . كانت كهرباء الحاج

اسماعيل مجهزة بمولد يعمل بقوة مادة نفطية .
 قبل ان يغادر بساعة او ساعتين كانت نسرين وامينة
 تتحدثان عن هذه النزهة ، كما لو انها نزهتهما الوحيدة لهذه
 السنة . فقد انفجرتا بالحديث عن اوهام مع بعضهما ومعى عن
 توقعهما مدى روعة هذه الرحلة . كنت اشك في ذلك ولكن " درمان
 آقا " والتي تعني حرفيا - الماء الشافي - كانت لافتة للنظر
 اكثر مما تصورت بكثير .

كان جزء من جمالها يكمن في حقيقة انها لم تمسس
 تقريبا ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان علينا ان نعبر بحرا مكشوفاً
 من الوحل لكي نصل الى هذا الممر الضيق الذي يقطعه نهر يجري من
 خلال صخرة صلبة . وقد نجح اللاندروفر بعبورها بصعوبة . ولكن
 المشهد وحده كان يستحق السير نحوه . كان لون النهر اخضر
 باهتا وقد زاد على ذلك الخضرة القليلة المحيطة بنا . بدا الماء
 دافئاً لذيذاً عندما تسقلت الجرف الصغير لأضع يدي في احدى
 البرك المتدفقة . اخذت نسرين وامينه بيدي ومضينا نتجول في
 انحاء النبع . كانتا تبديان قلقهما باستمرار على اني قد
 تعبت . فكرت في سبب قلقهما وقررت انه يمكن أن يكون جـراً
 انسحابنا في وقت مبكر جداً في الليلة الفاشلة ، عدا ان نسرين
 كانت تفترض انني متعبة منذ اللحظة التي وصلت فيها الى دسستان .
 ربما كان ذلك سبب ارهاقي الشديد . ومن عادة الاكراد ان يفكروا
 في حتمية شعور الضيف بالتعب لانه ليس معتاداً على الجبال .

حالما مضى الرجال الذين سبقونا الى النبع كيفت خطواتي
 مع نسرين وامينة وتوقفت معهن عندما تحدثنا مع عائلة بسدا
 انها قد عسكرت تحت صخرة بجانب الجرف . كانت هؤلاء النساء
 مرتديات لباساً غريباً وخلقى ذهبية مثل الاكراد . تصورت انهم
 لاجئون عراقيون غير مسجلين لدى السلطات المحلية ، ولكن ، عندما
 سألت مضيفتي عن امرهم ، أبلغتني انهم مجم . فكرت في نفسي
 انه من الغريب ان يتحدث العجم بالكرديشة ولكنني لم
 ألاحق الموضوع .

كان رجلان آخران جاثمين ، بدا بوضوح انهما كرديان
 بشلواريهما الفضفاضين وعمامتيهما ، كانا جاثمين على صخرة
 اخرى يبدخان السجائر ويراقباننا . استغربت لكيفية وزمن
 وصول هؤلاء الناس . فقد كانت سيارتنا اللاندروفر هي وسيلة
 النقل الوحيدة التي ترى على مرمى البصر .

شرع طه في الصيد جديا ، ودوت الطلقات عاليا . ركضت
 الفتاتان لتراقبان أخا طه الاصفر حسين وهو يخوض حتى وسط
 بنطاله الجينز المستورد . وقد ابتهجت لدى اكتشافني ان بنطاله
 الداخلي هو شلوار طويل من الموسلين ، متجمع عند الكاحلين ،
 بينما كانت الفتاتان ملتفتين من قمة رأسيهما حتى اخمص
 قدميهما . بالملابس الكردية التقليدية ، كان الرجال الثلاثة
 جميعهم مكسوين بملابس مريحة اكثر من الطراز الغربي ، العملي .
 كانت اللغة واللباس الداخلي فقط يحددان هويتهم على انهم
 اكراد .

رجتني أمينة ونسرين ان اطلب من طه ان يأخذنا جميعا
 الى معسكر اللاجئين الاكراد قبل أن يتم رحلة صيده فيفوت
 علينا هذه الفرصة . لمحنا أسف شكنات المعسكر المعدنيصة
 الواسعة وهي تلمع من على بعد مسافة بجانب القمم الجبلية
 المكتسية بالثلوج . عندما انعطفنا عن الطريق الرئيسي المؤدي
 الى حقل موحل . ونحن نتجه نحو درمان آقا وقد رغبت أننا
 أيضا في روعة المعسكر ولكنني لم افكر ان ذلك ممكن فقلت
 وقد لاح فضول في كلامي :

— لماذا لاتطلبان ذلك منه بنفسكما ؟
 — لن يأخذنا من أجلنا ، ولكن لو طلبت انت ذلك
 يمارفريت فأننا متأكدة انه سيأخذنا .

وافقت ان اطلب منه ذلك لأجلي بقدر ما لأجل نسرين
 وأمينة . في صباح اليوم الفات كان نسرين تحلم بالسبير

الى العراق على ظهر حصان برزاني ، وهو يرمى في دستان تماما .
بأحلام كهذه ماذا يمكن أن يكون أكثر اشارة من روعية بعض
الرجال اللاجئين المعاقين داخل المعسكر ؟

قدم حسين طيور الحجل المصطادة لطفه الذي وضعها
على الارض . ابتسم استجابة لكلمات المجاملة العديدة التي
صدرت عن اخيه وسأل :

— ماذا سنفعل الآن ؟ ربما علي ان احصل على
المزيد من الطيور ؟

سررت لان نسرين أعطتني المبرر لأقترح انهاء هذا الصيد ،
فسألته :

— هل تظن انه يمكننا ان نسير بمحاذاة زيبوا
وان نلقي نظرة على المعسكر ؟ فأجاب طه :

— طبعاً ، اذا كان ذلك ماترغبين القيام به ؟
ارتسمت لذلك ابتسامتان عريضتان على وجهي نسرين وامينه
سرنا بهدوء نحو السيارة ونسرين تتمتع بامتياز حمل الطيور
الميتة . عندما وصلنا الى الطريق الرئيسية ، اتجه طه نحو
الاسقف المعدنية . كان باستطاعتي ان اسمع امينه ونسرين وهما
تتهامسان بابتهاج في خلفية سيارة اللاندروفر .

بعد كل مداولات السافاك ، مما اذا كان سيسمح لـ
بزيارة زيبوا ام لا ، لم أقدر أن اصدق اننا سندخل المعسكر
بهذه السهولة فعلاً . لم تكن ثمة اسبجة ولا حراس . عبرنا
بسهولة جسراً صلباً ووجدنا انفسنا في طريق مع صفوف الشكنات
الضيقة في أحد الجوانب وخيم الجيش في الجانب الآخر . كان يقف
بجانب الشكنات نساء وأطفال باللبسة كردية ، بينما كانت زمرة
من الرجال قد اجتمعت أمام ما اتضح فيما بعد انه مطعم .
بدأت بالتقاط صور من خلال النافذة وقد امتع ذلك طه كثيراً . ولم
يبدا خائفاً من السافاك على الاطلاق . تقدم رجل باللبسة

كردية وحياء من خلال النافذه وأخيرا بعد عدة دقائق تقـدم جندي وسأل طه عما فعله هناك . أخفيت آلة التصوير بسرعة وأجاب طه بأننا عابرو سبيل فحسب . كان الطريق المار عبر المعسكر هو الشريان الرئيسي للمواصلات من الشمال الى الجنوب فـفي غرب اذربيجان الكردية . لوح لنا الجندي بيديه وعندما نظرت خلفي ، تـلألأت الشـكـنات ثانية تحت ضوء الشمس . ولكنها ظهرت مغبرة وموحشة عندما كنا بالقرب منها .

مضت بقية فترة العصر بسرعة وبمزيد من الشـاي والحديث في منزل مريم . وعندما آن أوان الرحيل ، ظهرت خديجة من وراء المطبخ أخيرا . كانت قد قضت معظم نهاية الاسبوع وهي تطبخ وتقوم بالأعمال المنزلية الروتينية غير المحببة لحمايتها. تجمع بقية أفراد فريقنا عندما حضر الحاج اسماعيل متخبطا وهو يبهبط الهضبة في سيارته اللاندروفر ليأخذنا ويعود بنا جميعا الى المدينة . وبعد أن وصلنا الطريق العام الحكومي تماما خطا شرطي من مخفر الدرك الواقع قرب دستان نحونا على الطريق ، وأشار اليـنا بالوقوف وسأل مشيرا نحونا :

— من هؤلاء ؟

فأجاب الحاج اسماعيل :

— أنهما ضيفاي .

أومأ الدركي برأسه وتراجع الفهقري ، وواصلنا السير في طريقنا .

كان الضوء المنور للطريق يبهت رويدا رويدا ، وبدأ الحاج تعباً . وبقي ينظر بعينين طارفتين نصف مفتوحتين ، ومن ثم يفتحهما على وسعهما ، كما لو أنه لم يكن يستطيع الرؤية . كان الطريق في بداية باند مكتظا بسيارات سكان المدينة الذين قفوا يومهم قرب وسائل نقلهم ، وعلى نحو هرجبي في الهواء الطلق خلف باند تماما كان هناك متسع كاف من المكان لكل شخص ليفترشه ، ولكن مثلما ذكرتني نسرين ذلك المكان هو كردستان ، وليس للعجم مكان فيه .

رجونا أيضا وجيرد الحاج اسماعيل أن ينزلنا على بعد عدة مبان قبل أن نصل الى منزلنا ، بما أننا قد تعرفنا جيدا على الشكليات التقليدية الملازمة لهذه المناسبة . فقد كنا قد رأينا لمرات عديدة ان الايرانيين يقفزون فعلا من سيارات متحركة محاولين انقاذ السائق من بذل المزيد من الجهد لأخذهم الى المنزل تماما . ولكن كان واضحا أن الحاج لن يتوقف الى أن يطمئن الى أننا امام منزلنا . ارشدنا مكرهين الى فناء دارنا حيث نزل من سيارته لكي يصفحنا . ومن ثم امر طه ان يقدم لنا اثنين من طيور الحجل التي كان قد اصطادها . ولكنه عندما حملها ليقدّمها لنا ، رفضنا أن نأخذ هذه الطيور البالغة الصغر ، ليس من منطلق سلوك " التعارف " التقليدي ، بل لاننا لم نكن نرغب فيها أصلا . على كل حال ، أمر الحاج على أن نأخذها . فبالاستناد الى سلوكنا السابق ظن أننا نفعل ذلك لمجرد انه سلوك مهذب نسلكه معه . وبعد أخذ وعطاء معه ، استمر الحاج اسماعيل في رفضه تصديق اننا كنا نرد مثل هذا الخيار مراعاة للذوق واننا من جهة اخرى لم نكن نرغب في نتف واخراج احشاء هذه الاجساد الصغيرة من أجمل قليل من لحم الطير . واخيرا قال جيرد :

- ان اعطاءنا طيور الحجل هذه هو مثل الفاشا فشي المزيلة ، فنحن لن نأكلها .

بدأ الحاج اسماعيل مذهولا ولكنه عاد الى وضعه السوي حالا . لقد كنا غرباء ، وقد قبل منا ذلك . وقبل أن يسير مبتعدا تمنى لنا قضاء ليلة سعيدة ومودة سريعة الى قريته . بقي اتفاق وداعه الحار ووداعات البقية في السيارة ، ووداعات نسرين ومريم المحبة عند مغادرتنا القرية وحسن الضيافة الذي استمتعنا به في دستان ، بقي كل ذلك معنا الى أن وصلنا أمام باب دارنا . ومن ثم اكتشفنا ان الباب مقفل من الداخل واننا قد بلينا خارجا .

كنا نقتني مفاتيح لبوابة الفناء ولباب شقتنا فسي الطابق العلوي فقط . لم نجد الباب الامامي للبناية مغلقا أبدا . خلال أشهر اقامتنا في ريزاي كلها . ولكن لم يحدث أن كان هوشنغ وشهرزاد في الخارج . كانت اخت هوشنغ الكبرى قد حلت محلهم لتعتني بالشقة والطفلين . كانت تلمح بغموض وفي أكثر من مناسبة الى جميع الجرائم في المدينة ، لذلك لم تعد أبواب الفناء والشقة تترك مواربه كما كانت لدى وجود شهرزاد في المنزل . أما الآن فقد اغلقت العمدة باب البناية الامامي بمفتاح لم نكن نعلم بوجوده . وبما أن منزلنا لم يكن مضاء ، فقد ظننا انها قد رحلت الى مكان ما ، وربما لوقت طويل .

تجولنا في البداية في الزقاق بحثا عنها . ومن ثم مكثنا ننتظر عودتها ببساطة وقد انهكنا التعب في الساحة المظلمة . وأخيرا عادت والطفلان في رعايتها ، دون ان تقدم لنا أي اعتذار عندما اوضحنا لها انها قد اغلقت الباب وتركتنا خارجا . كان تعاملنا معا أقل من أن يكون عدا . علينا بقليل ، لذا فقد مهد جيرد الى الطابق العلوي مباشرة ، تفاديا للمزيد من المناقشة . وحالما فتحت باب شقة الجفريين قالت لي العمدة للمرة العاشرة أو مايقاربها منذ ان التقينا " بفرمايبيد ، خانم " رجاء تفضلي بالدخول لتناول الشاي .

عندما كانت تقوم بهذه الدعوة من قبل ، كنت اتفادى قبولها دون مغرفة مني فيما اذا كانت تعنيها حقاً أم لا . ولكن هذه الليلة كنت في حاجة لبعض الشاي وبالإضافة الى ذلك لم ارد ان ارفض دعوتها وان ابدو غير ودودة اكثر بعد المحادثة المنفصلة من القفل . قبلت الدعوة دون ان افكر في حقيقة ان المرأة كانت خارج المنزل وان السماور من الممكن الا يكون ساخنا . وحالما دخلت الردهة معها ، وقفت وهي تنظر الي دون ان تدعوني للجلوس واخيرا قالت :

— رجاء تفضلي بالجلوس .

بعد ذلك مضت الى المطبخ . وعندما عادت ناولتني تفاحة
طرية ضخمة وقالت :

- هذه من بستان عمي . يجب أن احمم الطفل .

حصلت وقفة قصيرة فظة ، ادركت فيها ببطء انها
تصرفني بذلك وان التفاحة هي تعويض عن الشاي الذي عرضته علي
والذي لم تعني ان اقبله من المرة الاولى . على الاطلاق . نهضت
بسرعة ممسكة بالتفاحة و وجهي يتوهج من الانفعال . ونجحت في
صياغة بعض الكلمات وقلت :

- اعذريني ، على أن امضي الآن . ليلة سعيدة .

فردت خلفي :

- ليلة سعيدة خانم .

عندما قفلت عائدة الى الطابق العلوي ممسكة بالتفاحة ،
لم أفهم في البداية كيف ارتكبت مثل هذا الخطأ . متى كانت
المرة الاخيرة التي قبلت فيها دموعاً بمعناها الظاهري ونسيت
آن اعطي الشخص الذي دعاني فرصة لقبول رفضي على نحو لبق ؟
بعدها ، ادركت حقيقة المشكلة . كنت قد قضيت اليومين
الاخيرين مع الاكراد في كردستان . وهي بلد آخر وذو مستوى
ثقافي آخر فهناك كانت كل دموع ، كل وجبة غذاء تدمم
بتأكيد قوي للقبول . وفي طريقنا للمنزل اوقعنا الحاج في
حيرة اوربما ارتكبنا خطأ بحقه ، برفضنا الشبيه بالتمسك
بالشكليات والرسميات التقليدية ولم يدرك كم كنا مضطربين .
فمن جهة ، ارتكبنا خطأ ممارسة نظام الشكليات مع الاكراد
ومن جهة اخرى نسينا ان نستخدمها مع الفرس والأتراك . حينئذ
توجب علينا اكثر من أي وقت آخر ان نسأل انفسنا الى
من ننتمي في ايران ؟ لقد عرض علينا مكان في كردستان
لقد قالها الحاج :

- هذه قريتك .

ومع ذلك مكثنا في ريزاي . لقد كان عملنا هناك . ومنزلنا

كان هناك . ولم اكن متأكدة تماما من انني مستعدة للانتقال الى القرية الا في بعض خيالاتي المجعدة .

كانت الحرب الايرانية الواسعة ، غير المعلنة قد غمرتنا على الرغم من جهودنا المبكرة لتفاديها . لقد كنا في وقت ما غرباء كليا ، نمضي هنا وهناك ببراءة وجهل وبين فينة واخرى نقضي الوقت مع الاكراد اذا استطعنا ان نجدهم واحيانا نعقد علاقات اجتماعية مع ايرانيين آخرين اذا دعينا فعلا او قبلوا دعواتنا . لقد شارفت فترة سدا جننا وعدم قدوم الاصدقاء الى عتبة دارنا على الانتهاء .

— هل لديك اصدقاء من العجم ؟

سألني خديجة هذا السؤال وهي تضيق عينيها في اكثر من مناسبة :

— لماذا تذهبين الى القرى الكردية ؟ انها اماكن مثيرة للاشمئزاز والغرف .

ارادت والدة شهرزاد ان تعرف ، فسألني ذلك . لم يكن مفهوما بالنسبة للاتراك المتمدنين اننا ، نحن الامريكيان المثقفين نختار رفقة قرويين وسخين ومخلفين . ومع ذلك فقد خلصنا الى رأي مفاده ان الاكراد او على الاقل الحاج اسماعيل وعائلته يتصرفون بغرابة أقل من الايرانيين . أن غياب نظام الشكليات والتأكيد على الشرف الشخصي والاهم من هذا وذاك الافتخار العرقي هو الذي يميز الاكراد عن معظم الايرانيين الذين التقينا بهم . ربما كانت ميزة الافتخار هي الغالبية . ان الاكراد اوبالاخرى ، اكراد القرى الحقيقيون ، لم يشعروا بعد بحاجة الى تقليد الغرب ، لذا فقد قابلونا كأنداد دون استياء ولكني لا اقوى على التغاضي عن هذا الصراع سيسر بتلك التعميمات الصرفة التي سبق الحديث عنها . كنت على وشك اكتشاف القرى الكردية التي لا يشعروني فيها بنبيء سوى ب " الاخرى " وكان لايزال يوجد بعض الاتراك والفرس ممن رغبت فيهم كاصدقاء لي .

لم تحل المسألة قط . لقد كان الحقد والخوف رابغبيين
 هناك لقرون قبل وصولي لهذا المشهد ، ولم اتعلم قط كيفية تقبله
 كنت امتقد اني قد اتيت الى بلد واحد ، بينما كنت في الحقيقة
 اجول وانتقل بغير نظام عبر حدود اكثر من نصف دريئة من
 القوميات . فالترك لم يقووا على فهم صلي بالاكــــراد،
 والاكراد ، لم يقدروا على فهم ماالذي كنت افعله مع العجم
 اما انا صديقهم . كان الارمن المسيحيون والاشوريين وكذلك
 يهود ريزاي قد ذهلوا ، الى بما كانوا يرونه بالمجمومة
 المسلمة الاكثر وحشية في المنطقة . هذا بالاضافة الى الفرس
 الذين كان يشعرون ان ريزاي هي مركز حدود بعيدة ، الى حد
 لايطاق عن طهران ، مدينتهم المفضلة وعن مشهد او شيراز. ينظر
 الفرس الى الترك على انهم حمير ، والى الاكراد على انهم مجرمون
 متوحشون وانهم يشكلون تهديدا على أي بلد متمدن .

ولكنني حسمت الامر في ذهني مسبقا . وهو ان كردستان
 كانت شاييتي وانني بلغتها اخيرا . لقد تلاشت كل الاضطرابات
 التي شعرت بها لتجسس جبراني على ضيوفي الاكراد . وكذلك
 الغضب والخوف اللذان كانت تشبههما اوامر العميد وتهديدات
 المتسترة ، وحتى قلقي الذي كان يسببه السافاك ، كل ذلك قد
 تلاشى . لقد قالتها نسرين : (هذه هي كردستان) .

الفصل الخامس عشر

ان بعضا من غرابة قرية الحاج اسماعيل دستان ومانوا يكمن في الطين المنتشر في كل شبر فيها . ففي كردستان تكساد تكون جميع القرى مشيدة بصورة رئيسية من الطين ، هذا ان لم تكن قد وقعت فترة من الفترات بيد الآشوريين . فمنازلهم . وجدرانهم وافنية دورهم كلها طينية ، والمصدر الرئيسي لوقود الشتاء هو كتل طلبة من روث الحيوانات . وهذه ايضا تخزن في مخازن طينية .

وبما ان الحاج اسماعيل رجل ثري ، فقد بنى منزله من القرميد الاصفر المصنع في المدينة ، وكان منزل مريم قد بنى حديثا من احجار مصنعة ، ومعدة لذلك دون استخدام الملاط . كان الحاج اسماعيل بمحصول قمحه وحصادته وسيارته اللاندروفر قادرا على ان يبني قلعة . كان بامكانه انشاء منزل ذي طابقين بدلا من طابق واحد ، وان يشغل ثلاثة او ثلثمائة بكرة بقوة مولده الكهربائي وان يشتري اشياء اجنبيا غاليا . كان يمكن لمنزله ان يكون نظيفا وخاليا من الذباب لو أنه اراد ذلك . لم يكن يعيش بمستوى يختلف عن جيرانه الفقراء . فقرأ مدقعا ، فقد كان يغزو منزله مثل منازلهم الذباب وحشرات الاغنام . وكانت وجوه اطفاله مثل وجوه اطفالهم مغزوة بالذباب . اخبرتنا اخت الحاج انه وضع في احدى المرات حاجزا متخلبا على نوافذ ديوانخاته ودار الحريم ، ولكنها اوضحت ان هذا قد زاد المشكلة فحسب ، لأن الذباب صار يحبس في الداخل ، لذلك امر بنزع الحواجز . لقد وضع الآن قفصا حديدية ل تمنع اللصوص والناهبين من الدخول وتركها دون حواجز منخلية . كان ركاب من النفايات والمفلات يتبعثر عادة في ماء منزله الطيني المطروق . لم يكن ثمة ما يدعو للتخوف من تراكم

اما بالنسبة لنا فثمة سحر في لاسالة الحاج بالراححة .
 فبينما كان الاتراك والفرس يشترتون وسائل الراحة الغربية
 بأقصى سرعة ممكنة لدى استيرادها الى ايران ، كان الحاج
 اسماعيل يعيش في منزله بأسلوب مشاه جدا لجده الثالث . كنا
 متخمبين في المدينة بالراحة لدرجة اننا كنا نعجب بالناس
 الذين لايتغايقون من الطين . وقد حسب الشيخ عبد الله وهو
 واحد من الذين شهدوا اساليب العيش الغربية انه قد اصابنا مس
 من الجنون لمجرد اننا قضينا وقتا مع الحاج اسماعيل . ولوانه
 عرف بأي طريقة رومانية صونا أسلوب عيش ابن عمه ، لأشار
 ذلك اشمزازة تماما . فقد سألنا في اكثر من مناسبة :

- ماذا ترون فيه ؟

قال الشيخ عبد الله ذلك بازدياد ، ولقد وافقناه على ذلك ،
ولكننا كنا مفتتين بالديناصورات على نحو مغاير عن عبد الله .

الفعلي ، عدد ضئيل من الطلاب وذلك بأن مكثوا في حرم الجامعة وجلسوا بسلام على الارض وهم يرددون الاناشيد ، بينما كان الجنود بنادقهم الرشاشة يراقبونهم من على بعد ياردات منهم . لقد ترك الطلاب ، هؤلاء القلة الشجعان ، كي يقررروا مصيرهم ويتجشموا عناء النتائج .

قدمت الى عملي في الكلية ، الموقع التعليمي الاول بالنسبة لي ، وأنا مفعمة بالمشائيات . في البداية قضيت ساعات فسي اعداد وتنظيم كل صف وكنت اقلق باستمرار لكيفية خلق دافع نحو الدراسة لدى طلابي المتمسلمين ، وقد ادركت تدريجيا أن ذلك محرد وهم . لم يكن أحد يهتم بالتعليم بدا ، لا الطلاب ولا المدرسون ولا الهيئة الادارية . وقد شعرت بالمرارة على الرغم من تبين ان الفساد قد بلغ النظام كله ، وبلغ طالب او طالبين من أصل مئات عديدة من الطلاب لم يكن كافيا لي . بدأ السوءال يلح علينا اكثر فأكثر عما نفعله في ايران ؟ لا أعرف، لماذا اخترت ان ابوح شكواي الى عاشة . فهي لم تذهب الى كلية على الاطلاق . ولا حتى الى مدرسة ثانوية . ولكن كانت تتمتع بالاولويات على نحو مغاير عن اناس متعلمين آخرين . بدا انها تتعاطف مع خيبة رجائي وغضبي . لم تكن التعابير عن المشاعر تبدو غريبة لعاشة بنفس الطريقة التي كانت تبدو فيها للعديد من الايرانيين . كنا أنا وعاشة قد تجاوزنا بسرعة مرحلة الشكليات والرسميات التي ستبقى علاقاتي في ايران محصورة ضمنها الى الابد .

لم اختر أن اتحدث مع عاشة لأنها كانت الوحيدة التي تهتم أو تعرف شيئا عن الموقف في الكلية . فالكلية كلها كانت تضج بالايحار عن الاضراب . وفجأة وعلى نحو لم اعده بها، بدأت شهرزاد غير المهتمة والمعتقرة الى الاخبار تستوقفني وتسالني عن تطورات الموقف كل يوم . سألتني وهي مقطوعة الانعاس :

الآن صحيح ان الحين دخل الحرم الجامعي البارحة وضرب

الطلاب و...

أرباب الدنيا... السنة لشهرزاد والایرانیین
الآخرین... التة الوسطی من الذين یقدمون ولاء كلامیا كاذبا
للشاه شكا... وممتعا... اصبح اضراب الطلاب حدث الساعة
الآن شخص من المدینة تقریرا وانكثهم كانوا... الى وس...
تتلقى... ان كل... معنی...
... رونی... وصارت فكرة معارضة الطلاب
للشاه مدعاة للسب... وحتى الناس الذين حاولوا ان یظهروا الولاء
للشاه بادانہ الطلاب، اظهروا تكافؤ الضدين في انفسهم بمناقشات
... الاضراب... لم یكن یهتم الاكراد بها كثيرا،
فلسلهم صلب بهذه الكليات... اما عائشة فكانت تهتم بمسا
اقوله لها عن الكلية لأنها كانت تهتم بی ليس لرغبتها في
الاطلاع على آخر الاشاعات وما یقال عن حفلة الكوكتیل الثالثة
السی اسامنها...

... ما سعلی الامر بی فقد اسفر الاضراب عن نتیجة
شویبه... علی ألا اذهب الى الكلية، فالصوف لم تكن
... وبالنالی لم یكن ندعی الى الجلسات ذات المستوى الرفیع في
... كانت ندرس کیمیا اجبار الطلاب للعودة الى التزاماتهم.
احبسوا عائشة فاقلة؛
... ان تأتي الى العرة... سنذهب الى هناك حالما
بدوب تلح الحال...

أ... برأسی علی نحو مهذب وانا افکر بالمدی السدی لا
... الى مربتها... فقد كنت اریدها ان تتلقى
... نمده... حب یمكننی أن آتی البها واراها...
... امور تهمني
... الناس العریض علی فی ابران وفي العالم
من الدن یمكننی ان اتحدث معهم وان یسأطرونی مشاعری...

أكدت انه لا سبيل الى مساعدتها ، فقد غادرتها متسائلة فيما
اذا بقي لي احد في ريزاي بالاضافة الى جيرد يمكنني ان اتحدث
معه بحرية .

بما اننا الآن قد تفرغنا من واجبات التدريس ، فقص
اردادت لهفتي للذهاب الى المريد من القرى ، ولكني كالعادة انتظرت
دعوات محددة لذلك . كان الحاج اسماعيل وعاشقة قد طلبا
مني الذهاب اليهما متى شئت ، ولكني لم أكن اشعر بعد بالراحة
الكافية للقيام بذلك . واخيرا كوفى صبري بوصول صاحبة
عاشقة ، القصيرة الممتلئة الجسم الى باب منزلي في احد الايام
الربيعية الدافئة مع رجل كبير من " اليوفورت " اللبن ، بعثته
عاشقة من القرية . وبرفقة هذا اللبن كانت شمة دعوة تقبول
" تعالي " . اعطتنا المرأة القصيرة المكتنزة التعليمات للوصول
الى خوشخان . كانت توقعاتي عن خوشخان - القرية التي استرجعها
والد الشيخ - وذلك بأن اشتراها من حكومة الشاه - تعتمد على
زيارات سابقة قمت بهالي ثلاث قرى وهي قرية مانوا ، قرية شيخ
زادة ودستان . طبعاً حملت مناقشة حامية في دستان - من اي
القريتين أفضل ، دستان ام خوشخان . اتخذت عاشقة واخيها موقف
الدفاع عن خوشخان واعتبرها هي الافضل ، بينما كان الآخرون
جميعاً يودون دستان ولكن سوسن خانم شرحت باسهاب ان خوشخان
هي اكثر جمالا وهذا جلي للكل ، لان الماء يتوفر فيها أكثر . ان
اروع الالوان في العالم بالنسبة للاكراد هي " الكسكوشين " خضرة
الربيع الضاربة الى الزرقاء ، ومصدرها الوحيد هو الماء .

المنطقة التي تقع فيها خوشخان هي الجزء الاكثر تروية
في كردستان التي رأيناها خلال اقامتنا . فالنهر المنحدر من
جبال العراق يقطع ممراً فيقنا عبر الجبال ويسقي بذلك السهل
برمته ، حتى انه يمكن الشيخ عبد الله من زراعة بعض الحبوب من
الارز ذي الحبوب الصغيرة . ولكن ليس فقط وفرة الماء هي التي
تلفت النظر في خوشخان . فالماء يتوفر في قرى اخرى أيضاً ،

فلا يوجد في أي مكان آخر من كردستان ابران ما يشبه منزل الشيخ .

شاهدنا من على بعد بناء فخما من القرميد الاحمر قابح في قمة الهضبة المشرقة على النهر ، بينما كنا نجهد بسيارتنا عبر وحل السهل . وقد ظننت انه يخص الحكومة . ربما هو احد مخافر الدرك او احد المعسكرات الحكومية العيفية المنشأة لطلاب الثانوية والجامعة لغرض الحفاظ على الهدوء ، عندما تغلّسق المدارس . ولكننا حالما دنونا اكثر فأكثر استغربنا لعدم رؤيتنا أي بناء ذا حالة متوسطة بين البناء الضخم ذي المظهر الرسمي وبين الكوخ الطيني ، عندما مررنا بمحاذاة قرية صغيرة مغبرة . تساءلت اين يمكن أن يكون منزل عبد الله ؟ . انه بالتأكيد لا يعييش مثل قروي عادي وعندما توقفنا لنسأل راعيها واقفا قرب الطريق اشار الي البناء ذي القرميد الاحمر واتفصح انه ، منزل عبد الله .

لقد وصلت الى خوشخان حقا ، وفي ذهني توقعات مسبقة خاطئة ، كانت واضحة من الطريقة التي نظر فيها عبد الله الى ملابسنا عندما خرجت من السيارة . سألني وقد علت وجهه ابتسامة خفيفة :

- ماذا تفعلين بهذا اللباس ؟

نظرت الى فستاني المطرز الذهبي والابيض الذي يغطي " الكراس " المصنوع من قماش الفوال الاحمر الفاتح والقرمزي وشعرت فجأة بثقة عالية بالنفس وبشيء مثير للفحك . اعتقدت أنني سأشعر براحة اكثر بارتدائي للملابس الكردية في القرية بعد ان قضيت نهاية الاسبوع في دستان . فقد قضيت معظم وقتي في دستان وأنا جالسة على الارض في حجرة الحريم حيث كانت الثنايا الكثيرة للكراس الكردي المضاف تجعل جلوسي وفي حالات مختلفة اكثر راحة بكثير مما لو كنت مرتدية الجينز الضيق . ولكن الامر يختلف هنا من الروتين اليومي في مجالس حريم الحاج اسماعيل . فمن الاشياء المميزة انه لم يكن يوجد حريم هنا .

نزلت عائشة على الدرجات المؤدية الى خارج البيت ،
 مارة بجميع اصص مزروعاها ، المكممة في الساحة الى
 المرصوفة . رحلت بنا ومن ثم استعدت قائله انها
 تعمل ما . حدقت فيها بفرع . فقد كنت كل هذه المساء
 ريزاي والفكرة الوحيدة المسطرة علي هي النحدث معها ولخصها
 بدت حاوية الوفاض . بعدئذ قادنا الشيخ عبد الله الى
 المظلة على نهر وممر ضيق . رأينا حديقة ذات مساحة كبيرة
 عند جانب المنحدر وكان قد زرع حول جميع انحاء المنرا ، السدي
 لم يكمل بناؤه بعد ، نباتات من فصيلة السانجان وورد ونباتات
 القيس ونبات السمكة ذي الزهر الابيض والاحمر في مساكب محفلة
 حديثا . بدا حقل الشيخ كأنه قطعة من سويسرا ، بعد قوصه ،
 النفاية المنتشرة في افنية الحاج اسماعيل . وجدنا كوخ اراس
 مغمورا في احد جوانب الطريق الدائري الخاص الممتد الى البناء ،
 وفي بداية هذا الطريق شاهدنا بستان لوز وتفاح وبستان گرم ،
 وحلية نحل مصنعة . وضع جهاز غير مستعمل لتفقيس البيض على
 الشرفة قرب حجرة النوم . وفي الشرفة المطلة على الممر الضيق
 سدت مغسلة بورسلين غير مركبة بالقرب من الحائط . لــــدى
 الانتهاء من تجهيز كل شيء ، سيحتوي منزل الشيخ عبد الله على
 توالبين داخلين مئت كلاهما بالبورسلين . كان نمط مطبخ
 داخل المنزل ، وكان دون سوافذ ومعتم وذا ارضية منل مطابخ
 القرى الاخرى . ولكنه لم يكن يحتوي على حوض مفتوحة لنار
 العرن والمدفأة . لقد كان لديهم فرن غار للطبخ وموقه قــــدر
 ضغط جديد تماما ، الماني المنع والشيء الاروع من كل هذا .
 حجرة الطعام الرسمية في الطابق الثاني ، المكمله بالســــر .
 والطاولة والكراسي . كانت هذه هي القرية الوحيدة التي
 فيها على الطاولة لتناول وجبة الطعام .

انتابني الاضطراب للطريقة التي احسب فيها عائشة ،
 على الرغم من انني كنت قد انبهرت بالشرف المادي وبظافسه
 منزلها . لم استطع فهم سبب اجهاد عائشة نفسها في العمل

بساط بجانب سريرها المركب المزدوج ، ذي الطراز الغربي . خالما كنا سنبدأ بحديث فعلي مع بعضنا ، ظهر الشيخ عند نافذة حجرة النوم معلنا ان الوقت قد حان ليأخذ كل مناسنة من النوم . لم يبق لدينا أنا وجيرد الخيار ، فقد قادونا ببساطة الى حجرة الضيوف داخل الباب المؤدي الى شرفة الشيخ . ومن ثم تركنا لننام نوما خفيفا في ذلك الجو الحار والذباب يطن على الحاجز المنخلي للنافذة . بعد ان افقنا في عصر ذلك اليوم من النوم وبعد أن قدم لنا الشاي ، لم احاول ان اجد عاتشة ولكنني جلست بهدوء مع الرجال في اشرفة . عادت عاتشة في المساء ، عند المغيب تقريبا الى المنزل ولاحظت الكلف على بشرتها الشاحبة . ابدت تعليقاتها عندما وضعت الخادمة اثنيين من كوءوس الشاي بدلا من واحدة ، على الرغم من أن عاتشة قد شربت الشاي لتوها لتبلى متيقظة طوال اليوم ، لتقوم بأعمال المنزل الروتينية . سألتها عندما جلسنا لنحتسي الشاي ؟

— هل كنت تعملين عندما كنت عارية في دستان ؟

فأجابتنني وهي تضحك ؛

— آه لا ، ابدا .

تحدثت عاتشة عن مدى استمتاعها بعمل المزرعة المتطلب جهدا كبيرا وعن مدى اهمية العمل بالنسبة لها . حيث قالت ؛

— علي ان اعمل . فأنا بحاجة الى النقود .

تعجبت لذلك ، فقد خيل الي انه بإمكانها ان تجمع المال النهائي لتلتقي دون ان ترفع بنانها . لم يبد على زوجها انه يبذل جهدا كبيرا في العمل ، ولكن ربما كانت عاتشة تحتاج العمل لاسباب غير النقود . لم يكن بقربها اناث مسن مركزها الاجتماعي في غوشخان لتقيم علاقات اجتماعية معهن ولا أطفال لتعتني بهم . وقد لاحظت انها كانت قلقة على طفل ولدت حديثا لزوجها احد سائقي الشيخ ، ولكن ذلك هو مجرد تسليية ولا يمكن أن يمثل حياة عائلية ، عملية خاصة بها . اقترحت مرة على عاتشة انه يمكنها هي والشيخ ان يتبنيا طفلا ، فنظرت السي

كما لو أنها لاتعهم ما اتحدث عنه .

- أليس هناك اطفال يتامي ؟

سألتها وقد علمت أن الحكومة قد احدثت دار للايتام في مركز مدينة ريزاي .

- ماذا عن الحرب في العراق ؟ من المؤكد انه يوجد

اطفال دون والدين او عائلة .

- لا . .

اجابت عاشة بذلك وبدت وكأنها صدمت لفكرة امكانية وجود اطفال في كردستان دون أن يعنني بهم احد .

قمت أنا وعاشة في ذلك المساء في خوشخان بجولة بين الازهار البرية قرب الجبال . ومن ثم عدنا الى حجرة نومها المضاءة بالكهرباء . سطعت الاضواء وبدأ التلفزيون بعرض جماعات من سلاح الفرسان التابعة لأوليفر كرومويل ، منقولة بالفارسية . وحالما انتهى العرض ، أعلن عن موعد النوم وأخذنا أنا وجيرد شاة الى حجرة الضيوف . وكان قد تمركز رجل مع بندقيته في موقع قسرب بابنا لأن عددا من الجرائم كانت قد وقعت حديثا في الجوار . حتى لو كنا ضيوف في قصر مالك مزرعة فخمة ، فهذه كانت لاتتزال امتدادا لكردستان .

ان وقوع خوشخان ضمن حدود كردستان ، هو أقصى ماكان يحلم به الشيخ عبد الله . وفي كل مرة نأتي فيها الى منزله كنا نجد تجهيزات جديدة ووسائل ترفيهية لم يسمع بها في قرية أخرى . ومع ذلك فقد ظلت القرية هي نفسها . لقد كانت أصغر من دستان بكثير وحتى انها بدت اكثر فقرا ، ربما يعزى ذلك الى التباين الواضح بين منزل الشيخ وبقيّة المنازل . فهي لم تكن تشتمل على مزارعين ميسورين آخرين على نحو مختلف عن قرية الحاج اسماعيل فلا أحد غير الشيخ عبد الله يقتني سيارة أو جرارا أو حتى مسكنا حديثا . شعرت فيها بعدائية القرويين لى أكثر ولم أر هنا أبدا احدا من مقبلي الايادي مثلما كان شاعرا في دستان . أشار الشيخ عبد الله الى انه لايمارس امتياز به مطالبة القرويين

زوجة عايشة . والشيخ الحظ لم تكن يبينها صور للعروس . ولأن
الله سبحانه وتعالى لا يدرك كما ينبغي ، فقد كان خجلا جدا من
الروسية ، وكان الخادم الذي وثق به ، في اعطائه
الكاميرا ، قد اثلث ذلك الجزء من الفيلم . ولكن ومع ذلك فقد
رأيت المئات من الضيوف المحتملين في قرية والد الشيخ ، والآلاف من
ارغفة الخبز المفروشة على الارض لتبرد ، والكثير من الخيـام
المنصوبة للضيوف . وحدنا صورة للحاج اسماعيل وهو شاب وقد ابتسم
للكاميرا وصورا لقرية دستان التي احضرت منها العروس . كان الشيخ
عبد الله قد اعطى طبيبا ، مديقا له من منطقة تتحدث بالفارسية
ألـبسة كردية ايرانية ليرتديها وفرسا ليركبها أمام الكاميرا .
ولدت الصور لدي انطباعا بأن الشيخ عبد الله هو مجرد متأمل
اوساح في حفلة زفافه بالذات .

على كل حال ، لم يكن مفهومي عن الشيخ عبد الله كرجل مشفق
قادر على النظر الى ثقافته الخاصة بنظرات غير متحيزة وكشخص محاذ
لم يكن دائما في مكانه الحقيقي . في احدى المرات بينما كانت
عايشة وعبد الله يتفحصان سلسلة من الصور كنت قد انقطعتا فـي
خوشان ، سمعتهما يبديان ملاحظة لبعضهما وبنبهة ضاحكة ، كيف
اني كنت قد التقطت صورا لخدمهم فعلا . كان لدى الشيخ العديد من
الكاميرات ولكنه لم يستخدمها ابدا في التقاط صور لخدمه . كان
الشيخ هو الوحيد الذي قد سمع عن الحركة النسائية الداعية الى
المساواة ، في الغرب ، من بين جميع الاكراد الذين التقيت بهم . كان
يصفى لاداعة الـ ب . ب . سي بانتظام . وعندما حضر هو وعاشقة
لتناول الغداء في منزلنا شكرني مرات كثيرة على الوجبة ، لذلك
اوحيت اليه متعمدة الى أن جيردكان هو الطاهي . عند ذكر هذه
الملاحظة قهقه الشيخ بعصبية وتمتم بشيء من " الحركة النسائية " في
الغرب . لم اتفوه بشيء ، ولكنني تعجبت وتساءلت فيما اذا كانت
بهذا الشكل في الاتحاد السوفياتي ، وفيما اذا كانت نوعية النساء
هناك تزعمه . ماذا ستقول زوجته الاولى من عايشة التي لم تتجراً

على تناول الطعام مع الرجال في نفس الحجرة ؟

كيف يمكن للشيخ عبدالله ان يدمج بين مراحل حياته غير المتصلة ؟ من السهل ان تشتري طاولة حجرة الطعام ، ولكن ليس بوسعك ان تجعل ضيوفك يشعرون بالراحة بنفس السهولة بجلوسهم على كراسي ذات خلفية مستقيمة . انه لشيء مألوف جدا في كردستان ان تتزوج ابنة عمك التي تصفرك بثلاثين سنة ، ولكن ليس من الطبيعي أبدا ان تتوقع منها ان تكون رفيقة لفكرك في سنك المتقدم هذا .

اعتقدت لفترة طويلة ان عائشة وعبد الله يعيشان متفاهمين الى حد مدهل . وعرفت من تعليقات عائشة عن نشأتها ، انها كانت تشعر بالمرارة تجاه والدها وانها تشعر بتكافؤ الفديين تجاه والدتها وانها سعيدة بفرارها من دستان . ولكن ثمة جانب آخر يتعلق بها وقد افشته بعد فترة قصيرة من تعرفنا الى بعضنا جيدا وهو اوجاع رأس وأرق كانت تعاني منهما . وتشوق بدائي لـ للاطفال والرومانسية . من المدهش ان تسمع امنيات من هذا القبيل اوحى تلميحا عنها من امرأة كردية . ان المصير في ايران وفي الاسلام هو " سرنفشت " أي مايقدر على الانسان منذ اليوم الاول من ولادته . لقد كان قدر عائشة في السماء قبل ان تولد . ومع ذلك لا بد انه قد ادهشها ان تجد نفسها في انكلترا في سن الثامنة عشرة وان تستضيف مواكب متدفقة من اللاجئين العراقيين في سن الثامنة والعشرين .

اخبرتني عائشة والشيخ عبدالله نفسه ، بأنه اراد وبرغبة بالغة ان يرحل ثانية . لقد مضت عشر سنوات على رحلته الى اوربا مع عائشة بعد زفافهما . ولكن الحكومة الايرانية هددت بمصادرة ارضه وكل املاكه التي يتركها وراءه حالما يهجر الحدود . تساءلت من ماهية شعور عائشة بالسفر معه . فهي لم تكن بعد قد تعلمت الانكليزية او أي لغة اوربية اخرى .

كانت عائشة تجعلني اشعر بالرعب الذي يعاني منه الاكراد

اكثـر من اي شخص آخر . عندما عدنا الى ايران قبيل انهيار سلطة الشاه ، حدثني عما حدث في الربيع الذي مضى ، عندما قامت الحكومة العراقية باحراق مجمل القرى الكردية بانتظام في نطاق خمسة وعشرين كيلومترا من الحدود العراقية ، ولم تكن هذه الحدود بعيدة عن خوشخان وانه قد فر مئات من الاكراد العراقيين الى جبل قريب داخل الحدود الايرانية . لقد ساعد الجيش الايراني العراقيين العرب هذه المرة ووقف ضد الاكراد . وقد حاصر الايرانيون والعراقيون معا اللاجئين البائسين ، يقصفون هؤلاء الذين يرونهم ويحاولون عزل وتجويع البقية الباقية .

— يقولون ان بعض المهجرين اتوا الى منازل اناس من هذه الانحاء ، وانهم ملؤوها افواههم بالدقيق من شدة وطأة الجوع الذي كانوا يعانونه .
قالت عائشة ذلك وقد علا وجهها تعابير من الرعب . ونقل أن اكثر من خمسمائة شخص منهم لقوا حتفهم .

حلمت حلما غريبا بعائشة قبل سنتين من هودتي لروايتها . فقد رأيتها تعذب وسمعت صرختها بالكردية " أنا خائفة " استيقظت من الحلم متأكدة من أن شيئا فظيحا قد حدث لصديقتي . اردت أن اهتف لها ولكني لم أفعل طبعاً . فلا يوجد هواتف في القرية ، وبالإضافة الى ذلك ، فحتى لو اعتقلت وسجنت فليس بمقدوري أن أفعل لها شيئا . لم اذكر حلمي لعائشة بعد أن رأيتها ثانية بعد مرور سنتين على ذلك . لقد بدت في حالة جيدة ، حتى ولو انها كبرت قليلا واصبحت اكثر تشككا وسخوية . ماكان لأحد أن يعذب هذه السيدة الكردية المرتدية على نحو فاخر وزوجة الشيخ عبد الله الشهير . ومع ذلك فقد احسست في لاوعيي بقابلية سقوط عائشة بيد الاعداء . فليس ثمة رادع يمنع حكومة الشاه عن تعذيب امرأة مثلها . ولاشيء يوقف الاتراك اذا عزموا على المضي وراها . كان سينتج عن ذلك عداء دموي مع عائلتها ، ولكن ماذا كانوا يشكلون بالمقارنة مع الجيش الايراني ؟

كان هذا هو التقلقل الفظيع الذي يبطن الحياة برمتها في ايران ، وعلى وجه الخصوص ، حياة الاكراد . لقد كانوا غرباء وأعداء في أرضهم الام . وكانت الحكومة تسدد النار الى الاشخاص الذين تعتقد انهم قواد مستقلون ، فترديهم واحدا تلو الآخر . حدثتني عائشة من عم لها كان قد اعتقل لمدة عشرين سنة متهما بكتابة رسالة الى شخص ما في روسيا . وعرفتني خديجة الى مالك حمام المدينة الذي يذهب اليه جميع الاكراد وذكرت لي قاتلة :

- انه رجل طيب يامر غريت . هل تعرفين انه قد خرج لتوه من السجن ؟ لقد اعدموا والده .

كان من الصعب ان يكون هؤلاء الناس ثوريين طوال الوقت ولكن يفترض أن جميع الاكراد في ايران وربما لسبب وجيه ، هم مناهضون للحكومة الطهرانية . لم تكن الحكومة الايرانية ترغب فحسب ، بل كانت تتشوق الى ارسال طائرات مقاتلة لتقصف القرويين العراقيين العزل . ولو حدث وسقطت الدخاشر على القرويين الايرانيين أيضا فهذا أفضل بكثير . فكلهم كانوا أكراد .

الفصل السادس عشر

لم يكن احد يخيف دارا احمدي ، لا ابن اخته الاكبر ولا عميد الكلية واقلهم انا . وبقدر ما استطعت فهمه ، لم يكن ثمة سبب واضح يدعو لظهار صبي كردي فقير مولود في القرية كل هذا القدر من التباهي وخاصة في ايران ، حيث الهـمـر الاجتماعي والشكليات والرسميات تجعل من التملق تقليدا اجتماعيا . في احدا لاهاديث المتبادلة بين جيرد وعامل فقير في وزارة التعليم الابرائية في طهران ظهرت طبيعة التملق المطلقة ، على حقيقتها . فقد سأل جيرد ذلك الرجل الضخم الجثة المرتدي على نحو يبدو فيه الفقر واضحا :

— كيف حالك ؟

توقع جيرد ان يحييه هذا — " شكرا " وهذا هو الجواب الفارسي المألوف . ولكن بدلا من ذلك اجابه العامل " انا غير رفيع المنزلة " .

وقد اكد لنا اصدقاؤنا الايرانيون مؤخرا انه مناسب تماما لهذا الرجل ان يوحي ان مكانته الاجتماعية بالمقارنة مع جيرد لاتؤهله لان يكون رجلا ذا منزلة رفيعة .

كانت كل الدلائل تشير الى علاقة اجتماعية غير متكافئة بيني وبين السيد احمدي . فانا اعتبر امرأة اجنبية مثقفة وصاحبة مال وموقع في الجامعة . وكان هو لا يزال طالبا قد نال منحة ليدرس في مدرسة ثانوية محلية . لقد قام في حياته كلها بزيارة واحدة الى طهران والى تبريز ربما بقدر نصف دزينة من المرات . كان يعرف القليل ومع ذلك فقد كان يتصرف كما لو أنه يعرف كل شيء . كانت هيئته وجرائته وتعابيره تنم عن ثقة بالتمس

غير متناسبة مع سته . كان يتصرف دائماً كما لو أنه مساو لسي وان لم يكن ارفع مقاماً في بلد سادت فيه فكرة المنزل الرفيعة .

معد نهاية السنة الدراسية . شعرت بالتعب قليلاً من السيستد احمدي . فقد اثبتت كبرياؤه المصطنعة همتي ، لأنني لم استطع التغلب عليها ابداً . وبدأ يخيّل اليّ أنه يهتقني ففي كل مرة انوه فيها ويغموض للقيام بزيارة قريته كان يبدي حرصه الشديد وشعرت انه سيعاود جاهداً ألا أتسلل الى ذلك المجال من حياته وبالطريقة التي عرفت فيها منزل اخته على الرغم من ان معرفتي بأن زيارة منزل اخته يمكن ان تكون أسوأ من عدم زيارته على الاطلاق ، فقد واصلت الحاحي كي يوجه اليّ الدعوة . وعالماً تحسنت لغتي اكثر وازدادت ساعات تواجدي مع خديجة وعائشة وبقية النساء شومت بالتفكير بعدم حاجتي للسيد احمدي . لقد كان يشكل تطفلاً على حياتي لماذا يحيط نفسه بهذه السرية والغموض ؟ هل هو جاسوس ؟ صرت اشكك أكثر بكل سلوك ينحرف عما هو متوقع كأي شخص آخر في ايران . ولكنني عندما طلبت من السيد احمدي ان ينقل شريطاً كنت قد سجلته ، الى كتابة بنظام الاصوات الكلامية الكردية انجز هذه المهمة الصعبة بدقة وبسرعة بالغة ادركت فيها اني لن استطيع التخلي عنه مهما سبب لي مسن مضايقات . واستمر في المجيء الى منزلي يوميا .

حضرت ذات يوم شاماً تلك المرأة التي كانت تقوم بتنظيف منزلنا مرة في الاسبوع - مع ابنتها ، بينما كنت انسا والسيد احمدي نسجل شريطاً معاً . عندما جلست معاولة ان اركز انتباهي على نظام الاصوات الكردية ، لاحظت ان الفتاة ذات الشماني عشرة سنة تتفحص كل حاجاتي ، وتضحك على نحو مكتوم من صوري . والأسوأ من كل هذا انها كانت تفتش في الصندوق الخشبي الطويل الذي كنت قد احتفظت فيه بـ ١٥٠٠ ورقة حيث كانت عبارة عن مسودة لقاموس كردي - انكليزي . كان هذا الصندوق يجسد ساعات وساعات من العمل . وعندما واصلت العبث

به ازداد انده‌اشي اكثر ، والشيء الذي كان من الممكن ان يشكل
ازعاجا ضئيلا غير ذي اهمية تنامي وبلغ حدا غير مناسب . لم
استطع ان اتواصل مع نانا بأي لغة ، لذلك فقد اتجهت الى السيد
احمدي طالبة منه المساعدة . هل احضار نانا ابنتها معها دون
استئذاني هو تصرف لائق ؟ كان موقف مساعدي ملتبسا وغير محدد .
كيف له ان يعرف ؟ طلبت منه ان ينقل انزعاجي بالتركية الآزرية
ولكن الابنة استمرت في الركض في الانحاء والعبت بحاجاتي بعدما
اوضحت نانا استجابة لما نقله السيد احمدي أن زوج ابنتها
قد سمح لزوجته بالخروج هذه المرة فقط كي ترفه عن نفسها قليلا .
لقد كانت تتمتع نفسها حقا بالدوران في شقتي وحجابها متدل حول
الجزء الاعلى من سترتها المقفورة الياقة . هل كان علي ان امحق
فرحة هذه الفتاة الفقيرة الوحيدة ، بعيدا عن زوجها وسيدها في
رحلتها هذه ؟ .

تحتم علي لأشهر عديدة ان اتحمل سلوكا فظا كانت توجهه الي
في الشارع ، نساء إيرانيات مغطيات . وهاهي ذي واحدة منهم
موجودة في منزلي نفسه ، تبدي التعليقات على صوري بصوت عال
وتدعو والدتها لتأتي وتنظر الى الصورة التي اعتبرتها ذات
اهمية خاصة ، ومن ثم تتفحص كل ماهو من صنعي من بعض أثاث
حجرة الجلوس حتى البستي الداخلية . ولكنني مع ذلك ضبطت نفسي
فأنا لم امض كل هذه المدة في ايران عبثا . حاولت شائبة ان
احصل على نصيحة السيد احمدي لأسلك السبيل المناسب . هل من
الصواب ان اطلب من نانا ان تأمر ابنتها بالمقادرة ؟ هــ
مساعدي كتفيه غير مبال . لماذا لم اتمكن من الحصول على
المعلومات التي احتاجها لاتصرف بنجاح في هذا المجتمع ؟ لماذا
طلبت من شهرزاد ان تدفع لسائق التاكسي في المطار ما يريد
عندما حاول ان يغشنا ؟ ولو كانت هي صاحبة الشأن لما فعلت
ذلك . لماذا يتصرف السيد احمدي وكأنه امر طبيعي ان يقوم
خادمك بتخريب منزلك امام عينيك ؟ .

اعلمت السيد احمدي ان يطلب من نانا بطريقة مهذبة قـدر استطاعته بأن ترسل ابنتها . وفي غضون لحظة حضرت امامي الأم الشبيهة بالطير والابنة الضخمة الجثة ذات الشعر الدهني وهما ترمقاني بتعابير يلوح فيها الاتهام وتنظران اليّ شزراً وتحركان رأسيهما يمنة ويسرة . ونقل السيد احمدي عن نانا قولها: - تقول انه ليس ثمة مايدعو للقلق . وان ابنتها لن تسعى وراء زوجك .

حدثت صوب السرير الخالي الذي كان جيرد قد تركه ، ترددت للحظات غير مصدقة ما اسمع . هل ظننت ابنة نانا حقاً اني اردتها ان تغادر البيت لأنني كنت خائفة من امكانية اغواها زوجها؟ طلبت منها ان تخرج . وكان ذلك كل ما استطيع قوله بالتركية .

لم تغفر لنا نانا ابداً ، وفي وقت لاحق اصغى الي السيد احمدي بسلوكه السفينكسي المعتاد عندما ابدت قلقي حول احتمال تصرفي على نحو خاطيء . هل ثمة شيء في الكون يمكن ان يجعله يتكلم معي كإنسانة لها مشاعر واحاسيس يوما ما ؟ .

بعد عدة اسابيع قبلت دموع كانت تتطلب مني ان اكون خارج المدينة ، في موعد كنت قد حددته مع السيد احمدي . سرت مع جيرد في تلك الليلة الى " كوجاسنيّا " رفاق السنبيين ، تذكرت ان منزل اخته يقع في هذا الرقاق . عندما وصلنا الى هناك لم يبد لي اي شيء مألوفاً تحت التوهج الضبابي لضوء الشارع وعلى الرغم من اني لم ارغب في الوقوف وحدي في هذا الشارع الغريب فقد اتفلقنا انا وجيرد انه من الأفضل ان يذهب هو وحده الى مقهى كانت قريبة متاً ليستفسر عن الطريق . لم أر خلال اقامتي كلها في ايران امرأة تدخل مقهى ابداً .

انتظرت بلقلى الى ان خرج جيرد وقد بدا عليه الاضطراب فأردت ان اعرف منه سبب ذلك فبادرته بالسؤال : - هل سألتهم اي رفاق هذا ؟

- نعم ، وقالوا انهم عمال .

- ماذا ؟

- سألتهم هل هذا " كوجا سنيّا " فأجابوني " نحن عمال "

- نحن عمال ؟ ا .

عندما وقفنا وسط الزقاق المعتم الظليل نفكر بهذه الاجابة بدأت اشعر كما لو اننا كنا مراقبين . وقبل ان يمضى الكثير من الوقت دنا رجل مني وسألني اذا كان باستطاعته مساعدتنا وحسب ارساداته رجعنا الى سيارتنا وسرنا نحو الشارع الرئيسى المرفف قلبلا ، ولكننا حالما عبرنا العبد من البنابات ، تأكدت انه بيقودنا الى طريق خطأ على نحو مقصود . قفلنا راجعين الى المقهى وتوقفنا فى نفس الزقاق المسدود . بعدد ، سبقت جيرد عبر الزقاق الملتوي الموحل ومررنا بحدران فناء مصمتة ، الى ان وصلنا الى باب بدا لي مألوفا نوعا ما . قرعت حرس الباب فأجابني رجل نحيف فارغ القامة مرتد سروالا كروبا فضفاضا وعلى عينيه نظارة . وسألت بالكردية :

- هل دارا احمدي هنا ؟

حديق الرجل وقد ارتسمت على وجهه تعابير تنم عن الاندهاش كما لو اني احد سكان المريخ واني اتكلم لغة غير مفهومة . كررت اسم السيد احمدي بكامله عدة مرات وكان الرجل يهز رأسه الى الاعلى نافيا ذلك :

- لا ، لا يوجد شخص بهذا الاسم هنا . بانه من اسم غريب ! .

عند ذلك استسلمت وشرعنا بالعودة . وحالما انعطفنا اننا وجيرد بالسيارة ، اتى السيد احمدي راكضا مقطوع الانفاس .

- قال اخى ان اناسا قد حفروا لروءيتي وفكرت انه من الممكن

ان تكونا انتما .

فأجبت :

- اخوك ؟ هل كان ذاك اخاك ؟ قال انه لايعرف احدا باسم

دارا احمدي .

- لم يستطع فهم ماكنتما تقولانه .

فقال جيرد :

لقد فهم تماما . فقد كررت مارغريت اسمك اربع او خمس مرات

على الاقل .

فسال مساعدي :

- ماذا تريدان ؟

لدى طرحه هذا السؤال كان علي بالفعل ان افكر لدقيقة . فقد بدت مهمتنا سخيفة وتافهة فحاة . هل حقاً جئنا كل هذه المسافة ومررنا بكل هؤلاء الناس الذين - من الموءكد انهم فكروا في انفسهم ، ان اثنين من الاجانب مرتدين على نحو فخم لاعمل لهما في جوارهم - فقط لنجنب السيد احمدي عناء السير الى منزلنا؟ اخبرته بذلك فبدأ داراً متحيراً . لقد لاحظ ودار بخلده هو ايضا اننا قد جئنا الى مكان لانتمي اليه . وتبادلنا كلمات وداع باردة . بعد ذلك عرفت انه ليس لي الا ان اهتم باطروحتي فقط، وهذا افضل من محاولة فرض نفسي على حياة السيد احمدي، كنت قد بدأت أو من بوجود لهجات كردية مختلفة بقدر ما يوجد من اكرد . فهناك قبائل متميزة ، ولها طرق مختلفة في الكلام . فالاكرد الذين قضوا فترة من الزمن في المدينة لا يلفظون الكلمات بنفس طريقة الاكرد القاطنين في القرية . والرحال يتكلمون على نحو مختلف عن النساء . ومعظم هذه الاختلافات يصعب وصفها او فهمها لدقتها ، الا اني لم اقو على تجاهلها . كنت مدركة تماما اني لا ازال اجهل معرفة اي من الاكرد العاديين . فالحاج اسماعيل ومائشة وعبدالله وبقية عائلتهما كلهم ينتمون الى الطبقة الارستقراطية . لم اقم بزيارة حتى الى قرية واحدة لقضاء وقت مع اناس فقراء ليسوا قوادا قبليين ولا معلمي مدارس مثل السيد شيخ زادة . وعندما ابلغني السيد احمدي ان والدته لا تتحدث اي لغة سوى الكردية رغبت في لقائها وتسجيل اشرطتها . كان جميع الاكرد الذين التقيت بهم يعرفون بعض الفارسية ، وبعض التركية ، ولكنني كنت متأكدة من ان الغالبية العظمى من

النساء يستخدمن لغة واحدة . فهن لم يذهبن الى المدرسة ولم يمتحنين في اسفار او يطلبن الى الحيش .

عندما اخبرت السيد احمدي عن رغبتني في لقاء والدته فقط لأنها تتحدث الكردية ، اصرى الى كلامي ، ولكنه لم يحب عليـه . وعندما اقترحت أنه بإمكاننا ان نسير جميعا الى قريته يوما ما قال بفظافة :

- ولكن عند ذلك سيتحتم عليك ان تتناولى طعامك هناك .

تسألت في نفسي هل المشكلة هي في عدم توفر الطعام الكافي لاستقبال الضيوف ؟ فعرضت عليه قائلة :

- يمكننا ان نحضر معنا طعامنا .

فاجاب متفكرا :

- ربما سيكون هذا افضل ، لأنه من المحتمل ألا تحبي سناكله نحن هناك .

لم يرغب عن بالي انه ليس لدى دارا اية فكرة عن سلوكنا لدى حلولنا ضيوفا على والدته . فهو لم يرني مع خديجة وصديقاتها، ولم يكن يعرف شيئا عن رحلاتنا القصيرة الى دستان وخوشخان والشئ الذي كان يشغله من غير رعب هو اننا سنتصرف على نحو غير لائق ، مثلما كان مع ابنة نانا او لدى محاولتنا ايجاد منزله . غير ان ماخيل الي هو ان رفضه لنا ناشيء عن خجله من فقره ، ولكنني بعدئذ ادركت انه كان يخشى ان تخجله تصرفاتنا نحن الاجانب - امام عائلته وجيرانه . من يدري اي مشهد مريبك يمكن ان نوءديه امامهم لو قدمنا الى قريته ؟ .

واخيرا سنحت لنا فرصة . لقد تراكمت لدي اعمال كثيرة للسيد احمدي ، وببينما كانت الاسابيع تمضي لم اكن اعرف كم بقي لسي من الوقت في ايران . لذلك فقد قلقت واستعجلته لينهي كل شئ بأقصى سرعة ممكنة . حاول السيد احمدي هو ايضا ان يزيد في اشغال وقته ، لأنه بذلك سكب مالا اكثر . وفي احد الايام

ونحن في معمعان واجبات ضخمة اعلن عن اسفه لعدم استطاعته الاستمرار لانه قد وعد والدته بأن يقضي اليوم التالي ، يوم الجمعة في قريتها ، وانه اذا لم يلحق بالحافلة المغادرة مركز مدينة ريزاي في غضون ساعة ، فلن يقدر على الذهاب الى هناك .

عندما عرفت عليه ان آخذه في سيارتنا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي لم بحبني مباشرة ، لذلك سألته :

- هل سيكون الأمر على مايرام مع والدتك اذا زرناها ؟
فأجابني :

- طبعاً ، اذا اخذتيني الى هناك ، ستكون سعيدة .

اخذت مني هذه الدمعة المفضى بها علينا الاهتمام الذي تستحقه .
اخيراً سأرى هذه القرية والتقي بمصدر كل هذه الحكايا الشعبية التي سمعتها لأشهر عديدة .

كان موقع قرية السبد احمدي متميزاً نوعاً ما . فهي لم تكن تبعد عن المدينة الا بضعة كيلومترات ومعظم الطريق كان معبداً ولكن كان يتم بلوغ السنة كيلومترات الاخيرة اليها بالسفر بمحاذاة مجرى نهر وينتهي بطريق منحدر . تدرجياً الى سهل واسع مرتفع . لذا لم تكن اى حافلة تسلك ذلك الطريق الاسفلتي المؤدي اليها ، فقد كانت تعتبر بعيدة عن المدينة . كانت الطريق الترابية المطروقة صعبة حتى بالسير فيها على الاقدام فسي الشتاء والربيع لأن النهر كان ممتلئاً بالماء .

عندما وصلنا باز دو اخبرا ، كانت والددة السيد احمدي ، واختاه الصغيرتان وحشد من اولاد الجوار بانتظارنا . قبّلت صلبة انها ومن ثم قادتنا الى منزلها الطيني بعد ان نصحتنا باليقاف سيارتنا داخل جدران بستان اللوز التابع لمنزلها للتأكد من ان الاطفال لن ينتزعوا شيئاً منها . كان المنزل صغيراً ومبني على نحو غير متقن ومع ذلك فقد بدا انيقاً جداً واكثر نظافة من

مساكن الحاج اسماعيل المنفق عليها بغير حساب . بدأ السيد
احمدي باعداد الشاي مباشرة ، بطريقة لم ارها من قبل ابدا
كان الخدم في منزل الحاج اسماعيل يحضرون الشاي الينا من
قسم خفي من المنزل . ولكن في منزل صليحة لم تكن شمة اجزاء
مخفية ، بل فقط الحجرة الوحيدة بكومات الوسائد والفرش وصندوق
السياب الخشبي القابع في الزاوية ، وآلة الخياطة وبعض
اللوحات المرسومة بخطوط قلم رصاص غير متقنة ، كانت تزيين
الحائط الطيني بملاطه المجبول بالقش .

حضر الشاي مسبقا وكان ينتظرنا حارا في ترمس انزله السيد
احمدي من فوق رف في الحائط ، وقبل ان يخففه باضافة الماء اليه
ملا كاسا بالماء المغلي من السماور وصب الماء في صحن فنجان
مقعر ودرج الكأس فيه . ومن ثم صب ماء طبق الفنجان الذي كان
البخار يتصاعد منه في الكأس الثاني الموجود في الطبق الكبير
وبعمله هذا ، بخفة ورشاقة نظف جميع الكؤوس الموجودة على
الطبق قبل ان يبرد كأس الماء الممتلئ . ومن ثم صب قلبلا من
محلول الشاي من الترمس في كل كأس وملا بقية الكأس بماء من
السماور . وبعد ان قدم الشاي سالتني صليحة عن سبب تجميعي
قصص كردية . فقلت :

— لاخذها الى امريكا ، واضعها في كتاب .

أومات صليحة برأسها متفهمة ، وعندما جلست مسكت بعلمة فضية
مسطحة من التبغ الاذربيجاني اللاذع واوراق السجائر في يدها
تلف السجائر وهي تدخن بغير انقطاع . كانت تسعل بين الفينة
والاخرى . كان صوتها اخفض من اي صوت انثوي كردي آخر سمعته
ولم يكذب دارا عندما قال انها لا تعرف حتى ولا كلمة بالفارسية
لان جيرد استسلم حالا من محاولته التواكل معها .

كنت اعرف ان صليحة تتأملنا وتكون رأيا عتيا . كانت
هيئتها برمته تختلف جذريا عن هيئة خديجة او نسرين او حتس
مريم . فعندها انعدم الاسراف في التعبير عن العواطف والقهقهات

ولا حتى الماحات ضئيلة تنم عن الشكليات . كانت مهذبة تماما تتأكد من وجود وسائد وراة ظهورنا ، وتقدم الشاي لنا أولا وتفع كميات كبيرة من القاند امامنا لكي لانتعرض لخطر تذوق اي شيء مر ، ولكنها كانت متحفظة تماما وحتى مقتنبة لشيء حديثها . في البداية تحدثت الي على نحو مبهم ، وذلك عندما كانت لاتزال تكوّن رأيها عني . لم يك هناك أدنى ريب في انها كانت والدة السيد احمدي .

بينما انقضى الوقت رويدا رويدا ، هذا الجو في الحجرة، اعلنت صلحية انها ستروي قصة " الدموع الذهبية " . امتلأت الحجرة بالمستمعين من بناتها وكنتها التي كانت ترفع ولدها فسي الزاوية وبعض الجيران . لم ينبس احد ببنت شفة حالما بدأ صوت صلحية الاجش بالصيغة التالية : " كان ياما كان ، وما كان سوى وجه الله " ومن ثم دخلت بغثة في حكاية طويلة معقدة عن فتاة تدمى منور فعندما تبكي ، منور يتساقط الذهب من عينيها ، وعندما تضحك ، فانها تضحك ورودا .

الحكاية تبدأ كمايلي : يحكى انه كان هناك رجل فقير مع زوجه وابنه " ولكن والد منور يتلاشى تدريجيا من الصورة عندما تموت زوجته الاولى ويتزوج ثانية ، ويخبو حظ منور مع وصول زوجة الاب والاخت من زوجة الاب ، رغيب الامير المحلي في الزواج منها لجمالها وحسنها ولكن زوجة الاب تقلع عيني منور وتسجنهنها ، وتستبدل بها ابنتها لتحل محلها في ليلة الزفاف . وبعد سنوات عديدة من السجن تنجح منور في الهرب مع بائع متجول كان قد مر بالقرب من قهو المومن الارضي الذي حبست فيه . ولأن زوجة الاب كانت تحتاج الى ورود منور وذهبها لتعافى على تنكر ابنتها فلقد استأجرت مجوزا ساحرة لتبحث عنها فتطير هذه على ظهر فرس هرمة ، الى ان تعثر على الفتاة في منزل البائع المتجول . يمشي البائع المتجول ، الذي كان قد أصبح مثل اب لمنور ، في بحثه عنها سبع سنوات قبل ان يجدها ثانية وهذه المرة في كهف

كانت زوجة الاب قد خبأتها فيه . ولكن منور لاتجتمع بأمرها
الى ان يصل ابنهما بعد سنوات عديدة اخرى . كان ذلك هو نفس
الابن الذي وضعته منور بعد ان حبستها زوجة الاب بتسعة اشهر
في قبو الموءن .

شكل ولد منور صدمة لي وذلك لان ممارسة الحب قبل الزواج
محرم لدى الاكراد . ولكن الاختلاف الطبقي الواسع بين منور
والامير ربما يوضح خضوعها " لعدم صبره " كما عبرت عن ذلك
راوية القصة . ان ممارسة الحب قبل الزواج لم يكن الشيء
المدهش الوحيد في " الدموع الذهبية " فعندما يعثر الابن
المفقود منذ زمن طويل بغير معرفة منه على امه ، وهي تقيم في
كوخ وسط غابة مع " والدها البائع المتجول " يقع في حب هذه
الفتاة العمياء الحسنة ، ويقرر ان يتزوجها . تعرف منورهويته
ولكنها تستمر في اقامة مراسيم الزواج كوسيلة للوصول الى
الامير لتخبره بما حدث لها . وتسر منور في حفلة الزفاف
حكايته على الضيوف المجتمعين . والامير الذي يعترف بأنه قد
خامره شك غامض بأن زوجته ليست منور يمتلئ ابتهاجا بعثورة
على خطيبته المفقودة لزمن طويل . ويمن الله عليهم باعادة
البصر لمنور وهي معجزة صعبة التحقيق ، وذلك لان زوجة الاب قد
انتزعت عينيها من رأسها تماما . ومن ثم تُشد زوجة الاب وابنتها
الى زوج من الاحصنة حيث يجرانهما الى خارج المدينة فيسحق
جسدهما ، وتتبعثر اشلثهما في جميع انحاء الريف . تمكث منور
في المنزل وتحيا حياة مرفهة دون ان تقع في ايدي المضطهدين
ثانية .

وفي النهاية اهدت صلحية سردها للقصة لي بهذه الكلمات
" بصحة وسعادة الخاتم " بقي الصمت مخيما على الحجرة . لا اعرف
بماذا كان المستعمون الآخرون يفكرون . من دون ريب انهم قد
سمعوا القصة عدة مرات من قبل ، ولكن " الدموع الذهبية " كانت
مفاجأة مثيرة لدهشتي . فمن جهة كانت رواية القصة هي صلحية

ومع ذلك فقد سردت مغامرات منور كما لو انها كانت تقرأها في صفحة كتاب او بالاحرى مغامرات معذبيها ومنقذيهها ، بما ان منور كانت سلبية اساسا . بدا الجزء الاول من القصة شيئا لا يصدق فكيف نجحت اخت منور من زوجة ابيها القبيحة ان تمثل شخصيتها لعقود عديدة من الزواج ؟ ولكنني عندما فكرت بالمدى القليل من الزمن الذي يرى فيه الحاج اسماعيل زوجاته ، بدت لي القصة معقولة . وكيف لم يعرف الامير منور ، حبيبته السابقة ، عندما زارها في الغابة خلال مفاوضات زواجها من ابنهما ؟ وهذا شيء بسيط للغاية ، لقد وضعت غطاء . ان الوحشية في القصة هي امر واقع مثل حكايا " جريم " قبل ان تطبع لأجيال من الاطفال الامريكيين المحميين ، ولكنني لا أزال أنكمش خوفا لدى التفكير بكيفية اقتلاع زوجة الأب عيني منور دون رادع من ضمير . فعندما تضع ابنة زوجة الأب ابنا لبيها في نفس الوقت الذي تحمل فيسه منور على نحو اعجازي طفلا ذهبي الشعر ، بعد تسعة اشهر من الاسر العسير ، تضطر زوجة الأب لأن تدع ابن ابنتها ببساطة دون غداء ، الى ان يفتك به الجوع ، ويعيش ابن منور لأنه ضروري للحفاظ على مظهر ان الامير قد تزوج من منور الحقيقية . وفي الخاتمة لاتنال زوجة الأب وابنتها الا ما تستحقانه . كان طريق العودة من " الدموع الذهبية " الى حجرة ملحية الطينية طويلة . فاحت راحة الغداء عندما قدمته كنة ملحية . خلت الوجبة من اللحم ولكنها كانت وجبة ممتازة مكونة من اوراق العنب المحشوة الى جانب البيض والبندورة المغلية . لقد تناولنا هنا ولأول مرة طعامنا من طبق شعبي ، بدون صحن او آنية مائدة فضية ، بل نلتقط الطعام بالخبز فقط . اكلت قليلا جدا ، لأنني كنت قد هانيت من نوبة اسهال في الليلة السابقة . عند ذلك سيطر عليها القلق فجأة فقالت :

— ألا تحبين الطعام ياخانم ؟ اخبريني عما تحبين كي اعسده لك في المرة القادمة التي ستأتين فيها .

اعترفت على ذلك قائلة ان الطعام لذيذ وكل ما في الامر اني متوكة قليلا . بعدئذ التفت الى دارا تساله عما احب مقبينا في محادثتنا الى ان اكدت لها اني احب " الدولما " الكوسا المحشوة ، عندما تكون معدتي في حالة سوية . ولكنها كانت قد اقتنعت اني قد جاهلتها فقط . لاحظت ان احترام صلحية لي كان يتنامى اكثر كلما سمعت كيف كنت اتحدث الكردية وانني كنت اعرف كيف اعبر عن نفسي على نحو مهذب ، اتسعت عينا دارا عندما رأني اقلب كأس يايي على جنبه ، لأشير الى اني قد اخذت كفايتي ، لم يكن قد مر ببالي قط انه قد تكونت لدينا حتى ولو فكرة غامضة من الاتيكيت الكردي .

كانت صلحية جديّة كابنها اكثر مما ينبغي وكانت تعامله ليس كما هو صبي ذو خمسة عشر عاما ، بل كندة لها ، قامت جارة لها بزيارة قصيرة لتسأل دارا المساعدة في تصفية حسابات دكان القرية الصغير الذي كان يديره ، وصلحية ايضا اخذت ابنها جانباً لسلطه نصيحته حول امر لم استطع سماعه . ابدت ملاحظتي لصلحية قائلة :

- ان ولدك ذكي جدا .

فجالت متبا هبة :

- نعم ، اعرف . انه ذكي منذ طفولته . لفه مكي ونكلم جميع اطفاله في السنة الاولى من عمرهم . الاكراذ اذكباء جدا .

كانت صلحية تدير منزلها وحياتها بنفسها مستقلة عنهن اي رجل ، لم تكن تشبه مريم في طبيعتها . كان لصلحية ستة اطفال وثلاثة منهم كانوا شائنا . كانت الاخت الكبرى قد تزوجت واقامت في قرية اخرى . وصلحية هي مدبرة منزل جيدة . فبستانها المنظم ومنزلها وطبق الطعام الذي قدمته وفناء دارها النظيف ، كل هذا يشهد بذلك . كانت ابنتاها الصغيرتان تحضران مدرستهم القرية وهناك دارا ايضا جوهرتها . كان دارا قد نال منحة للدراسة في مدرسة ثانوية في ريزاي . سينتسب الى كلية ما وسيهتم بوالدته عندما تبلغ من الكبر متيا .

عند فترة العصر تناقشنا حول مصدر جميع الحكايا التي
تعرفها صلحية، فقالت :

— لقد تعلمناها انا واخوتي من والدتي • انهم يعرفون الكثير
من القصص • فأخوتي مشهورون بحكاياتهم •

لقد سحرتني ذلك ، فالدموع الذهبية كانت قد اشارت رغبتي في
المزيد من الحكايا • هل يمكننا الذهاب الى قرية اخوتها •
ابتهجت صلحية لهذه الفكرة وقالت :
— لم اذهب الى هناك منذ سنوات عديدة •

عند ذلك تخيلت اتحادا عائليا بعد غيبة طويلة ، فحذرتها
قائلة :

— تعرفين اننا لن نقوى على البقاء هناك طويلا • ربما ليوم
او يومين فقط •
فاجابت :

— هذا مناسب جدا لي • اذا كان لابد لك ان تذهبي فساذهب
انا ايها • لن نتوقع امي مني البقاء

تأملت الخدود المسطحة ، المسقرة لتعرضها للشمس والعينين
السوداوين الحادثتين • كيف نجحت صلحية بعدم العودة الى قريتها
لتقيم مع اخوتها وامها عندما توفي زوجها ؟ كيف دبرت امرها
في العيش ؟ لقد اشار فضولي تصور روعيتها وسط قريتها الأم •
هل ستبدو صريحة ومستقلة هناك كما بدت لي هنا ؟

قررت ان نعود الى بازو بعد بضعة ايام مع دارا ، نأخذ
صلحية ونواصل طريقنا الى زبلا ، القرية التي شهدت شباب صلحية،
حيث ساجع الكثير من القصص واسجلها •

تحدثنا انا وجيرد ودارا في طريق مودتنا الى ريزاي من
الرحلة القادمة • وبدون ان يبدي دارا اي تعليق لاحظت ان موقفه
تجاهنا قد تغير • فلم يبدر منا اي تصرف سخيف • وقد تقبلتنا

صلحية . وفي الواقع اصبحت والدته دارا مهذرة تقريبا قبيل مغادرتنا .

— رجاء تعالي وامكثي معي متى شئت .
قالت ذلك وهي تصافحني بشدة، بيدها النحييفة المرنة .

بعد هذه الرحلة اتي دارا الى المنزل في مواعيد دقيقة ، كما كان من قبل ، يعمل بجد وينجز عمله بما يمليه عليه ضميره كما كان يفعل ذلك ابدا . شرعنا في محادثات طويلة من القلب الى القلب فجأة .

حصل تفاهم بيننا للمرة الاولى . وادركت ان حرصه لايشير بالضرورة الى عدم وده او الى احتقاره لي . وادرك هو ايضا انه يمكن للجانب ان يتكيفوا مع الاساليب الكردية ، وان تخطباتي لاتعني بالضرورة انني شخص بليد ميثوس منه . شعرت انه يحترمني وشعرت اني احبه بالقدر الذي كنت اريده في البداية . لقد كان صبيا مدهشا ، يختلف عن أي امرئ آخر التقيت به في إيران . وبعبقوية مني ، وبعد ذلك اليوم في بـازدو ودون أن أستاذنه توقف عن كونه السيد احمدي ، وجرى اسمه على لسانني واصبح ببساطة دارا فقط .

اكلني الشوق لزيلا ، لاعتقادي ان الرحلة الى قرية والدته يمكن ان تفشي المزيد عن دارا وعن مصدر قوته ، كانت زيارتي الى القرية الكردية الاولى التي حددت موقعها على خارطتي كانت هذه الخارطة اكتشافا نادرا اعطاني اياها ضابط في الجيش الامريكي عندما رأى مدى رغبتني في اقتنائها . وحتى ذلك الحين لم اكن اعلم بوجود مثل هذه الخرائط ، فكل الخرائط التي اوتيناها على تراشها كانت تظهر ايران مثل امة ذات مدن متناثرة هنا وهناك ولاشيء يتوسطها . ولكن هذه الخارطة التي رسمها الجيش البريطاني سنة ١٩٤٠ كانت مغطاة بأسماء قرى وجبال وانهار فصلية صغيرة فهي — كما اخبرونا — لاتعرض للجماهير للبيع ، وهي غير قانونية

ولاتجوز الا للاستخدام العسكري فقط .

بعد ان افاق دارا من دهشته لاقتنائنا اياها استغرقنا
- ثلاثتنا - في التحديق فيها ، محاولين العثور على الطريق
الاسرع والاقصر الى زيلا . رأينا خطا رفيعا يتجه صوب الغرب فوق
الجبال من باردو، وكانت المشكلة الوحيدة ان دارا لم يسبق
ان ذهب عبر هذا الطريق الجبلي ابدا . ربما كان هذا الخط فوق
الخريطة درب بغال مهمل . قام دارا بتوجيه اسئلة عديدة ولكنه
لم يكتشف شيئا محددًا . لم يكن احد من الذين يريدون الذهاب من
باردو الى زيلا يفتني سيارة . كانوا يضطرون الى اخذ الحافلة
التي تسير فوق الطريق المعبد فقط ،الذاهب للشمال باتجاه مدينة
شاهور حيث يمكنهم ان يأخذوا حافلة اخرى تقودهم نحو الجنوب
والغرب على طول الطريق الحصوي الى سهل سوما .

في صباح يوم رحلتنا اقنعت جيرد بضرورة محاولة السير عبر
الطريق الجبلي . ان خطا على الخريطة ، بالنسبة لي ، كان يشير
الى طريق ، والطريق في الجبال كان اقل بقدر ثلث المسافة من
الطريق المعبد والحصوي المنحدر ولكنني اضطرت بعد ساعتين من
اخذنا صلحية من باردو ، للاعتراف بأن الخط ليس طريقا فبعد كل
هذا الوقت لم تكن قد اجتزنا سوى اربعة كيلومترات وقد حصل
ذلك برفقة كل المسافرين - من صلحية ودارا واخت دارا الصغيرة
وانا - ونحن نتمشى ، بينما حاول جيرد ان يتغلب بالسير على
حفر وتشققات ما بقي من هذا الطريق الوعر . وعلى الرغم من
اني كنت الوحيدة التي اصررت على السير في هذا الطريق المختصر
كنت الاولى ايضا التي رغبت في التخلي عنه . كان الاكبراد
مستعدين لأي شيء فالسيارة لم تكن لهم وكان جيرد يستمتع بتعدي
السير فوق درب البغال . وعندما اختفى في منعطف لم يكن جليبا
لنا، مالت السيارة كثيرا الى الجانب المنحدر العمودي من
الطريق حيث تأكدت منذ ذلك من انني سأجد جيرد في اسفل الوحد
في الطرف الآخر . ولكن الطريق انتهى ببساطة عند الزاوية تماما

لذلك كان علي ألا احاول اكثر من ذلك . وكان لابد لنا من ان نعود ادراجنا .

ما استهللنا به كبداية مبكرة جميلة تحول الى حملة استغرقت فترة الصباح كله ، بينما ارتفعت الشمس في السماء وصار الجو حارا . لم يكن هناك فراغ للسير بالسيارة من ذلك المكان لأن الطريق كان ضيقا ومائلا الى حد بالغ . كان علينا ان نديرها باليد ، نرفع النهاية الخلفية عن الأرض وندير النهاية الامامية في الاتجاه المعاكس . وقد كسبنا الكثير من الوقت عند انحدارنا نحو الطريق الى شاهور على الرغم من انه كان على كل شخص منا - عدا جيرد - ان يمشي معظم طريق العودة الى بازردو . يلتقي الطريق الجانبي بالطريق المنحدر الذي يعبر النجد السهلي الى الغرب من البحيرة ، تماما قبل ان يصل الطريق المعبد الى شاهور . قادنا هذا الطريق الترابي الى اكثر البقاع جديبا وفقرا من مجمل الاراضي التي مرونا بها في اذربيجان على الرغم من ان اعيننا كانت قد تعودت حينئذ على الغبار غير المنقطع في المناطق الريفية الكردية ، حتى اننا عندما وصلنا الى منطقة فيها شلالات رقيقة جدا ، ظننا اننا قد وصلنا شلالات نياغارا . خرجت والتقطت نصف درينة من الصور . لم توءثر في نفسي هذه الصور ولم تذهلني لغرابتها المفرطة الا بعد عودتي الى الولايات المتحدة .

كان بمعاذات الشلال مجرى نهر قليل الماء وارض مشجرة باشجار قزمة ، ضئيلة خضراء رمادية ، نمت بشكل عشوائي في ارض متآكلة بفعل التعرية وعوامل الطبيعة . كان عدد مشير للدهشة من الاغنام يلوك هذه الخضرة الجافة ، بينما كنا نعبر القرية تلو الاخرى . اندهشت لكيفية امكانية هذه الارض جعل تيرغاوار وميرغاوار تبدوان مثل جناثن عدن ، وان تمد هذا الكم الهائل من الناس بالخيرات . ولكن المكان برمته بالنسبة لصلحية كان مغمورا بتوهج ذهبي للذاكرة . اشارت بابتهاج الى احدى القرى ومن ثم الى واحدة اخرى باسمها . هنا تقيم صديقة وهناك يقيم ابن

عم وفي قرية اخرى كانت لها ابنة شابة لم ترها لسنوات عديدة.
 لم اصدق اننا كنا فوق الجبال وعلى بعد عشرة اميال فقط من
 منزلها الحالي . كان الخط القاسم بين حاض صليحة وماضيها
 نهائيا وحاسما لدرجة ان القرى التي شهدت طفولتها والاخرى التي
 شهدت حياتها الزوجية بدت وكأنها في بلدين مختلفين . اخيرا
 انصرفنا عن الطريق وتسلقنا صاعدين نجدا موديا الى قرية
 واقعة فوق هضبة على شكل رغيف طيني . نزلنا تحت نوافذ منزل
 طيني كبير ذي طابقين . عندما خرجت من السيارة تيقنت من ان
 الخضرة مسألة نسبية . فقد كان السهل الذي تجاوزناه اكثر
 خضرة بالمقارنة مع هذه القرية ، فهنا لم يكن يوجد حتى اشجار
 ذات خضرة رمادية ، بل محض تراب لاتلمح فيه حتى ولاورقة عشب
 على مرمى البصر .

قادتنا صليحة ودارا بلهفة صعودا نحو الطابق العلوي من
 المنزل ذي الطابقين ومررنا بالحيوانات المتجمعة في الطابق
 الارضي في حجرة كبيرة حيث التقينا فوقها بموسى اخي صليحة
 الاكبر وصاحب المنزل ومضيفنا . حالما دخلنا امتلأت الحجرة بسرعة
 على سعتها بذكور واثاث مراهقين مصطفين بجانب الجدران مسح
 اطفال قد تكتلوا عند المدخل يمدون اعناقهم الى الامام ويحدقون
 ليروا الاجانب . ألقت ام صليحة التحية على ابنتها وبدأت مسنة
 بفكها العديم الاسنان وجلدها الرخو الجاف . كان الاخوال اخوة
 صليحة يبتسمون ويحاولون التحدث معنا . بينما كان البقية
 يحدقون فينا وفي النهاية احس مشفقونا بأن الفوضى ازدادت عند
 الباب ، فذهب ادهم الى حشد الاطفال الممزقي الثياب وطردهم
 بعيدا . ذهبوا بأسرع مما كنت اتوقع ورجع ادهم الاعمام ونقل انه
 اخبرهم بأنني طيبة جديدة وقد اتيت لاعتنهم بالابر . ذهب
 مجموعة من الاطفال المحبين للمغامرة من الذين اخرجوا من الردهة
 الى سقف احد المنازل المجاورة التي كانت في مواجهة ادهم
 نافذتي الحجرة التي كنا في داخلها واستأنفوا تهديفهم فينسا
 بجرأة . كانوا واقفين مثل الاصنام مستعدين تماما لالتقاط صورة

لذلك أمسكت بآلة التصوير ووجهتها نحوهم ، عندها فرّ جميعهم
فزعين . ضحك جميع الموجودين في الحجرة . فأوضعت إحدى النساء
قائلة :

— لو انك أخبرتهم فقط انها آلة تصوير وانها ليست بندقية
لما فروا هاربين .

توقفت مستغربة من ذلك . اي نوع من القرى هذه ، حيث يبسّدو
فيها الاطباء اشباحا مرعبة ويتوقع فيها الاطفال ان يبسّد الغرباء
النار اليهم ؟

ولكن شمة حقيقة واحدة مؤكدة وهي ان هذه ليست دستان .
كان عدد الجالسات من النساء تقريبا يعادل عدد الرجال فـي
حجرة الاستقبال الطويلة هذه ، بدا ان حضور جيرد لم يسبب حتى
ولو قدرا ضئيلا من الاختلاف . فلم تدفع اي منهن خمارها فوق فمها
وكانت جميع النساء يتحدثن بصوت عال وبعبودية مثل الرجال . لم
يقدم الشاي خادم ، بل صبي صغير من العائلة .

فكرت بسيارتنا بقلق . فقبل ان نغادرها تماما ، كنت قد
لاحظت ان حشدا من اطفال القرية والماعر يصعدون فوقها والاطفال
يجاولون دون شك ان ينزعموا كل اللواحق المشيرة ، التي لم تكن
ذات وصلات ملتزمة ، والماعر تبحث عن الظل . قام جيرد الى
النافذة ليتفقدنا ويبلغنا محذرا انه يبدو له كما لو ان
سيارتنا ستجرد خلال ساعة او مايقاربها . فطلبنا من مضيفينا
ان يبعدوا الاطفال عنها ، ولكنهم نظروا الينا بارتياح . ماذا
نتوقع ؟ بما انه لا توجد سيارات في زبلا وباب الفناء لم يكن
واسعا على نحو كاف لنسوقها الى الداخل ، فان على سيارتنا ان
تبقى في ميدان عام . ولكي يظهر واعتراهم لنا ، فقد صرخ احد
مضيفينا بالاطفال ولكن في الحقيقة ، لم تكن هناك وسيلة
لابعادهم . كنا هذه المرة وسط قرية ، وبين اناس عادييين بدلا من
ان نكون في الاعالي فوق الهضبة مع " الخانات " . ولكن صلحية
اهتمت برغباتي اهتماما شديدا ، فبعد ان انتهت من السوال عن

اخبارهم وعن الاشاعات شرعت تردد كيف انني قد جفت الى هنا
 لاجمع قصصا لآخذها الى امريكا ، بعد تناول غداء مكون من الارز
 المطبوخ مع القليل من قطع اللحم الغضروفية المتناثرة بينه
 لتعطيه نكهة لذيذة ، رتبت صلحية جلسة لسرد القصص وكسان
 ميكروفوني ينتقل من يد مسقرة بالشمس الى اخرى ، بينما امتلاء
 شريط المسجلة بقصص الجان الطويلة الشبيهة بالدموع الذهبية .
 وكما لو ان سمرا حل بالحجرة حيث كان كل شخص يصغي بعناية الى
 القصص ناسيا ايانا - نحن الاجانب - وربما حتى تلك الأرض الخالية
 من الاشات والشمس الحارة ومشكلة تجميع الغذاء ، فلم يكن
 يشغل تفكيرهم حينئذ سوى الاميرات والتنانين والساحرات والفرسان
 لم اصدق كيف امتلاك مسجلتي بهذه السهولة ، ونظرت الى صلحية
 بامتنان . اهتمت لي هي ايضا . ولكن التسجيل والقصص لا يمكن
 ان يستمرا الى الابد . فقد سألني اقدمهم :
 - هل صحيح ان الامريكان يكسبون الكثير من المال ؟

لقي هذا السؤال تقبلنا اكثر ، فقد اعتبرنا صيغته افضل
 من الصيغة الاخرى وقد كان يطرح بهذا الشكل : كم تكسبون من
 المال ؟ ربما ان طريقة السؤال هذه كانت ملائمة اكثر لزيلا
 التي لم يكن يسود فيها النظام الاقتصادي المقتدر بالعملة . قفل
 مضيفونا الحاليون على موءونتهم القليلة من الارز في حجرة
 صغيرة كما لو انها كانت جواهر . من الواضح انهم لا يأكلون
 اللحم . كان غذاؤهم الرئيسي موءفا من اللبن المصنوع من
 حليب الغنم والخبز المصنوع من القمح الحكومي . لم يكن هناك
 حتى شخص واحد ممتلئ الجسم في الحجرة .

- هل تعلم انه بإمكان العمال في امريكا ان يكسبوا مالا
 اكثر من استاذنا في الجامعة .

تطوع جيرد بالجواب على سوء الهم . وساد السكون ثانية
 فالاجانب الآن على وشك سرد بعض القصص عن بلادهم واناسهم . وسأل
 احد الرجال الجريشين :

- كيف يمكن ذلك ؟

فأجابه جيرد :

- حسنا ، لا احد يعطيهم الكثير من النقود . اما العمال في

امريكا فهم يطالبون بالمزيد . انهم يحدثون اضرابات .

معد ذلك نظر مضيفوننا الى بعضهم بقلق وقال آخر :

- كان قد قام بعض العمال في ريزاي باضراب .

وسأله جيرد :

- كم استغرق من الوقت ؟

- ربما يوما او يومين .

- هذه المدة ليست طويلة بما فيه الكفاية .

- ولكنه خطر ، خطر جدا .

قالوا ذلك وهم ينظرون الى جيرد بامعان كما لو ان لديه

الجواب الذي يحتاجونه فقال جيرد معلقا :

- لقد كان خطرا في امريكا ايضا . فقد قتل بعض الناس بعد

الاضراب .

لم يتفوه احد بكلمة . وكانوا ينقلون نظرهم بيننا وبينهم .

أومأت لجيرد برفع حاجبي لتحذيره ، فان مجرد تقرير عن هذه

المحادثة سيكون كافيا لطردنا من ايران . ولكن المجادلة لم

تمض الى ابعد من ذلك . كان واضحا ان هؤلاء القرويين بوجههم

ذات المسحة الترابية ، يريدون سماع المزيد ولكنهم كانوا

خائفين .

ازدادت حمة الحجرة اكثر ، فقد لاحظت لنا مظلمة لسيدي

وصولنا تحت اشعة شمس الظهر العديمة الظلال ، وبدأت أتساءل عن

وضع سيارتنا ثانية . كانت امرأة تدعى خيال ، قد التقطت

ميكروفوني لتروي مراسيم زفاف عروس لابنها . ولكنني نسيت بعد

ذلك فقد كان الوقت قد حان للرحيل ومع ان السير في ذلك الصباح

كان مرهقا ولكن الطريق لا يمكن السير فيه في الظلام .

حدث شيء غريب لدى نزولنا قرب السبارة ، فقد بدا كما لو ان القرية كلها قد تجمعت لتودعنا . شعرنا كما لو اننا قد قضينا الاشهر الخمسة الاخيرة في زيلا ، بدلا من الخمس ساعات الاخيرة . طالت الحشد بصف بالتقاط صورة له ، لذلك فلقد التقت صورة له اظهرت الصبية فيه مصطفين في المقدمة وهم يلوحون للكاميرا ، وفي خلفية الصورة كانت الشمس تأفل خلف الهضاب القاحلة وهي تشكل تخوم السقوف المستدقة لأكواخ السجاد المخزون كان من المستعمل صعود السبارة مباشرة مع مثل هذا الحشد، وبينما كانت صليحة تودع اقاربها بدا كل شخص يسألنا من سبب عدم بقائنا وسمعت صوت خيال يقول :

— ألا تريدان ان تحضري حفلة زفاف ولدي ؟
التفت البها وقد لاح على وجهي التردد واللهفة . احسب العبد من القرويين ان حفلة الزفاف قد لقيت اهتمامي . فرددوا قائلين :

— نعم العرس . العرس . من المؤكد ان المرأة الاحنبيلة لا تريد ان يفلوتها العرس .

لقد كانوا محقين في ذلك . ولكنني نظرت حولي الى الوجوه الهزلة والغريبة الملوحة بالشمس المحيطة بي ، وشعرت بحيرة في نفسي . قال شبرو احد اخوة صليحة :

— ابلي ، ابلي ، يجب ان تبلي .

اشبهت دوامة من الابتهاج والخوف في قلبي . والحقيقة كل ماكنت اريد ان افعله هو الخروج من زيلا الى الابد ، ولكن كيف مع وجود مرس كردي ؟! . لو انه فقط كان في قرية الحاح اسماعيل حيث يمكن لسيارتنا ان تكون بأمان ، كما سنكون نحن ابها . وبينما كنت والقة احاول ان اقرر ، كانت هناك امرأتان على مقربة مني تمان شكري باصابعهما وسمعت احدهما تسأل الاخرى :

— هل يمكن ان تكون امرأة متروكة هنا ؟ انظري الى شعرها وبشرتها ، لاند انها فتاة مازية .

بدأت اناقش جبرود من فوق الروءوس . هل يمكن ان نعوذ
 لنحضر هذا العرس ؟ فقال جبرود مجيبا وترك القرار لي :
 - تقولين دائما انك تودين روءية عرس كردي .
 فالتفت الى صلحية قائلة :
 - متى سيبدأ العرس ؟
 التفتت بدورها الى اخوتها وسألتهن وقالت مجيبة على
 مراحل :

- ربما اليوم هذه الليلة . ربما اليوم الذي يليه . أو حتى
 ربما اليوم الذي بعده .

اقلقني عدم التعديد في ذلك ، لماذا لا يعرفون متى سيبدأ
 العرس ؟ ربما انهم قد اختلفوا كل ذلك لاغواشي بالبقاء . كنت
 اعرف ان هذه ليست تركيا ، ومع ذلك فان المشاعر التي اشارتها
 في زيلاً ذكرتنني بيوكسيكوفاً . لقد كنت امني بالنسبة لهؤلاء
 القرويين المنعزلين " الاخرى " وهذا امر مفروغ منه . اردت
 الذهاب ولكنني لم ارغب في تفويت روءية عرس كردي . اخبرتنني
 صلحية قائلة :
 - يمكننا العودة . لا اظن ان العرس يبدأ في هذا الحين .

اتخذت قراراً مع فكرة اخذ فترة من الراحة بعيداً عن القرية .
 سنعود للعرس . ولكن سيكون في غضون يومين ، بعد ان اكون قد
 اخذت كمية جيدة من الطعام والنوم ، وبعد ان تكون قد سحبت
 لي فرصة لارتداء ملابس الكردي ، ربما لن يصدق في سكان زيلاً
 كثيراً لو اني لبست مثل كردي .

كانت معنويات صلحية وفنار اخت داراً الصغيرة مرتفعة
 عندما التقينا بهما في البازار في ريزاي بعد يومين من ذلك .
 تمتعتا برحلتهم بعيداً عن بازو وذلك بقضاء معظم وقتهم
 ملطختين بوحل السهول الملحية والحديدية قرب البحيرة . كانت
 خديجة قد ضفرت شعري في ذلك الصباح اربع عشرة ضفيرة وريطتهما
 بشريط ملون . لقد احدث التغيير الذي نشأ عن ملابس وتسريحة

شعري بالطريقة الكردية شعورا بالروعة والرهبة لدى صاحبتي
 وداراء. نظر اليّ دارا بامعان كما لو انه لم يرنى من قبل اسداء
 ملكنا طريقا آحر الى ريبلا اوصلنا في اقل من ساعتين ومندمنا
 وعلنا بجمع حشد كبير شاسع . رحبوا بنا كأصدقاء قدامى، ولكن
 الحواب على سوءالي المباشر كان : لا ، لم تبدأ العرس بعد .
 وعني سيدا ؟ حالا ، الآن نعمانا ، عرضوا الضخ مؤكدين ذلك، كنت
 لا ارال غير فاديرة على فهم سب عدم معرفتهم بتوقيت عرسهم. وفي
 فغون فترة العصر واصلت سوءالي متني سيدا العرس ، غص النظر
 من مدى محاولتي في السماس الراحة . قدم اليهنا الشاي والغذاء
 وعلنا بحولة الى بركة مياه شرو السطحة الواقعة بحانب سستانه
 حيث كان قد ررع اشجاره في اخاديد معدثة بتناشر مياه العطر
 بعيدة من مركز القرية . وبما ان موسى كان يملك البركة ويستأ
 اشجار البنولا في مكان ناء في الجانب الآخر من القرية ، فلقد
 سأكدت من انه لابد من ان اخوى صلحة هما من بين الرحال
 المسورس في القرية ، ولتكن ملابسهم كانت رثة واسنانهم منفرقة
 واحسادهم بحلة الى حد كسر ، فإذا كان هؤلاء هم الاسياد ، اذا
 فكيف يعيش الناس ؟

واصلت سوءالي عن العرس بقرية حتى المساء عندما نظطر
 حرد من خلال نافذة المحو الكسرة في الطابق الثاني ورأى
 مجموعة من ارسعه رجال يرقعون كتفا لكتف على طول ارفة ريبلا
 الطينية . وقد ايلعنا مضيقنا ان هذه تمثل دعوة تقليدية
 للفروس ليأتوا الى الاحتفالات . بعد ذلك سفترة قصرة ظهر
 رخلان غرسان حدا عند مدخل باب حرة الاستفصال الطويلة التي
 كنا نلعي فيها يوما . نصب موسى مضيقنا ، كراسي معدنية قابلة
 للطي لهم حالا . كان كلا الرجلين يرتديان بذلات خضراء فاتحة
 على الطراز العربي . ولم سرفج الرجلان اعينهما عني منذ اللحظة
 التي دخلتا فيها الحرة الى ان هادراها . شعرت ان اعينهما كانت
 سوهجان نحو الراوبة المظلمة ، حيث كنت حالقة هناك بحاسب
 صلحي . ولست ما اسهرت صلحي هذه الفرقة لتعيد ترتيب

اغطية رأسي ودون ان تستشيرني اخذت وشاحي البرتقالي عن رأسي ببساطة وبذلك انكشف شعري برمته . وقد افتن هذا المنظر الرجلين وسمعن احدهما يقول للآخر عبر الحجرة :
- لماذا لاتخلع كل ملابسها ؟

استمرت صلحية بالعناية بوشاحي بافراط مضيضة وشاحا اسود من عندها وبذلك اصبح لدي اثنان منها . كانت تتصرف كما لو انها لم تسمع ملاحظة الرجل ولكني لم اقول على طردها عن تفكيري .

اصبحت زيلا مروعة في الليل اكثر منها في النهار حتى، ولم امل الى هذين الرجلين الجالسين هناك وهما يرمقانني بنظرات الغرام . وتساءلت في نفسي عما اذا كنت ارجب في الذهاب حقيقة الى العرس بعدما اتضح ان هذين هما مضيغانا . ما كان مني الا ان اتمنى ان سلوكهما لن يكون نموذجا عن سلوك الرجال في زيلا ، لأنهما كانا يعيشان في مدينة شاهبور وليس في القرية.

نهض كل امرئ في الساعة العاشرة ومشى نحو فناء دارخيال، وحالما وصلنا الى المدخل ذي الحائط الترابي ، شاهدنا صفا من الكراسي المنصوبة باتجاه زمرة محتشدة يبلغ عددها تقريبا اربعين من ضيوف العرس المبتهجين وهم جالسون فوق ارض مبراة . وحالما قادونا الى الكراسي المخصصة لنا ، بدأ حشد النساء الجالسين على الكراسي بالتحديق فينا ، كان كما لو اننا كنا فوق المسرح ، لم تكن هنالك اضاءة موضعية مسلطة ، بل كان يوجد فانوسان يصدر عنهما طنين ويشعلان على نحو متقطع بالاضافة الى ضوء القمر ، ليجعل كل شخص من حولنا منظورا على نحو غريب .

كان يقبع في مكان مرتفع اثنان من " الدنغ بيچ " وكلاهما يرتديان قبعات شتوية صوفية ثقيلة ، يتبادلان الغناء وقد انحنيت يد كل منهما حول احد خديه او تكورت حول احد اذنيه . كان ايقاع الطبل عاليا ورتيبا . نهض بعض الرجال والنساء للرقص ولفست

نظري ثلاث فتيات مرتديات على نحو فاخر ، من المحتمل انهن كن اخوات العروس ، كن قد لبسن قماشا مطرزا مع اهزمة معدنية رنانة وعريضة وعروات ذهبية تزيينية للأنف .

رغبت فقط في الجلوس لأصغي ولأراقب سابتهاج هذا المشهد الرائع ، القمر ، الطين الجاف ، حلقات تزيين الأنف والمغنيان ولكن ذلك لم يكن ممكنا ، فالانتباه كان ينبغي ان يكون منصبا على الراقصين والمغنيين وعلى الاخض على عائلته العروس ، ولكن بدلا من ذلك كان الانتباه مركزا علينا . لم يقو بعض الأولاد الصغار على ابعاد اياديهم عنا . واستمر احد الرجال وفي يده عصا فليظة بالمجيء والضرب على رؤوس الصغار الاكثر اساءة ولكنهم حالما كانوا يبتعدون ، كان يحل محلهم اطفال آخرون .

سحب شيرو ودارا جيرد لينضم لحلقة الرقص ، ولكني بقيت في مكاني بجانب صليحة . لم ارقب في النهوض لأرقص امام هذا الحشد ولم ارد ان اقترب من الرجلين ذوي البذلتين الخضراوين الفاتحتين ، فقد انضمنا ايضا للرقص وفي فم كل منهما سجاثر ملفوفة باليد على نحو رخو ، وقد علت وجهيهما تعابير تنم عن الانتشاء . وعندما عاد جيرد من الرقص ابلغني انهما كانا يدخلان الحشيش ، هذا ما فسره سلوكهما الغريب ولكني لم اتيقن انهما يتعاطيان المخدرات . فقد اكد لنا الاكراد في رهزاي انه لم يمس كـردى المخدرات ابدا ، حتى ولو انهم يهربونها بين الفينة والاخرى " انها للعجم فقط " كان السيد خليلي قد ابدى ملاحظته بازدياء ، تساءلت عما اذا كان الرجلان المرتديان الخضراوين الفاتحتين هما الوحيدان في حالة الانتشاء تلك في زيلاً تلك الليلة . من المؤكد تماما ان اناسا في هذه القرية قد قضا وقتا في السجن بسبب التهريب .

بدا ان التحديق والرفض سيتواصلان لساعات . كنت انظر بعينين نصف معمضتين ومطرفتين الى الارهاق " هذا شيء عجيب جدا

قلت ذلك موجهة كلامي لدارا الذي كان قد جلس شائبة . يمكن
لكلمة " عجيب " ان تعني غريب ، متضمنة معنى " الدهشة " او يمكن
ان تعني مجرد الغرابة . اختار دارا المعنى الاول ، وابتسم
قائلا :

— تعنين ان الراقصين راقصون جدا .

منذ هذا توجهت ملامحي . لماذا نكون انا ودارا على كوكبين
مختلفين دائما ؟ وحاولت ان اوضح :
— كل امرئ يشدد في تعديقه اليّ ، ذلك هو الشيء العجيب .
فقال :

— طبعاً . الناس هنا فيبر معتادين على روية امرأة اجنبية ،
وبشكل خصوصي امرأة اجنبية بلباس كردي . نظرت الى دارا مستاءة
من ذلك . ربما ان ارتدائي البسة كردية كان شيئا غير عادي
بالنسبة له ولكن هـ اني كنت هناك حلسة بلباس الجينز ، حيث
يمكن لكل امرئ ان يرى شكل فخذي او بلباس يكشف عن ساقى ؟ من
الممكن ان دارا قد عاش في ريزاي لفترة طويلة لدرجة ان اللباس
الكردي لم يعد يبدو طبيعيا بالنسبة له .

لاحظت صلحية المتألّفة مع اضطرابي اكثر من ابنها ، انني
مرهقة وانه ينبغي علينا المغادرة . اومأت برأسي ممثلة وسرنا
ببطء الى خارج الفناء مشكلين رتلا ، وبعد ان شكرنا مضيفينا
دعينا للعودة لحضور احتفالات اليوم التالي عندما تزف العروس
فعليا الى المنزل . والمسألة المهمة التي فرضت نفسها لى
عودتنا الى فناء موسى هي مكان نومنا . فقد كنت انا وجيـرد
قد ناقشنا هذه المسألة طويلا قبل المجيء الى زيبلا ، كانت فكرتنا
هي ان ننام فوق السطح مستخدمين اكياس النوم التي كنا قد
احضرناها معنا . ولكن صلحية كانت قد حددت مكان نومنا مسبقا
منذ ذلك الصباح حالما معدت الى سيارتنا فقالت مشيرة :

— منزل والدتي نظيف جدا . نظيف مثل منزلي ليس فيه بق
الفرش .

كان بق الفراش على وجه الدقة هو ما يغلطني ، ولو اني كنت سأغاضي من ذكرهم . عندما قالت صلحة ان منزل والدتها نظيف مثل منزلها اثر ذلك في نفسي لان صلحة كانت مدبرة منزل دقيقة واكثر دقة من اي امرأة التقينا بها في كردستان . ولكن زيلا لم تكن على مستوى مقاييس صلحة . فقد كان لابنة شبرو المغيرة التي كان عمرها يناهز عمر اسنة عندها فنار ، شعر اشعث مفسد سدا رمادي اللون من نجمع الغبار والتراب عليه . اما شعير فنار فقد كان يسرح يوميا بغرتها الطويلة وجذبلتيها الكثيفتين ، وكانت ترتدي دائما البسة نظيفة . لم تكن المسألة مسألة نقود بل اعتزاز بالنفس . فقد كان دارا و صلحة معتدين بنفسيهما الى حد بعيد . ولكن حتى لو ان نساء زيلا كن مدمرات منازل مدققسات في مسألة النظافة ، فان التظلم من بق الفراش هو صعب عليهن . كان في زيلا اغنام اكثر من ساردو . وفي ارضية حجرة الجلوس الكبيرة التي اراد موسى ومائلته ان ننام فيها يوجد حيز واسع لآلاف من بق الاغنام لترحف خلاله من الاسطبل التعتي ، حاولنا ان نمر على النوم على السطح ولكن مضيقا كانا مبيدين . فلابد لنا من اخذ الفصل حجرة لديهم . وكانت هذه الحجرة تتسع على الأقل لنوم ذبيئة منهم في الليل ولكن مضيقا امرا على ان ننام وحدنا و اشارت صلحة قائلة :

— مثل عروسين .

بعد ان عادت بنا صلحة وزوجة اخوها الى الطابق العلوي ، سوي فراش ملون باللون الزاهية وسط فوق الارضية على نحو يحلب فيه المرء . ناولتنا النسوة سراحا ونركنا وحدنا لنتمتع بفخامة هذا المكان الفصح المنزوك لنا وحدنا . وحالما اطلشت الانوار بدأ البق يهزونا . كنا نائمة سبذلتي الكردية بتمامها ونهاية الاكمام الطويلة ملتفة باحكام حول راسي والنسيج الممزوج بالمعطاء من نهاية سروالي قد سحب الى اسفل ، فوق حواربي ، حتى اني كنت نركت وشاحي مربوطا حول رأسي . ولكن السق كان ينجح في الاختباء بين ثيابا لاسي . وبعد مرور خمس عشرة دقيقة —

ناكدت رأسي لى انام خمس دقائق تلك الليلة .

— علينا ان نحضر اكياس النوم

همست قائلة ذلك لجيرد الذي كان النعاس يغالبه ، ولسبب
ما بدا ان البق يهمله .

أضأت المصباح المدخر الذي كنا قد احضرناه معنا وأريست
جيرد اسراب البق الصغير ذي اللون الاسود ، فوافق على الخروج
على مضض ، ولكنه عاد لتوه خاوي الوفاض . وقال موضحا .
— جميعهم نائمون في الفناء ، لاننا اخذنا حجرتهم .

بعد عدة ساعات صعوت على فجر رمادي بارد ، من نوم يتخلله
شعور بالحشرات وهي تزحف فوق جسدي . وبعد ساعة من ذلك قدّم
لنا فطور مكون من شاي ثقيل وخبز قمح مسطح . ونحو مايقارب
منتصف الصباح مضينا في جولة اخرى ، هذه المرة الى بركة شيرو .

لم يكن شيرو مثل اكراد آخرين التقينا بهم في زيلا وفي
اماكن اخرى في كردستان . لقد كان امر اخوة صلحية عليها . وكان
له وجه متطاوّل كوجه صلحية وبشرة ضاربة الى الحمرة . ولكن
بينما كانت عينا صلحية سوداوين ، كانت عينا شيرو خضراوين
وبينما كانت صلحية تتصرف بجديّة ، كان شيرو يتصرف وكأنه خال
من الهموم . ان الحياة بالنسبة للأكراد هي كفاح مستمر وبالنسبة
لل بعض هي النضال من اجل القومية الكردية ، وبالنسبة لآخرين
مثل سكان زيلا هي صراع من اجل البقاء . اما بالنسبة لشيرو فلم
تكن حياته تتسم بسمات من الكفاح ، فقد بدا انه يتمتع بالحياة .

في كردستان لا يغني الناس ولا يرقصون عادة . لقد كنت اطلب
من الناس باطراد ان يعلموني اغانيا وقد رفض جميعهم ذلك تقريبا
ان الاغاني كما افهموني هي من اختصاص المحترفين "الدغ بيــر"
الذين يغنون في الامراس . كنت اكاد لاعتبر شيرو دنغ بيــر
بصوته الاجش الذي اتلفه الدخان . ومع ذلك فقد احب ان يغني
وقد غنى لي العديد من الاغاني عندما كنت في زيلا . وكذلك كان

يستمتع بالرقص واصر على ان يتعلم جيرد الرقص بدقة . لقد سُـرَّ شـيرو في الحقيقة لانـي اردت ان اتعلم كلمات كردية جديدة وبينما كنا نجاري السير مع خطواته المرحمة على طول الطريق الى بستانه المشجر التقط من الارض نباتات شائكة وفطور النفث الاكثـر تميزا واخبرني عن اسمائها .

عندما وصلنا الايكة تبادل شيرو والصبي الذي قدم لنا الشاي الادوار في غناء السلسلة التقليدية من اغاني الاعراس لاسجلها . امسكت صلحية بالمكرفون لآخـيها الى ان بلغ اغنية ملأت مينيها بالدموع ونهضت ثم مضت في سبيلها . استمر التسجيل وفي آخر الامر عادت ادراجها . واوضعت موءخرا قاشلة :
- ان الجزء الذي اتوا فيه ليأخذوا العروس ذكرني بعروسي
لقد كانت فترة كئيبة ومليئة بالاس .

اضطربت لدى روءيتي صلحية تبكي . فهي لم تكن شـنة ولا قاسية بل عاطفية جدا . ولكن خيّل الي انها كانت قد تركت مشاعرها وراءها . والا فكيف استمرت في العيش مع الحظ السيـذي جعلها زوجة ، رجل مسن وتركها ارملة مع ستة اطفال ؟ تساءلت عما اذا كانت تبكي لفراق زيلا على الرغم من ان بازو كانت مبهجة اكثر بكثير . ولكن بالطبع ما كان لها ان تعرف ذلك وكأي عروس تقليدية لم تكن قد رأت زوجها المستقبلي ولا منزل المستقبل ايضا .

بعد وصلة الغناء تلك ، قرر شيروا ان يعلم جيرد الرقص. شكل الرجال صفا تحت الشمس الحارة ، بعيدا عن الاشجار وتماسكت الايادي وبدؤوا بهز اكتافهم ، وتمايلو في مشيتهم ، قفزوا من ثم جثموا في ذلك الرقص السريع الذي يؤديه الرجال الاكراد . كان شيرو يلوح بوشاح في يده والصغير يغني . وعندما انهكنا هذا اللهو قللنا عائدتين الى القرية .

مـند العودة الى الحجرة الكبيرة المعتشدة بدأت الحاجة

الى النوم وبدأ قرص البق وشعور عام بالخوف بازعاجي . لقد
عدنا للجلوس ثانية ، والى مرات لاتحصى من احتساء الشاي . وبين
فترة واخرى كنت اسأل عن بقية حفلة العرس . متى ستزف العروس؟
لقد فهمت منذ برهة قصيرة انها موجودة في القرية مسبقا .
كانت هذه العروس قد فرّت من والدها منذ شهرين مضيا ، واتت
لوعدها الى زيلا مع زوجها المفترض ، لأن والدها كان يطلب مهرا
أعلى من اي مهر كان يرغب في دفعه اي شخص ، فسألت صليحة ؛
- هل يعني هذا انه لن يكون هناك مهر ؟

فأجابت ؛

- لا ، ينبغي على العريس ان يدفع شيئا ما او ستنشعب حرب
بين العائلتين .

بينما حاولت ان افهم مايجري في الطريق ، سألت ممّا اذا
كانت العروس ستزف على حصان من المنزل الذي تمكث فيه في القرية،
لقد كانت الاحصنة هي الوسائل التقليدية لاحضار العروس . على
الرغم من ان سيارات الاجرة الريفية كانت قد حلت محلها الى
حد ما .

نظر القرويون الى بعضهم . لقد قرروا مسبقا ان سيارتنا
هي التي ستحضر العروس ولكنهم لم يخبرونا عن هذا حتى ذلك
الحين . خرجوا الآن وسألوا اذا كان بإمكانهم استخدام سيارتنا
القرمزية الفاتحة . وقبل ان اقدر على الاجابة ، اقترح دارا ان
يستخدموا حصانا هذه المرة بما ان الحفلة ستكون موضوع صوور
مثمرة . كان يعلم اني ارجب في اخذ الصور ، ولكن رغبة دارا
اهملت . كان الجميع في زيلا ، عدا صليحة ، يعملون دارا كما هو
تماما ، صبي ذو خمسة عشر عاما .

شرعت في النظر من خلال النافذة ، بينما بدأت المحادثة
تنحرف عن موضوع العرس رويدا رويدا . لقد تلبدت السماء بالغبوم
وبدا المطر بالهطول . نبت القطرات المائية الضخمة بوابل
صيفي . وكان بإمكانني تماما ان اتصور ما سيحدث لهذه الارض القاحلة

بعد بضعة انشأت من المطر . فالمسيلات التي عبرناها ، كلها ستتحول الى انهار متدفقة ، تجعل الطريق غير ممكن عبوره . ربما لن نقدر على السبر الى المنزل . وقد اثقل علي شعوري انني سأبقى في زيلا الى الأبد .

بدأت أسأل مضيفينا عن التأثيرات التي تتبع السيل، وقالوا موءكدين الاحتمال الأسوأ : نعم يمكن للطريق ان تصبح غير سالكة. انتفضت واقفة لدى سماعي هذه الاخبار ومشيت الى جيرد وقلست بالانكليزية :

— لقد سئمت انتظار هذا العرس . دعنا نذهب ، ستعوقنا المياه اذا جرفت الطريق .

نظر اليّ جيرد فرعاً لم اتحدث معه بالانكليزية امام الاكراد ابداً تقريباً ، بل كنا نستخدم الفارسية لكي نكون مفهومين وهمسائلاً :

— ماذا تفعلين ؟ ارجعي واجلسي .

دعرت لهذه الاجابة غير المتعاطفة معي . وبدأ كأن كل انش مربع من جسدي قد احتاج غضباً . كان المطر يهطل بغزارة وسرعة رهيبة . والاجزاء المتعددة من لباسي ذي الطيات الكثيرة قد تصلبت من العرق ، وكان بقية الاشخاص في الحجرة ينظرون اليّ بفضول اكثر من ذي قبل عندما وقفت قرب جيرد وانا اتكلم بعصبية بلغة اجنبية . فكرت اني لن اقوى على البقاء حتى ولو لحظّة اخرى في زيلا . واذا لم يغادر جيرد ، فسأغادر انا . ما كنت سأقيد نفسي في انتظار عرس لن يحدث ابداً ، بهذه الافكار خرجت بمشيئة بطيئة من الحجرة وهبطت الدرجات ، الى ان وصلت خارجاً تحت المطر الهاطل بغزارة . وهناك فتحت باب السيارة بحركة سددت ضربة لقرون معزلة واغلقتها علي . وبدأت بالنشيج . لقد كانت تلك ، هي الدقيقة الوحيدة التي انزلت فيها مع نفسي خلال ست وثلاثين ساعة . حتى اني لم اكن قادرة على التبول

بمفردي في زيلا ، بسبب عدم وجود مراحيض خارجية في الفرية حيث كانت صلحية ترافقني وتقف حارسه في كل مرة .

ظهر جيرد بعد دقيقة عند نافذة السيارة وهو يهتف من خلال المطر . حدثت فيه بغضب وبعددثد وقفت صلحية امامي فجأة وهي مبتلة وقد علا وجهها امارات من القلق . فتحت لها الباب لتدخل فسالت :

— ما الامر ؟

شعرت بشعوب في وجهي الذي بللته الدموع واوضحت لها على نحو واه :

— انا وجيرد نتناقش حول امر .

وقالت بلطف :

— عودي الى الداخل يامارغريت . لايمكنك السير تحت هذا المطر الغزير .

خرجت بهدوء من السيارة عائدة ، واخذت صلحية بيبيدي . وقادتني الى الداخل ومن ثم الى الطابق العلوي . شعرت بالراحة بعد بكائي وبعد ان اختليت لدقيقة مع نفسي ، ولكنني كنت خائفة من مواجهة الناس فوق . ماذا سيظنون ؟ سيعرفون جميعهم انني كنت ابكي .

لكنني عندما نظرت الى سكان الحجرة ، موسى وزوجته ، شيرو ، دارا وكل الاعمام وابناوهم ، بدوا مختلفين . فبدلا من ان يظهر عليهم الاندهاش او الانزعاج كما توقعت ، بدوا قلقين واكثر ألفة مما بدوا لي من قبل . ربما انا ايضا بدوت اقل غرابية لهم . وتبادلنا الابتسامات . بعددثد تكلم موسى قائلاً :

— عليك ان تنتظري الى ان ينتهي المطر قبل ان تسيري الى اي مكان . عندما يكون الجو على هذا النحو ، فان السواقية خطيرة جدا .

بعد مضي نصف ساعة على ذلك ،توقف المطر وبدأ العرس . ذهبت في البداية انا و صليحة الى كوخ صغير لانوافذ له ، حيث كانت جميع النسوة قد تجمعت فيه ، وتنوراتهما تخشخش ، وتصطدم الهدايا الواحدة بالآخرى وهن يرمينها الواحدة تلو الاخرى في سلة مستوية موضوعة على الارض وسط الغرفة . كانت معظم الهدايا قوالب صابون او اوشعة ، ولكن كان هناك فساتين و احذية ايضا من قريبات العريس .

بعد ذلك شكلت النساء رتلا وهن يخرجن من الغرفة . وشكل القرويون حلقة وبدؤوا بالرقص التقليدي بالتناغم مع ايقاع الدنغ بيتر . اقنعنا انا وجيرد نفسيانا الى جانب صليحة وشيرو واثنتين من اخوات العريس الى السيارة لنقوم برحلة من مئتي متر الى المنزل الذي كانت تمكث فيه العروس . وتسلق بقيصة الضيوف مقطورة مسطحة يسحبها الجرار الوحيد في القرية .

وصلنا بعد عدة دقائق الى منزل ارشدنا اليه لدخوله لاحتساء الشاي . شكل ضيوف العرس حلقة ورقصوا حول سيارتنا السى ان قادت الحماة كنتها الى خارج الحجرة الواقعة الى جانب الفناء كان قد لفت وشاح برتقالي حول وجهها ، لذا فكل ما كنا نقدر على رؤيته كان فستانها الساتين الاحمر وحذاؤها ذو اللون الاسود والابيض المزين بالازرار على الطراز الحديث وكان يلوح من تحت اهداب اطراف فستانها . عند هذا حاول عشرة اشخاص صعود سيارتنا الصغيرة . وحدثت مشاجرة خفيفة عندما رفضت صليحة وشيرو ان يعطيا مكانهما لجماعة من طرف العريس . وصعدت العروس فقط معنا . رفعت صليحة الغطاء عن وجهها لتريني اياه ولكن كل ما لمحتته قبل ان تصعق العروس وتعيد الوشاح الى مكانه ، كان عينين سوداوين . سرنا في الانحاء لفترة قصيرة حسب تعليمات شيرو ، لتؤكد اعتقاد اننا كنا نرف العروس من مكان بعيد ومن ثم مدنا الى منزل العريس ، حيث كان ينتظر هو ورفاقه فسوق السطح ليرومي جرة ممتلئة بالسكاكر على رأس العروس قبل ان تعبر

عتبة الباب . ارتطم السكر برأسها بضربات كتومة موءكدا انها ستكون زوجة حلوة ومن الموءكد انه سبب لها صدام رهيب ومن شم ستقضي العروس بقية الامسية جالسة في الحجرة الصغيرة العديمة النوافذ مع هداياها ، بينما ستستمر الحفلة بدونها .

على الرغم من ان العروس زفت وان الشمس ستأفل حالا ، لم اعد اشعر بالياس لمغادرة زبلا . ولكن هناك سبب آخر للمغادرة ليس له علاقة مع مخاوفي السابقة ، فطالما اننا باقون ، فان ذلك لن يعد عرسا ، بل عرضا لاثنتين من الاجانب يحضران عرسا .

بينما كانت صلحية وشيرو يزوداننا بتعليقات متواصلة عن العادات والتقاليد الكردية ، لم يستطع بقية القرويين رفع انظارهم عنا . فاحوات العريس ما كن قد ارتدين ملاسهن وحليهن المبهرجه وبذلك اسبح لكل امرئ ان يحدق في الزوجين الغريبين . لقد حان الوقت كي نعيد العرس الى خيال . عندما التفتنا نحو مضيفينا لنودعهم توقف العرس تماما ولم يبدأ ثانية الى ان سرنا بعيدا . وعندما ابتعدنا وبلغنا السهل غطت فنان في نوم عميق وبدأ كل شخص شاردا وسارحا في عالم خاص به ، غادرنا في بازود فنان ، صلحية ودارا وسرنا انا وجيرد عاثدين الى ريزاي وحننا .

حالما اتجهنا شرقا صوب البحيرة حولت الشمس الالة حقول القمح حولنا الى ذهب متوهج . وعلى مسافة قريبة ظهر لسون البحيرة الفيروزي وظلال عديدة اكثر كثافة من زرقة السماء الفاتحة . قبعت القرية خلفنا في الظل . وحالما وصلنا المدينة عند الفسق كانت المحلات التجارية قد أضاءت انوارها للتسو . انطلقنا بسرعة مارين بالسسينما وبشوافذ البوتيكات السلورية الكبيرة ذات الاطارات المطلية بلون الكروم ، نظرت الى كل ذلك بعينين قروية . كم بدت حديثة وملونة بعد لون زبلا السني الشامل . هل حقا اننا لازلنا في نفس السنة وفي نفس اليوم ؟ بماذا يشعر سكان زبلا عندما يغادرون قريتهم ويأتون الى مدن

مثل شاهبور وريزاي؟ هل يكرهون الاثراك لسيطرتهم على هذه الواحات؟ هل يقبلون الاختلاف على انه مقدّر من عند الله؟

قضيت الكثير من الوقت وانا افكر بزيلا وبالسلك الذي انتهجه الناس هناك: لم استطع ان اجزم اذا كان هناك شيء حقيقي لخشاه. من المحتمل ان يشعر بعض الطهرانيين والريزانيين المتمدنين بالراحة في زيلا. لم تكن المسألة اننا لسنا ايرانيين، بل اننا كنا من المدينة واننا ننتمي الى الطبقة الوسطى. كان صدى كلمات العمال في شارع السنيين لا يزال يطن في ذاكرتي. نحن عمال، نحن عمال.

كانت زيلا هي تجربتي في صميم واعماق كردستان. وعلى الرغم من ان اراضي دستان وخوشخان ومانوا اكثر غنى من زيلا فان معظم اهالي هذه القرى لا يعيشون مثل الخانات الذين زناهم هناك. لم يكن لديهم جرارات او سيارات لاندروفر او مولدات كهربائية مثلما كان لدى الحاج اسماعيل. انهم لا يمتلكون الارض التي يعملون فيها او يسيطرون على مصدر المياه الذي يحتاجونه لانماء الحبوب، حتى ان معظم الاكراد القرويين هم اشد فقرا من شيرو وموسى، كانوا سيستمثون بتفكيك سياراتنا في دستان وخوشخان ومانوا، وفي زيلا ولكن مضيفينا منعوهم عن ذلك بطريقة مؤثرة.

كانت زيلا تمثل كردستان وهي مجردة من الاوهام والصور الخادعة. لم ار هناك سوى ارض طينية قاحلة تشير الرهبة في النفس، ومساكن طينية موشكة على السقوط، وضربا من اليأس يدفع الى أخذ الأحصنة الى تركيا لبيع اي شيء في ساحات اسواق ايران التي تعاني من التضخم. لدى عودتي الى ريزاي المريحة وبعد ان اصغيت الى القصص التي جمعتها ادركت ان اناس زيلا كانوا اغنياء بطريقة واحدة ولو انهم كانوا فقراء ووسخين باقس ما يمكن ان تحمله المعاني. كانت ارضهم فقيرة لقيمة لها ولكن تهريب المخدرات يمكن ان يفضي بهم الى السجن. وحتى ان تبادل الاحاديث

• الثورة من كيفية عدم تقديم الحكومة المساعدة لهم كانت أكثر خطورة .

كل ما ترك لهم كانت الحكايا . في المساء وتحت ضوء الكيروسين او في ايام الشتاء الطويلة المعتمدة ، نسج القرويون هذه الحكايا كانوا يتبادلونها ويوشونها كأنفس الانسجة . لقد استغرقت اسابيع من العمل مع دارا قبل ان افهم كل الحركات المعقدة والحوار . ولكنني عندما فهمتها تمنيت لو انه باستطاعتني ان اذهب الى ريلا ثانية لافتش عن المزيد .

اردت ان افهم على نحو افضل من اين اتت هذه التناقضات والاميرات الشجاعات والساحرات . تشير القصص التي جمعتها الدهول بالكلام غير المعتشم وبالمبالغة والخيال الذهبي الذي تتضمنه . لقد اجبرتني على أن ارى هوؤلاء الرجال نصف الجائعين تحت ضوء روءية جديدة على انهم كانوا بشرية تنتصر على بيضة عدائية ، وانهم استطاعوا الاحتمال ليس بمعونة السجاد او تجهيزات المزرعة بل بمعونة اخيلتهم الخصبة .

الفصل السابع عشر

من الواضح ان السافاك قد قضى فترة في التفكير مليا في صورة خامفة كان صديق في الولايات المتحدة قد ارسلها لنساء . وعندما تلقينا الطرد البريدي بعد اسابيع عديدة من وصوله الى ريزاي ، تلخصناه لدقيقة او اثنتين مقلبين اياه لتلقي نظرة عليه من جميع الزوايا ، محاولين بذلك ان نكشف فيه الشيء الذي اثار اهتمام البوليس السري . ومن ثم حدد جبرود بدقة البحر الازرق الغامق المشكل على هيئة حصان في الزاوية اليمنى عاليا ، بعدد اعطى البقع البيضاء الظاهرة في التغضنات السوداء البادية مثل اوردة ، شكلا جليا لدى تمييزنا التلال المغطاة بالشجوج الواقعة عند سفوح الجبال وقمم زاغروس في الشتاء . لقد كانت صورة لكردستان مأخوذة من قمر اصطناعي . والبحر الازرق الغامق الشبيه بالحصان كان بحيرة ريزاي الداخلية العريضة التي تعموم على نحو خامض في الزاوية الشمالية الغربية المغمورة في مساحة واسعة من الارض المعروفة بـ ايران .

يحق انه كان في ايران اكثر من بحر ملحي داخلي واحد ، لكن هذه البحار قد تحولت الآن الى صحارى ، وعلى الرغم من أن بحيرة ريزاي لازالت واسعة ، فانها تجف ببطء . وعلى الرغم من احتوائها على نسبة عالية من الاملاح المهلكة ، فان البحيرة تعتبر بحرا سخيا في منطقة ينقصها الماء مثل ايران ، يسمى الاكراد المنطقة الواقعة بين المدينة والبحيرة بـ "محمستان" ، أي ارض المعجم وكانوا عبر القرون قد قاموا باكثر من محاولة للسيطرة عليها . يلق قسم من اخصب الاراضي في اذربيجان الغربية قسرب البحيرة ، ولكن في الوقت الراهن - ومثلما كان من قبل - لازالت الارض في ايد هير كردية من اترك وكذلك بعض الارمن والاشوريين ويقتصر الاكراد الساكنون في الجبال على القيام برحلات سنوية

ما استطاعوا الى ذلك سبيلا للانتجاع في مياه البحيرة الصحية
ووصلها الكبريتي الدوائي .

ان الاكراد ليسوا الناس الوحيدين الذين يترددون على
بحيرة ريزاي في الصيف ، والمسماة الآن " بحيرة اورميا " . لا يمكن
ان تجد الاتراك والاكرد ، الرجال والنساء ، المسيحيين والمسلمين
من الذين يستعمون في البحيرة في يوم حار في شهر تير الايراني
بهذا القرب الشديد في اي مكان الا في البازار ، ولكن في البازار
يكون كل شخص مغطى او بالاحرى متسترا جيدا . ليس هناك مكان في
جميع انحاء اذربيجان الغربية شبيه بهذه البحيرة ، فهنا ،
وللمانة ، تصل ايران الى اقصى حالات عريها .

كنت انا وجيرد نشكو مثل بقية السكان غير الموسميين من
الازدهام في حركة المرور في فصل الصيف ومن تضخم الاسعار التي
يسببها السياح ولكن الحقيقة الأسوأ من ذلك هي ان البحيرة لم
تعد تظو من الناس . بذلك لم يعد باستطاعتنا الخروج الى
الشاطئ دون ان نرى احدا مثلما كنا نتجول على الهضاب نلتقط
الخشخاش او خارجا فوق الرصيف الممتد في البحر لنراقب وصول
المركب القديم المسمى " نوح " من رحلته الى تبريز . كان حشد
الحافلات وسيارات الاجرة والسيارات الخاصة يشغل هذا الطريق ما
يقارب العشرة كيلومترات . وقد تبعشرت على الطريق العام المعبد
الذي يحاذي معامل اللبن والخمر وسجن ريزاي حيث تجد جث كلاب
واغنام بائسة مبعثرة هناك . ومع ذلك فقد كنا لانزال انا وجيرد
ننجح في الاجتياز بسلام في الذهاب الى مكان ابعد . فقد كننا
نسير بجانب شاطئ المدينة الرملي العام ، وشاطئ بوي سكوت
ونادي الضباط المقتصر عليهم فقط ، الى ان نخرج الى جانب صخور
حيث كان ينعدم في تلك المنطقة الرمل والسباحون . كانت خديجة
تعاتب شاكية من ان الخوض نحو الداخل الى منطقة الصخور ليس
سليما وذلك لعدة مرات عندما كنت اذهب معها . بما ان الاكراد
لم يكونوا سباحين ماهرين فقد كان سطح الشاطئ المنظور مهمّا

لهم اكثر مما كان بالنسبة لي . ولكن السبب الحقيقي لاعتراضات ومخاوف حديجة ونسرین انما كان يكمن في شيء آخر ، ولم اكن اعلم ابن ، الى ان قصبت اخرا يوما لابس في مدينة رزاي .

بدأت الرحلة من منزل في المدينة كانت عائشة وعبدالله يخزان بعضا من اشياء منزلهما فيه . وكان الوقت آنذا وواخسر حزيران وقد سلخ ذرويه الموسمية في البحيرة وكان الاكراد الذين تسمح لهم قدراتهم وطروفهم ينزلون من الحبال للانفسال ولبس بحيا عن المتعة . وعائشة وعبدالله كانا بروران المدينة اكثر من اي كردي آخر ، وكان الترفيل يلوغ عليهما في اسفارهما . فعندما وصلنا الى مكان لقائنا معهما وجدنا ما لا يقل عن نصف دريئة من الخدم يساعدون في تحميل سيارة اللاندروفر الكبيرة . كان هنالك العديد من القدور المعدنية الضخمة الملفوفة في مناشف واسر يسق شاي صيني وكؤوس شاي صغيرة مع اطباقها وكذلك سلال محشو فيهما اقدية غير معروفة وادوات واواني اخرى . كان هنالك بالاضافة الى الخدم ستة اشخاص ، عائشة ، عبدالله ، خديجة ، حيرد وانسا ونسرین التي كان الحاج اسماعيل قد سمح لها بمغادرة دستان لهذه المناسبة الخاصة .

لدى وصولنا الى الحيرة حصل موقف بينهم عن السهيد ، حيث سئلنا اننا وحيد من المكان الذي نرف ان نسح فيه ، وبما انه كان لدى احساس داخلي بما يمكن ان يكون عليه الشاطئ العام ، فقد اقترحت الساحة المعرولة التي كنا نذهب اليها عادة ، راق اخباري للشيوخ عبدالله ولكي نصابير من الطزع صدرت من صديقاتي فلنالب نسرین :

- ان المكان الذي نريد مارغريت الذهب اليه مكان رهيب .

ولد والفلسها على ذلك حديجة . لذلك سرنا عبر ممرات شاطئ رزاي العام الضيقة حيث احترق منا بعض الانراك ذوي الملابس الرثة ، سيما كانوا ينتظرون السبارة لنتوقف . تفاوض الشيخ

عبد الله معهم على استعجار ثلاثة اكواخ اذا صح التعبير. لقد كانت أسوأ نوع من المنتجات ، فقد كانت مبنية من السواح خشبية مع الخيش وارضيات من الورق المقوى القذر . وبعد ان توزعنا على اكواخنا على هذا النحو : الخدم في احد الاكواخ وانا والنساء الاخريات في كوخ آخر وجيرد والشيخ في الثالث ، قررنا ان نمضي نحو الماء مباشرة . ذهبت النساء في اتجاه والشيخ وجيرد في اتجاه آخر . ومكت معظم الخدم في اماكنهم لاعداد الطعام . عندما وصلنا بقعة اعتبرتها عائشة مناسبة ، بدأت النساء جميعا ، بخلع ملابسهن وصولا الى القمصان الداخية القطنية او النايلونية الرقيقة . كانت جميعها تحت " الفستان والكراس " واما اني كنت قد ارتديت لباس السباحة تحت فستان طويل فقد انتهيت من خلع ملابسي قبلهن . وبينما وقفت انتظر ، رأيت عددا من الذكور الكاملي اللباس يجوبون الشاطئ على مهل ذهابا وايابا ، على الرغم من اننا كنا لانزال في مطلع الصباح ولم تكن المكاتب في المدينة قد توقفت عن العمل بعد في هذا النهار . ماذا كان يفعل جميع هؤلاء الرجال ؟

اخيرا تقدمت النساء صوب الماء بخطى وقورة ، يغطسهن انفسهن تدريجيا . وفي رأيي ان اللباس المبطل ، كان فاضحا اكثر من بذلة السباحة التي ارتديتها ، ومهما يكن فان ذلك لم يبد متناقضا لاحد غيري . ولا أظن ان احدي هؤلاء النساء الكرديات قد فكرت بارتداء لباس السباحة والذي يقال له " مايكسوت " بالفارسية لأن ذلك سيكشف عن سيقانها العارية والأسوأ من ذلك كان سيشير الى انها تمارس السباحة كرياضة ولن تعتبر مجرد زيارة سنوية للبحيرة ، لاغراض علاجية بحتة .

بينما كنا نعويم جميعا ونبلل انفسنا في الهاء الصالح ، سبح بالقرب منا شابان ذوا شعر اسود ويتحدثان التركية ، كانا يرتديان بنطلونين اسودين قصيرين للريافة ، نظرت اليهما وقد ملأني الرعب ، وتساءلت عما يمكن ان تقوله النساء ، توقعت ان

يهمل الرجال ببرود على اقل تقدير ، ولكن وما اشار دهشتي ،
ان نسرين بدأت تفك معهما وعلى ما يبدو مشعة الرجلين للبقاء
قربنا . وتعرفت خديعة على نحو ادت فيه المودة ، وحتى عائشة
المتكلمة بالجد والاحتشام والتي اضطرب لأن تناول طعامها في
نفس الحجرة التي كان فيها زوجي لم تند مفاجئة من انصراف
الرجلين التركيين ، وهما في وضعهما المشترك من العري ، من
الصعب علي تعديق ان هؤلاء النسوة اللواتي كن يفضن عيادة
مستترات في شوارع ريزاي كن الآن في البسة فاضحة وبينما كان
الرجلان التركيان العربيان يسبحان بالقرب منهن .

التفت وبدأت بالسباحة مستعدة عنهما وبقيت النساء في
اماكنهن يناديني كي اعود ، فقد كان الماء خطرا وبالتأكيد
سافرق . كانت صديقاتي يفرعن من العرق ، على الرغم من ان نسوة
ملوغة مياه البحر بحسبانية - جيد . لاء م الانداز ، مثلاً .
فليئة . كان سهلا عليهن ان يمشين بحواس الوهاد الشديدة
الانحدار ، والتي كانت تجعلني ارتعد من الخوف ، ولكن الماء لم
يكن المحيط الملائم لهن ، بدأ الرجلان بالسباحة متقدمين صوبي
وكنتم متأكدات تماما من ان دافعتهما الى ذلك لم يكن الخوف على
سلامتي . لقد كان امرا طبيعيا ان يمشيا مع جماعة من النساء
الكرديات ولكن الساعة الحقيقية كان وجود امرأة غريبة في لباس
الساعة المشير للعربة الجنسية .

سحنت من حرد عسر الماء وسحب مسرعة سانحاه ، وبذلك
ظلت الرجلين وراي تدرجسا . وعندما ولب قرب حرد جهرت
بشكواي . لم يكن هذا الشاطئ مليئا بالرجال الذين كان غرضهم
الوحيد يكمن في الماء نظره على حرد اسوى فحب وهو غابله
مفهومة ، ربما بعد السام من الحبات السائد في الشارع ، بل
ان الماء نفسه كان قدرا . فقد كان من الضروري السباحة بعيدا
حدا لنحب السباحات التي تلتقى قرب الشاطئ بعاما . ولم نكن
الغابات تلتقى على المحور التي اهدنا الذهب اليها ابدا .

عندما خرجت من الماء انطلقت بسرعة نحو الشاطئ الى حيث تركت ملابسى . كنت اعرف ان الركض قد جعلني اكثر وضوحا ولكن كل همي كان هو ان اختصر الوقت الذي يظهر فيه جسدي في لباس السباحة فقط . لقد اشارت نظرات الرجال المسلطة على جسدي، مصبتي لدرجة اني لم الالحظ اجساد النساء المكشوفة على طول الشاطئ . وفي وقت لاحق فقط ،وبعدما اخذت قسطا من الراحة وقبلت التحديق على انه شيء محتم وواتتني الفرمة لأن أشاهد على نحو جلي الصدور العارية ،البارزة من خلال العباءات او الالبسة الداخلية المبللة التي كانت تظهر بوضوح سطوح وتعرجات هذه الاجساد الانثوية الطبيعية المخبأة ، عادت النسوة الكورديات الى الاكواخ وهن يضعكن بابتهاج . ولدى اقترابهن منها اسرعن بالدخول اليها مبتعدات عن نظرات جيرد . ولكن اقتراب الرجلين منا على الشاطئ ، وعبث نسرين معهما خلق لدى شعورا مثيرا للسخرية ازاء هذا التمايز الفاضح والعفيف بالنسبة لهن . لقد كان من الصعب علي كامرأة اجنبية استيعاب كيف يمكن لبنات الحاج اسماعيل وكنته ان يبررن مجيئهن الى هذا الشاطئ بعد الاهتياج الذي كن يظهرنه عندما كن ينكسفن امام رجال غرباء في اي مكان آخر .

بعد تناول وجبة غذاء ثقيلة وكبيرة وقد تلاها فناجين شاي يتصاعد منها البخار ،شعرنا بالنعاس وبعدئذ حان الوقت لتحدي الشاطئ ثانية . في ذلك الحين وعند العصر تماما كانت الحركة على الشاطئ في ذروتها . فقد كانت حشود الرجال تتحرك بشكل فوضوي ذهابا وايابا ليسترقوا النظرات على نحو يعوزه الذوق بينما ، كانت النساء العجائز والشابات على نحو مماثل ينتسكن عند طرف الشاطئ في الماء الضحل ،بعضهن مع اقربائهن ممن الرجال وبعضهن كن وحدهن . كان من النادر ان تجدسباهيمن يغطسون على رؤوسهم والبعض القليل الذي كان يقوم بذلك كانوا ذكورا ،ولتعاسة حظي ،ولدى انضمامي الى جيرد معتقدة انني سأبتعد عن الحشد الزاحف على الشاطئ ، بدأت زمرة من الرجال

بالسباحة قربنا ، محاولين ان يلقوا نظرة عليّ عن قســــرب
ويخاطبونا بانكليزية بسيطة ومكسرة .

حالما خرجنا من الماء ثانية وقد كستنا قشرة من الملح
اشتكت خديجة من ان دورتها الشهرية قد بدأت ، هذا هو ما كنت
افتش عنه ، فاقترحت ان نسير بها الى المنزل حالا . كنت ابحث
عن اي مبرر لكي نغادر . قبلت خديجة عرضي ممتنة ، ولكن اصوات
غامضة تعبر عن عدم الموافقة صدرت عن نسرين . وقد تركت لسدي
الانجباء بأنهم تعتقد ان على خديجة الا تسافر وحدها مع امرأة
اجنبية وزوجها الخطر ، او انها ربما ارادت فقط مبررا لتذهب
معنا ، على اية حال صرحت انها هي ايضا ستغادر ، نظر اليينا
الشيخ عبدالله ، وقد بدا عليه الاحباط ، لماذا سنده بهــــذه
السرعة ؟ كان من المستحيل ان نوضح السبب الحقيقي .

ها نحن الآن ، فرييون رغبوا في السباحة ، وكثيرا ما عبسوا
من مدى السرور الذي تشيره البحيرة في نفوسهم ، هانحن بالقرب
من البحيرة او بالاحرى عند شاطئ المدينة نواجه مشهد اجتماعي
ايراني وهو في قمة فظاظته ، كان المشهد يبدو كما لو ان اعمدا
قد قلب شوارع ريزاي رأسها على عقبها ، وجعل باطنها ظاهرها .
كانت النساء في شوارع المدينة متسترات ، بينما كان الرجال
يرتدون مايرغبون فيه . اما هنا فالرجال كانوا كاملا لباسهم
بينما كانت النساء نصف عاريات . ولدى مودتنا الى القرية كان
مهما لنسرين ألا يقول احد عنها انها قد ركبت السيارة وحدها
معي ومع جيرد ، ولكن لا احد سبظهر قلقا عن كيفية ظهورها امام
سباحين تركيين .

– دعينا نتشمى لبضع دقائق .

اقترحت نسرين وخديجة ذلك تماما ، قبل ان نهم بالمفسادة
وبما ان جيرد والشيخ عبدالله بدوا مستغرقين في محادثة ، لم
يكن لدي مبرر للرفض ، تجولت معهما على مفض يدا سيد ، اشاهد
الناس وهم بدورهم يرونني ، لقد كان هنا لقاء الاكراد والعجم

الحقيقي الذي شهدته خلال اقامتي في ريزاي . كان فيه شيء من الموضوعية ، مثل الاختلاط في الكلية ، مشهد اجتماعي نشأ من باطن اليأس ، مشهد عذراوات وزوجات كرديات ما زلن تحت الوصاية وقد تركن للخروج من فراهن لبعضه ايام ، ورجال يعيشون في مجتمع لا يقدر العديد منهم على تحمل اعباء الزواج الى ان يبلغوا الثلاثين او الاربعين من العمر .

كان كل شيء ممتعا جدا ومنورا للعقل عدا شيء واحد ، وهو انني لم اقل على البقاء مجرد متأملة متحفظة . وكما هو الحال دائما ، فان سلوكي الحقيقي وملابسي لعلاقة لهم بالموضوع . ففستاني الطويل وبذلة السباحة الشبيهة ببذلة عمل لم تكن تشير الى شيء الا الى امرأة اجنبية غريبة . فاذا كانت النساء الكرديات قد مضين الى ذلك الهدوء على الشاطئ فالى أي مدى يمكن لامرأة امريكية ان تمضي بالنسبة لي ، فقد أثرت مياه " درمان آغا " غير غير الملوثة بالنفايات ولظوها من الاثراك البلهاء غير اللبقيين . اما بالنسبة لخدجة ونسرين فدرمان آغا تفتقر الى ما هو مدهش ومثير ، وتفكيرهما هذا ينطوي على الهزل اذا قارناه . مسح حياتهما اليومية الرتيبة . اما ريزاي فهي حلم قد انبعشت فيه الحياة ، كنت قد شعرت بالتناقضات الجنسية في المجتمع الايراني حتى منذ مطلع اقامتي في ريزاي . فلأن الجنس محرم بشدة لذا تراه قابعا في فكر كل امرئ على نحو مستمر . ويغض النظر ممن كنت اتحدث معه فقد كنت اشعر به مستفحلا .

كان هوشنغ وشهرزاد يعلمانني ذات يوم لعب الورق ودعائني هوشنغ لاكون شريكته ، ومن ثم بدأ بالضحك المكثوم و اضاف فقط في اللعبة " ،ويمكنني القول ان طلابي الجامعيين كانوا يقهقهون على نحو هستيري لدى ذكر اي شيء يمت بصلة ولو بعيدة الى الجنس او منذ ذكر المواضيع الجنسية او معالجتها في الادب . ولكن من جهة ثانية هناك جانب رومانسي في هذا الهاجس . فالايرانيون يحبون الشعر والاغاني اكثر من اي شعب آخر قبيض لي اللقاء به .

فحتى رئيس الشرطة في رساي كان قد علق قصيدة للشاعر الفارسي الكبير سعدي ، على حائط مكتبه . ان قصائد الحب والمآسي تخفق متنفسا للاحباط الجنسي بطريقة ما وينحلق هذا على نحو مماثل في الحي الأحمر ، وهذا ذلك فهناك النساء الاجبيات لأحلاتهن المعروفة جدا منذ عقود من الهولبود والافلام الاوربية النسي تعرض في ابران .

يقول الاكتراد مفتخرين انه لبس لديهم كلمة اعلمة مرادفة للكلمة " داعة " فهذه العبارة المألوفة مقبولة من العربية ، ان القرى لبست كبيرة بحجم كاف ليسمح فيها ببيوت للدمارة ، ولكننا لو اخذنا كردستان الاكثر طهارة من الناحية الاجتماعية من ابران المتعدنة ، على حدة ، فقد شعرت بان الجنس كان أقل استحوادا على تفكير الرجال الذين التفتت بهم . ربما كان ذلك نتيجة الزيحات المبكرة او سبب قبول تعدد الرواح ، على الرغم من أن الحاج اسماعيل كان يتوق للحديث معي ، فلم اشعر ابسدا بان ذلك الاهتمام الداعر الذي ينم من سلوك الرجال الابرايين بهدر منه ، ولكن ما هو شعور رواح الحاج نحوه ؟ هل كى مصطحات وممتعضات منه ؟ لطالما راودني ذلك السؤال .

حوت المحادثة السالبة في احد الابهام بيني وبين طه وقد بدأت سلسلة اسئلتي بهذا السؤال :

— هل صبح ان اتحاد اكثر من زوجتين في ابران هو عمل ضد القانون وان الروحة الاولى يجب ان تدلي بموافقتها على الثانية ؟

أوما طه برأيه مؤكدا ذلك ، وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه ، كنا كلانا نعرف اني قد طرحت سوء الابلاغيا ، بما انني وطه كنا مدركين تماما لقانون حماية الاسرة الذي كان الشاه قد سنه ، وكان ذلك جزءا من المراسيم التي شُرعت لمنح النساء حقوقهن التي لا يتمتعن بها تحت ظل الشريعة الاسلامية . فقد سمح القرآن للرجل سانحاذ اربع رواح وطلاق يمكن ان يحدث في أي لحظة . كانت السبل نندم امام المرأة في الماضي لاعرار الطلاق

إذا لم يرغب زوجها بتركها . وكان الشاه قد غير كل ذلك نظرياً .
سألت طه على نحو جدي :

— ماذا ستفعلون إذا أتى الدرك الى دستان وسألوا والدك
عن كل زوجاته ؟ .

فكشف عن ابتسامة واجاب :

— سندعوهم الى الديوانخانة ونقدم لهم الشاي .

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك سيمضون في طريقهم .

لم تشكل كلمات طه مفاجأة مثيرة للدهشة ، بعد فضاء اشهر
عديدة في ايران ، لم يكن لقانون حماية الاسرة وحقوق النساء
الاولوية ، بل بالاحرى كان قد ورد في آخر قائمة القوانين التي
ارادت الحكومة فرضها على ايران . ومع ذلك فقد كنت قد سمعت
من العديد من الايرانيين عما يدعى بتحرير المرأة ، ذلك الحدث
الذي كانت الحكومة تحتفل به كل سنة في "يوم تحرير المرأة"
والذي لم استطع مقاومة السوءال عنه . كان طه يبدو بالنسبة
لخديجة التي اصبحت زوجة منذ اقل من سنة ، راغباً في اتخاذ
فتاة اعجمية كزوجة اخرى له .

يبدو ان الرجال الاكراد ينظرون الى قوانين الزواج نفس
نظرتهم الى الحدود الدولية ، على انها امور يمكن مخالفتها .
لقد اقرت تشريعات في كل من تركيا وايران لتحديد تعددية الزواج
والمكان الوحيد الذي يتم فيه خرق هذه القوانين في كلا البلدين
على الاغلب هو القرى الكردية .

قدمت الى دستان في مطلع الصيف مرة ومعني مسحتي ، وقد
عزمت على ان يكون موضوع المقابلات التي سأجرها هو الزواج
ومرهب سوس خانم ، روجة الحاج الاول . انا ، كما هو الحالند
عشره من عمرنا عندما وعد والدها ، اننا ارمي . . .
على نحو محلف عن سرواه ماوا المدة ، لم يسجل . . .
تلقى في النار . وقد هرب مع الحاج اسماعيل الذي كان قد

رأته مرة في عرس محلي لتتجنب ذلك المصير الرهيب . بعد هروبها لم يتكلم معها والدها لفترة طويلة ، لأن قبيلتيهما كانتا عدوتين . حاولت ان اتحل سوس المريضة ذات الوزن المفرط وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ، ولكن خيالي لم يسعفني . تساءلت فيما اذا كان الحاج مع زوجاته اللاحقات قد فكر مرة بسوس وهي تابعة دون حركة ساعة بعد ساعة في حجرتها . هل يشعر بأي عاطفة تجاهها او يسترجع بعضا من ذكريات الماضي ؟ ام انه كان مستغرقا كلياً في زوجاته الجديديات الاكثر شباباً ؟

بما ان مريم زوجة الحاج الثانية كانت غائبة عن الحجرة لذا لم استطع ان أسأل عن زواجها ، وعبرت زينب ، الزوجة الاخرى المتحفظة عادة ، عن رأيها بغير تردد او خوف . فقالت وهي تهز رأسها وتعضك :

— لم ارغب في الزواج من الحاج . لقد كنت تعيسة جداً . ولم تغل اكثر من ذلك .*

كالعادة لم نكن كلنا الزوجتين الحديثتين موجودتين في الحجرة . ساءل ابي كانا تفضيان ومنهما . من الواضح ان الزوجات الثلاث الاوليات المنحدرات جميعاً من اسر اسـمـرانية كن يعبرن الروحاني الاخرى اقل مصلية منهن . لذلك ماكن بعض علاقات اجتماعية معهن ، وقبل ان اعاد ابراهيم ماكن وفي وقت لاحق عندما عدت ، لمعت سرفه ، الزوجة الخامسة مرتبـس وكانت حاملاً في اسهرها الاخير ومهملة قليلاً في كلا المرتبـس وقد رمفتني بنظرات ساخرة ، واكد لي النساء الاخريات بأنه ليس لدينا الشيء الكثير لنفعله معاً .

طلبت من الحاج في اليوم الذي احضرت فيه مسجلتي ان يروي قصة هروبه مع سوس خانم ، فنظر اليّ وقد ملأه الرعب ورفض بصراحة ان يتحدث عنها فاثلاً ان ذلك شيء معيب ومن ثم وعدني بأن بدلي بعدد مداول ومدوع عن مدى تدين عائلته .

حتى لو ان زينب وسوسن لم ترغبا في التحدث عن الماضي
 باسهاب او من مشاعرهما تجاه الحاج اسماعيل ، فقد حدث شيء في
 دستان في ذلك اليوم جعلني أؤكد الى اي مدى كانت نساء القرية
 خارج حماية القانون المشرع في طهران على بعد ستمائة ميل
 فبينما كنا جالسات في حجرة الحريم بعد تناول الغذاء والميكرفون
 ينتقل على مهل من يد ليد ليضيف كل شئى طرفة او حكاية ، اذ
 بالمرأة ذات الملامح العادة بوشمها الأزرق المنقط على حكةا
 تبدأ بالحديث . كانت تلك ، فاطمة نفس المرأة التي اشارت
 اليها خديجة قبل عدة اشهر على انها والدة احدى روحي الحاج
 الاخيرتين ، تلك المرأة التي لا يحبها احد . كانت فاطمة تتحدث
 بصوت جاف وحاد عن مسألة عدم امنلاكها لسقف يأويها وعن سفرها
 ساحة عن مكان لها وعن عمرها المشارف على نهايته . لم أقو
 على متابعة ما كانت تقوله لسبب ما ، ولكن خيل اليّ انه لا منزل
 لها . واخيرا وعندما توقفت عن الحديث لراحة عن روايتها
 المشيرة للشفقة . سألت عما كانت تتحدث عنه . فخبم الصمت
 على الحجرة ، واخيرا اجابتنى بسريين :
 - لقد اتخذ زوجها ، زوجة جديدة .

راقبت النساء ملامحي ، بينما كنت اسنجم في تفكيري
 احزان فاطمة بصمت ، من الواضح انها لم توافق زوجها على
 اتخاذ زوجة اخرى ، وان زوجها لم يكن غنيا او عادلا بما فيه
 الكفاية ليؤمن منزلين منفصلين للزوجتين . عند ذلك شعرت فاطمة
 باقصائها عن منزلها ، نظرت اليها متعاطفة ، ولكن الحرة بدت
 وكأنها تمور باستهجان مريم . لقد شعرت وكأن مضيعتنا كانت
 ترغب في ان تخرس هذه المرأة او ان تمنعها من عرض مشاكلها في
 مسجلتي على الملا . ولكنني كنت ضيفة ، لذلك لم تقل مريم شيئا .
 هل كان ذلك لمحرد ان فاطمة هي والدة احدى زوجات الحاج المستخف
 بهن . ام انه شمة سبب آخر لعدم وجود شعبية لها .

لم تكن قد مرت فترة طويلة على سرد فاطمة لحكايتها عندما

زرعنا بتوديع مضيفينا في ذلك اليوم ، حيث اتت فاطمة وسألت
هامسة اذا كان بإمكانها الذهاب معنا في سيارتنا الى المدينة
فأجبتها :

- طبعاً .

بدا من الطريقة التي كانت فاطمة ترشق فيها مريم بنظراتها
والتي لم تكن قريبة على نحو كاف لتسمع ما يدور من حديث ، بدا
انها كانت تحاول ان تبقي طلبها سرا . وبينما ذهبت الى منزل
مريم لاحضار شيء ما . حضرت خديجة وطه الى القرب من نافذة
السيارة وتحدثت معي خديجة قائلة :

- مارغريت ، لن تأخذى تلك المرأة معك ، اليس كذلك ؟

- بلى ، ولم لا ؟

- بسبب وجود صدامات بينها وبين زوجها ، لا يريدوا ان تذهب
الى ريزاي . يجب الا تفعل ما تقول .

اوضحت خديجة ذلك وقد لاح عليها القلق .

- لن يسبب ذلك مشكلة لنا . فهناك متسع كاف في السيارة .

قلت ذلك رافضة ان اتوصل الى النتيجة التي تودها خديجة
وتابعت قائلة :

- اذا كانت على نزاع مع زوجها فهذا ليس من شأننا .

فقلت خديجة وهي تنظر بقلق الى مافوق الهضبة باتجاه مسكن
والد زوجها :

- ولكن يا مارغريت هذا من شأن الحاج ، فزوج هذه المرأة
فرد من قبيلة الحاج ، وانت صيغة الحاج ، واذا اخذت المرأة
الى المدينة فان روحها سيلوم الحاج وهذا سيتسبب في خلل
مسكف .

لمعت المرأة الموسومة من راوية نظري وهي تتدرج ببساطة
الرسا ، ولما را ، دسحة وهي تنهد الى نومعت
منراة . ماتك سارفت للنها صراخه ، على الاطلاق ، وكل ما كان
علي ان افعله هو الادعاء لطلب خديجة . ولدى عودتنا الى المنزل

راودني في الطريق شعور بالذنب وتساءلت عما كان يتوجب علي ان افعله ، هل أتسبب في ثورة غضب ؟ وهل احدثت ضغينة اورط فيها الحاج اسماعيل الذي اظهر لنا كل اللطف والمودة في قريته ؟ ولكن ماذا عن فاطمة ؟ الى اي درجة بالغة من اليأس قد وصلت لتلجأ الى طلب المساعدة من اجنبيين باخراجها من قريتها ؟ ام انها كانت تحاول عن سابق تصميم ولصوران ترك الحاج اسماعيل؟ لماذا تكن لها مريم كل هذا الحقد ؟ هل كان ذلك ،لأنه توجسم على مريم نفسها ان تعيش تجربة اتخاذ زوجة اخرى واحضارها الى منزلها ؟ لربما ان مريم لاتبد تعاطفا تجاه النساء اللواتي لايتحملن ما كانت تتحمله هي نفسها .

لقد شعرت في مريم - التي كانت اكثر المضيفات تهذيبا واكثر الامهات حنانا - قساوة ، اظهرت نفسها في تعاملها مع كنائها . كانت مريم ، مثل الحاج اسماعيل تعتبر نفسها متدينة جدا فقد كانت تصلي خمس مرات في اليوم ،وتقرأ القرآن باطراد وانا متأكدة من انها وعلى الرغم من اعتدادها بنفسها واستقلالها قد قبلت القوانين الاسلامية المتعلقة بالمرأة . ومن المحتمل جدا ان مريم كانت تنظر الى فاطمة كامرأة شاكية ضعيفة تخلق المشاكل لنفسها وللبقية في دستان .

ولكن لم تكن الزوجات وحدهن مسجونات في دستان ، فكل كانت الفتيات غير المتزوجات اقل حرية بكثير . وعندما بدأنا انا وجيرد نسلّم بأن النساء الكرديات هن اقل ضيقا في افق التفكير من نظيراتهن الفارسيات والتركيات المتمدنيات ،وقع حادث في دستان اظهر لنا مدى فهمنا الناقص . وبالطبع فسان دستان لاتمثل كل قرية والحاج اسماعيل لايمثل كل اب .

لم تكن خديجة قد نشأت مثلما نشأت عليه بنات العشاح اسماعيل وكانت قريتها بعيدة جدا وطريقة والدها في الحياة كانت لاتزال نصف مترحلة . وعلى نحو مغاير عن سلفاتها المنفصلات

كانت خديجة قد قضت الكثير من الوقت فوق ظهر الفرس ومن الواضح ان عائلتها لم تكن تهتم بحماية عفتها لدرجة متناهية وكذلك كان واضحا ان فتيات زبلا ماكن قد نشان مثل أمينة وآلال ولكن الحاج اسماعيل لم يرتكب اخطاء بقدر ما كان الموضوع يمت الى نسائه بصفة .

كان الوقت يصادف أواخر حزيران عندما سرنا صوب فناء دار الحاج اسماعيل ، حيث ظهرت اهرامات ضخمة من القش عند مدخل القرية . أوقفنا سيارتنا ونزلنا منها ، وتقدمنا نحو الامام باتجاه حجرة الحريم التي لم نرفيها ابدا ، ولم نبصر الحشد المألوف من الاطفال الرثي الملابس ، لا الخدم ولا الخادعات ، وحتى ولا كلب ، كانت سيارة الحاج اسماعيل اللاندروفر الخضراء غائبة ، ولأح الفناء الخالي غريبا تحت اشعة الشمس المعرقة . وتماثما عندما بدأ الشعور بالندم يراودنا لقرارنا التلقائي ، للقيام بهذه الرحلة القصيرة غير المعلن عنها ، ظهرت أمينة وآلال في الردهة فنادتاني قائلتين :

— أهلا مارغريت . كيف حالك ؟ أهلا وسهلا .

فأجبتهم :

— سلام آلال . سلام أمينة .

ومن ثم وبطريقة غير متفنة سألت من مكان الحاج اسماعيل فأحابتني أمينة :

— انه سعيد عن المنزل ، منشغل بالحصاد . هل تحتاجين لروءيته .

تنامي شعوري بالانزعاج اكثر من ذي قبل. بالتاكيد نحن لانحتاج رؤية الحاج اسماعيل . وفي الحقيقة لا يوجد سبب مقنع لوجودنا في دستان ، ولاداعي لمناداة الحاج اسماعيل من هذا البعد وصرفه عن عمله . سألت غير عالة بما يمكن ان اقول غير ذلك :

— كم يمكن ان يحده .

فأحابت امينة مشرة باصبعها :

- ربما يكون هناك .

لم أر علامات على وجود بشر ولم ابصر سوى السهل الذهبي
الواسع الممتد نحو الاسفل .

- لماذا لاتدخلان وتجلسان ، فالمكان هنا لطيف .

اقترحت امينة ذلك ولم تقل آلال شيئا . ووقفت تعقد فـي
بعينين واسعتين مبدوهتين .

ألقيت نظرة على جيرد الذي كان واقفا على مسافة قريبة،
لم تكن الفتاتان قد خاطبته وماكنت اعلم انهما تعلمان بوجوده
في هذا الموقف الغريب مع وجود امينة وآلال فقط في المنزل
وعدم وجود احد في الديوانخانة خطر ببالي ان جيرد لم يدخل
حجرة الحريم من قبل ايدا ، فاقترحت عليه قائلة :

- لماذا لا تنتظر في الخارج الى ان ارى ماذا يحدث ؟

أوما جيرد رأسه تحت اشعة الشمس المبهرة . كانت درجة
الحرارة مرتفعة جدا في الفناء الخالي من الظلال . تبعـت
الفتاتين الى حجرة جلوس النساء ذات البرودة الهادئة والجدران
السميكة وحسنا على الأرض .

- أبـن والد تاكما ؟

سألت الفتاتين متعجبة لعدم جلوس سوسن خانم في مكانها
المعتاد وعكازتها بجانبها . فأحابت آلال وهي تفتح فمها لأول
مرة منذ مـحيثي :

- انهما في الخارج تحت الاشجار ، تحاولان ان نـتلفـا بالبرودة

واضافت قائلة :

- لم تعرفا انكما قـادمان .

فقلت وانا اهم بالنهوض :

- اذا لربما يتوح عليا المغادرة . اظن ان هذا الوقت

لم يكن مناسبا للمجيء .

فكانت امينة التي كانت تتمتع بكياسة اجتماعية اكثر من ابنة عمها :

- لا ، لا ، لا لن تستطيعي الذهاب . لقد وصلت للتو .

ومن ثم قالت لاحدى اخواتها :

- اذهبي الى البستان واخري والدتي ان مارغريت وزوجها هنا .

عندما اشارت الى حضور جيرد ألقيت نظرة عليه عبر قضبان النافذة ورأيتة واقفا تحت الشمس الحارة يتحرك مقتربا مسن النافذة ، فناديتة :

- كيف الحال معك يا جيرد ؟

فهدق في جيرد وقال :

- حقا ان الجو حار هنا . ماذا تفعلين هناك ؟ هل تظنين

انه بإمكانني المجيء الى الداخل ؟ ام ان هذا سيشكل تهديدا لسموهما ؟

لم تفهم امينة وآلال الجالستان في النهاية الاخرى من الغرفة الانكليزية ، ولكنهما أحستا بقلقي وبدأتا بالتهامس مع بعضهما وتجرأت امينة قائلة :

- لماذا لاتدعين زوجك للدخول ؟

فقلت لجيرد من خلال القضبان :

- انهما تدعوانك للدخول .

بعد لحظة كان جيرد واقفا عند مدخل حجرة الجلوس ولدى وصوله تراجع امينة وآلال قليلا الى الزاوية وسحبتا غطاءيهما على وجهيهما وبدأتا بالهمس بفزع . عندئذ جلست بين الفتاتين وزوجي المسيء . دأبت امينة وآلال على التحدث بانفعال بين الفينة والاخرى وكانتا احبانا تحاولان ان تكونا مهذبتين وذلك بـأن تقوما بادلاء ملاحظة او باخرى الي . ولكنهما كانتا تتجاهلان جيرد من عمد . وكنت امل ان جيرد كان متضايقا في نفسه على

الرغم من اظهره الأدب . وكنت اعرف منشأ غضه فقد كنت انسا
وجيرد نعتبر ولاشهر متتالية شخصين حنسيين منبوذين في شوارع
ايران . فبينما كانوا يعتبرونني عاهرة ممكن بلوغها من قبل
اي رجل ايراني عابر ، فقد كانت النساء تترجل من الحافلات...
الريفة التي كن قد ركبها مسبقا بدلا من الركوب في نفس وسيلة
النقل مع جيرد . ولو حدث ان لمس جيرد امرأة ايرانية ، لربما
كانت نهايته السجن ، ادا لم تكن الموت المعتم . لقد كان
موقفا لا يطاق ولا يمكن للمرء ان يهونه ليطلقه مع انقضاء الزمن
ولكننا في دستان كنا نعامل دائما كآناس عادييين . فقد جلس
جيرد في حجرة مريم ، معها ومع ابنتها وكنتها ، ولم ينظر السي
قط رجل نظرة فيها تساؤل . ولكني كنت اعرف منشأ قلق امينة
والآل ايضا ، فكونهما فتاتين عذراوين ، فهما لى تعتملا أقل
اشارة توجه اليهما . ابرز الموقف مشكلة كامنة لدى الاكراد .
فمن جهة ، فان حسن استقبال الضيف امر الزامي ، ومن الجهة
الاخرى من المفترض الا تظهر الفتيات امام رجل ، غير مصحوبات
بفرد من العائلة .

لمسن الحظ ، عادت والددة آلال حالا من تحت الاشجار ورافقتنا
الى المنزل الذي كان اخوها الحاج اسماعيل قد بناه لها في
احد جوانب فناء دار الحريم . كانت غلاويژ خانم في اواخر
الاربعينات من عمرها ولسنتين ظلت متزوجة من كردي عراقي ميسال
للتعددية الزوجية . ولكنه لدى اتخاذه زوجة اخرى انفصل هو
وكلويژ عن بعضهما واتت هي لتعيش مع اخها في دستان . من
الواضح ان جيرد لم بشكل تهدبدا لسمعتها . ولم نكن مريم بخش
البقاء وحدها مع رجل احببي . ولكونها متزوجة ، فقد ظن هذا
اختلافا علاوة على كبر سنهما واستقلالها النسبي مع أولاد سنان .
كانت مريم وغلويژ تبدوان مرتاحتين مع جيرد اكثر من زينب
بكثير . ولكن خارج كردستان فعنى النساء المتزوجات ماكن
يغامن بالبقاء وحدهن مع جيرد . فعلى الرغم من كل تعلمهن

وكل الفرص العصرية الملائمة ، فان النساء الفارسيات والتركيات ماكن بتحدثن او يتصرفن بسلوك متحرر مثل نظيراتهن الكرديات . فمثلا قام جيرد مرة بزيارة قصيرة الى جيراننا ليسلم رسالة للسيد امين زادة . وهو مدرس في الكلية . وقد اجابت زوجته نازي نفس نازي التي تظلت عني ونحن في طريقنا معا الى البازار قبل عدة اشهر بوساطة الاتصال الداخلي ان زوجها ليس في المنزل ولكنه سيعود حالا ، ومن ثم دعت جيرد للدخول قائلة :

— "بفرماييد" وتعني تفضل بالدخول . فانتظر جيرد معتقدا انها ستفتح الباب وان زوجها سيأتي ويسلم الرسالة له شخصيا وعندما لم يحدث شيء دق الجرس ثانية ، وكررت المرأة دعوتها "بفرماييد" وانتظر جيرد ثانية . ولم يحدث شيء ثانية ، عندها وقف هناك وقد غامره شعور بالغباء محاولا ان يفهم بماذا كانت منهمكة . اخيرا اكتشفت انها لاتنوي ادخاله ، فقد كانت دعوتها مجرد شكليات . كانت نازي تعمل خارج منزلها وهي خريجة كلية ، متزوجة من استاذ رياضيات . ولكن كان من غير الوارد ان يخطو جيرد ويعبر الباب الخارجي في غياب زوجها ، حتى لو كان مقرر في برنامج انه سيعود في خلال خمس دقائق .

حدث موقف شبه مماثل لهذا في يوم آخر ، عندما ذهب جيرد ليتحدث مع زوج امرأة مع ولديها ، كنت قد قضيت وقتنا معها ، وهي امرأة كهلة ، ذات منزلة اجتماعية ، مع ان السيدة جام تلك ، لم تكن داخل منزلها ، بل كانت تشرف على الخدم في فناء الدار ، فلم يسمح لجيرد بالدخول الى البوابة الامامية ليبلغ رسالة . فقد قالت السيدة جام بصراحة :

— عد عندما يكون زوجي في المنزل . وبعدئذ اغلقت البوابة . لم يكن توقف العمال في شارعنا عن وضع القرميد ، كي يحدقوا في نوافذنا مجرد دماية ، عندما كان دارا يتردد على منزلنا . من الواضح انه لا توجد امرأة محترمة اخرى في المدينة تغامر بعفتها على هذا النحو .

بلغت دراستنا لسلوك النساء في الفرية وفي المدينة الحمد
الاقصى عندما لاحظنا ان الحاج اسماعيل كان يتأملنا عن كثب،
فقد كنا في احدى فترات العصر نقوم بزيارة لدستان عندما
قررت العودة الى المنزل ، فبعد ساعات من الجلوس في حجرة
الحريم وانا اصغي الى القبل والقال الذي لاجدوى فيه ،هاجمني
الشعور بالملل والاختناق ايضا من شمس الصيف الحارة . فالتبقت
الموضومة فوق بعضها البعض من الاقمشة المولفة لملايسي الكردية
لم تكن تمتص العرق على الاطلاق .

وقفت فجأة وانا اعرف اني ارتكب زلة في سلوكي الاجتماعي
واعلنت اني ذاهبة الى الديوانخانه ، حيث كان جيرد يتناول
الغداء مع الحاج ، حدثت النساء في متغيرات عندما سرت الى
خارج حجرة الحريم ،ورمقني خادم الحاج اسماعيل الطويل بنظرة
عندما وصلت الى مدخل الردهة من مسكن الرجال .

عند مدخل الباب اوضعت لجيرد سبب مجيبي ، بينما كان
الحاج اسماعيل يراقبنا . اجاب جيرد بأنه يريد البقاء لأن الحاج
اسماعيل طلب منه ان يرافقه للصيد ولكني قلت بكلمات مضطربة
اني اريد الذهاب . لم تكن لدي وسيلة لبقة لانضم لحملة صيد مع
الرجال وكنت ايضا قد امضيت وقتا كافيا مع الحريم في ذلك
اليوم .كل ما كنت اريد ان اقوم به هو ان اذهب للمنزل وانزع
ملابسي وأخذ حماما سريعا . سأل الحاج بفضول :
- ماذا تقولين ؟

فأوضح جيرد اني ارغب في المعادرة ، عند ذلك حث الحاج
جيرد على البقاء وقد بدت عليه الخبة ، واخيرا كان لرأيي
الغلبة ، فنظر الينا الحاج كما لو أنه يحسب حسابا دقيقا وقال:
- انها هي التي تفرر ، أليس كذلك ؟

لم يكن ذلك اتهاما ، بل ملاحظة وقد احدثت وقفة للتفكير
بأن الحاج اسماعيل كان يحاول فهمنا بقدر ما كنا نحن ايضا

نحاول فهمه . عند العودة الى مجلس الحريم لم ترغب النساء في ان يرينني اغانر ولكنهن افترضن انها كانت رغبة روجي . ولم احبرهن بحقيقة الأمر .

على الرغم من انه كان امرا طبيعيا ان اعمم الاشياء، نتيجة لتحاربي في دستان ، فقد كان علي ان اذكر نفسي ان الحاج لا يمثل كل الرجال وان دستان لاتمثل كل القرى الكردية . فقد بدت بعض الاماكن في كردستان اقرب الى ان تكون مثل ريزاي فـ في معاملة الرجال لي ومعاملتهم لنسائهم . كانت مانوا هي احدى القرى التي لم يجلس فيها جيرد مع فتيات او نساء كرديات ابدا وقد حاول فيها الرجال ان يقنعوا جيرد باتخاذ زوجة ثانية .

حالما اتفحت لي روية دستان اكثر ، اصحت ذكرياتي عن مانوا اكثر ضبابية . فقد تراءى لي كما لو اني كنت قد سافرت الى تيرغاوار البعيدة منذ عدة سنوات وليس منذ عدة اشهر — بمرافقة السيد خليلي وسائقه في الوقت الذي كنت فيه اكساد لا أتكلم الكردية ولم اكن اعرف بعد شيئا عن العادات الكردية ولم افهم على الاطلاق ان جميع نساء القرية كن بعيدات ينظمن عرس بروانة المسكنة ، تلك الفتاة التي ألقت بنفسها في النار فكرت لفترة قصيرة بمصير بروانة ولكنها تلاشت عن تفكيري تدريجيا . كان العرس في زيبلا لراشدبن متعقبن في الرأي على الأقل ، على الرغم من غرسته ، كان عمر العروس ثمانين سنة ولم اقدر ان استسيغ انها قد هربت دون ان تحمل اي عاطفة نحو الرجل الذي تزوجته . لم اسمع عن فتيات شابات في دستان انهن القين بأنفسهن في النار على هذا النحو ، ولكن من كان سيدكر لي مثل هذه الاحداث ؟ .

ابتدت شيرين وبروانة الود في ذلك اليوم الذي ظلى في مانوا ولكنهما لم تحتاني على العودة الى قريتهما ولم يطلب مني السيد خليلي ابدا ان اذهب معه ثانية ، ولو لم تحدث زيارتي لمانوا بالصدفة ، ماكنت سأراها ابدا .

لقد ظمت الى نتيجة في وقت ما ، ان المجموعات الكردية التي التفيت بها متميرة تماما ، بما فيهم اللاجئين العراقيون عائلة الحاح اسماعيل وحند مانوا واكراد تركيا . ولكني عرفت تدريجيا انهم جميعا يشكلون جزءا من كل اكبر ، وان العدد منهم كانوا يعرفون بعضهم البعض .

كانت الحرب قد وضعت اوزارها وحل فصل الصيف ، ولكن مدرسة اللاجئين في ريزاي استمرت في دوامها . كانت سلطات الشاه قد نقلت مدرسة الاكراد الى مسكن آخر وقد ترك ذلك لدى انطباعا انهم كانوا يحاولون ان يخلقوا المضابقات قدر المستطاع للاجئين كي لا يستمروا في ادارة مدرستهم . لقد كان موقفا محفوف بالمخاطر بالنسبة لكل الاكراد اللاجئين الذين كانوا لاجئين في ايران . وعلى نحو يندر بالسوء ، ادعت الحكومة الايرانية حينئذ انها على وفاق مع الحكومة العراقية ، وفي احسن الاحوال كان الاكراد العراقيون الذين ساعدتهم ايران ذات يوم يشكلون عائقا امامهم . وفي أسوأ الاحوال يعتبرون ذوي تأثير خطير على اكراد ايران ذاتها . كانت السلطات الايرانية تدرك جيدا ان الاكراد العراقيين الذين بقوا في ايران معرضون للمحسوم لانهم كانوا بخشون العودة الى بلدهم عندما طلب منهم العراق ذلك . كان العديد منهم يأمل في الهجرة الى امريكا واوروبا أو أي مكان آخر ، ولكن الحكومة الايرانية كانت في ذلك الحين ترفض مغادرتهم البلاد ، ولم تكن امريكا تبدي أي اهتمام في مسألة اخذهم ايضا . لقد خرج فيتنام من يدها للتو ، وعلى الرغم من ان هؤلاء الاكراد كانوا يشكلون مجموعه ضئيلة بالمقارنة مع تدفق اللاجئين الفيتناميين الى الولايات المتحدة فان مسؤولا ما في واشنطن كان قد اصدر القرار برفض الاكراد .

كانت هيئة التدريس والادارة في مدرسة اللاجئين قد تغبرت بمحملها نقربا . بدلا من وجود حريخي كليات او مدرسين متمرسين كان هالك الكثير من الشباب والعديد منهم كانوا في الجامعة عندما اندلعت الحرب الكردية ، كان هؤلاء المدرسون

ومعظمهم من الرجال - هم الأكثر كفاءة والممكن الاستفادة منهم في هذا الوقت . كان قواد اللاجئين قد قرروا ان يعلموا اطفالهم الكردية ، الى ان يمنعهم الايرانيون عن ذلك بالقوة وقد ابلى الطلبة ان يواظبوا على المجيء خلال فترة الصيف للتعويض عن الوقت الذي تبدد لدى توقف الدراسة بعد هدنة وقف اطلاق النار . بدأت بالذهاب الى الصف الثاني وشرعت بتعليم الانكليزية للطلاب ذوي المستوى الاعلى . ولكني كنت اشعر بالضيقة بيزداد رويدا رويدا في المدرسة . كانت مجموعة المدرسين الجدد يعلمون في ناغادة ، وهي مدينة تقع بالقرب من مهباد التي الجنوب من ريزاي ، حيث كان البرزاني قد اتخذها مقرا للقيادة لم يكن احد من المدرسين يعرفني من قبل سوى مدرسة الرياضة ، الاشورية وقد اوضحوا لي انهم لم يصدقوا ولو ثانية ان هويتي هي كما اوضحتها لهم .

في احد الابرار ذكر مسعود مدرس الصف الثاني ، وهو رجل قارع الطول يناهز التاسعة عشرة من عمره ، ذكر في حجرة المدرسين انه ذاهب الى مانوا في نهاية الاسبوع . فسألته بفضول :

- ماذا هنالك في مانوا ؟

رمقني نظرة فيها من الشك الكثير وقال :

- ماذا تعرفين عن مانوا ؟

- لقد فمت بزيارة لها في الخريف الفائت .

قلوب ذلك ، مع قبولي حقيقة انه سيكون من الصعب علي من الآن فصاعدا الحصول على جواب مباشر من لاجيء ، كانت الاسئلة تحاير دائما بالاسئلة . وبما ان المجموعة الجديدة كان معظمها من الرجال تقريبا ، فقد حزمت في تفكيري ان هذا يشكل جزءا من المشكلة . لقد رفضت حتى ولو مدرسة واحدة ذات كفاءة عالية ، كانت في المدرسة قبل انتهاء الحرب ، ان تعود اليها الآن كان وجود عدد من المدرسات الاناث وكذلك وجود مديرة المدرسة يخلق جوا مختلفا تماما وبذلك ازعجتني النبوة المتعجرفة التي

طلب فيها مسعود مني معرفة من الذي اخذني الى مانوا . فأجبت
بنزق :

— لا أحد تعرفه .

عند ذلك شدّد بنظره اليّ ، فاستدركت ما قلته — فلو رغبت
في العودة الى مانوا وقمت بذلك ، فلن اقدر ان اصرف نظري
من مسعود الذي يمكن ان يبرهن في النهاية انه شاهد لي هناك
فأجبت طوعيا :

— لقد اخذني الى هناك السيد خليلي الذي يعمل في محطة
الاذاعة ، عندما كان يقوم بتحقيق صحفي .

أوما مسعود برأسه وقد نفذ صبره ، كما لو انه لم يهتم
حقيقة بالمعلومات قط . وسألته :

— ولماذا انت ذاهب الى هناك ؟

فقال :

— عائلتي تسكن في مانوا .

— اذا فأنت هركي ؟

— نعم ، انا هركي .

تأملت وجه مسعود الممتلئ بشوته الساحبة وعبدت

الرمادسبن . لقد اوحى اليّ احداهم ولم اعد اذكر من هــــــــــــــــــــــ
الهركين لم يكونوا وراء البراءة بل انهم هم البراءة الاخر
الذي جرى في العراق . وهذا مجرد اسماء خلفها انهيار
جمهورية مهساساد . ولكني ان اذكر انهم قبل ذلك سوسود هركينين
في البلاشفي المدرسة . بل انهم كانوا احداهم من هــــــــــــــــــــــ
الاكراد من انهم لدرجة اسماء الاكراد سوسود هــــــــــــــــــــــ
والسلالة والاسماء والسبب الى انهم هــــــــــــــــــــــ . انهم سوسود هــــــــــــــــــــــ
الاول الذي سمعت عنه ، على وجود رابطة بين لاجئ عراقي والاكرد
في قرية ايرانية . وقد تساءلت كثيرا عن كيفية احتيال الحكومة
الايرانية للسيطرة على هذه الضروب من العلاقات . فقد كان واضحا
انهم يرغبون في الحد من التواصل ما أمكن بين الاكراد المحليين

واللاجئين وكانت هناك اشاعات منذ وقف اطلاق النار تقول ان الحكومة ستنقل جميع اللاجئين العراقيين بعيدا عن الحدود الغربية التي تمكنهم من ان يكونوا على اتصال مع الاكراد الايرانيين . ولكن حتى ذلك الحين لم يحدث شيء من هذا القبيل . سألت مسعود :

- هل تظن انه بإمكانني الذهاب معك ؟

وعندما احسست انه على وشك الرفض أضفت على نحو سريع :

- لدينا سيارة ، لدينا سيارة ، لذلك بإمكاننا ان نأخذك

الى هناك .

شرعنا انا وجيرد ومسعود في الجمعة التالية بالرحلة الى مانوا . وعندما وصلنا وتجمع الرجال ليرحبوا بنا ، اشار مسعود باصبعه باتجاه حجرة الحريم وقال لي :

- انت ، اذهبي مع النساء

رمقته بنظرة احتقار وفكرت في البقاء لفترة وجيزة مع الرجال لأزوجه . كان مسعود يرتدي دائما بذلة رمادية ذات تفصيلات حسنة . كان يتحدث القليل من الانكليزية ، ومن الواضح انه كان قد انتقل للسنة الاخيرة في الكلية ضمن نظام الجامعة العراقية قبل ان يضطر للفرار ، لم تكن ملابسه وثقافته توهيان بشيء يمت بصلة للقرية . ولكن سلوكه معي كامرأة كان مزعجا وجنسيا اكثر من اي رجل كردي قبليّ التقيت به . عندما وصلت الى داخل إحدى حجرات الحريم ، اقتربت مني فتاة نحيفة ، ذات شعر عسلي وقصدت جفلة عندما رأيته . لقد كانت صورة طبق الأصل من بروانه . ربما ان العرس لم يحدث قط ؟ ولكن لا . لقد كانت تلك أخت بروانسة . كانتا تقريبا بنفس العمر وكانتا تبدوان مثل توأمين ، دهشت كيف كان لوالدهما ان يختار واحدة منهما ليلقيها في النار :

سألت أخت بروانة :

- اين هي بروان ؟

- اسها في العراق .

- العراق ؟

— نعم ، تحتم عليها ان تلحق زوجها الى هناك بعد ان انتهت الحرب . لقد بكت كثيرا ولكنهم اجبروها على الرحيل .

لم اكن اعلم ان عريس بروانة العجوز هو عراقي فضلا عن وجود علل اخرى فيه . فكرت في بروانة اللطيفة ، الخجولة وهي تنكر انها على وشك الزواج . وهاهي الآن قد اجبرت على ان تغادر ارضها الأم . ربما لن يحدث ان ترى اسرتها ثانية ابدا . فقد كان محتملا ان الهجرة الهركية السنوية لن تحدث ثانية قط مع نشوء العلاقة الجديدة المشتركة بين ايران والعراق واتخاذ اجراءات صارمة بشأن الاكراد .

اخرجت اخت بروانة ، ألبوم الصور وارتنى صور عرس بروانة والصورة التي انطبعت في ذهني ، كانت بروانة وهي تتكأ على نافذة صغيرة في الطابق العلوي في مسكن ميرخان في المدينة ، وقد بدت الفتاة الصغيرة حبيسة ولاح عليها اليأس ، داخل ذلك المنزل الكبير ، مثل اميرة في حكايا الجان . ولكن لم تكن لهذه الحكاية نهاية سعيدة .

مضى بقية ذلك اليوم في سبيله ، وكان ذلك اليوم شيئا في ظاهره بيوم في دستان . حيث مكث جيرد مع الرجال ، بينما بقيت انا في دار الحريم مع النساء وقد خاطرت بالخروج في جولة برفقة اخت بروانة الشبيهة بها . وميرخان نفسه كان غائبا عن مانوا تلك الليلة .

قبل ان تغادر في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم ، ذهبت الى الخارج وسألت جيرد ، اذا كان بإمكانه استخدام آلة تصويره في التقاط صور للنساء في الداخل . لأن الاضائة هناك لم تكن كافية تماما لآلة التصوير التي بعودتي . فأشار جيرد انه يجب عليّ ألا اطلب منه ذلك ، بل من السادة الذين حل عليهم فيفـا . وعندما اعدت طلبي ، موجهة اياه للرجال ، نظروا الى بعضهم وهم يتضحكون .

— لم لا ، لم لا ؟

اجاب اكبرهم سنا متحمسا لذلك .

لقد كانوا جميعا مستعدين لبعض التسليية المنعثة ، مضت المجموعة محتشدة وهي تمعد السلام الى دار الحريم ، وجيرد في مقدمتهم ، ولكن النساء انكمشن على انفسهن من الدهر عندما رأين جميع الرجال عند المدخل ، فلان الرجل الذي أعطانا الأذن بالتصوير :

— أترى ؟ ان الامر على ما يرام بالنسبة لنا ، ولكن النساء هن اللواتي لا يرفهن في ذلك .

التقاط جيرد بعض الصور ومن ثم . انسحب بسرعة والرجسـال يقتلهون وراة .

عندما كان أوان الرحيل ، دعمتني النساء للقاء الليلة هناك وقد أهراني ذلك ولكن كان على مسعود العراقي ان يعود الى ريزاي ليمارس التعليم في اليوم التالي . فلقد شرعت بالسعادة لتوفر هذه العجة ، فلقد بدا لي ان مير خان ليس ماغيها في جعلنا نخوض تجربة مطابقة لتجربتنا مع الحاج اسماعيل ، على الرغم من اني لم اثق معه . كانت اشياء جديدة في مانوا منطوية على سمات متناقضة ، ابتداءً بقعة زواج بروانة وانتشاء بالطريقة التي ترك فيها الرجال جيرد لهلثاظ صور للنساء دون استئذانهن لم يحدث شيء من هذا القبيل مع الحاج اسماعيل قط .

لعبنا بمرحلة اخرى الى مانوا . وذلك لأن مسعود فعل سيارتنا اكثر بكثير على الحافلة الريفية وايضا لأن النساء كن قسود رجونني كي اعود . ولكن لدى مودتي في التاريخ الذي حددناه لم ارهن . ان شيئا مثل هذا لم يكن وارد حدوثه على الاطلاق . ولسو أنه حدث فان الحاج اسماعيل وابنه طه كانا سيحرصان اكثر منا على مراعاة المواعيد .

اظهر مسعود تزمته ثانية عندما اخذناه الى قرية اسرته

وهذه المرة لم يأمرني بالذهاب الى دار الحريم ، بل بدلا من ذلك تركز أنتباهه على مسجلتي التي احضرتها معي حيث اشارت فرعه ، فسأل :

— ماذا تفعلين بتلك ؟

— سأسجل بها قصصا .

— كان عليك ألا تحضرها . يجب ان تتركها في السيارة .

حاول جيرد التحدث ويمكنني ان اقول اننا كنا علي وشيك مدام شامل ، لقد تعب جيرد من تعجرف مسعود الشديد مثلي تماما . اخبرت مسعود ان تسجيل القصص هو من ضمن عملي وعزمت على ان اواكب التسجيل دون اخذ أي اعتبار لشكوكه . ولكن لعدم رغبتني في ان اتسبب في فورة غضب ، قررت ترك الآلة تحت مقعد السيارة لذلك الحين على ان استردها بعددئ عندما يبتعد مسعود عن هذه الانحاء .

وجدت الأشياء في مسكن النساء كما كانت عليها في المرة الاولى التي زرت فيها فائوا . ومعظم النساء غائبات . وكانت الفتيات ، شيرين واخواتها قد ذهبن ايضا الى بحيرة ريزاي وبذلك اصبحت في مهدة احدى زوجات ميرخان ، وهي امرأة فارعة الطول ، ذات شعر اسود ، بسيطة في سلوكها . جلست معها في حجرة كبيرة ، كان عدد من الخادومات يتناولن اللقم الاخيرة من الفطور المكون من الخبز واللبن ، رأيت امرأتين تجلسان امام قواعد طينية وتستخدمان مطارق صغيرة لتقطيع قطع السكر المخروطية الشكل الى كتل بحجم القضة التي يحتاجها الشاي . قالت احدى المرأتين انها تعرف قصة ستروبيها ضمن مجموعتي ، فشرعت فـفي مفادرة الحجرة لأحضر مسجلتي . فسألتنني مضيقتي الى ابن كنت داهية ، فأجبته :

— الى سيارتي .

— خانم ، سيارتك ليست هناك .

انها مخطئة بالتأكيد ، اسرعت الى النافذة ونظرت نحو

الاسفل الى الفناء . وجدت المكان الذي تقف فيه سيارتنا ارضا خالية . فسألت بصوت مرتعش .

— أين هي ؟

— لقد اخذها الرجال وذهبوا للصيد .

قالت ذلك المرأة ذات الشعر القاتم ، فلم اصدق ان جبرود قد مضى بمسجلتي دون قول اية كلمة ، انه يعرف جيذا اني كنت قد عزمت على استخدامها ذلك الصباح .

أجلت بنظري في المعجزة الصميلة بنساء لم أرهن من قبل ابدا وشعرت اني قد وقعت في شرك . كنت قد تجاوزت مرحلة الجلوس والتحدث وعلى نحو خاص مع هؤلاء النساء . لقد اتيت لمانسوا متوقعة ان اعمل بدأب ، وكم سيطول الوقت قبل ان يعود الرجال ؟ هب ان السمك والماء اصابا مسجلتي ؟

فقدت القصة التي كنت انوي تسجيلها سلفا ، لأنه توجب على المرأة التي تطومت بان تسردها ان تذهب خارجا وتخبر الخبز في التنور . ولكنني كنت اعلم انه يمكنني الحصول على قصص اخرى لو ان المسجلة كانت معي فقط . ان الذي اقلقني هو الطريقة التي اخذت فيها السيارة ببساطة دون ارجاع مسجلتي . هل كان خطا من التعاون معي وخداع مسعود امام ناظره ؟ حاولت ان اوضح سبب قلقي لهؤلاء النساء ، ولكنهن كن ينظرن الي باندهاش . فكيف لامرأة ان تناقش رغبة زوجها ؟ ولرغبة مضيقتي في تحسين مزاجي اخرجتني في جولة في القرية للقيام بزيارة الى زوجة الملا .

في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم وبعد ان عاد الرجال ، حيث كنت جالسة مع مضيقتي في حجرة نومها ، ومسجلتي تقبع بأمان الى جانبي ، اقترحت عليها انه بإمكاننا العضي في رحلة قصيرة الى النهر الذي ذهب اليه الرجال للصيد ، سألت وهي تضعك :

— ولكن كيف يا خانم ؟

فأجبتها :

- بامكاني السيرالى هناك ؟

سألتني وقد اتسعت عيناها :

- بدون زوجك ؟

فقلت :

- نعم

لكنني حالما اقترحت القيام بهذه الرحلة ، ادركت اني لم اكن ارجو في الذهاب واني اردت فقط ان اظهر انه بامكاني أخذ السيارة انا ايضا . ولسوء الحظ لم يتوفر المجال لوضع هذه المسألة موضع نقاش ما او تسلية وفي مثل هذا التظاهر مع هذه المرأة ، فقد اخبرني مسبقا انها لاتسبح او تصيد السمك وانها تخشى السلاحف . كنت متأكدة من انها ستأخذ خمسة اشخاص آخرين معها للحفاظ على عفافها .

ابلغتها اني ماضية الى الديوانخانة متظاهرة اني احتاج الى استئذان زوجي ولكن رغبتي كانت ضخيلة في الذهاب الى النهر. أومات المرأة برأسها ، وبدأت بهبوط الدرج حتى عبرت الفناء. قابلت ميرخان في حجرة الجلوس للمرة الاولى . وكما قال جيرد كان يشبه الى حد بعيد موظف تأمين من الغرب المتوسط في الولايات المتحدة بعينييه الزرقاوين ووجهه الناعم وجسمه الممتلئ . لم يظهر سلوك ميرخان شيء من الانفعال العصبي الذي كان يتميز به الحاج اسماعيل . كان الرجل يضح بالثقة وبرودة الاعصاب وينظر اليّ بامعان دون ان يبتسم .

كان في محفظتي صور شيرين وبيروانة التي كنت قد التقطتها خلال زيارتي الاولى لمانوا في الخريف الفائت . كنت قد اعطيت السيد خليلي مجموعة من هذه الصور منذ زمن مضى ليعطيها لشخص ما كان في طريقه الى تيرغاوار ولكنها كانت قد اختفت دون ان يثير ذلك دهشتي . وفي زيارتي الاخيرة قالت شيرين انها لم ترها ابدا . والآن لدى مجموعة اخرى لاعطيها لشيرين الغائبة عن القرية . ولعدم معرفتي النساء اللواتي يمتن بصفة قرابة الى

شيرين ترددت في تسليمهن الصور . وحيث انني واقفة وجها لوجه مع ميرخان ادركت انها فرصتي الاخيرة . ولكني عندما سلمتـه الصور وطلبت منه ان يعطيها لشيرين شككت في انها ستراها يوما ما . وماذا يهم رجل ، كان قد زوّج ابنة ذات خمس عشرة سنة ، من رجل عجوز له زوجتان اخريان ، ولماذا يرمع نفسه بوصول او عدم وصول صور لابنته كان شخص ما قد تركها لها .

تماما عندما هممنا بالمغادرة ، بدأ ميرخان وعلى نحو مفاجئ يتصرف بعناية كمضيف مهتم وقدم لنا قطعة كبيرة من البطيخ . تناولناها ونحن واقفان في الخارج ومن ثم صعدنا السياق تساءلت عن ماهية الرأي الذي كونه عنا اميرخان . هل كان مقتنعا مثل مسعود بأننا جواسيس ؟

كان من المحتمل جدا انه اعتبرنا شخصين غير مهمين ودون فائدة له اولي شخص مهم آخر . كان ميرخان رجلا سياسيا محنكا وكما اخبرنا بنفسه كان قد طار لتوه الى طهران لحضور المؤتمر الاول لـ " رستاخيز " حزب الشاه السياسي الجديد .

كان واضحا تماما لي ولجيرد ، الاختلاف الجذري في اسلوب الحاج اسماعيل وميرخان . كان الحاج يظهر ولاء كلاميا لحكومة الشاه للحفاظ على حياته . ولكنه لم يمش بعيدا لدرجة يصبح فيها مناصرا متحمسا لـ " رستاخيز " فضلا عن ذلك لم اسمع بزيجات مثل زواج بروانة في عائلته ، على الرغم من ان الحاج لم يكن يعامل بناته معاملة حسنة تماما . فكل صورة كنت قد ارسلتها مؤخرا من امريكا لخديجة ونسرين او مريم - ويحرص من الحاج كانت قد سلمت كما ينبغي . من الواضح ان ميرخان هو رجل الاعمال الهادئ الاعصاب المتميز في اية ظروف متفابرة . بينما كان الحاج اسماعيل انسانا حالما ، حاد الطبع ، مستبدا في احيان كثيرة ومعبا في احيان اخرى . ان الاختلافات من وجهة نظرنا بين الرجلين الكرديين ، ظهرت بوضوح من خلال تعاملهما معنا . لقد جعلنا اميرخان ندرك اكثر من قبل كم كنا محظوظين للقاءنا مع الحاج اسماعيل .

الفصل الثامن عشر

عندما تستخدم النساء الكرديات تعبير " سرجاغا " فانهن يلفظن هذا الترحيب التقليدي والوداعي بنبرات رصينة ورزينة وميونهن مسدلة نحو الأرض ، عندما سمعت ورأيت هذا السلوك للمرة الاولى ، فرمت قليلا ، لماذا كن على هذه الدرجة ممن الجدية ؟ ولكنني فهمت ذلك مؤخرا عندما ترددت على البيسوت الكردية ، وافت هذه العبارة لتكرارها مئات المرات . لاتنطق " سرجاغا " باستخفاف ، وتعني حرفيا ، على عيني . وتستخدم في ابرام الوعود وكذلك للدلالة على الحل والترحال . ولدى الفرس تعبير مشابه وهو " چشم " ، وكان قد اقمي نوعا ما ، مثل العديد من التعابير الفارسية القديمة . بينما تعني " چشم (بلغة ساشقي سيارات الاجرة الغربية والخدم ، حسنا ، او انني موافق ياسيدي فان تعبير سرجاغا يعتبر شيئا مختلفا تماما . وكلمة " سرجاغا " بالنسبة للأكراد ليست مجرد زوج من الكلمات ، بل تشكل ايضا عهدا ، والعهود لاتعنت بسهولة في كردستان .

مهما كانت تحمل كلمة " سرجاغا " من معاني بالنسبة لمضيفتي فقد كنت اسمعها بما تعنيه حرفيا ، وليس فقط ضمن الشكليات التقليدية ، وعندما شعرت بأن وقتي في كردستان يمضي بسرمة ، بدأت افهم ماتعنيه " سرجاغا " ، عندما آن اوان سماعها من خديجة وماثشة والحاج اسماعيل والبقية في الوداع الاخير . " على عيني " سيبقى دائما منظر نسرين وخديجة وهما على الصخور قرب البحيرة وملابسهما تتلاطم على الامواج مثل نبات خشخاش مملق ، وقد تلبست ضفيراتهما بقشرة ماله ، وخديجة وهي تجلس القرفصاء بجانب كومة من لبوب المشمش التالف ، وتكسرهما وترمي الشمرة . " على عيني " سيكون الحاج اسماعيل وهو يحدق

بنا بعينين مطرقتين تحت ضوء الشمس خارج ديوانخانته، ملتحاً في محاولته فهم لغتنا الانكليزية ، وذلك كي يفهم جيرد ويفهمني ويفهم علاقتنا ببعضنا البعض و به ، سينطبع السيد ظيلي بنحافته في ذاكرتي وهو جالس بجانبني فوق الكراسي المعدنية ، في محطة الاذاعة ، بينما كنت اتابع قراءته المشوبة بالعواطف ، للملحمة الكردية العظيمة " مم وزين " . لن انسى ابدا الملابس القوس قزحية في الينابيع الخالية المثلوجة وهي تسيل هزيلة من فوق السفوح الجبلية ، مياه البحيرة الضارب في الزرقة ، زرقة السماء الكردية الصافية ، وزرقة عيني الحاج اسماعيل ومريم . لن ننساها ابدا .

كنت اعرف اني لن ابقي في كردستان داخما ، ومع ذلك فقد تقلص بقية العالم امامي بقدر ما كنت افتقدها احيانا ، لم اعد افكر بالمغادرة الى امريكا كل اسبوع مثلما حصل معي خلال ايام الشتاء المعتمدة بعد حادث المصباح الكهربائي . لم اعد انتظر البريد يافسة من عدم وجود احد ما قريبا مني لادمـوه صديقي . لقد تمكنت من بلوغ كردستان . وكنت قد بدأت اشفق بريزاي وبقيّة ايران واسلم بها جدلا . بدأ سلوك الناس يتبرأ لي اقل غرابية . كانت الحياة موهلة من آلاف الاشياء غير المريحة التي كانت قد بدأت بطريقة ما تعني لي شيئا ، مثل احتساء الشاي وانتظار موظفي الجمارك لامطائي اعمرتي ، والمساومة في البازار والمضي الى عميد الكلية للتحديث معه والجلوس في حجرة الانتظار لمدة ساعة مع امين السر . لم تعد القرى الكردية تبدو لي ملوثة لدرجة كبيرة ، واتخذت صفوف الوجوه المتسممة برسومية بالغة في اليوم الصور معنى ما ، وعرفت الرد المناسب لتعبير " سرجاا " عندما كان احدهم يبادرني به .

ولكن حتى لو اننا اعتدنا على محيطنا ، ولو بعد طـول انتظار ، كنا نعرف انهم لا ينتمون اليـنا ونحن لاننتمي اليهم وكنا نعرف اننا سنشكل جزءا من الحفـور الامريكي الاكبر فـي ايران طوال مدة اقامتنا ، لم يقدم لنا طلبنا الدعوات، وتمنوا

٢

لو اننا لم نأت على الاطلاق . ولدى اطلعنا على الحالة فيسر
السوية للجامعات ، لم نقدر ان نأمل بتعليم احد الشيء الكثير
من العلم . فتح هذا المجال امامنا لممارسة بعض الفعاليات
الخاصة ، مثل تجميع وسحب اموالنا ، وكان هذا نشاطا مقبولا لدى
العديد من الموظفين الاجانب ولكنه لم يكن يعود علينا بالفائدة
المرجوة .

كان جيرد مستعدا للمغادرة ، ولكنني كنت لا ازال مترددة .
كنت اريد معرفة المزيد عن الناس هنا . أردت تعلم جميع اللغات
فهناك لغات محكية حول ريزاي تستغرق دراستها اضعاف من حياة
المرء . ولكن جيراني كانوا يوهنون عزيمتي اكثر فأكثر حتى مع
مقاومتي الرحيل . فقد كان الايرانيون المتمدنون ، الغربيون
ظاهريا وعلى نحو مخادع ، ينظرون الينا كأجانب ميثوس منهم ،
بغض النظر عن مدى محاولتنا لتغيير ذلك .

والامر الاكثر تشبيها لعزيمتنا كانت علاقتنا بالجفرين ،
ولم يكن سهلا تسميتها بـ " رهاب " الاجانب وكرههم . كان
ايرانيون آخرون يعتقدون ان اعتراض جيرانا علينا منطقي ،
لأننا اجانب . ولكن الجفرين كانوا قد قاموا باشياء اكثر
من مجرد التسامح معنا . لقد رحبوا بنا واباهم مفتوح لنا ،
اخذونا الى انحاء ريفية عذبة ، قدموا لنا وجبات الطعام
واعارونا اثاث المنزل . ومع ذلك فقد فسدت العلاقة بيننا شيئا
فشيئا .

كان شعورنا الودي الاولي يتناقض مع موقف بقية الجيران
الذين كانوا يرتابون فينا منذ البداية . كان السلك الهوائي
الذي مده لنا صديق امريكي لمذياعي ذي الموجات القصيرة مصدر
قلق مبكر ، وعندما ظهر ، اتانا حالا رجل جار من منزل في احد
الجوانب وقال ان السلك يسبب له صدمة كهربائية من طريق انبوب
التصريف ، وفي اشهر لاحقة ادق جار لنا في الجانب الآخر ان
السلك يسبب صدمات لزوجته العامل من طريق السياج المحيط بدرج

ممكنهم في الطابق الثاني . كانت ايضا حاتنا بأن هذا الهوائي خال من التيار تقابل بعدم التصديق ، وبدأت اشعر ان الكهرباء كانت حقا شكلا من اشكال السحر الاسود بالنسبة لهؤلاء الناس المتعلمين ظاهريا وان لدى الاجانب اشباح تسبب المصدمات للناس .

ألقيت باللائمة على نفسي وعلى شهرزاد للطريقة التي انتهت فيها علاقتنا ، وفكرت في نفسي انه لولا دأبي ومشابرتي لهذه الدرجة على لقائي بالاكراذ لربما كان الامر مختلفا . ولكن كان هنالك اناس ألقىت اللوم برمته على كاهلهم لهدم الثقة والاحترام بيننا . والسيدة جام هي احدى هؤلاء الناس . انها المرأة ذات الثمانية والثلاثين عاما والتي لم ترغب في ادخال جيرد الى فناء دارها عندما كان زوجها غائبا . لقد تحملت لساعات وساعات اشاعات السيدة جام وأقوالها المشيرة للبغضاء من الجميع من اجانب ومحليين وعلى نحو خاص من شهرزاد وحتمى من اقاربها هي نفسها . كنت اعتقد انها تتسلى وقد شملت المرات التي دمتنا فيها انا وجيرد لتناول الغداء عندها . ومرفانا بهذا الجميل ، ارتكبت خطأ باعطاء عنوان ورقم هاتف اختي لابنها ذي الثلاثة والعشرين عاما الذي كان في طريقه للولايات المتحدة . حتى انني كتبت لأختي احشها على تقديم المساعدة لهذا الشاب على نحو خاص ، حيث تراءى لي متعلقا بوالدته لى مشاهدتي اياه في ايران . وفكرت في احتمال مواجهته صعوبات بمفرده في امريكا فلم تكن بعد لدى تجربة كبيرة مع شنائي ايراني مكون من ام وابنها .

بعد عدة اسابيع من ذلك نقل الشاب لوالدته رسالة نقدية تتعلق بحياة اختي الاجتماعية والجنسية ، حيث اتت الام بعدها الى منزلي تريد معرفة متى ستتزوج اختي . اخبرني هذه الام الخرفة تقريبا ان ابنها كان يتوقع من اختي ان تصبح صديقة له . وبعد ذكر هذا الموضوع مرات عديدة خلصت الى نتيجة حاسمة وهي ان الصديقة بالنسبة للسيدة جام وابنها تعني " ماهرة " بعدد

كتبت لي اختي وطلبت مني ألا أرسل أي شاب آخرين إليها ، لأن هذا الابن لم يتوقف عن إرماع صديق لها .

اتفقنا أنا وجيرد أن نغادر إيران أخيراً في نهاية الصيف وحددنا موعداً لأخبار العميد بذلك ليكون بإمكانه البدء فلي ترتيب من سيحل محلنا ، ومن الواضح أنها لم تكن مهمة سهلة بما أن أجرتنا كانت مليئة بالتأخيرات والوعود المحنت بها حيث كان من المحتمل ألا يأتي بسببها أحد ، أقل تصميماً منا إلى ريزاي قط . كان رد فعل العميد لسماع أخبارنا عبارة من غضب مكبوح ، وازداد إثارة بإطراد . وذلك بأن حددنا بقطع راتبنا الصيفي الذي كنا نحسبه ضمن ما سنستلمه ، لقد صعدنا لذلك ، وبرر العميد إيماءاته تلك بقوله أننا قد تعهدنا بالبقاء لمدة سنتين على الأقل ؛ ولكن مقدنا حدد سنة واحدة فقط وحتى أنه لم يطالبنا بأن ننوه إلى أننا عازمين على البقاء خارجاً ، تلك السنة . وهذه أيضاً نهاية أخرى سيئة وغير متوقعة لعلاقتنا مع العميد .

لم يكن شمة انصاف قانوني للطريقة التي انتهى بها العميد مقودنا ، كان العميد من أبناء نفس المدينة الإيرانية الواقعة في الشمال الشرقي التي انتهى منها رئيس الوزراء . وكان الناس يقولون أن ذلك جعله أقوى من حاكم أذربيجان نفسه . لم تكن تلك هي المرة الأولى التي شعرنا فيها بالاعجز في إيران . ولم يبال زملاؤنا في الكلية ولا جيراننا بنا ، عندما أخبرناهم بذلك ، ألم تكن نعرف أن نتعامل مع العميد بطريقة أفضل من هذا الأسلوب المباشر ؟ وكأنه عادة كان رد فعل الأكراد مختلفاً . فهم أيضاً يمثلون " الآخرين " في إيران . كانوا يفهمون اساليب العجم المثيرة للجنون وكانوا قد سئموا من الشاه حتى قبل أن نولد بأمد بعيد . أصغى الأكراد إلى قصة العميد بغضب متعاطف معنا ، ولكنني أدركت أنهم كانوا قد فهموها على نحو مختلف تماماً مما كانت عليه . وذلك عندما أخبرتهم بها . فبغير قصد مني

ولعدم رغبتي بالاعتراف بأنني قد اخترت طوعيا مغادرة كردستان جعلتها تبدو كما لو أن العميد قد اقالنا دون ان يبلغنا بذلك. لم أقو على مواجهة الحاج اسماعيل ، الحاج الذي غالباً ما كان يردد ان القرية هي قريتي ، وان اخبره اننا قد قورنا - وعلى نحو يعوزه الحماس - المغادرة بعد اجل قصير .

— ولكن لماذا ؟

سأل الشيخ عبدالله . كان قد استوعب سلسلة الاحداث كما هي ، وحقيقة اننا كنا قد توقفنا عن العمل فعليا . وكان يعرف ايضا انه توجد مشكلة بطالة جدية في الولايات المتحدة . فسأل بطريقته التي ننم من نضوج فكري :

— ماذا ستفعلن عندما تعودان الى هناك ؟ ألن يكون من الأفضل لكما البقاء هنا ؟

سأل الحاج اسماعيل عن رحيلنا هو ايضا ، ولكن ليس ملى اسما هو مفيد لنا . فهو كسيد اقطاعي ، قَبِل تفوق الغرب . وأنه من الطبيعي ان نرغب في العودة الى وطننا ، ولكن هل ثمة ما يقدمو للعودة بهذه العجلة ؟ ترك الحاج العصاة لحين ليرانا قبل ان نغادر لأنه قد بقي لنا بضعة ايام فقط للمكوث هنا .

خرجنا في أحد الايام الى الموقع الذي كانت تقف فيه سيارة اللاندروفر بجانب ميزان وكومة من اكياس القمح . وجدنا الحاج بيناور بتعريك حصادته العملاقة تحت اشعة الشمس الساطعة فوق حقل القمح .

— اصعد الى هنا يا جيرد .

قال ذلك ساميا للفت الانتظار الى آلتة الضخمة .

— هلا التقطت لنا صورة بامارغريت خانم ؟

كانت هذه هي المرة الاولى والوحيدة التي طلب فيها الحاج ان التقط له صورة . كان قد سمح بأخذ صور له في القرية امام ديوانخانته ، ولكن هذه هي الطريقة التي ارادنا ان نتذكره بها في امريكا ، على انه مزارع عصري .

كانت خديجة تحبني دائما على المجيء وقضاء جل ايامي معها في منزل الحاج في المدينة . ولكن لم يكن باستطاعتي الذهاب كلما رغبت في ذلك . فقد كنت مشغولة ببيع المقتنيات التي جمعناها خلال اقامتنا لتأثيث شقتنا الجرداء . كان من الصعب التمييز بين المشتريين الحقيقيين والاشخاص غير الجادين وكما تبين لي فان بلوغ السعر النهائي للمبيعات والمشتريات في عملية البيع الجارية في ايران كانت مثبطة لعزيمة المراء . اتت احدى النساء وتنبأت ان يصيب النحس مجموعة من الاطباق لم نكن نرغب في بيعها بسعر بخس زاعمة انها ستنكسر حالما تغادر .

كانت خديجة تود ان ابقى معها ، لأنها لن تكون في ريزاي او دستان عندما يحين اوان رحيلنا . كانت تخطط منذ شهر تقريبا للعودة الى قرية طفولتها ، لتقوم بزيارتها الاولى منذ زواجها في الصيف الفائت . ستحملها الى هناك سيارة اللاندروفر برفقة اخي طه ، والقابلة گلبهار واشخاص آخرين عديدين . لم يكن مسموحا لطفه نفسه الذهاب ، وذلك بموجب الاعراف والتقاليد ولكنه هو ومريم قد عزمنا على ارسال خديجة مع جبل من الهدايا وعلب الحلوى واشواب من القماش ، ليعرفا اعمام خديجة العشرة مدى تقدير الاسرة الجديدة لعروستها .

كانت خديجة تحاول ان تبدو رزينة في يوم وصولها الى منزل الحاج اسماعيل لترحل منه لقربتها . فهدده لم تكن مناسبة تستلزم الجدية فحسب بما انها الزيارة الاولى لعروس بعد زواجها بل ايضا لأن احد اقارب خديجة قد توفي حديثا . وقد فسر ذلك ، لون فستانها الاخضر الداكن والنقص الواضح في الذهب الذي كانت ترتديه فوق مشورها . وهناك رحيلي ايضا الذي يسبب لها الحزن . جلسنا معا وقد مسكت الواحدة منا بيد الاخرى نراقب الصبح حولنا ، بينما احضر المزيد من علب الحلوى والاقمشة من البازار وايضا سيارة اجرة ريفية لتعمل كل هذه الهدايا . لم يكن لي وسعنا كلينا ان نستجمع الحزن الذي كانت تتطلبه المناسبة

على الرغم من محاولتنا الحثيثة لذلك . فرحلة خديجة المتوقعة لها التيسير كانت مبهجة جدا اما رحيلي فكان لايزال بعد عدة اسابيع ، ولا اعتقد ان اخذنا كانت تصدق ما افقت اليه الامور . - مارغريت ، انا حزينة جدا لرحيلك لترحلي ، امكثي هنا .

قالت ذلك وهي تبتسم وتشد على يدي :

- سأعود وسأزورك .

قلت ذلك بمرح ، فغير راضية في التركيز على حقيقة ان العودة

لن تكون مثل الإقامة هنا بعد ذاتها .

مشى الجميع بما فيهم طه وجيرد وخديجة هابطين السدرج الى خارج الباب الا مامي حيث كانت تلب الهدايا قد حملت في سيارة فولكا حمراء وبضياء . بعد اخر طه الى جانب سائق سيارة اللاندروفر وخديجة الى يمينه وعبائتها السوداء المخرومة مستقرة على رأسها . وجلس بقية المرافقين في ظلية اللاندروفر . لو كنا جميعا بأيدينا عندما انطلقوا في سبهم ومن ثم وقفنا انا وجيرد وطه في الشارع المغبر نبحث في منزل الحاج اسماعيل لقد فرغ الآن تماما . فقد كانت زينب والأولاد والخدم والقرويون جميعهم في دستان لفناء فترة الصيف هناك .

سيستيقظ طه وحده كل صباح ويمضي الى عمله في المدينة ويعود كل عصر وحده ليحضر غداؤه . لم تكن هذه حياة بالنسبة لكردني .

- هل تظنون اني قد فعلت الصواب لسماحي لها بالعودة ،

فالثلاثة اسابيع هي مدة طويلة ؟

سأل ذلك بين الهزل والجد .

- طبعاً لقد فعلت الصواب .

قلت ذلك لأعيد اليه الطمأنينة ولرغبتني في ان احببه لأنه قد

اصبح زوجاً مهتماً اكثر مما كان عليه من قبل .

لقد آن اوائ رحلتنا الاخيرة الى دستان ، لنودع الحجاج

اسماعيل وحريمه ونسرين ووالدتها . ذهبنا بالحافلة لاننا كنا قد بعنا سيارتنا . كانت هذه الرحلة تجربة بحد ذاتها . لاننا ركبنا احدى الحافلات المعطوبة التي كنا نراها تحمل الركاب الى ميروغاوار ، مارة بالكلية عدة مرات في اليوم ، تميل على نحو خطر الى احد الجانبين بسبب الثقل وبسبب حاجتها الى الصيانة ، بعد وصولنا الى موقف حافلة تيرغاوار كان علينا ان نمشي عدة مئات من الiardات عبر ساحة ممتلئة بالنباتات الشائكة والاشجار الصغيرة لنصل منزل مريم .

لامتني مضيفتي لعدم اخبارنا اياهم باننا كنا بدون سيارة لكي ياتي احدهم الى المدينة ويأخذنا معه ، عندما جلست مع مريم ونسرين اخذتا ثقتاني باصرار على ان اعيد النظر في قرار المغادرة . قالت مريم :

— لو أنك تمكثين سنة اخرى بامارغريت ، فانك ستتقنين لغتنا وستصبحين كردية بحق .

وارادت نسرين ان تعرف اشياء ، فسألتنني :

— كيف ستواظبين على عدم نسيانك الكردية في امريكا ؟

فقلت معترفة :

— ربما سانسى القليل .

فقلت امينة ، حيث كانت قد حضرت لمنزل مريم لروءيتني :

— اذا ، علمي لغتنا لوالدتك ووالدك ، وبذلك يمكنك ان

تمارسي التحدث بها معهما .

وابدت نسرين اقتراحا :

— نعم والبسي ملابسك الكردية ليري الامريكان كم هي جميلة .

خامرتني شعور غريب لدى التحدث عما سأفعله في امريكا ، فقد تراءى لي الاكراد ودستان منفصلين تماما عن بقية حياتي . ولم افكر بما سأفعله باللغة الكردية لدى عودتي الى امريكا بعد استخدامها كموضوع للاطروحة . لقد هالني التفكير بأن الكردية لن تكون ذات نفع كبير في المعاشات اليومية ، ماذا سأفعل بملابسي

الكردية ؟ خطر ببالي ان افعل عليها في صندوق الثياب لاأريها لأحفادي . لن ارتديها ثانية ابدا كملابس مناسبة ، لأنها ستشكل مجرد عادة دخيلة وغريبة .

خلال وجودي في.دستان في يومنا الاخير اقتترنت اشياء عديدة ببعضها في فكري ،منها والدتي ومعرفتي للكردية ،اخلاقيات المرأة الغربية واللاجئين .

لم اسمع الاكراد قط يبدون آراءهم في لا أخلاقيات المرأة الغربية مثل السيدة جام . وعلى الأقل لم يتحدث اكراد دستان عن هذا الموضوع ابدا . اما اليوم فقد حضرت من طهران ابنة سوسن الوسطى في زيارة لدستان ،حيث تقيم مع زوجها الطالب هناك.كانت تعرف كل شيء عن الغربيات ،عن كيفية تقبيلهن الرجال الآخرين امام ازواجهن . لم تسألني مثلما فعلت السيدة جام فيما اذا كنت قد قمت بمثل هذه الاشياء ،بما انها كانت قد سمعت من مائلتها مسبقا ان سلوكي هو على مايرام ،ولكن شجبها العفوي لنساء اجنبيات اخريات جعلني اكثر ادراكا من قبل لشعور القرويين الودي المتقلقل ، ولو انهم كانوا متمدنين على نحو مشابه لاتراك لربما انعدم مكان في ايران يمكن لمرأة اجنبية ان تشعر فيه بالراحة .

لم اتوقع ان ارى المزيد من اللاجئين بقدر عدم توقعي المعاداة من تقبيل الرجال الآخرين . فبعد ظهورهم في الأفق تماما ذكرت امينة ونسرين عرضيا ان مجموعات من العراقيين قد أتت مشيا الى دستان منذ اسابيع مضت . كانت الحكومة العراقية قد طردت هؤلاء القبليين الباشيين من قراهم الواقعة في أقصى الشمال الغربي . لقد استمرت الحكومة العراقية باتباع سياستها التي بدأتها قبل الحرب على الرغم من انها كانت قد وعدت بالعفو العام لجميع الاكراد في نهاية الحرب وذلك بنقلهم عنوة من أراضيهم في الجبال الشمالية وتوطينهم في معسكرات في صحراء جنوب العراق . ويعدّد تعطى الاراضي الكردية الخضبة للعرب ومن

المفترض ان كل هذه الاجراءات تتخذ للتأكد من ان يوما ما لن يكون ثمة تمركز للأكراد في اي مكان قريب من النفط العراقي— وبذلك لن يتمكن الاكراد ابدا من المطالبة بأي من الفوائد التي يجنيها العراق من الشروات الكامنة في باطن كردستان .

اشار وصول اللاجئين بعض الالتهياج في دستان . فقد سار اللاجئين في الجبال لمدة اثني عشر يوما ، يتجنبون الجنود والأراضي الملوثة بطريقة ما على طول الحدود العراقية والتركية والایرانية . قدم لهم خدم مريم الشاي والسجائر وارسل لهم الحاج اسماعيل شاحنة مباشرة لتعملهم الى معسكر اللاجئين . ولكن لم يول احد اهتماما كبيرا بمعاناتهم . ونسرين التي بسدت متأثرة ومهتاجة في تصرفاتها لوصولهم في البداية لم تحدث معهم ابدا ، بل وقفت معي ومع امينة تحديق فيهم من على بعد ، وهم يجلسون تحت اشجار بستان المشمش ، تساءلت من سبب توقعي توجيه المزيد من التعاطف نحو هؤلاء اللاجئين المنهوكي القوى وقد لوحت الشمس وجوههم وعلى ظهورهم الالبسة الرثة ، والاطفال الرضع في احضانهم ، حيث كان ذلك كل مايملكون في العالم ، من دون ريب كنت افكر بمكان غير كردستان لدى شعوري بالخيبة لأن كل ما فعلته نسرين كان مجرد التحديق فيهم ، ولأن احدا لم يعاقنهم او يواسيهم او حتى يفكر بعدم تحويلهم مباشرة الى معسكر اللاجئين المغزرو من قبل السافاك ، دون شك كنت افكر بكردستان مثالية ، لايشكل فيها الفارق الطبقي او القبلي عائقا ولايعتبر فيها الزيباريون ، المساكين غرباء بالنسبة لأكراد دستان في كردستان يستقبل فيها الاكراد بأنفسهم الاكراد اللاجئين بدلا من السافاك .

وقفت مضطربة قليلا وانا اراقب المشهد امامي ، كانت مريم بلفامها الملفت باحكام حول رأسها على سجادة الصلاة المفروشة امام منزلها ، كانت نسرين وامينة واقفتين في احد الجوانب تحديقان من بعيد ، واللاجئون يتحركون هنا وهناك بصورة عشوائية

ينظرون بقلق الى الدستوريين . نظرت الى ساعتى وساورني قلق حول امكانية عدم لاحاقنا بالحاكمة ، لقد آن اوان المضي الى دار الحريم لتوديعهن . كانت مصافحاتنا هناك فاترة على نحو مشير للفضول والتساؤل . كنت اعرف اني غير مصدقة بانني راحلة حقا ، اظن ان شعوري قد ترجم نفسه : شعرت بالخزي ، ودون شك كان ذلك نابعا من ذاتي لاعتقادي اني لاسحق حقيقة توديعنا افضل لانني انا نفسي اخترت الرحيل ، اختلفت الامور نوعا ما عند مريم ، فقد قبلت نسرين وجهي وبدأت بالنشيج ، وقبلتني مريم ايضا ومن ثم التفتت الى ابنتها لتهدئها ، حضر الحاج اسماعيل ليعيدنا الى المدينة وبدأ هو ايضا حزينا ، صعدت سيارة اللاندروفر وقد خامرني شعور بالخدر .

تأملت المنحنيات الظليلة للجبال عند الشفق ، وتدفق مياه النهر ، والطريقة التي يمشي فيها الرعاة جنبا الى جنب ، لاننا سرنا هذه المرة خلال الممر من ميرغاوار الى سهل ريزاي ، كان محتملا ألا اعود الى المكان الثاني ابدا ، وألا ابصر هذه الجبال ثانية وألا اركب مع الحاج اسماعيل بعد هذا قط ، وربما هذه آخر مرة ارى فيها نسرين ، تلك الفتاة القروية العاطفية الحالمة بالفرار مع رجل قبلي برزاني ، لأنني كنت وسيلة اتصال بالمدينة وبالعالم الواسع الذي كانت ترغب في امضاء حياتها فيه .

تأملت كل شيء بابتهاج محاولة ان اطبعه في ذاكرتي بحيث يتعذر محوه ، لم اصدق ان ايران ستبقى هنا دائما تنتظرنى كسي اعود اليها ، على الرغم من اعتقاد الحكومة الامريكية ان حكم الشاه سيدوم لمئات السنين . ومع ان دستان نفسها قد شهدت منذ اقل من قرن خلا ، فان الاكراد كانوا يجوبون المنطقة ولايزالون منذ آلاف السنين . لم يكن ثمة سبب معقول للاعتقاد بأنهم لنسكن يكونوا هنا . ومع ذلك فقد افق اسلوب حياتي الموقت الى الاعتقاد بأن لاشيء سيبقى كما كان .

يبعد مطار ريزاي عن كردستان مليون ميل في القلب والقلب ،

فهو يقع على بعد عدة اميال الى الشمال الشرقي من المدينة وبذلك يشكل جزءاً من بلاد العجم جغرافيا وكذلك ثقافياً واقتصادياً . عندما اندفعت انا وطه وجيرد فاتحين الأبواب الرجائية لقاعة الانتظار ذات الجدران الرخامية التي تعتبر احدى روائع الشاه المحلية ، كان علينا ان نتخذ سبيلا ملتويا بين حشد ضخم لابتيسر العبور ، لم تكن هناك ارتال حقيقية امام طاولة تسجيل الاسماء ، بل مجرد كتل متدافعة ، كان الموظف يحاول خدمتها كلها دفعة واحدة . كنت بعيدة بتفكيري عن هذا المكان حتى قبل جلوسي ، متفاسمة زاوية ذات مقعد اسود بلاستيكي مسح جيرد والحشد يتحرك على نحو عشوائي حولنا ، كان زمن الاقلاق قد انقضى منذ مدة قصيرة والناس لا يزالون يتدافعون لدى دخولهم قاعة الانتظار ، بعضهم يذهب مباشرة الى مطعم المطار لطلب الطرخا المشوية على فحم الكوك او الهمبرغر ، وآخرون يسجلون اسماءهم بينما يقف هؤلاء الذين يلتقون بأناس او يرونهم صدمة وهم في طريق سفرهم فيتحدثون مع بعضهم بأصوات عالية ، كان المشهد امامي اقرب ما يكون الى حفلة كوكتيل ضخمة خالية من الشراب .

كان جيرد وطه قد استغرقا في محادثة لم اقدر على سماعها بسبب الضجيج الذي كان يصم الاذان ، كنت افكر بكل الامور التي يجب القيام بها في طهران وفي انكلترا ، حيث كنا ذاهبين لحضور مؤتمر اكاديمي هناك ، شعرت كما لو اني كنت قد غادرت ريزاي من قبل ، على الرغم من تواصل الاعلانات بأن طاشرتنا ستصل في اية لحظة . واخيرا كنت قد تحولت الى ايرانية تماما لامتنادي انها ستأتي في آخر الأمر .

بينما كنت انتظر ، نظرت حولي وشعرت بالذهول الذي ينتاب المرء لدى ادراكه كنه الشيء ، لقد كنت اعرف العديد من هؤلاء الناس . لم يكونوا الغرباء الذين رأيتهم لدى وصولي الى ريزاي في مطلع العام ، ولا الاشخاص المجهولين المنتمين الى الطبقة الوسطى والعليا في طهران . كان هؤلاء جيراني وزملائي الذين

قضيت سنتي معهم ، كانوا اشخاصا تناولت وجبات غذاء معهم
وتحدثت معهم كثيرا ، انتابني شعور بالكآبة ومع ذلك فقد كنت
قد سحرت وتسمرت في مكاني وظللت أتأملهم ، وهم يحدقون فيّ
وينتظرونني كي الاحظهم .

قدمت شهرزاد من احد الجوانب وقد برزت شفتاها الملونتان
بمستحضرات التجميل بابتسامتها المترفعة ، تلك التي كنت
الاحظها مرتسمة على وجهها دوما في الفترة الاخيرة ، اندفعت
واقفة على قدمي بينما كان جيرد وطه غافلين مستغرقين في
محادثتهما ويد احدهما بيد الآخر .
- اتمنى لك رحلة سالمة .

قالت شهرزاد ذلك بابتسامة متكلفة ، رافعة النظر في عيني
بما ان نبرتها كانت تنم عن سلوك تقليدي شكلي ، اعربت لها عن
شكري ، ثم ابتعدت بخطوات متكلفة الاناقة ، وتساءلت في نفسي
هل سيبادر آخر بالتحدث معي . وبعد برهة وصلت السيدة جام ،
- مارغريت ، لماذا لم تعضري الى منزلي لتوديعي؟ وددت لـ
تاخذي بعض الاغراض لولدي في الولايات المتحدة .

لم يعد توبيخ السيدة جام يباغتني ، فقد كنت متيقظة لـ
وقلت :

- أنا آسفة ، لم يكن هناك متسع في حقبيتي ، وكما تعلمين
نحن راحلون من ايران .

بعد ان جلت بنظري حولي اكثر ، رأيت ضابطين من جيش
الولايات المتحدة ، والجواهري الذي افسد مفاجأة جيرد في عيسد
الميلاد ، ووالد الصبي - الذي اتمنى ان لا يرى شرا - الذي كان
قد شهد حادثة المصباح الكهربائي . ومميد الكلية وأعضاء
عديدين من الكلية وشخص آخر كنت اعرفه . ولم ارجب في التحدث
معه .

اخيرا ، نهضنا انا وجيرد لدى الاعلان عن موعد الطيران.

نظرت الى طه كما لو اني لم أراه من قبل . كان قد انتظرنا خلال معظم فترة العصر ،على الرغم من انه كان من المفترض ان يكون في مكتبه طوال اليوم . كنت قد سمعت لنفسى بأن اتسمر مندهشة بهذا الحشد من العجم ، بدلا من التفكير في اخلص طه غير المتذبذب وفي التوديعات في دستان .
- وداعا طه ،شكرا .

قلت ذلك وانا انظر في عينيهِ الزرقاوين الضاريتين الى الخصرة . أردت قول المزيد ،لأعبر عن ذلك الشعور الذي يتصاعد متفجرا ،فِيّ ،وعن حقيقة ان هذا الرجل وعائلته لم يطلبوا منا شيئا سوى ان نكون اصدقاء لهم . تصافعنا ،ومشينا انا وجيـرد نحو الطائرة ،وبينما كنت اصعد على متنها، نظرت وراثي للحظة فرأيت ان طه كان لايزال ينتظر هناك وسط حشد العجم ليشهد اقلاع الطائرة بأمان وسلام .

سيكون من السهل افتقاد اثر الاكراد ،لدى العودة الى امريكا، وكتابة اطروحة عن اللغة الكردية جعلتهم يتراوون لي اقل حقيقة . بدلا من ان يبدو حقيقة مكشفة امامي . كان لابد للتجربة برمتها وللعاطفة ان ينجليا لأتمكن من التركيز على الاصوات التي دونتها على الورق وسجلتها فمسي المسجلة .كنت أتساءل في نفسي احيانا كثيرة ، فيما اذا كان ثمة حاج اسماعيل او دا را أو خديجة حقيقيون . كانت أصواتهم مسجلة ولكن أين هم الآن ؟ انهم في ذهني ، الذي أمضى وقتا صعبا في التسوية بين جو الجامعة العقيم وحضور كردستان المكثف .

يوجد أكراد في الولايات المتحدة ،وكنتم أعرف أن حوالي خمسين من الرجال الاكراد قد قدموا دفعة واحدة ومكثوا هنا. أما بالنسبة لآلاف اللاجئين في ايران ،الذين كانوا يرغبون في المجيء الى الولايات المتحدة، فقد عرفت انه سمح لمجموعة ضئيلة منهم بالدخول الى أمريكا . كان الطبيب المتعاون مع السافاك

هنا . وكان أناس آخرون عديدون قد نجحوا بوسائل مختلفة فسي
المروء من طريق دائرة الهجرة التابعة للولايات المتحدة .

قبض على رجل كنت قد التقيت به في ايران في مطار كيندي
لاستخدامه جواز سفر مزيف والى جانبه زوجته الشاحبة المفرومة
وفي حضنها طفل ذو سنة أشهر . تلقيت مكالمة من حجرة فسي
فندق نيويورك الذي كانوا فيه ، خاشعين من أن يبت القرار فسي
وضعهم . هل ستسمح لهم حكومة الولايات المتحدة بالبقاء ؟ لم يكن
قد صرح رسميا ابدا باعتبار الاكراد لاجئين ، وعندما حاول
هذا الرجل أن يتصل بأشخاص من الولايات المتحدة كان قد التقي
بهم في العراق ، اصروا على عدم معرفتهم به . كانت ثمة ضغوط
غامضة من مواقع عدة مبهمة في واشنطن تصر على عدم قبول هذا
الرجل داخل الولايات المتحدة .

في غضون ذلك ، كنت أكتب اطروحتي بجمع معرفتي بأنني
عاجزة عن فعل الكثير . بدا أن لأحد في امريكا يعرف شيئا
عن دورالسي . أي في مكان لم يسمع به بدعي كردستاني . بعدات
الرسائل تصل الواحدة تلو الاخرى من الحاج اسماعيل ، دارا والشيخ
عبدالله وهم يبحثون بتحقيقاتهم الحارة ، ويحاولون من مومند
عودتي ، عند النساء سمعت الأخبار من اذاعة محلية ، وقد نقلت
ان الحكومة الامريكية كانت على وشك تلقي صدمة بسبب التفرير
الصادر عن لجنة بايك التابعة للكونغرس ، والذي يبحث في دور
المخابرات المركزية الامريكية بطريقة سرية في الوقت الراهن ،
ليس في أماكن معروفة جيدا مثل انغولا ، وايطاليا ، فحسب بل
ايضا بين مجموعة عرقية مناهضة لسياسة الدولة المسيطرة عليها
وتدعى الاكراد ، في النهاية ظهر تقرير بايك وقيم الدليل على
ادعاءات الطبيب الكردي المتذبذبة اخيرا . عندئذ تساءلت عن
مدى معرفة الحاج اسماعيل والشيخ عبدالله والبقية بالواضع ، هل
سيرحب بالامريكان يوما ما ثانية في كردستان .

يتألف الجزء المتعلق بالاكرد من تقرير لجنة بايك فقط من عمودين موجزين من صفحة مطبوعة ، ويصف التقرير في تعابير محددة كيف ان الولايات المتحدة والتي تعمل بتوجيهات من الشاه شجعت الاكرد لبدء ثورتهم سنة ١٩٧٤ لأن ايران اودت ان تربك العراق . وتصف ايضا هنري كيسنجر وهو يوجه القيادة الكردية ضد المصالح الكردية لصالح الشاه ويستمر هذان العمودان في سرد كيفية ان الولايات المتحدة ادارت ظهرها ببساطة من ثلاثة ملايين من الاكرد المعاقين في العراق ومشتي ألف من اللاجئين المعجوزين داخل الحدود الايرانية عندما قامت العراق باعطاء " امتيازين " لا وزن لهما على سبيل التهدة والوصول الى اتفاق . وحسب اقوال اللجنة المنبثقة عن الهيئة التشريعية العليا ، الكونغرس " فان ماقمنابه كان مشروعا نابعا من سلوك تهيمن عليه مصالحنا الذاتية وحدها حتى لو كان ضمن محيط العمل السري " .

لم أكن مستعدة بعد لتصديق ماهو أسوأ ، وكذلك كان صديق لي كردي قد هاجر الى امريكا منذ اكثر من عقد مضى ، أخذنا معا نسخة من تقرير بايك وذهبنا الى محاضرة كان يلقيها موظف ذو رتبة عالية متخصص في قسم الشرق الاوسط التابع لادارة حكومية ، انتظرنا بصبر الى أن انتهت المحاضرة وأعيدت افكار متسمة بالتكرار من الحرب العربية الاسرائيلية على نحو شامل . بعد ذلك رفع أسد ، الكردي يده وسأل بلغته الانكليزية المشددة :

— ماذا بشأن تورط الامريكان مع الاكرد ؟

حذق موظف الادارة الحكومية فينا ، بينما التفت الحشد الاكاديمي ليرى الشخص الذي طرح هذا السؤال .

— الاكرد ؟

قال الموظف باندعاش . عند ذلك تذكرت الموقف لدى ذهابي لروية العميد بشأن دارا .

— ماذا عنهم ؟ ماذا لديك لتقوله حول الطريقة التي

عاملتهم بها امريكا ، باستخدامها لهم ومن ثم تركهم يواجهون مصيرا فظيحا ؟ .

كان تنفس الموظف مسموعا في مكبر الصوت .
 - لا أعرف بماذا تنوه ، ليس لأمريكا علاقات مباشرة مع الأكراد .
 رفع أسد نسخة تقرير بايك لرجل الإدارة الأمريكية ليراه . فصرف
 الحاضرون انظارهم عنه . كنت اعرف ماكانوا يفكرون فيه . فقد
 كانوا يعتبرونه مجرد مجنون شرق أوسطي آخر . وكذلك هو ليس
 فلسطينيا ذا علاقات مع الطبقات الاجتماعية العليا .

صرخ أسد بصوت عال وقد دكن وجهه من الغضب :

- ماذا عن تقرير بايك ؟

- ان تقرير بايك مليء بأمور غير دقيقة .

ولم يحسم بعد او يسمح له بالنشر بالمعنى الضيق للكلمة
 ولاشيء فيه يمكن ان يؤخذ على انه حقيقي على نحو موكد .

احاب الرجل على سوء ال طرحه شخص آخر ، جلس أسد بعدئذ بهدوء
 وهمس باتجاهنا من بعيد احد الحضور ، وهو واحد من خبراء الجامعة
 في شؤون الشرق الأوسط غير الناضجين وقال :

- ما حدث للأكراد هو نتيجة خطئهم تماما . لقد سيجب ان
 لانفسهم بأن يستغلهم الآخرون .

حلمت بعاشقة وهي تعذب بعد هذا بمدة وجيزة ، حاولت ان ابعد
 الاكراد عن تفكيري وان اركز على اطروحتي ولكن ذلك كان صعبا .
 هتف لي اللاجئ الموجود في نيويورك ثانية وقال انه قد منح حق
 اللجوء السياسي . ونقل التي مقتطفات من اخبار طيبة محدودة ،
 حيث قال انه سيسمح لسبعمئة من اللاجئين الاكراد بالمجيء من
 ايران الى امريكا . سبعمئة لاجئ من اصل ٢٠٠.٠٠٠ وما يقارب
 من ١٠٠.٠٠٠ لاجئ فيبيتنامي و ٧٠٠ كردي ، تمنيت لو تنقل مسألة
 الاكراد كاملة في اخبار ال C.B.S سي . بي . اس . هيئة
 الاذاعة الأمريكية .

ذهبت في يوم شتوي قارس جدا لزيارة الرجل الذي كان قد
 جاء بجواز سفر مزور وأبعد تقريبا ، لأن الاكراد لم يكونوا

لاجئين وسميين . كانت زوجته قد نجحت في ايجاد كل اساسيات طبخة لتعد وجبة كردية مشكلة من الارز والمعكرونة والخبز والشاي والفاكهة . تناولنا غذاءنا ونحن جالسون على أرضية حجرة الفندق في مكان ضيق عند نهايات الاسرة ، ووضع الطعام فوق اعداد قديمة من جريشة النيويورك تايمز ، أبلغني الرجل انه كان يتفحص بدقة وقلق الجرائد ،بعثا عن اخبار عن الاكراد .

كان وجه الرجل غير حليق وملفتا للانظار ،بدا هو وزوجته مبتهجين لرومية شخص يعرفانه مسبقا ،قبل التغيير الذي طرأ على حياتهما التي كانت أكثر سعادة . سألتهما :

— ماذا ستفعلان الآن ؟

ابتسم الرجل بحزن وقال :

— لانهرف .

شعرت انهما كانا ينتظرانني لأقدم لهما اقتراحا مساعدا أو عرضا ما . ولكنني كنت اقتنيت شقة صغيرة ولم تكن لدى اتصالات لاساعد هذا الرجل ليحصل على عمل . حاولت ان اوضح هذه الحقائق له ولكن ابتسامته اتسعت أكثر ،وقال :

— نعم ،انا افهمك ، حسنا ، لابس في ذلك .

مضت ثلاث سنوات قبل عودتي الى كردستان . كان صيف سنة ١٩٧٨ فترة تصفية حسابات بالنسبة لايوان ،فترة لتسوية الحسابات مع الشاه ووالده الذي سلب ثروات الأمة بقدر ما يمكن ان تذكره أغلبية الشعب . تلاشت الحواجز وسمعنا انا وجيرد اصدقاء لنا في طهران يتحدثون بعلنية أكثر ضد حكومتهم أكثر مما كانوا يجرون عليه في أي وقت مضى حتى في الولايات المتحدة . وبقدر مايتعلق بهذه الحواجز ، فان افواه الاكراد الذين كنا نعرفهم جيدا لم تتوقف من الحديث بشأنها ابدا . لقد افصحوا عما يجيش في صدورهم من مشاعر الحقد تجاه الشاه ووالده ولم يبق شيء منها خفيا .

كانت لغتي الكردية قد تحسنت فعلا بعد كل هذه الأشهر ممتن

الاصغاء الى الاشرطة التي سجلتها والرجوع للتدقيق في القاموس الذي كانت ابنة نانا على وشك اطلاقه . كان عليّ ان اتعلم ان حسن الاستقبال والحماسة التي شعرنا بها لدى وجودنا مؤخرًا في دستان لم تكن شيئًا مختلفًا من خيالنا . كان لا يزال ثمة ترحيب ينتظر مودتنا وحتى يمكن ان يكون اكثر حرارة .

كان رأسي لا يزال يفضج من الرحلة الطويلة التي قمنا بها في الحافلة الى ريزاي ، الى ان انعطفت سيارة الاجرة البرتقالية نحو قرية الحاج اسماعيل . التغيير الأول الذي لاحظته هو وجود اعمدة كهرباء . وكانت تتفرع على نحو منحرف من خطوط الاسلاك الكهربائية الممتدة على طول الطريق المؤدي الى الحدود العراقية . لقد بات يوم الكهرباء قريبًا ، على الرغم من عدم وجود اسلاك على هذه الاعمدة الممتدة الى دستان . والتغيير الثاني الواضح والمباشر في دستان كان انجاب خديجة وطه ولدا ، بحيث قد ولد بعد فترة وجيزة من مغادرتنا كردستان وهو الآن طفل ذو سنتين ، مدلل جدا وحبيب جدته . كان طه اخيرا قد تخطى عن كليته ، ظننا انه كان قد حل مسألة الاختيار بين كونه طالبا ذا خمسة وعشرين عاما في السنة الاخيرة في المدرسة العليا ، وبين اتخاذ مكانه كسيد مأمول لاحدى اغنى القرى في كردستان الإيرانية . اما خديجة فهي في الوقت الراهن تحت اشراف حماتها لأن زوجها قد انتقل الى القرية . لم تكن تلك خديجة الخالية من الهم التي اذكروها ، وذلك بسبب ضغط واجباتها المنزلية وواجباتها تجاه طفلها . كانت في حالة نزق دائم وتشكو من الصداع ، ولكن بالطبع ، كل ذلك كان دون ما هو ظاهر ، ولهم الحظ في البداية ، اخذت دوامة حسن الاستقبال كل شيء سوى الابتهاج الواضح على مضيئينا لوصولنا . وكما يقول المثل الإيراني : الضيوف احباب الله . كان الاكسراد يجعلوننا نشعر بالمودّة اكثر من أي مضيئين آخرين التقينا بهم .

رافقنا الحاج اسماعيل الى " درمان آغا " بسيارته التويوتا واقبضت ولاقم في ديوانخانته ، حيث احضر الحاج اسماعيل آلة التصوير

الغوري واظهرني في صور عديدة كان التركيز فيها علي ضيلا ،
ليحتفي بهذه المناسبة الخاصة . فعلت اكثر مما كنت أريد في
دستان ، ربما لأن هذه كانت رحلتي الثانية ، وكنت اشعر بالثقة
اكثر في نفسي مع الاكراد ، فقد شهرت بحرية اكثر في مداعبة
مضيفاتي عندما كن هن أيضا يفعلن ذلك وقررت ان اتسلق الجبل
الذي يرتفع خلف دستان على طول الطريق ، حتى الحدود التركية ، وقد
شكل هذا صدمة للحاج اسماعيل ومريم .

كنت الانشئ الوحيدة في فريق مؤلف من ثمانية من أولاد الحاج
اسماعيل وأولاد اخنته وجيرد . لقد كان الاكراد لطفاء معي بقدر
ما يستطيعون . فقد حملوا كامرتي بدلا عني وعندما ظهر رجلان
كهلان بجانب الممر الضيق يقودان احصنة في الاتجاه الذي كنا
نسير فيه ، طلب مضيفونا حصانين لنركبهما انا وجيرد . وبفضل
منايتهم المفرطة كنت قد انهكت فقط ولم امت ، لدى بلوغنا الثلج
والمعسكر الصيفي للقرية الذي يقضي الشتاءات في سهل ميرغاوار قرب
دستان . عرفت سبب عدم اعتبار الحاج هذا التسلق رياضة ولماذا
حاول بشدة ان يخلصنا بالتخلي عنه . ان التسلق عمل مطلوب من
الرعاة واسرهم ، الذين يأخذون الاغنياء الى مراعي تقع في اماكن
اعلى ، بعيدا عن مشب السهل الجاف ، انه ليس امرا يفعله معظم
الشبان للتسلية . ومع ذلك ، وكالعادة ، فقد تفهّل علينا الاكراد
بتحقيق رغباتنا واخذونا الى حيث كنا نريد .

اصبح التسلق اكثر امتاما برفقة محمد ، كنت اسمع منذ
زيارتي الاولى لدستان عن محمد ، عندما اخبرتني والدته واخت
الحاج اسماعيل ، ان لها ابنا يتحدث الانكليزية بطلاقة وانه يدرس
العلوم في احدى الجامعات الايرانية ، وبالنظر الى بيثة دستان
بدا ذلك غير ممكن الى حد بعيد ، حتى اني تساءلت اذا لم تكن
تبالغ قليلا ، وعلى كل حال ألم تظن خديجة ان روسيا الشيخ عبيد
الله وامريهيتي كانتا نفس المكان ؟

ولكن محمدا كان حقيقيا تماما وتقريبا افضل من الحقيقـة

بكثير . كانت انكليزته ظاهرة شريفة بالنسبة لشخص لم يخرج من ايران ابدا . على الرغم - وبالتأكيد - من انه لم يكن ابرع من الحاج اسماعيل فقد كان من المدهش ان ترى اهتمام كردي مولهود في القرية موجه نحو علم الاحياء ودراسة اللغات على نحو رسمي بدلا من ان يوجه نحو الزراعة وصيد الغزلان والسياسات القبلية . ان وجود محمد في القرية احدث اختلافا كبيرا في أمر بقائنا . فلم يكن ثمة شخص في دستان يمكننا التحدث معه بالانكليزية فقط . ولكن اللغة لم تكن السبب الرئيسي والفعل ، بما اننا كنا نتقدم جيذا في الكرديّة والفارسيّة ، ولم نكن نحتاج لمساعدته في الترجمة . ان المظهر الثقافي هو الذي احدث هذا الاختلاف بالتعليقات التي كان يبديها والاجوبة الجوهرية التي يجيبها عن القرية وعن اسرة كان قد اقام معها لمدة عشر سنوات ومن ثم غادرها الى مدينة اميال عنها . لقد كان من نواح عدة شخصا مريحا ، ومن نواح اخرى كان وجوده هنا بيّنة تشير المصادمات . ولكن في النهاية كان حضوره يثير التساؤلات اكثر مما يجيب عليها .

اشاء مودتي الى ايران تحدث اليّ شخصان فقط حول تهورط امريكا في الحرب الكرديّة الاخيرة . كان احدهما الشيخ عبدالله الذي اشار الى السي . آي . اي . على نحو غير مباشر . لقد اتضح لي الآن ان الشيخ عبدالله يعرف وكان قد عرف كل شيء جار ، على الرغم من انسحابه الرسمي الاضطراري ، اما الشخص الآخر الذي كان يعرف السي ، آي ، اي . والذي لم يترك مجال العفو ابدا ، هو السيد خليلي ، صديقي في محطة الاذاعة والذي كان قد قدمني اصلا الى خاتمة الحاج اسماعيل .

فحسب رواية السيد خليلي فان السي . آي . اي . لم تكن مسؤولة عن قتلى الاكراد العراقيين الذين اشتركوا في القتال فحسب ، بل من جميع الاكراد الذين طوّقتهم الحكومتان في ايران وتركيا . وفي الحقيقة بدا انه ليس هناك حدود لقوة وقدرة امريكا في نظر السيد خليلي . التقينا انا والسيد خليلي وجيرد في احدى الليالي وجلسنا على مقعد في احدى الحدائق . بدت الحديقة مشل

اماكن عديدة جميلة في ايران ،وكانها قد تحولت الى موقــف للسيارات ،التي كانت تسير بمحاذاتنا تماما في ممر ضيق مخصص للمشــي . وعندما اهديت استياثي من ذلك للسيد خليلي قال بمــا معناه ان دمار هذه الحديقة هو خطأ الولايات المتحدة كما كانت وينفس القدر هي السبب في خراب الزراعة الايرانية ايضا .

كان بعضـمما يقوله السيد خليلي صحيحا على نحو مطلق ،ولكن تدمره بصورة عامة كان شبيها بالمسؤولية المتعذر السيطــرة عليها والتي كان العديد من الايرانيين يرغبون في رمي ثقلها على كاهل امريكا . فحتى الآن يظن العديد من الايرانيين الليبراليين ان الولايات المتحدة هي التي كانت وراء تسلـم آية الله الخميني السلطة ، ان كل امر سيء يمكن ان يحدث في ايران ،ولو فــي حدائقها ،يمكن ان يلقي امام عتبة امريكا .

جلت بنظري نحو البدر بعيدا عن وجه السيد خليلي المنفعـل . شعرت بالانزعاج لتسلط هذه الفكرة على السيد خليلي ومن ثم انتابني شعور بالخجل من نفسي لاحساسي بالانزعاج ، ماذا يريد منا السيد خليلي ؟ ماذا نريد منه نحن ايضا ؟ كان السيد خليلي يشير قلقي اكثر من اي شخص آخر التقيت به في ايران . عندما فادنا ريزاي بعد اقامتنا فيها ، كانت صحته الجسدية والنفسية في حالة واهنة لدرجة اني تساءلت فيما اذا كنت سأراه حيا في زيارة اخرى . لقد تراءى لي مجسدا وحي كردستان وضميرها ،والآن وبعد ان قضيت فترة مع اللاجئين في امريكا لاحظت كم يشبههم السيد خليلي في طريقة تفكيرهم وحديثهم . لقد كان لاجئا في ارضه الأم . ولسم يقدر السيد خليلي ان يتأكد اهدا من أننا لسنا عناصر من السي آي . آي . فعلا ،على نحو مغاير عن الشيخ عبد الله .

كان تقبل انتقاد السيد خليلي اكثر صعوبة من انتقاد كردي آخر ، قومي متحدث وهو محمد ابن اخت الحاج اسماعيل . وقــد قضيت معظم وقتي في دستان برفقة محمد . اتحدث من كل شيء تقريبا . بدا انه لا توجد محظورات عند محمد ،وفي جو الروح الـ "جـد" . السائدة في اب ان والروح الحرة الكردية التقليدية ،ان حوضنا

مناقشة طويلة حول عزمه على السفر الى تركيا والى جميع انحاء
كردستان في مهمة استقصاء وتنظيم اخوانه الاكراد سياسيا لم تشر
في تفكيري الا بعن الاسفخواب . لم يتحدث الي احد ابدا بتلك
الحرية ولكن من ناحية لم يكن ثمة شبهة لمحمد .

هدم عبدالله كل ما كونه من آراء حول محمد في احد الايام
بعد مغيبه الى عمله في طهران ، فلقد سألني :

- انك تتحدثين مع محمد كثيرا ، اليس كذلك ؟

تأملت وجهه متسائلة فيمَا ، إذا كان قلنا مثل خديجة مسؤول
مسألة ملازمة قضاء الكثير من الوقت مع رجل هو ليس بزوجي ، وأردف
قائلا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة :

- أتعلمين ان بعض الناس يقولون ان محمدا يكتب تقارير
للساقا ؟

انتابتنى فورة من الغضب لهول المفاجأة ، ثمة اناس آخرون
يوجهون ضروب الاتهامات هذه بسهولة ولكن ليس الشيخ عبدالله وبأمر
بمس قريبه . سألت بحدة متمسكة - على نحو يائس - بثقاة وود
ببتلاشيان بسومة رهيبة . انقلبت الحقيقة في لحظة رأسا على عقب
ولن تعود الصداقة مثلما كانت ابدا . لقد ادركت لتوي من الشعور
المرفي في معدتي انني حقا في ابران ثانية . واضاف الشيخ عبدالله
غير مبال :

- لا أعرف . ولكنني ظننت انه لزام علي اخبارك بذلك .

عندما عدنا الى طهران من زيارتنا الى كردستان ، تسرددت
ولكني بعدد هتفت لمحمد في مكان عمله ، نزولا عند طلبه . قسائل
انه متلف ليرينا انحاء المدينة أو أن يساعدنا بأي طريقة
ممكنة . تعطلت فعالياتي لدى سماع صوته ثانية . كان محمد يذكروني
بالحاج اسماعيل من نواح عدة ، وفي الحقيقة كان محمد قد حدثني
عن مدى حبه واحترامه لخاله على الرغم من كل اساليب الحجاج
المتحفظة .

التقينا بمحمد في المتحف الايراني للفن الحديث ، وهو مؤسسة

بدأت انها تعكس اهتمام الامبراطورة فرح في الرسم الفرنسي. كان محمد برفقة امرأة زميلة له في العمل . وتساءلت فيما اذا كان كلاهما يعملان للسافاك في وقت لاحق وبعد ان تأملنا مجموعة الفن بامعان ، اخذنا محمد الى منزل احد اقاربه في شمال طهران. لقد اشار زواج محمد من زميلة له في الجامعة بدلا من زواجه من كردية، اشار انطباعا غامضا لدي .

بدأ الشك يراودني ثانية ، عندما قادنا عبر الفناء ومن ثم الى قاعة الاستقبال الايوانية المؤهثة على نحو فاخر ، كان جميع افراد اسرة زوجته ينادونه بمحمد خان . وقد بدا ذلك فريبا للغاية ، بما انهم ليسوا اكراد . لماذا يكتنون هذا الاحترام البالغ لابن قائد قبلي ، مولود في القرية ؟ في غضون ذلك المساء قدم لي محمد زوجا من الصنادل البلوجية ، المصنوعة من الياف شجر النخيل . عند العودة الى دستان روى لي كيف ان عمله قد اخذه الى جميع انحاء ايران. كان محمد قد قام بزيارات لاماكن فقيرة ومتخلفة الى حد لا يصدق ، اماكن كانت تجعل القرى الكردية تبدو مثل ضواحي ويستجستر ، كانت الحالة المتأزمة للبلوجيين في الجنوب الشرقي من ايران قد اثرت في محمد بشدة ، ربما لأن بلوجستان هي مثل كردستان ، مجزأة بين بلدان عدة ، مع كل المحاولات الايرانية والباكستانية للقيام ما باستطاعتها لاعاقبة القومية البلوجية .

- تغلبي هذا الصندوق .

قال ذلك محمد وهو يناولني اياه ، اخبرني في دستان انه عازم على تقديم هذه الذكرى لي من بلوجستان . ومع ذلك فقدس حرمته في نفسي في طهران ، انه قد اعطاني اياه على سبيل الشكليات فحسب . لذلك تركته قابعا على طاولة المقهى عندما مضيت الى المنزل

راينا محمد ثانية في احد الايام ، وكلفت نظري كيفية تدبره امره في الذهاب والاياب من عمله بهذه السهولة ، ولكن محمدا كان متحمسا كما هو دوما . وتبعنا الى مكتبة روسية تقع في الجانب الاخر من جامعة طهران ، حيث تصفحت كتبنا بحشا عن بعض الكتب الروسية

من الاكراد . وطبعاً لم نعثر على اي شيء . وكنا قد قمنا بزيارات عديدة اليها ولم نجد شيئاً قط .

التقى بنا محمد مرة اخرى ليودعنا . وكان في يده الصندوق المصنوع من الياف النخيل . وقال متحيراً :
- لم تأخذه . لقد اهديتك اياه ، ألا تريدونه ؟

شعرت بالاضطراب لذلك ، لماذا كنت متأكدة انه لم يكن يقصد اعطائي اياه ؟ لم يكن هناك شيء بينهم من سلوك شكلي وتقليدي في عاداته . ربما كان ذلك ماتمنيته فعلاً . فعلى الأقل لخطت الرسميات لدي مبرراً لاكرهه .

تساءلت حينئذ ، كما أتساءل الآن ، فيما اذا كان محمد قد احس بفتورنا الغريب . وقد فتحت فمي اكثر من مرة لأتكلم وأوضح الموقف ولكن ارادتي خائنتني فالذي ابلغنا عن محمد هو الشيخ عبدالله .

ذكرني محمد عندما وقفنا في الشارع في طهران نتصافح بأنه صارم علي المجيء الى امريكا وانه ينوي الحصول على الجنسية هناك واهاف :

- انها الطريقة الوحيدة كي أكون حراً في مساعدة أبناء جلدتي . فقلت له موحية :

- ولكنك ستنسى الاكراد ، عندما تذهب الى امريكا ، لن تفكر في العودة الى كردستان ، فنظر الي بوجه صارم وقال :

- ان والدي ووالده وجدته قد كرسوا حياتهم للقضية كردستان فتساءلت في نفسي ، هل يمكن أن تكون هذه كلمات عميل للسافاك .

انتهينا من المصافحة ومضى هو بخطوات واسعة سريعة نحو الشارع .

- انتظر ، انتظر يا محمد .

قلت ذلك وأنا أصرخ وراءه تقريبا ، بعدد لغني الصمت ولم أتفوه بكلمة ، ووقفت أراقبه بحزن وهو يرحل من الطريق .

كلمة اخيرة

كنت خائفة في البداية ، لدى شروعي في تدوين تجاربي في كردستان ، فلم يكن قد مضى شهر بعد على مودتي من ايران حتى بدأت أشعر بعيون السافاك السرية ، تثقل كاهلي ، حتى في أمريكا وارتأيت بعدئذ ، انه ليس من الحكمة الكشف عن الحقائق الواقعية والممتعة ، ووضع أصدقائي الاكراد في خطر . لذلك فقد غيرت الاسماء والأماكن وبعض التفاصيل ، لاختفاء هوية كل شخص ورد ذكره في الكتاب ، منذ البداية تقريبا .

عندما أكره الشاه على الخروج من ايران ، شعرت بانرياح هذا الثقل ، اذ لم يعد هناك ما يسمى بالسافاك على الأقل ، كان من الصعب علي أن ابدى حماسا تجاه مفهوم دولة خافعة لحكم رجال الدين الشيعة ، على الرغم من ميلي المتعاطف مع الأقليات العرقية والدينية في ايران ، ولكنني أملت مع آخرين عديدين ، أن البوليس السري ومراقبة المطبوعات ، وتوجيه الاتهامات - حتى بالشك فقط - ستصبح ذكريات من ماضٍ وحشي مرعب . لم أعرف أبدا رأي أصدقائي الاكراد بآية الله الخميني ، اذ بعد مغادرتي ايران صيف ١٩٧٨ أصبحت الاضرابات في مراكز البريد مستمرة و اشتدت عمليات الاخلال بالأمن مما جعل المراسلات المتبادلة داخل وحول ريزاي مستحيلة . وبالإضافة الى ذلك لم أكن قادرة على معرفة ما حدث لهم في هذه السنة من العنف المتجدد .

انه لمن السخرية المريعة ، أن يحظى الاكراد الآن فقط بتغطية في الصفحات الاولى من الصحف الأمريكية . ففي حرب سنة ١٩٧٤ في العراق التي ذهب ضحيتها آلاف لا تحصى من الاكراد لم تتلق قضيتهم وكفاحهم القدر المماثل من الاعلان والدعاية المتدفقة عنهم من ايران يوميا في الوقت الراهن . سيعلم القليل القليل ، ذلك

الذي يقرأ التقارير عن المعارك ويتفحص بدقة صور الأكراد المصطفين لينفذ حكم الاعداء فيهم، وتبدو الصحافة الأمريكية متلهفة لنقل ان اعدا ما يقاوم آية الله الخميني، حتى ولو أنه واحد من المجموعات القبلية، ألا وهم "الأكراد"، ومعظم التقارير الاخبارية تتجاهل او تشوش حقيقة وجود امة كبيرة ومتماثلة في ارض كردستان المجزأة والخاضعة للحكومات في انقرة وبغداد وطهران .

هناك روية نامية حول كردستان موحدة في الشرق الأوسط هذه السنة اكثر من اي سنة اخرى في الذاكرة القريبة، والحدود التي تفصل الاكراد عن بعضهم غير مسيطر عليها، لأن الحكومات في ايران والعراق وتركيا كلها مزمنة . لا أحد يعرف اذا كان الخميني سيقدر على حشد جيش وترسيخ حكومة، لتسيطر على تلك الأرض الواسعة بشعوبها المتباينة . كانت العراق حديثا قد شهدت محاولة انقلاب ثانية وكان قد اعدم فريق ضخم آخر من المسؤولين في حزب البعث، وتبدو تركيا دوما على حافة الافلاس ويتولى الجيش والقوات المسلحة السلطة فيها .

أتساءل فيما اذا كان لدى الاكراد الذين دمتهم سنة ١٩٧٨ معرفة طفيفة او حس داخلي باحتمال توفر مناخ جديد لهم، وانفتاح مجال واسع امامهم، جاء رحيلي الأول من ايران في غضون الاثار الكارثية لحرب ١٩٧٤ المشؤومة . بدا كل شخص حزينا، ليس الاكراد اللاجئين الذين كانوا يدرسون القرار للبقاء في المنفى أو العودة الى تعذيب وموت ممكن في العراق فحسب، بل جميع الاكراد في ايران، في تركيا وفي جميع انحاء العالم . سارت الحياة واستمرت على ما كانت عليه في ايران وتركيا التي لم يكن فيها للأكراد ضمان للحقوق الثقافية، اما في العراق فلم يعد هناك سبب كي يقدم النظام تنازلات للأكراد، بما ان كيسنجر والشاه قد قطعا عنهم الدعم من الخلف، نظمت اعدامات جماعية، وشلت الممثلة الكردية في الحكومة العراقية واقصيت اللغة الكردية كوسيط للتعليم في المدارس والجامعات في كردستان العراق .

وملاوة على ذلك نتجت آثار غير مباشرة أيضا بالنسبة للأكراد بسبب أحداث سنتي ٧٤-٧٥، فالعالم لم يكن متعاطفا مع القضية الكردية ابدا . وقد تقدم التقدميون الاكراد بطلب رسمي سنة ١٩٦٠ لعبد الناصر ، كي يرفع قضيتهم مع العراقيين الى هيئات دولية وقد امتدح عبد الناصر من ذلك ، لا أحد في القاهرة او في اي بلد آخر حينذاك وفي الوقت الجاري ، قدر أو يقدر ان يفهم ايّة نزاعات يمكن ان تحدث في المنطقة . ان صداقات الاكراد ذات الاختيار السيء مع امريكا وشاه ايران ، خفقت اي ومضة ضئيلة من التعاطف ، كان من الممكن ان يجدها الاكراد بين اليساريين والمسلمين او القوميين العرب . على الرغم من انه شيء قابل للجدل ان تقول : ما كان لغير هذا ان يحدث اي تغيير في الموقف - حيث لم يقدم احد من هذه الجماعات الدعم للأكراد علنيا ابدا - فقد قدم هذا الأمر التسهيلات للحكومة العراقية كثيرا كي تقوم بالابادات الجماعية ، حيث اجبر في الوقت الجاري حوالي ٥٠٠,٠٠٠ الى ١٠٠,٠٠٠ من الأكراد قسرا على الإقامة في المعسكرات في الصحراء الجنوبية العراقية ، بعد ان أجلوا تحت ضغط فوهة البندقية من قراهم في كردستان العراق . ويفرغ العراقيون رقعة من الارض يبلغ اتساعها مئتي الف عشرين الى ثلاثين كيلومترا على طول حدودهم مع ايران وتركيا وبذلك يحدثون ارضا بلا شعب ، فقد ابعدت الاشجار والمنازل والمحاصيل من بكرة ابيها . ان الجزء الأكثر اخضرارا وخصوبة في كردستان يقع ضمن حدود العراق ولكن الينابيع الجبلية قد سدت بالاسمنت المسلح وصبت السوائل الكيميائية على النباتات الطبيعية .

ومع كل هذا فان الحكومة العراقية غير قادرة على قتل كل الاكراد في العراق ، كما لم يستطع الشاه ان يجعل من نفسه شخصا لا يهمل بقتل كل ايراني . ان جيل الاكراد الذين عرفتهم في مدرسة اللاجئين عند العودة الى ريزاي ، ليس مستعدا للعودة الى عراق يحكمه نظام عنصري ، لقد نشؤوا في كردستان ، حيث كانت لغتهم الكتاب الأولى لتعلم القراءة والكتابة ونصوص الفيزياء بالكردية وليس بالعربية .

لا يزال القتال مستمرا في العراق ولكن القليل منه ما يلفت الانتباه في الصحف الامريكية ، وقبل عدة اشهر وافت المنية الملا مصطفى البرزاني ، رجل الثورة الكردية المتمرس بعدمعركة دامت خمس سنوات مع السرطان ، لقد مضى مسعود البرزاني ذو الخمس والثلاثين سنة لتوّه الى ايران ، بعد ان شهد احتضار والده على فراش الموت في واشنطن في امريكا ، حيث جمع القوات القديمة التابعة لوالده ، من البرزانيين ، وقادهم عائدا الى العراق عبر الحدود وقد نقل ان مسعود اصبح الامين العام للحزب الديمقراطي الكردستاني ، تلك المنظمة التي تلقت المساعدة من امريكا وايران . ان اسم "أوك" الاتحاد الوطني الكردستاني ليس معروفا في امريكا ، ومع ذلك فقد شرع في القتال وحده منذ الوقت الذي امر فيه البرزاني وجنرالاته رجالهم بوضع السلاح سنة ١٩٧٥ . وقد عاد الى العراق جلال الطالباني وآخرون من الذين كانوا قد اقصوا عن ح.د.ك. ما بين سنوات ١٩٦٠ و ١٩٧٠ . اني الفكر بالشيخ عبدالله واتساءل فيما اذا كانت هذه الاحداث قد خطرت ببالسه لاحقا ام لا .

ابلغني اصدقاء لي في امريكا انهم عرفوا اكرادا عراقيين ظهروا على شاشات التلفزيون وعلى صفحات الصحف الواردة من كردستان الايرانية ، حيث ان سياسة الارض المعروفة الجارية في كردستان العراق لاتزال قائمة . كان الاكراد قد عادوا الى ادارة بلادهم مع مطلع حكم الشاه ، تماما كما بسطوا سيطرتهم عليها خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما كان الجيش الفارسي منشغلا في مكان آخر . وكما كان من قبل في جنوب ريزاي ، فان هذا الحكم يبدو شرعيا تماما ، اكرادا يحكمون اكرادا . ولكن تدفقا من تقارير مشوشة عن اترك " أي اترك؟" يقاتلون اكرادا في منطقة ريزاي - ناعانة ، خلقت مفهوما معينا لدى معظم الامريكان ، كما فعلته مع مراسلي الصحف الذين كانوا يقومون بتغطيتها . من على هذا البعد ليس باستطاعتي الا ان افهم

الى هذا الافتراض وهو أن الدائرة القديمة من النزاع والانتقام بين العجم والكرد قد استوئفت في غياب القمع الحكومي ، أو ربما معدت في وجه الخميني لحضه للأغلبية الشيعة في إيران لحل الأزمة الكردية بالدم اذا اقتضى الأمر .

لا يستطيع الاكراد أن يسيطروا سيطرتهم على ريزاي ، لأنها مدينة تركية ، ولكن تقارير نشرت أن " الغارديان " نقلت أن الاكراد استولوا على مخفر الشرطة في سيرو ، التي عبرناها الى مقاطعة هكاري في كردستان تركيا قبل أربع سنوات ونمعا ظلت . وفي الوقت الراهن من الممكن ألا نقدر على الذهاب الى تركيا الشرقية على الإطلاق ، بسبب الاحكام العرفية السارية هناك . ومن ناحية أخرى يمكن أن تكون سهلة . فربما يستطيع طه أخذنا الى هناك بسيارته اللاندروفر بدون مضايقات جوازات السفر أو التاشيرات . وتقول الاشاعات أن الاكراد في تركيا قد حبروا مناطق بأكملها ، وأنهم يعبرون الحدود بالآلاف ليأتوا لمساعدة اخوانهم الايرانيين .

وقد نعت مسؤول إيراني الاكراد - وعلى نحو رسمي - بأنهم شعب رديء وبأنهم أدوات للشيطان . وكان قد أرسل آية الله الخميني ليمدق باحقاق الحق في كردستان . ويحتل الجيش الإيراني مدن كردستان مدينة مدينة ابتداء من سندانج وساقز ومهاباد وبوكان وبيرانشهر ، وصولا الى بانه ، وقد نقل أن معظمهم قد لادوا بالفراغ فالأكراد كما يتعين على الإيرانيين اكتشافه - ليسوا ، طهرانيين ويأمل الاكراد أن يعمدوا في الجبال لأمس طويل ، كما حدث في حرب ١٩٦١ في العراق .

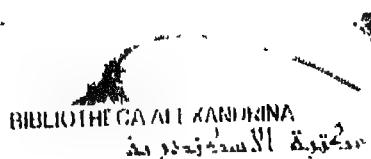
ثمة تهديد وهو موجود دوما ، بأن الفرصة المناسبة للأكراد ستنقضي . وحكومة الولايات المتحدة بحاجة شديدة - بشكل يثير الفغول - لبيع السلاح لجهة ما ، لذلك ربما يكون الإيرانيون قادرين على استكمال المخزون الذي ورثوه من الشاه ، ليصبوا المزيد من السم والنار على كردستان .

تحدث الرئيس التركي الحالي على نحو فظ ، لدينا الأكراد ،
اذ يندر أن يفعل الأتراك ذلك ، عندما يتعلق الأمر بالأكراد ،
وذلك في كلمة له ألقاها في الذكرى السنوية للانتصار التركي
على اليونان سنة ١٩٢٢ ، وصرح قائلا : " ليس هناك حيز للمناطق
وضروب النشاطات التحريرية التي تستهدف الاختلافات اللغوية ،
العرقية ، الطبقية أو الطائفية في وطننا ، وستوقع الحكومة
الهزيمة بهذا الداء وستسحق رؤوس بعضهم " .

لو لم أكن مؤيدة للأكراد ، لما خلقت مضايقات لنفسني
بالكتابة عنهم ، ولكن لو حدث وعرف مزيد من الناس عن وضع
الأكراد فأنهم سيولون عناية كافية للتعبير عن آرائهم بحرية
في الوقت الذي يحول فيه النظام العراقي كردستان الى أرض
خراب ، وسيهتمون بمساعدة الأكراد لاسماع صوتهم في الأمم المتحدة
الى جانب منظمة التحرير الفلسطينية ، وسيهتمون كذلك
بالاحتجاج والادانة ، عندما تستخدم الأسلحة الأمريكية ضد الأكراد
في ايران والعراق وتركيا .

ليس للأكراد أصدقاء ، هو مثل أستشهد به أحيانا كثيرة
للزوار الذين كانوا قد وصلوا الى كردستان أثناء المعارك .
ولكن موقفا جديدا قد نشأ في كردستان في الوقت الراهن ، بعد
درس سنة ١٩٧٤ وهو : أن الأكراد لا يحتاجون الى أصدقاء . فهم
بقدرتهم على البقاء والاستمرار قد تفوقوا على اليونانيين
والرومان والمنغوليين والعثمانيين والآن على الأمريكيين ، لذلك
ربما يكون موقفهم صائبا .

كاليفورنيا ، أيلول ١٩٧٩



بَعْضُ مَاقِيلٍ فِي الْكِتَابِ

"ان ابناء الجن ، هو مقدمة ضرورية جدا عن شعب شجاع وجدير
بالاهتمام "

- وليم سيفر

لا أظن ان احدا قد مسح " أفرغ في قالب مسرحي " فجوة
الجهل والتشوش وسوء الفهم بين شعوب من الغرب ، حيث المجتمعات
الصناعية ، وشعوب من المجتمعات الاسلامية على نحو افضل من هذا .
فالمرء هنا لا يرى الاكراد فحسب ، بل ايضا امبراطورية ايران
الشاه المقسمة المتداعية للسقوط ، تنجح السيدة كان ، في الاحتفاظ
بعنفوان وتوهج دهشتها الأصلية بهؤلاء الناس وبذلك المناطق
الطبيعية على نحو لم يمسهم أي تغيير في كتاب مفعم باهتياج
الثورة والحرب الاهلية كتاب مُتَعَبٌ ظسة وخفية نشاطات السافاك
والمخابرات المركزية الامريكية ، انها قصة تتوزع بين الرومانسية
والرعب ، قصة تزيد من معرفتنا وتنورنا اكثر ، وهي مقروعة
والاقبال عليها شديد .

- جوناثان رابان

مؤلف : رحلة في المتاهة

الفهرس

٧	استهلال
٩	مقدمة المؤلف
الجزء الأول - خارج كردستان	
١٧	الفصل الأول
٣٦	الفصل الثاني
٥٥	الفصل الثالث
٧١	الفصل الرابع
٩٨	الفصل الخامس
١٢٢	الفصل السادس
الجزء الثاني - على تخوم كردستان	
١٥٥	الفصل السابع
١٧٤	الفصل الثامن
١٩٦	الفصل التاسع
٢٢٢	الفصل العاشر
٢٤٠	الفصل الحادي عشر
٢٦٧	الفصل الثاني عشر
٢٨٢	الفصل الثالث عشر
الجزء الثالث - داخل كردستان	
٣٠١	الفصل الرابع عشر
٣٢١	الفصل الخامس عشر
٣٣٩	الفصل السادس عشر
٣٧٦	الفصل السابع عشر
٤٠٧	الفصل الثامن عشر
٤٣٣	كلمة أخيرة
٤٣٩	بعض مما قيل في الكتاب
٤٤٠	الفهرس

لقد كانت الجبال للأكراد، كالصحارى للمرب تماماً. فهي مأواهم
ومعاشهم في السلم، وهي ملجؤهم في الحرب إذا مالت عليهم الحرب
يها يحنون وفي شعابها يختفون. وكثيراً ما تحدث الرواة في كتب التاريخ عن
الغزوات التي كانت تحتاج كردستان قديماً فيروون أن الأكراد كانوا يكمنون
في بطون جبالهم، يترصدون غزائهم، حتى إذا صاروا في المرامي فاجؤوهم
كالجن من شقوق الجبال، وانقضوا عليهم خفافاً.
لعل اختفاء الجن عن أنظار الناس، وعزلة الأكراد الطويلة في جبالهم،
واختفاءهم في بطونها عن أنظار مهاجميهم، لعل هذا القاسم المشترك بين
الجن والأكراد هو الذي شد الأكراد إلى الجن. شدهم إلى حد الالتصاق
بل إلى حد الانسحاب.
ولعل هذا القاسم المشترك، إضافة إلى بعض الصفات السلوكية
والخلفية مجتمعة، هي التي دفعت الرواة آنذاك أن يتوهوا في الأكراد ما
توهوا، وأن يسجوا حول أصلهم الخرافات والأساطير، فيعتقدون أنهم
من الجن أو فيهم بعض ما في الجن وإلا فمن أين للأكراد أن يكونوا «أبناء
الجن»؟ ومن أين انتقلت إليهم مورثات الحسناوات الأوربيات اللاتي
اختسارهن جان سليمان - كما تعقب الباحثة على الأسطورة، عاقلة وجوه
الشبه بين ملامح النساء الكرديات والأوربيات؟

دحام عبد الستار

